سِيَرُ الشّهداءِ القادة فَي حركة حماس

مواقف ودروس



21 شهيداً





سِيَرُ الشّهداءِ القادة في حركة حماس

مواقف ودروس

سلسلة كتب الراية
الطبعة الثانية 2017م - 1438هـ

كتاب:

سِيَرُ الشّهداءِ القادة في حركة حماس

قياس الصفحة: 17-24

رقم الايداع: 2008/11906

الترقيم الدولي: 7- 210 - 367 -977

مركز الاعلام العربي بالتعاون مع الراية للبحوث والدراسات

ص. ب.: 93 الهرم - الجيزة - مصر

البريد الالكتروني:

elraya1tr@gmail.com

جمع وإعداد وصياغة

د. سلمى الناصر - د. خالد عبد الرحمن

رسم الشهداء

لمى بعيون

التصميم والإخراج الفنّي

آية قبلاوي





﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران:169]

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما خَالَطَ قلبَ امرئٍ مسلمٍ رَهَجٌ في سبيلِ اللهِ،

إلَّا حَرَّمَ اللهُ عليهِ النارَ» رواه الإمام أحمد

جمـــالُ ذي الأرض كـانُوا في الحيـــاةِ

وهمْ بعدَ المماتِ جمالُ الكُتُبِ والسيرِ

فهرس الكتاب

المقدمة

الحمد لله، أجزل المثوبة للمجاهدين واصطفاهم من بين خَلقه؛ ليكونوا على الخير أدلاء، بهم يُعرف الحق، فقد صَدقوا الله فصدقهم، وشهدوا شهادة حق أن دين الله تعالى أغلى وأثمن من دمائهم؛ لذا سماهم الله بالشهداء، و أسكنهم في جواره، وآنسهم بقربه!، فطوبى لهم، وأصلي وأسلم على إمام المجاهدين وقائد الغر المحجلين سيدي رسول الله ﷺ.

أما بعد: فالجهاد ماض إلى يوم القيامة لا يرده جور جائر ولا عدل عادل، هو جماع الخير، ومَلاكُ الأمر، وفوزٌ في الدَّارين، وهو ذروة سنام الإسلام ، وناشر لوائه، وحامي حماه، ولا قيام لهذا الدين في الأرض إلا به، وفضل الله القائمين به درجات على المتقاعسين عنه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة:20].

والشهادة ثمرة من ثمرات الجهاد، ولا يشك المؤمن أن الشهادة فى سبيل الله تحت راية الاسلام، وابتغاء مرضاة الله، تعالى هي من أفضل الأعمال وأعظمها عند الله تعالى، والفخر كل الفخر لمن يرتقي شهيداً فى ميدان الجهاد مبتغيا رحمة الله ومرضاته وجنته.

قال ابن النحاس: «اعلم أن الشهادة رتبة عظيمة ومنزلة جسيمة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ولا ينالها إلا من سبق له القدر بالفوز المقيم، وهي الرتبة الثالثة من مقام النبوة[1]، كما قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:69].

1- مجلة البحوث الاسلامية، السعودية، (الجزء رقم:41، الصفحة رقم:287)

و«ها هي» فلسطين أرض الإسراء والمعراج تجدد العهد مع الله تعالى لإمضاء فريضة الجهاد والتضحية، لتزهو اليوم بكوكبة، بل كواكب ومواكب من الشهداء، الذين تألقوا في سماء التضحية والفداء، فحاولنا أن نقترب من مقامهم الرفيع، ونرتشف من معينهم، لنستلهم من سيرتهم الدروس والعبر، ونستجلي قيمهم الأصيلة التي تعبر عن طيب معدنهم، وحسن منبتهم. لقد أناروا بدمهم الدرب للسائرين على خطى الجهاد والمجاهدين، ولم لا؟ وقد رفع الله منزلتهم، وجعلهم قادة للبشر ومعلميهم، فقد كان العلماء إذا استشكل عليهم أمرٌ، أو غاب عنهم الصواب أحالوا المسألة إلى المجاهدين المرابطين على الثغور؛ لأن الله يفتح عليهم ما لا يفتح على غيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:69]

وشهداء فلسطين هم رمز التضحية والفداء، فكيف لنا أن لا نخصص شيئاً لهؤلاء العظماء، وهم رواد هذا الدرب وحاملو مشاعل الجهاد؟! ولما كان هؤلاء الرواد قليلا عددهم، محصورة وسائلهم التي يبلغون بها ما عندهم لغيرهم؛ وجب على غيرهم ممن ضعفت همته وكلّت عزيمته، فلم يلحق بهم ركابه، أن يسهم معهم بنقل ما تصوروا، وما به بشروا وأنذروا، حتى يمهد لجهادهم السبيل، ويقيم على العالَم الحجة والدليل، ولا يثبطه قِصَرُ الباع وقلة العلم والاطلاع، وتكون قدوتهم من دعا إلى الله وحرض على الجهاد في سبيل الله، ومن تشبه بقوم فهو منهم وإن بعدت المسافة بينه وبينهم.

إنّ هذا الكتاب التربوي الأدبي والروحي يروي سير القادة الشهداء على أرض فلسطين، وهو ليس كتاباً تاريخياً لسرد حياة الشهداء بكل تفاصيلها ودقائقها وإنما هو انتقاء لمراحل ومواقف من حياتهم، وتسليط الضوء عليها بناءً على قيم الدين الاسلامي العظيم التى تحققت فى حياتهم، وكانوا نماذجَ لها تسير على الأرض وبين الناس. وقد تم انتقاء بعض القادة الشهداء، وكل الشهداء خير منا وأكرم عند الله لما قدموه

من تضحيات فى سبيل الله، وقد كان معيار الاختيار قائماً على تحقيق الشخصية لهدف من أهداف القيم الاسلامية فى حياته، والتي عاش من أجلها وقابل الله عليها، إضافة إلى معايير أخرى منها:

1- أن يكون قد مارس عملاً قياديًا في أحد مجـــالات العمل الوطني الفلسطيني وبرز به.

2- أن تكون حياته وشهادته قد تركت أثراً بارزاً فى تاريخ الشعب الفلسطيني.

3- أن يكون من الرجال، حيث تم إفراد كتاب خاص يبرز تضحيات المرأة الفلسطينية وجهادها، وسيرى النور قريباً إن شاء الله.

وعند ترتيب شخصيات الكتاب، رأينا أنه من الأمانة والوفاء أن نبدأ بشيخ فلسطين، وقائد المجاهدين الشيخ أحمد ياسين؛ لأن من تقدمه من الشهداء ما كانوا إلا حسنة من حسناته، فكانوا ثمرة غرسه، ثم يكون من بعده وزيره ورفيق دربه، وأمين سره أسد فلسطين د.عبد العزيز الرنتيسي. أما بقية الشهداء فكان ترتيبهم حسب ارتقائهم إلى ربهم، فكان تاريخ الاستشهاد هو الذي يقدم أو يؤخر ذكر الشهيد في الكتاب.

ومن الحب والامانة لشهدائنا أن ننشر أفكارهم وخصالهم ومكارم اخلاقهم، والأمة التي تنسى عظماءها لا تستحقهم. فعلينا أن نستذكر كل شهيد في هذا الوطن كذكرى نسائم جميلة عطرت ايامنا، وأن لا ننسى بأن المجرمين والمحتلين الذين قتلوهم لم يكن هدفهم سوى أن يمحوا أثرهم من هذه الدنيا، وبسكوتنا نحن سنحقق أهدافهم، ولكنّنا سنبقى دائماً أوفياً لهؤلاء الشهداء الأبطال وعلى العهد، وفي نفس الطريق التى نالوا بها الشهادة نسير.

القارئ الكريم:

ادعوك لتفتح معنا كنوز شهدائنا وسيرتهم العطرة، وتجعل هدفك الاقتداء بهم والسير على خطاهم، فكل واحد منهم رسم بدمه صفحة، بل صفحات مشرقة في سجل جهاد أمتنا العظيمة، فقد تضوعوا نقاءً وصفاءً وعزةً وإباءً وعقيدةً وإيمانًا، وشموخًا، بل شموسًا، يستنير بهم كل باحث عن الحق والحقيقة؛ لأنهم القيمة والقامة، والهمّة والهامة.

وَخُذْ قَبَسًا مَنْ نُورِهِمْ ثُمَّ سِرْ بِهِ　　　فَنُورُهُمْ يَهْدِيكَ لَيْسَ الْمَشَاعِلا

لجنة البحوث والدراسات
مؤسسة الراية



سيرة الشيخ الشهيد القائد
أحمد ياسين

1936م - 2004م



لا يعرف اليأس طريقاً إلى قلبي، وأملي أن يرضى اللّه عني، ورضى اللّه بطاعته، وطاعته هي الجهاد.





اعتاد التاريخ أن يمنح أوسمة عالية ترتبط بأسماء أصحابها، كأنها لآلئ في عقد حبكته أفعالهم وسيرهم، فلا ينمحي الاسم حتى تنمحي ذاكرة الكون من الوجود، تكتب الأوسمة فيظل الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة، والغزالي حجة الإسلام، وابن تيمية شيخ الإسلام، في متوالية لا ينفصل فيها اللقب عن صاحبه، فقد دفع ثمنه حياة كاملة! وفي توافق قدري عجيب، تنطق ألسنة البشرية بوسام لم يتقلده سوى الشيخ أحمد ياسين ألا وهو «قعيد ذو همَّة أحيا أمة»، كأن الناس تُلهمهم الكلمات في وصف أسطورة شاءها الله حجته على الأرض، ليبقى أحمد ياسين من بعدها شاهقًا من العلو في عجزه!.. وقامة متجذرة كزيتونة عتيقة استقرت في تراب فلسطين وتاريخها فلا زوال لها، يبدون كأنهم عصا موسى التي فلقت الطريق يبسًا لأمة غارقة في التيه، يفيضون بالحياة كأنهم يد عيسى إذ تشفي العميان من العتمة، وتعيد إحياء الموتى، وتصبح كلماتهم كأنها من صوت السماء فلا تموت، بل تبقى حية مباركة تفور بأسرار لا سبب لها ولا تفسير.

لقد كان أحمد ياسين كذلك، كان إحدى دلائل الله على قدرته، فقد جعل الله من ضعفه قوة، ومن



موت جسده حياة الأمة بأكملها. لقد كان عجزه كنزه المخبوء تحت ظلال القدر.

ويشاء الله أن يجعل منه أيقونة خالدة تشابه حكايات الصالحين يوم دبر لهم تدبيرًا، فجعل من أسباب موتهم أسباب الانتصار، وكتب من ضعف أسبابهم حكايات الإصلاح ومشاهد معركة التغيير.

ترى كيف جَعَلَنا أحمدُ ياسين نهرول وراءه وهو القعيد المشلول؟!

كيف استوطن فينا، ورحل إلى كل عواصمنا وهو العاجز المحبوس في كرسيه البسيط؟!

وكيف غير ياسين فلسفة القيود؟!. كيف كتبها بلغة جديدة وجعلنا نتحسس سلاسلنا وننتبه لحجم الأغلال التي في أعناقنا؟!

هل كان أحمد ياسين بصيرة مهداة أم سراج الرؤية، أم هو كلمة القدر التي تقول للحقائق أعلني عن طريق القرب إلى الله كيف يكون؟!

ولعلنا في السطور التالية نحاول تقديم صورة تقربنا من أخلاقه وعطائه وفضله، فكانت سيرته حكاية عزٍّ وفخار لكل فلسطين.

أولاً: زمن الاستهلال

تستهل الأقدار الإلهية أول كلمة في سطر الحكاية بحدث تكتنفه بعض الرؤى أو بعض الرسائل التي تحمل إشارة إلى أن ثمة قادمًا ستهتز له غصون الحياة. فوالدته «رحمها الله» تروي أنها رأت في المنام هاتفا يقول لها: أنت حامل فإذا وضعت مولودك فسميه أحمد، وتكرر هذا الهاتف عليها عدة مرات، وقد كان ذلك، وسمي المولود الذكر «أحمد» وظلّ محمودًا في حياته ومماته وفي ذكراه!

ولد أحمد إسماعيل ياسين عام 1936م في قرية الجورة، قضاء المجدل شمال قطاع غزة، ولجأ مع أسرته إلى قطاع غزة بعد حرب عام 1948م، وخلال ذلك توفي والده وهو بعمر خمس سنوات فتولت والدته تربيته، وعانت أسرة الشيخ الشهيد كثيرًا شأنها شأن معظم المهاجرين آنذاك، وذاقت مرارة الفقر والجوع والحرمان.

كان ذلك حدثا تتذوق مرارته أعمار الشباب، ويغوص في ذاكرة الأمة. ينسل شعب بأكمله من أرضه كما تنسل خيوط الصوف من نسيج امتزجت به. مع كل خروج تتقطع الروح مرات، وتزفر الطبيعة قهرًا؛ إذ يرى الفلسطيني ذكرياته تستباح للوجوه الغريبة! يرى الوجوه القادمة من المنافي تحتسي روحه في أقداح الظلم، وتدق المسامير في أبواب بيته وتعلن التهجير شرعًا جديدًا.

ما أقسى أن تهاجر من أرضك وتبحث عن الخبز؛

لأن التنور سرق بقانون من شريعة الغاب.

ما أقسى أن تصبح أجيرا على وريقات؛

كي تستر ما تصدع من جدران بيتك.

وما أشد بساطة من يظن أن القهر لا يتسرب فينا،

ثم لا تختزنه الروح في خلايا النفس قبل أن يصبح طوفاناً!!
كانت الأيام عذبة على بساطة فيها
قبل أن تطل الغربان وتقبض على القمح وتنثره للفناء!
ولقد كان جيل أحمد ياسين ذلك الطوفان الذي تجمعت قطراته في مرارة الاغتراب.

ثانياً: تدابير السماء

في حياة المؤمن تبدو تدابير السماء مثل طريق خبيء. راسٍ في عمقه تحت قدميه. صامت لا يبصره المؤمن، لكن اللّه في تقديره يبصر كل خطوة فيه إلى أين تمضي؟ وإلى أين تؤول؟ ولقد شاء اللّه لهذه القامة الياسينية أن تكون قامة في الروح والعقل وسنديانة ليس لها مثيل؛ لذا كتبته الأقدار قصيدة خالدة. وأراد اللّه فيه أن يكون ترتيلة التغيير، وقمح فلسطين، فقدر له ما قدر، وكما قال أديب العربية الرافعي: «إن من الناس من يختارهم اللّه فيكونون قمح هذه الإنسانية؛ ينبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاءَ الإنسانية في بعض فضائله!».

ففي حادثة قدرية يرتب اللّه لما بعدها يتعرض الشاب أحمد ياسين لحادث يوم كان عمره ستة عشر عامًا، وذلك أثناء ممارسته للرياضة، مما نتج عنه شلل جزئي في معظم أطرافه، ليتدرج بعد سنوات قليلة ليصبح شللاً تامًا استمر حتى وفاته، وكان هذا الشلل هو ميدان البطولة الحقيقية التي تفوق فيها أحمد ياسين.

قدَّر اللّه له أن ينزاح عن ميادين الرياضة التي يتنافس فيها عامة الناس، وقذفت به الأقدار الإلهية في ميدان لم يُسبق له ولم يُسبَق فيه! كان اللّه بحكمته يهيئه

لبطولة نادرة ومقام فريد ومنصة شرف لا تبلغها كل سباقات العالم، ولسان حاله يقول: «لن يسبقني إلى الله أحد»، ولقد كان الشلل هو معراج أحمد ياسين الذي بلغ به علو منزلته بين الخلق والذين هم لسان الحق، ليبلغ بهذه المنزلة إن شاء الله إلى مصاف صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في جنة قطوفها دانية لمن تناهوا إلى هذا الشرف العظيم.

وصدق المفكر الإسلامي محمد الغزالي «رحمه الله» يوم قال: «ربَّ ضارة نافعة، صحت الأجسام بالعلل. ربَّ محنة فى طيّها منحه!».

ثالثًا: التعليم مكون أساسي في العقلية الفلسطينية

التحق أحمد ياسين -مثل بقية أبناء شعبه- بالمدارس المتاحة في وقته، وهي مدرسة «الجورة الابتدائية» وواصل الدراسة بها حتى الصف الخامس، وكان من المتفوقين دراسيًا حيث كان ترتيبه بحد أقصى الخامس.

وترك أحمد ياسين الدراسة لمدة عام (1949م - 1950م)؛ ليعين أسرته المكونة من سبعة أفراد عن طريق العمل في أحد مطاعم غزة، ثم عاود الدراسة مرة أخرى حيث التحق بمدرسة الشافعي، وأكمل المرحلة الإعدادية عام 1955م، وهذا يدل على حساسية قضية التعليم في العقل الفلسطيني.

أنهى الشيخ الشهيد أحمد ياسين دراسته الثانوية بمدرسة الكرمل للعام الدراسي 1958م، ونجح في الحصول على فرصة عمل رغم اعتراض لجنة المقابلات بسبب حالته الصحية، فقد كانت نتيجة المقابلة «أعرج لا يصلح للتدريس»، وعند اعتماد النتائج من قِبل الحاكم الإداري المصري لقطاع غزة، واطلاعه على ملف أحمد ياسين تأثر من تلك العبارة - لأن له ولدًا أعرج - فقال: أعرج يعني يموت من الجوع؟؟! فأشار على الملف يتم تعيينه فورًا! فإرادة الله فوق كل إرادة، ومن

توكل على الله فهو حسبه، وقد كان معظم دخله من مهنة التدريس يذهب لمساعدة أسرته بسبب الظروف الاستثنائية التي كان يمر بها غالب المهجرين من الشعب الفلسطيني.

ومع صعوبة الأحوال العامة إلا أن شغف التعليم كان يسيطر على روح أحمد ياسين فكان شديد الرغبة في إتمام دراسته الجامعية، فالتحق بجامعة عين شمس في مصر واختار تخصص اللغة الإنجليزية، غير أنه اعتقل على يد السلطات المصرية في المرة الأولى في ديسمبر 1965م بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين، وحال ذلك دون إكمال الجامعة وخاصة بعد اعتقاله عند زبانية جمال عبد الناصر.

رابعاً: مقدمات التغيير

يقول المفكر الإسلامي الكبير محمد الغزالي: «من المألوف في تاريخ النهضات أن اليقظة العقلية تسبق دائمًا النشاط السياسي والاجتماعي»، ثم يكمل مؤكدًا هذا المعنى بقوله: «إن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء أجيال فارغة لا تنطلق من مبدأ، ولا تنتهي لغاية، يكفي أن تحركها الغرائز التي تحرك الحيوان مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همّة ولا يتنضّر بها جبين. وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف الهابط».

ولقد فطن أحمد ياسين في مقتبل عمره إلى خطورة تكوين الشباب وصناعة التحصين الثقافي وبناء لبنات التغيير، وسعى في ذلك سعيًا عجيبًا يدل على رؤية مبكرة للحل، فقد عمل الشيخ في التعليم، فكان خير معلم للشباب في عصره، حيث كان الإسلام فيه غريبًا ومحاربًا، فاستطاع الشيخ أن يفرض احترامه على الجميع سواء من الإدارة، أو الطلاب، أو حتى أولياء الأمور، حيث عمل على تحويل المدرسة إلى شعلة نشاط؛ إذ أنشأ مكتبة في مسجد المدرسة حيث زودها

بالكتب النافعة والهادفة، وأوكل إدارتها للطلاب حيث غرس فيهم روح القيادة والمبادرة والمسؤولية. كما قام بتشجيع الطلاب على العمل التطوعي والرحلات الهادفة، بل تجاوز الأمر إلى دعوة الطلاب بعد انتهاء اليوم المدرسي إلى المسجد حتى يعطيهم الدروس المجانية من أجل ربطهم بالمسجد.

واجه الشيخ المعلم خصومة كبيرة من الشيوعيين المعارضين لفكره، وخاصة ذهاب أولادهم للمسجد، وقد تقدم بعضهم بالشكوى على الشيخ، فكان مدير المدرسة يردهم عن الشيخ ويشيد به. ووصل الأمر بأحد الشيوعيين أن يقول للمدير: يا عمي قبلنا أن يصلى الولد، ثم قبلنا أن يصلى في المسجد، أما أن يصوم اثنين وخميس فهذا لا نقبل به.



وهكذا بدأ أحمد ياسين يثير ضجة واضحة في صفوف الجهات التغريبية، ويقلب موازين التوجيه الفكري لدى الشباب، ويعيد وضع الطاقات الشبابية على منصة الشهود المبتغاة وعلى ناصية الإصلاح الحقيقي.

يصف الشيخ الفترة التى تلت احتلال الصهاينة لغزة بقوله: في البداية رفضت العودة للعمل كمدرس لكي لا أخدم اليهود، ثم فكَّرت في أني بهذا أخدمهم وأخرب الجيل الجديد، والواجب أن نعلم هذا الجيل ونحافظ عليه ولا نتركه فريسة للجهل.

نسيجٌ فريد

أولاً: الرقي الخلقي

بدا أحمد ياسين مثل عباءة فلسطينية عتيقة تتماوج خطوط الوطن في طياتها... تتسع كلما انضوى طفل تحت دفئها، وتكبر في عيون الباحثين عن رائحة الجذور والذكريات المنسية. كان أحمد ياسين نسيجًا فريدًا في اجتماع كل ألوان الرقي النفسي و العلو الأخلاقي في روحه، ولقد استطاع أن يرتدي عباءة القيادة بتفوقه النفسي وجمال باطنه وسمو صفاته، وصدق الشيخ الغزالي يوم قال: «ربما نام الناس على الحصير فانطبعت عيدانه في جلودهم؛ هل يمنحهم ذلك شبهًا بالرسول ﷺ الذي رمق الدنيا بنظرة غائبة؛ لأن فؤاده حاضر مع ربه، يقظان في حضرته، مستغرق في شهوده؟ إن الرجل لا يكون قائدًا لأنه عثر على بدلة قائد فلبسها!». لا وربِ الكعبة، فللقيادة ضريبة لا يتقنها إلا السائرون على خطى النبوة!... القيادة هي سلوك الروح والعقل، وخطوة الجسد نحو القمم، واجتماع ذلك كان جليًا واضحًا في شخص القائد أحمد ياسين الذي يذكره القائد الرنتيسي بقوله: «ما رأيت أصبر من الشيخ ياسين، لقد كان الشيخ أحمد ياسين رمزًا إسلاميًا كبيرًا في حياته، وقد أصبح باستشهاده معلمًا بارزًا فريدًا في تاريخ هذه الأمة العظيمة، لم يخبرنا التاريخ عن قائدٍ صنع من الضعف قوةً كما فعل هذا العالم المجاهد. هذا القائد الذي لم يؤمن يومًا بالضعف المطلق لأي كائنٍ بشريّ، ولا بالقوة المطلقة لكل من يتصف بأنه مخلوق، لقد صنع الشيخ من ضعف هذا الشعب قوةً لم يعد في مقدور محور الشر الصهيوأمريكي تجاهلها، وبدأ هذا المحور الإرهابي الظالم في الشعور بالقلق الشديد على مستقبل مخطّطاته الشيطانية».

يقابله الصحفي الفلسطيني «ياسر البنا» الذي عمل مديرًا لتحرير صحيفة فلسطين فيصف تلك المقابلة بقوله: «لا يمكنني نسيان ذلك اليوم الذي التقيت فيه الشيخ ياسين للمرة الأولى من أجل إجراء حوار صحفي، استقبلنا الشيخ ياسين -رحمه الله-، ببشاشة وجه، ورحابة صدر، وخفة ظل، رغم مرضه وانشغالاته الكثيرة، كان أكثر ما يشد الانتباه إلى الشيخ هو تدينه الشديد وتقواه؛ حيث كان يقدم الصلاة والعبادة على كل شيء، ولا يقبل أن يشغله عن عبادته أي لقاء صحفي مهما كان مهمًّا».

أما الصحفي معتصم الميناوي فيصف مقابلته للشيخ القائد بقوله: «لقد كان الشيخ يتمتع بالبساطة الشديدة، لدرجة ينسى خلالها الصحفي أنه أمام أحد أهم الشخصيات الفلسطينية العامة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وهو ما أشعرني أنني أجلس أمام جدي -رحمه الله- أسأله ويجيب، وسط جو دافئ». وكان الناس يتوافدون إلى بيت الشيخ أحمد ياسين المتواضع من كل فجّ؛ من أجل حل مشاكلهم الاجتماعية والأسرية الخاصة، وأحيانًا كثيرة مشاكلهم المادية، فعرفت أن الشيخ لم يكن فقط ذلك السياسي المحنك، ولا الإمام العبقري؛ بل عرفته رجلاً قلّ نظيره من المخلصين الذين تحتاجهم الأمة، فكان بيته مفتوحًا على مصراعيه وكذلك قلبه وعقله ووجدانه، فكان «رحمه الله» يرسم البسمة على شفاه كل أم حزينة، ورجل مكلوم يسأله الحاجة».

ويشير الميناوي إلى أنه ذات يوم عقد معه لقاءً مطولاً، «وعندما أخبرني بتفاصيل حياته وكيف أمضاها في سبيل قضية آمن بها، وكرس حياته كاملة من أجلها غير آبه بشلل جسده، استصغرت نفسي كثيرًا أمام هذا البحر من العطاء والجهاد الذي لا يكل ولا يمل، وهو على كرسي متحرك لا يستطيع أن يُبعِدَ الذبابة عن وجهه، عندها وجدت نفسي بلا وعي أقوم بتقبيل رأسه والدمع

قد أغرق عيني، فتبسم الشيخ ابتسامته العريضة المعهودة، فقلت له بالله عليك يا سيدي أن تدعو لي، فقال: «أسأل الله تعالى أن يثبتك على الحق».

لقد كان الشيخ إنسانًا يعيش مشاعر الناس، ويشاركهم همومهم، وآلامهم، وأفراحهم، وأتراحهم، ويقتسم معهم لقمة العيش، حتى غدا رمزًا للمواطن الفلسطيني، وليس فقط للمقاومة، إن الفلاح والعامل والفقير ورب الأسرة والفتى والفتاة والإنسان البسيط؛ بحاجة إلى من يقف معهم ويستمع إليهم ويشاركهم همومهم ويفتح صدره لهم، ولقد استطاع أحمد ياسين أن يكون أبًا للجميع.

إن القائد الجليل «أحمد ياسين» كان نموذجا بحق للتجرد والإخلاص، وإنكار الذات والتخلي عن شهوات الدنيا، وحظوظ النفس، وبهذا كان القائد الرابح على أي حال وفي أي وضع كان. في سرائه وضرائه، يسره وعسره، غناه وفقره، ليله ونهاره، ولذا كان دومًا منشرح الصدر، ظاهر التفاؤل، لا يدبُّ اليأس أو التشاؤم والقنوط إلى قلبه، فالمؤمن يرى بنور الله، ويسير في هداه.

ثانياً: العقلية القيادية

يقول الشيخ الغزالي: «إن القائد المؤمن يرمق الظلام في جنح الليل بطرف يكاد يخترق سدوله، ويبحث عن ألف حيلة لمقاومة العدو ودحره»، وقد كان هذا دأب القائد أحمد ياسين وديدنه، إذ شهد له عمره بسعي حثيث لتغيير معادلة الواقع وفرض النموذج الصائب عبر عمل منهجي ذكي وبناء مؤسسي للأفكار ورعاية شديدة للطاقات، وكان ذلك كله لاستبدال مشهد الاحتلال بمشهد النصر المأمول.

فلقد شارك القائد أحمد ياسين وهو في العشرين من العمر في المظاهرات التي اندلعت في غزة احتجاجًا على العدوان الثلاثي الذي استهدف مصر عام 1956م،

وأظهر قدرات خطابية وتنظيمية ملموسة، الأمر الذي لفت إليه أنظار المخابرات المصرية العاملة هناك، فعرَّضه ذلك للاعتقال أكثر من مرة عام 1965م إبان الضربة القاسية التي تعرض لها الإخوان في مصر وقطاع غزة، وكان حينها يتوسد حذاءه في السجن إذ كان يوضع في غرفة وحده بلا مساعد رغم حالة الشلل التي كان يعاني منها.



لقد آمن أحمد ياسين بأن «العمل الصعب هو تغيير الشعوب أما تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيًا عندما تريد الشعوب ذلك» ؛ لذا تسنم مركبًا صعبًا واختط خطًا مختلفًا قائمًا على جعل الوعي حالة أصيلة في الشعب، القيادة خبرة موروثة، والمؤسسات محاضن ولادة التغيير، وهذه كلها أفكار متقدمة في الإصلاح المنهجي، إذ أثبت التاريخ أن معركة حطين هي نتاج ظاهرة صلاح الدين الأيوبي،

حيث أسهم حجة الإسلام الغزالي في نشر المدارس وتأسيس معاهد التنوير التي خرَّجت أجيالا كان منها صلاح الدين الأيوبي، إذ يشهد له التاريخ أن (من آثار مدرسة الغزالي ظهور نوع جديد من المدارس والمؤسسات التربويّة الخاصة التي استلهمت روح المنهاج التربويّ الذي بلوره الغزالي. وانقسمت هذه المدارس إلى قسمين: قسم في بغداد، لإعداد النابهين للمشيخات التربويّة، والقيادات السياسيّة والاجتماعيّة، وقسم ركّز على تربيّة الفلاحين والعامّة على أفكار الحركة الإصلاحيّة الجديدة)، وهذه المدارس هي التي أنتجت قيادات شكلت مفاصل مهمة في عملية حسم الصراع الصليبي على بيت المقدس.

قام الشيخ أحمد ياسين بوعي عالٍ في العام 1968م بعد أن اختير لقيادة الحركة في غزة بتنظيم جسم الحركة الإسلامية، ثم بدأ بتأسيس الجمعية الإسلامية عام 1973م، ثم المجمع الإسلامي عام 1976م، ومن ثم بدأ التفكير بالعمل العسكري.

ولاستجلاء بداية العمل المنهجي المؤصل على رؤية تربوية عميقة عند القائد أحمد ياسين، لا بد لنا من استطلاع العمل منذ بدايته وقراءة الكلمات في أول سطورها، كي نفهم العقلية القيادية التي كان يتمتع بها الشيخ مبكرًا في عمره.

حين سمع الشيخ الشاب أحمد ياسين بدعوة الإخوان المسلمين عكف على قراءة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا -رحمه الله-، مما جعله يتأثر بأفكاره وأفكار من تلاه من مفكري الجماعة وكتّابها وأدبائها ودعاتها، ولقد عرف الكثير عن جهاد رجالها في فلسطين ومن مصر وسوريا والأردن وسواها من الأقطار، أثناء دراسته في الأزهر بالقاهرة التي شهدت مولد جماعة الإخوان المسلمين.

أدت القراءة الطويلة والمعاشرة لشباب الحركة بأحمد ياسين إلى الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين؛ ليصبح فيما بعد من أنشط دعاتها الشباب في قطاع

غزة، وكان ذلك في بداية الستينيات، والشيخ شاب في بداية العقد الثالث من عمره، في وقت كان التدين غريبًا على المجتمع الفلسطيني، وكانت المساجد مهجورة من الشباب، ولا يؤمّها إلا العجائز، وقد كان ذلك كله نتيجة للفكر القومي العلماني الذي ساد تلك الحقبة من الزمان، والذي قاده وبشّر به دعاة القومية العربية، والأحزاب الاشتراكية والشيوعية، ونتيجة للمدّ الناصري المعادي للإسلام ودعاته، وجاءت حركة فتح لتكون ثالثة الأثافي في العلمانية المناهضة للفكر الديني.

في هذه الأجواء المحمومة المعادية للإسلام ودعاته، برز الشاب أحمد ياسين ليسبح عكس التيار، وليبدأ من المدرسة والمسجد والنادي معًا. ولقد وجد ضالته ابتداءً في التدريس الذي أحبّه كثيرًا، لأنه هيّأ له الجوّ المناسب لبث آرائه وأفكاره لطلابه الذين سيكونون أعمدة العمل في المستقبل.

كما عمل في تلك الفترة خطيبًا ومدرسًا في مساجد غزة، وأصبح في ظل الاحتلال أشهر خطيب عرفه قطاع غزة لقوة حجته وجسارته في الحق.

ومن كلماته التي صدح بها على المنابر قوله «يا أيها الشباب. أنتم القوة وأنتم المستقبل وأنتم حياة الأمة. بالجهاد عِزنا، وبالقتال عِزنا، وبالاستشهاد عزنا، أما الاستسلام فهو طريق الذل والهوان، هو طريق الخزي والعار. النصر قادم والتحرير قادم. المهم أن نجعل مع دعائنا شيئًا من العمل لدعم شعب فلسطين»

لقد كان أحمد ياسين يدرك «أن الحق إذا استنفد ما لدى الإنسان من طاقة مختزنة لم يجد الباطل بقية يستمد منها». وأن «آفات الفراغ في أحضان البطالة تولد آلاف الرذائل، وتختمر فيها جراثيم التلاشي والفناء».

لذا تحرك بكل طاقته وإمكانياته، فكان يعمل ليل نهار على دعوة الشباب الفلسطيني إلى الإسلام، ويحبّب إليهم الإيمان، ويغرس في عقولهم وقلوبهم قيم هذا الدين، ويعلمهم أمور دينهم.

كان الشيخ ياسين يطوف المدن والقرى الفلسطينية رغم شلله، ومن أحد القصص التاريخية أنه خرج يومًا مع الشهيد الدكتور نزار ريان إلى بعض قرى الضفة الغربية أثناء تطوافه للدعوة إلى الله، ولم يكن للشيخ عَرَبة (كرسي للمقعدين) كما أصبح له لاحقًا، وكان يحمله على يديه حملاً.

فبينما كان يمشي في بعض طرق تلك البلدة، والشيخ على يديه، فإذ بأحدهم يضع في يد الشيخ عملة قليلة القيمة، إذ كان يظنّ أنهما يتسوّلان.

فغضب الشهيد نزار غضبًا شديدًا، وهمَّ بالرّجل، فحال الشيخ بينه وبين اللحاق به، وقال: يا نزار الرّجل أحسن فيما يظنّ، فلا تقابل إحسانه بالإساءة، واحتفظ بما جاد به للدعوة!

لقد كان أحمد ياسين مسكونًا بهمٍّ واحد، وكان يكرر هذا الهمّ في مقولته العميقة «نحن واليهود في صراع على هذا الجيل، فإما أن يأخذه اليهود منا، أو ننقذه من أيدي اليهود»!

لذا تحرك ولم يتوقف مطلقًا، وكان مثل شلال من الضوء يغمر الشباب والناس بالنور والبصيرة ويوقفهم على بداية المسير. كان طاقة من الخير هائلة تفوقت على قيودها وانتثرت مثل زهر النوار على كل روابي فلسطين، لقد امتلك القائد الياسين بحق همَّة عالية، وعزيمة شامخة، لا تهن عند الأزمات، ولا تشيخ مع مرور الزمن.

ولقد واجه الشيخ الشاب بسبب الاستراتيجية التربوية التي تبناها ألوانًا من الاتهامات بالعمالة والرجعية والخيانة، لكنه ظل ماضيًا في طريقه الذي رسمه لنفسه ولمن معه من الشباب يعدّهم إيمانيًا، ويرفع معنوياتهم، حتى إذا ما رأى فيهم القاعدة الصلبة التي يمكنه الاعتماد عليها، بادر إلى تنظيمهم سرًا، وأبدى موهبة فذة في الإعداد والتنظيم الذي كان عام 1982م، ولكن هذا التنظيم الذي كانت ترصده عيون العملاء والخصوم معًا، ما لبث أن انكشف.

ثالثاً: الفقه المؤسسي

كانت تلك قفزة عقلية عالية تسجل للقائد أحمد ياسين ألا وهي اعتماد العمل المؤسسي في برامج الإصلاح المنهجية الطويلة، يشابه في ذلك تلك المرحلة التي سبقت معركة حطين من تاريخ أمتنا، والتي توجهت فيها الطاقات العلمية والعقلية إلى إنشاء دور البناء الحقيقية للإنسان عبر مؤسسات التعليم، ودور الحديث، و تفعيل المساجد، فقد بلغ هذا الاهتمام بالتعليم أوجَهُ زمن نور الدين. يقول أبو شامة: «إنّ نور الدين أوجز هذه السياسة التعليميّة» بقوله: «ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم وإظهار الدين» وقد شملت الصفة الجماعية جميع أوجه النشاط التعليمي.

ولعل استطلاعاً أولياً لجهود القائد الألمعي أحمد ياسين، تكشف لنا عن تتبع موفق لسنن التاريخ، وبصيرة متقدمة في فهم أسباب الحل وطرق العلاج، فقد قام هذا الشهيد العظيم بإمداد مستقبل فلسطين ومعركة الفتح الآتية بإذن الله بكل مقدماتها وصنع كل عتباتها، وأسس لها تأسيساً عبر الكثير من المؤسسات التي عمل على إنشائها ولقد جاهد في ذلك جهادًا كبيرًا.

ويمكن أن يوصف جهد الشيخ الاستراتيجي بأنه حسن التعامل مع الوسائل، والواقعية والتدرج في تحقيق الأهداف، وسرعة الحركة عند مواجهة الأزمات، مع قدرة فائقة في الالتفاف عليها وإخضاعها لتحقيق الغايات، لتكون قوة دافعة لا عقبة مانعة.

فمنذ أصبح عام 1968م على رأس حركة الإخوان المسلمين في قطاع غزة نحَا نحو التجديد وضخ دماء شابة في الحركة، حيث استبدل مجالس النقباء بقيادات شابةَ ذات دافعية كبيرة للعمل الإسلامي، أما القدامى فوجههم للجان الإصلاح والزكاة وغيرها مما يناسب سنهم وخبرتهم وعلاقاتهم الاجتماعية.

من أبرز إنجازات الشيخ -رحمه الله-

- المشاركة في تأسيس جمعية المجمع الإسلامي عام 1973م بغزة بهدف إنشاء نادٍ إسلامي ثقافي اجتماعي رياضي.
- المشاركة في تأسيس الجمعية الإسلامية عام 1976م بغزة بهدف نشر الثقافة الإسلامية في المجتمع الفلسطيني بكافة الوسائل المتاحة.
- المشاركة في تأسيس الجامعة الإسلامية عام 1978م بهدف تعزيز الانضباط الإسلامي بين طلبة الجامعة، وشارك بقوة في الحفاظ على هويتها الإسلامية بعد ما تعرضت لمحاولة تغييرها من قبل المنظمات الشيوعية والعلمانية.
- قام مع مجموعة من رفاقه بجمع وشراء السلاح وتخزينه من أجل تأسيس عمل عسكري مقاوم عام 1983م.
- وجه لتكوين جهاز أمني (مجد) باسم حركة الجهاد والدعوة عام 1986م.
- شارك في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس في 1987/12/10م بهدف دحر اليهود عن أرض فلسطين، فكون مجموعات أمنية وعسكرية أشرف على عملها كانت تعرف باسم المجاهدين الفلسطينيين وسرعان ما تحولت إلى كتائب الشهيد عز الدين القسام.
- اتخذ قرار بدء العمل العسكري عام 1987م.
- قيادة الانتفاضة الفلسطينية والتصعيد، والتي اشتهرت بانتفاضة المساجد 1987م ويصفها الشيخ بقوله: الأحداث دائمًا تحتاج من يقودها ويستثمرها، فالانتفاضة كانت حدثًا عاديًا وانطلقت من جباليا، لكن ولأنه ليس ثمة تنظيم في جباليا فسرعان ما هدأت الأمور، فنقلناها إلى الجامعة، ولما أغلقت إسرائيل الجامعة نقلناها إلى الشوارع، وهكذا نقلنا الحدث العادي إلى انتفاضة كبيرة بتنظيمنا. للشعوب قدرة عظمى لا يفهمها إلا من جربها.

- أسس لجان الإصلاح في قطاع غزة منذ مطلع الثمانينات، بهدف فض النزاعات بين الناس، وتعزيز روح الحبّ والمودة بينهم من أجل الحفاظ على قوة الجبهة الداخلية في مواجهة الاحتلال الصهيوني.
- كلف الشيخ صلاح شحادة بقيادة الجهاز العسكري وإعادة بنائه بشكل أوسع وأقوى عام 2000م.
- أشرف على تأسيس مدارس دار الأرقم عام 2000م بهدف تخريج جيل قرآني فريد من أجل إرجاع مجد الأمة التليد، ليكمل بذلك جميع حلقات تعليم النشء من الحضانة إلى الجامعة.

ولقد صدق المفكر الإسلامي محمد الغزالي بقوله: «ليست قِيمةُ الإنسانِ فيما يَصِلُ إليه مِن حقائقَ، وما يَهتدي إليه مِن أفكارٍ سامية. ولكن أنْ تكونَ الأفكارُ الساميةُ هي نفسُهُ وهي عملُهُ، وهي حياتُهُ الخارجية كما هي حياتُهُ الداخلية». ولقد كان القائد العظيم أحمد ياسين في حياته ترجمة حقيقية لكل المبادئ العليا، ولكل الأهداف الجليلة التي عاش لأجلها المصلحون العظماء.

لقد مَنَّ الله على فلسطين برجل عزَّ له مثيل، وتفضل على أجيالها بقيادة في رقي نجوم السماء، وأكرم مستقبل الفتح القريب -بإذن الله- بجهود قصّرت الطريق وجعلت المستحيل ممكنا.

يقول محمد الغزالي رحمه الله: «نحن خلال تاريخنا الطويل لم نكسب معاركنا الكبرى بكثرة العدد ورجحان السلاح، بل كسبناها بالاستناد إلى الله، وبذل كل ما لدينا من طاقة. وجميع المعارك التي كسبها اليهود في عدوانهم علينا في السنين الأخيرة لم تكن لبسالة المقاتل اليهودي أو لعظمة أسلحته، بل كانت - ونقولها محزونين مكسورين - لتفاهة القيادات العربية وسذاجة الخطط».

إنه من المهم جدًا أن تسجل في ذاكرة الأمة جميعها مواقف هؤلاء الكبار، وتكتب أحداث حياتهم قناديل نور للاهتداء، ويسطر أن الطريق إلى معركة التحرير مرت عبر الكثير من تضحياتهم.

لقد كان أحمد ياسين القائد واحداً في عُصبَة، وعصبة في واحد، الشورى منهجه، والعزم والجد ديدنه، لا يتراجع تراجع الضعفاء والمهزومين، ولا يمضي مضاء المعاند بعد أن يستبين، ولا يتردد تردد الجبناء والموسوسين، شعاره ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159]، ولقد صدق في الشهيد القائد قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم:31]

حيث يصبح العبد هو موطن ثبوت الخير الإلهي. ينمو فيه حتى يفيض وتنتفع به الحياة والأحياء. فهو مبارك أينما حلّ، سواء في قعر البئر كالسرخسي الذي ألف موسوعته الفقهية فيها، أو في سجن كابن تيمية حيث كتب علمه على جدران السجن وقطع الصابون، أو في مقعده مشلولاً كأحمد ياسين. يكفيه أن يكون مباركًا بأمر الله ليظل شجرة خضراء لا تحترق، ونجمة لا تسقط، وغيمة ديمة تمطر الغيث كل حين، فقلة مع البركة الموعودة خير من الوفرة مع الشقوة! وقد كان ياسين مباركا!.

رابعاً: الثقافة الموسوعية

قلما تجد قائدًا مؤثرًا لم يتخرج من مدرسة (اقرأ)، وقد قيل: القادة هم القراء. وحين سئل فولتير:عمن سيقود الجنس البشري؟ فأجاب: الذين يعرفون كيف يقرأون... وكذا لما سئل أرسطو: كيف تحكم على إنسان؟ فأجاب أسأله كم كتاباً يقرأ؟ وماذا يقرأ؟

إن إطلالة هادئة على العالم المعرفي للقائد الفذ أحمد ياسين لتوضح لنا بجلاء علو كعبه في المعرفة، واستبساله في تحصيل العلوم وحرصه على الوعي الواسع، وقد كان ذلك كله دلائل قيادة ناضجة رشحتْ في خطوات عظيمة ظل صداها يتردد حتى يومنا هذا، وفي السطور التالية محاولة لجمع صورة تليق بثقافة الشيخ القائد وتسهم في بيان بعض أسباب تفوقه «عليه سحائب الرحمة والرضوان».

1- الثقافة الإسلامية:

تميز الشيخ بحبه للقراءة والاطلاع على شتى الكتب، وكان يستغل وقته بشكل منظم، واستغل فترة اعتقاله لينهي حفظ القرآن الكريم عام 1990م داخل سجون الاحتلال، واطلع على كثير من كتب التفاسير والعقيدة الإسلامية والأحاديث النبوية والفقه وأصوله بالإضافة إلى العديد من الكتب الدعوية الفكرية والتربوية.

ولقد وصف الشيخ فترة السجن بكلمات جميلة يقول فيها: «رغم مرارة السجن على كافة الأصعدة إلا أنَّ الإنسان المؤمن يجد في السجن متعة كبيرة، فهو يخلو مع الله -سبحانه وتعالى- يناجيه ويتعبده، إنَّ أعلى معنويات حياتي كانت داخل السجن، حيث أكملتُ حفظ القرآن الكريم، واطلعت على كثير من كتب التفسير والحديث والفقه وأصوله، وكنت أقرأ أربعة أجزاء يوميا في صلاة السنن». بل أكثر من هذا حيث عمل الشيخ على طباعة الجزء الثلاثين من تفسير سيد قطب ووزعه مجانا فبدأ إقبال الناس عليه.

2- الثقافة التاريخية:

اهتم الشيخ بقراءة كتب التاريخ من مصادرها الأصلية لما لها من أهمية كبيرة على حاضر الشعوب ومستقبلهم، أهمها كتاب البداية والنهاية لابن كثير وهو

سلسلة من عشرين مجلدًا، كما أنه شدد على ضرورة كتابة التاريخ بموضوعية كي تستفيد الأجيال القادمة منه، فتتأسى بإيجابياته وتتحاشى سلبياته.

3- الثقافة التنظيمية:

والتي برع بسببها في تنظيم تكتلات إسلامية، وتأسيس مؤسسات تربوية إرشادية، وتجهيز مجموعات أمنية وعسكرية لمقاومة الاحتلال الصهيوني، وكيفية التعامل مع المنظمات لتحقيق نجاحات في القضية الفلسطينية، ويصف تنظيم الحركة بقوله: كان عملنا جماعيا شوريا فلم يتأثر بغيابي، بل ظل التنظيم في حالة الإعداد والتدريب كما هو، وكانت اعترافاتي واعتراف من سبقني إلى الاعتقال منسجمة وتدل على أننا مجموعة صغيرة ولا زلنا في البداية، فلم يتوقع الإسرائيليون أن يكون خلفنا تنظيم آخر لم يكتشفوه. وبعد خروجي ظللت سنة في إجازة من التنظيم كي لا يتتبعني اليهود، ولما عدت إليه عدت جنديًا.

4- الثقافة اللغوية:

تَمكنَ من اللغة العربية التي هي أساس الخطابة في الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى-، فعمل مدرسًا لها في مدارس الأونروا فضلاً عن دروس التقوية التي كان يعطيها بالمجان بعد الدوام المدرسي، وعُرف بميوله للغة الإنجليزية التي درسها بجامعة عين شمس بمصر لعامٍ واحد فقط.

5- الثقافة العامة:

وذلك من خلال اطلاعه على كثير من المجالات الاجتماعية والواقعية التي كانت سببًا في صقل شخصيته الإصلاحية بين الناس، التي تميزت بحل أصعب القضايا العالقة بين العائلات والتنظيمات.

خامساً: التفوق الروحي

ثمة خطوة أولى إذا تعلمتها ستنقاد لك باقي الخطوات...!

ثمة ترتيل في قيام طويل يتبعه انحناءات كثيرة. سيجعل العروج الفلكي إلى الله مختزلاً في سويعات! وثمة نوح خفي في مزاميرك الخاصة ستجعل الذرات تنتظم حولك، وربما ستفهم ساعتها معنى التسخير!

ستلتقط حينها معنى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ:10]، ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾.. بعد إذ بلغ مقـــام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ:10].

حكاية أحمد ياسين تعجز اللغة عن وصفها ويعجز المنطق عن ادراكها! لقد كان فيما يبدو للرائي جسدا هامدا ولكنه في عين الحقيقة كان الحياة بكل أسرارها. كان اللغز الذي وضعه الله فينا ليقول لنا: إن طاقة الروح هي التي تصنع الأعاجيب والجسد ثوبها الفقير! كان أحمد ياسين يمتلك روحًا هيأت له عروجًا علويًا وارتقت به مرتقى نراه كأنه كوكبٌ دري. وتلك الروح الخفية هي سر أحمد ياسين!

فلقد كانت له صلة جميلة بربه وكان لا غاية له إلا رضا الله. يحدث عن نفسه في السجن قائلا «وكنت أقرأ أربعة أجزاءٍ في اليوم الواحد فقط في صلاة السنن». وكان ذلك هو وقود الجسد الهامد!

يتعرض الشيخ لتجربة الاعتقال الأولى عام 1965م، فنرى فيه صمودًا لا يطيقه أولو القوة والعزم من الرجال، فقد اعتقل من الأمن المصري مرتين الأولى أثناء دراسته الجامعية، والثانية على إثر مظاهرات في غزة بعد إعدام الشهيد سيد قطب، وكان الشيخ حين اعتقاله لا يستطيع نقل قدميه فجره الجنود المصريون جرًا مما دفع الناس لكيل السباب والشتائم لهم، ولم يتم ترحيله إلى مصر مخافة

أن يموت فتم سجنه في سجن غزة المركزي، حيث كان رهن زنزانة انفرادية في فصل الشتاء حيث كان يضع نعله تحت رأسه لعدم وجود مخدة، بل إن معاناته وصلت بسبب حالته الصحية أنه كان يأخذ ساعة ونصف حتى يفرش البطانية التي ينام عليها. وبعد أكثر من شهر أطلق سراحه.

وفي أول جمعة بعد خروجه من السجن شاهده الناس، فتدافعوا للسلام عليه ثم حملوه للمنبر وطلبوا منه أن يخطب الجمعة فيهم، ففعل وتحدث بكلام أبكى الناس من شدة التأثر، حتى كادت أن تخرج مظاهرة من المسجد، فأثار هذا التصرف الحاكم الإداري المصري وأمر المباحث بالقبض عليه إلا أن مسؤول الجنود قال: والله لو أمرت بفصلي فلن أذهب، أتريدني أن أواجه احتقار الناس وشتائمهم.

اعتقل الصهاينة الشيخ أحمد ياسين عام 1983م بتهمة حيازة أسلحة، وتشكيل تنظيم عسكري، والتحريض على إزالة الدولة العبرية من الوجود، وقد حوكم الشيخ أمام محكمة عسكرية صهيونية أصدرت عليه حكمًا بالسجن لمدة 13 عامًا، ثم أفرج عنه عام 1985م في إطار عملية تبادل للأسرى بين سلطات الاحتلال والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

بعد ذلك بثلاثة أعوام داهمت قوات الاحتلال الصهيوني منزله أواخر شهر أغسطس 1988م، وقامت بتفتيشه وهددته بدفعه في مقعده المتحرك عبر الحدود ونفيه إلى لبنان.

في ليلة 1989/5/18م قامت سلطات الاحتلال باعتقال الشيخ أحمد ياسين مع المئات من أبناء حركة «حماس»، في محاولة لوقف المقاومة المسلحة التي أخذت آنذاك طابع الهجمات بالسلاح الأبيض على جنود الاحتلال ومستوطنيه، واغتيال العملاء.



وفي 16 أكتوبر 1991م أصدرت إحدى المحاكم العسكرية حكمًا بسجنه مدى الحياة، إضافة إلى 15 عامًا أخرى. وجاء في لائحة الاتهام أن هذه التهم بسبب التحريض على اختطاف وقتل جنود إسرائيليين، وتأسيس حركة حماس وجهازيها العسكري والأمني.

وقد عانى الشيخ في سجنه بالإضافة إلى إصابته بالشلل التام، فقد كان يعاني من أمراض عدة منها «فقدان البصر في العين اليمنى بعد ضربه عليها أثناء التحقيق، وضعف شديد في قدرة الإبصار للعين اليسرى، والتهاب مزمن بالأذن، وحساسية في الرئتين، وأمراض والتهابات باطنية ومعوية»، وقد أدى سوء ظروف اعتقال الشيخ أحمد ياسين إلى تدهور حالته الصحية، مما استدعى نقله إلى المستشفى مرات عدة، بسبب اعتقاله وعدم توفر رعاية طبية ملائمة له.

وقد نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية لقاءً مع ضابط الاستخبارات الرئيسي لمصلحة السجون الإسرائيلية سابقا (تسفيكا سيلع)، وهو مستشار نفسي وعميد سابق في الشرطة، وكان بحسب قوله، الوحيد الذي التقى الشيخ الشهيد ضمن لقاءات أسبوعية متتالية طيلة ثلاث سنوات.

فكان مما قاله (سيلع) للصحيفة الإسرائيلية: «إن الشيخ ياسين تمتع بشخصية قوية جدًا، وكان يسيطر على ما يجري داخل السجون وخارجها».

وحول ظروف اعتقاله قال: «لقد احتجزناه داخل سجن هداريم في شروط قاسية جدًا، بل أذقناه الموت وحرمناه الزيارات، وعزلناه طيلة خمس سنوات في قبو بلغت درجة حرارته في الصيف 45 درجة، وبرد مرعب في الشتاء، وامتنعنا عن تنظيف القبو».

وقال (سيلع): «إن الشيخ كان رجلاً حكيمًا ونزيهًا جدًا، وسادت بيننا حرب دماغية، وفي نهاية كل مواجهة بيننا كنا نعرف أن أحدا سيموت إما في الجانب الفلسطيني أو الإسرائيلي».

وكشف الضابط الإسرائيلي النقاب عن أن الشيخ ياسين رفض اقتراحًا إسرائيليا بإطلاق سراحه مقابل الكشف عن جثة الجندي الإسرائيلي إيلان سعدون الذي تم أسره وقتله من قبل عناصر حماس «خلية المبحوح» في قطاع غزة، ولم يعرف مكان جثته. وأضاف: قال لي ذات مرة: أنت تعرف مدى قسوة شروط أسري وشوقي للحرية، ولا يوجد أحد في العالم مطلع على الحقيقة مثلك، وتعرف حجم شوقي لأحفادي ومحبتي لهم، وحلمي بشمّ رائحتهم ولكن الاقتراح بمبادلتي بجثة مهين ومرفوض.

هذا هو النموذج الذي قدمه الشيخ في سجنه، وعندما كانوا يساومونه على الخروج كان يرد عليهم قائلا: «لو اشترطتم عليّ مقابل الإفراج أن آكل البطيخ لرفضت».



ولقد صدق الشيخ الغزالي في وصفه للعظماء حين قال: «إن الينبوع الذي تسيل فيه مخايل الرجولة الناضجة هو الذي تسيل منه معاني اليقين الحي، وإذا وجدت الصبر يساوي البلادة في بعض الناس، فلا تخلط بين تبلد الطباع المريضة وبين تسليم الأقوياء لما نزل بهم، وأول معالم الحرية الكاملة ألاّ يضرع الرجل لحاجة فقدها».

ولقد كان أحمد ياسين منبع الرجولة الكاملة، وصفه ضابط عسكري كان يخدم في سجن كفاريونا والذي كان الشيخ معتقلاً به على أحد البرامج في التلفزيون الصهيوني (رفض ذكر اسمه) حيث قال: «لم أكن ألمس أي تصرف أو قول يدل على أن الشيخ كان ذا عقلية إرهابية أو تفكير عدواني وكنت أشعر بالراحة لمجرد الوقوف بقربه، وأعتقد أنه كان يغمر أتباعه بهذا الإحساس ولذلك أحبوه».

أفرج عن الشيخ بعد ذلك فجر يوم الأربعاء 1997/1/1م بموجب اتفاق جرى التوصل إليه بين الأردن والكيان الصهيوني للإفراج عن الشيخ مقابل تسليم

عميلين صهيونيين اعتقلا في الأردن عقب محاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرض لها الأستاذ المجاهد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس.

خرج بعدها الشيخ المجاهد في جولة علاج إلى الخارج زار خلالها العديد من الدول العربية، واستقبل بحفاوة من قبل زعماء عرب ومسلمين ومن قبل القيادات الشعبية والنقابية، ومن بين الدول التي زارها السعودية وإيران وسوريا والإمارات والسودان والكويت والعراق.

لكأن أحمد ياسين بسعيه وسبقه وعجلته إلى ربه كان يقول: «لقد وعدت الله أن ألاحق الحلم الذي منحني إياه... ألاحقه حتى أستوطن فيه، فكل امرئ علم الله أن فيه قدرة تمكنه من فعل ما، فملكه مفاتيح هذا الفعل، وعليه ألا يدفن أو يهدر المفاتيح!»

قال ابن عطاء الله السكندري: «مِنْ عَلاماتِ النَّجْاحِ في النِّهاياتِ، الرُّجوعُ إلى اللهِ في البِداياتِ، مَنْ أَشْرَقَتْ بِدايَتُهُ أَشْرَقَتْ نِهايَتُهُ».

الشهادة

يؤرقنا الشهداء في فلسطين... نشبههم ولا يشبهوننا.

تتشابه قصاصات أوراق مصاحفهم مع مصاحفنا.

لكن تلاوتهم للآيات ترفعهم إلى عليّين.

يغفون مثلنا، ثم يستيقظون شهداء... في لغتهم نضرة النعيم.

ترى، هل يتذوقون سر الجنة مبكرًا؛ لذا يرحلون؟!

لقد عاش أحمد ياسين حياة تكتب تفاصيلها بمداد من نور،

فحق له أن يكون ختامها ولوج بوابات النور الأزلي.

وانسل خفيفًا كالطيف

توقف عند الباب

وتهدل تعباً كالغصن الملآن

فانخلع القلب من الرهبة والحزن

واستودعني اليقظة وغاب!

ربما كان هذا هو المشهد الأخير في حياة أحمد ياسين، ربما وصفه شاعر في رؤيا مبكرة حدّث بها فؤاده ولم يدر أنه يحكي لنا نهاية الغصن الملآن، الرّوح التي غادرت مثل طيف رفيف بعد أن استودعت البقية اليقظة!

فقبل اغتيال الشيخ بحوالي 36 ساعة فقط، كاد الشيخ أحمد ياسين يسقط من كرسيه المتحرك بعد أن ألم به التهاب رئوي حاد، عادة ما يصيبه، فأسرع مرافقوه وأنجاله الذين كانوا يتحلقون حوله في بيته، في حي الصبرة في جنوب مدينة غزة، وأعادوه إلى مكانه الطبيعي، ومن عوارض الالتهاب الحاد إصابة الشيخ ياسين بضيق تنفس يجعله عاجزًا عن الكلام، وما أثار خوف المرافقين والأنجال أنه كان يُسمع من صدره من على بُعْدٍ صوتُ صفير، فأسرعوا بنقله إلى مشفى «دار الشفاء»، حيث تلقى العلاج، لكنه رفض النوم بداخل المشفى خشية أن يستهدفه العدو الصهيوني داخل المشفى المكتظ بالمرضى الفلسطينيين في جميع الأقسام، مما قد يسبب في وقوع مجزرة صهيونية داخل المشفى.

وعلى الرغم من أنه ظل يعاني، إلا أن مرافقيه أصروا على إخراجه من المشفى والتوجه به إلى المنزل، بعد أن لوحظت تحركات عسكرية نشطة للجيش قبالة الشاطئ فى ذلك اليوم مما يدل على أن هناك حدث ما يجرى الاعداد له.

وقد أكد الذين شاهدوا الشيخ في هذا الوضع أنه كان يوشك على الموت، حيث كان في حالة صحية سيئة جدًا، ولم يستطع النوم للحظة واحدة بسبب المعاناة الناجمة عن ضيق التنفس، وصبيحة يوم الأحد أي قبل أقل من 24 ساعة على

اغتياله، التزم الشيخ المنزل، وظل في حالة صحية بالغة الصعوبة، ولم يستطع تناول الطعام رغم اضطراره لتناول بعض العقاقير المهدئة لنوبات ضيق التنفس التي لم تفارقه طوال الوقت، ولاحظ مرافقو الشيخ طوال نهار يوم الأحد، نشاطًا غير عادي لطائرات الاستطلاع الإسرائيلية بدون طيار فوق حي «الصبرة» الذي يقع في أقصى جنوب المدينة، أي على مقربة من مستوطنة نتساريم التي كانت تشهد تحركات عسكرية مريبة.

فقرر مرافقوه عدم السماح للشيخ بالمبيت في المنزل الذي يقع في أقصى جنوب الحي، وبعد التشاور معه، تقرر أن يتم نقله إلى مأوى آخر بعد أداء صلاة العشاء في مسجد «المجمع الإسلامي»، الذي يبعد بضع مئات من الأمتار عن البيت، وبالفعل نقل الشيخ إلى المسجد حيث أدى صلاة العشاء، لكن بعد ذلك فوجئ المرافقون وأبناؤه بقراره البقاء في المسجد، ولم تفلح محاولات المرافقين والأبناء معه، حيث أكد أنه نوى هذه الليلة الاعتكاف في المسجد، وأنه لن يغادره إلا بعد أن يؤدي صلاة الفجر.

لم يجد المرافقون بدًا سوى الاستجابة لرغبته في حين عاد أبناؤه إلى منزل العائلة، بينما ظل المرافقون يحيطون به، ورغم معاناته الشديدة من ضيق النفس، ظل يتهجد ويسبح طوال الليل، وأكد بعض من كان مع الشيخ أن تحسنًا مفاجئًا طرأ على وضع الشيخ الصحي قبل حلول موعد أذان الفجر، وأخذ يتبادل أطراف الحديث مع مرافقيه، ومع أوائل المصلين الذين بدءوا في الوصول إلى المسجد لأداء الصلاة ليفاجأوا بوجوده قبلهم في المسجد.

أخر المؤذن إقامة الصلاة، بعد أن لاحظ انخراط الشيخ في حديث مع بعض المصلين، وبعد أداء الصلاة انطلق به المرافقون إلى البيت، وبينما كان أحد ابنائه وجيرانه الذين أدوا معه الصلاة يمشون بجواره، إنطلق الصاروخ القاتل تجاههم فأصاب جسد الشيخ بشكل مباشر!! وكان هذا فى يوم 22 مارس 2004م.

مضى بعدها الشيخ إلى ربه. مضى بجسده وروحه وكل أنفاسه المباركة.

مضى....

لكن روحك رفرفت من فوقنا — إنـي لألمـح بـشـرهـا المـعـهـودا
ألقيت عنك سلاح حربك بعدما — أبـقـيـت ذكـرا في البـلاد حميدا
ذكـراك يحـفـظها الزمـان مرددا — شـرف لعمرك أن تمـوت شهيدا!

كان من فضل الله على الشيخ واكراماً له أن يختم له بالشهادة.

صلاة الفجر ملتقى الأبرار، وزاد الأبطال، وسر العظمة والرفعة، وكأن التاريخ يعيد نفسه ليخبر المسلم أن صلاة الفجر هي مصنع الرجال والمجاهدين، وسر من أسرار النصر والتمكين، اسمع للتاريخ يروي لنا كيف مات عمر بن الخطاب وهو يصلي الفجر، وعثمان يموت بعد صلاة الفجر، وعلي بن أبي طالب يقتل وهو خارج لصلاة الفجر، وها هو أحمد الياسين يستشهد بعد صلاة الفجر في ملتقى العظمة وملتقى الرفعة.

إن الخاتمة تكون بحسب العمل، فالذين بذلوا أنفسهم في الجهاد يحقق الله لهم أمنياتهم. والذين تولوا عنه استغنى الله عنهم، فلم يبال بهم في أي أودية الدنيا هلكوا، فهذا يموت على عتبة المسرح، وهذا يموت بالمخدرات، وذاك يموت حتف أنفه، فنحسب الشيخ أحمد ياسين «والله حسيبه ولا نزكي على الله أحدًا»، مات ميتة كان يرجوها -رحمه الله- وتقبله في الصالحين.

ويعرف المؤمنون جميعًا أن من مات في سبيل الله فهو في الحقيقة لم يمت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169] فهم أحياء حياة لا نعلمها ولا ندركها، وأحياء حياة ندركها. أما التي لا ندركها فعلمها عند ربي، وأما التي ندركها، فهو بقاء تاريخها الطويل من الجهاد والخطب والمواقف، يتربى عليها الشباب ويستفيدون منها، تبث فيهم



الحماس وتلهب فيهم الشوق إلى لقاء الله.

إن الشهادة اصطفاء، ومَنْزِلَةٌ لا تنبغي إلا للخُلص من العباد الذين يختارهم الله على علم، ولقد كان أهل الشيخ يتوقعون له وفاة طبيعية بسبب تفاقم المرض والمعاناة عليه في ذلك اليوم!

وإذا كان الرسول ﷺ يقول: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ» رواه مسلم؛ فقد قال الصالحون من هذه الأمة كلمتهم، وشهدوا للشيخ بأنه عاش مجاهدًا، ومات شهيدًا بإذن الله، نحسبه كذلك والله حسيبه!، وقد أدى المسلمون في أنحاء الأرض عليه صلاة الغائب كما في الحرمين الشريفين وغيرهما.



كلمات في سفر الخلود

للشيخ أحمد ياسين كلمات تستحق أن تظل في سجل الخلود ومنها هذه المقولات التي لا بد للجيل أن يطلع عليها:

- نحن طلاب شهادة ما نطلبش الحياة الدنيا، الحياة الأبدية هي التي نطلبها مش حياة الدنيا التافهة، علشان هيك لا نخاف من هذه التهديدات، بل تزيدنا قوة واصرارًا على المشوار الطويل من أجل النصر والتحرير إن شاء الله.
- المقاومة قامت من أجل أن تعطي وتقدّم لا أن تأخذ، المقاومة تزيد المؤمنين صلابة، كالنار عندما يوضع عليها الذهب تزيده لمعانًا.
- هذا هو طريقنا، هذا هو عهدنا مع الله «تعالى»، ثم معكم ومع أمتنا العربية والإسلامية أننا لن نستسلم ولا نسلم ولن نركع إلا لله «سبحانه وتعالى».
- حماس موجودة وباقية، لم تعد تنظيمًا ولا فكرة، حماس حقيقة وواقع وتيار شعبي كبير وضخم، يقود الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية، تيار شعبي له عمقه، حماس تتسع كل يوم، وتؤمن أن مستقبلها هو مستقبل التمكين والنصر بمشيئة الله «تعالى».

- العدو يطالبنا بوقف المقاومة، لكننا نتساءل لماذا لا يطالب العالم بوقف الاحتلال الإسرائيلي؟ ومن الذي يجب أن يتوقف؟ منْ يدافع عن نفسه أم من يحتل الأرض؟».
- العدو الإسرائيلي لا يترك للشعب الفلسطيني خيارات سوى خيار واحد، هو المقاومة والجهاد والاستشهاد».
- «إذا أعطينا الاحتلال وقف إطلاق للنار، فذلك يعني أننا أعطينا الاحتلال شرعية وجوده، وكذلك أمنه وأمانه، لن نعطي هدنة إلا إذا خرج من الأراضي الفلسطينية كلها، وأطلق سراح المعتقلين جميعًا، وأوقف عدوانه».
- «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، هم يريدون منا هدنة طويلة الأمد، ونحن جربنا الهدنة فلم يكن هناك التزام من الطرف الإسرائيلي، فكيف يمكن أن نعطي هدنة جديدة من جانب واحد؟! لذلك فإن الذين يلهثون وراء هدنة جديدة، هم الذين لا يقدرون على فهم أبعاد المعركة».
- «العدو يعتبرنا كلنا إرهابيين ولو قدر سيغتال الشعب الفلسطيني كاملاً فهو يريد أرضا بلا شعب، فلا يهمنا أي تصنيف في التاريخ الإسلامي كانوا يقولون عن الرسول ﷺ انه كاذب وساحر فهل كانت حقًا فيه هذه الصفات؟ لكنه صبر وتحمل وجاهد وفي النهاية انتصر الإسلام».
- «لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن نعترف بإسرائيل وهي تغتصب أرضنا وحقوقنا ووطننا وتاريخنا».
- «سأبقى مجاهدا إن شاء الله حتى يتحرر وطني لأني لا أخشى الموت، انا كرست حياتي للعمل وليس للكتابة».
- «لا أحد منا يسلم نفسه، نقاتل حتى الشهادة».

هذي العزائمُ لا ما تدّعي الخطبُ ... هذي المكارمُ لا ما قالت الكتب
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خطبَتْ ... تعثرت خلفها الأشعار والخُطبُ

تقبل الله الشهداء وجعل سعيهم ودمهم
يقظة لأمة آن آوان قيامتها!



سيرة الدكتور الشهيد القائد
عبد العزيز الرنتيسي
1947م - 2004م



هل نحن خائفون من الموت؟..

إنــه المــوت.. سواء كان بالأباتشي

أو بالسكتة القلبية..

وأنــا أفضــل الأبــاتشي.





في مسيرة التاريخ يولد عظماء هم رواحل التغيير، يذكرهم تاريخ الإنسانية بالكثير من الإجلال والتقدير، فقد كانوا مفاصل في تحويل عجلة الأحداث ورسم الخرائط الجديدة في صراع الحق والباطل، يظهرون في عباءة البشرية، ولكنهم أشبه بيد القدر في صناعة ملحمة الوعي الذي يسبق التغيير، يبقون في صفحة الوجود مثل سطر لا نقطة بعده، سطر مفتوح يحتمل كل التوقعات، سطر يظل يتوالد بقمحهم، ويفور كأنه طاحونة صنعتها السماء، فهي خالدة وخبزها باقٍ ما بقيت السموات والأرض، تستلهم خلودها من بقاء اللّه، إذ انها غرست في الأرض له، وما كان للّه دام واتصل، وما كان لغير اللّه انقطع واضمحل... وعند الشهادة يرتفعون مثل نجوم آن آوان عروجها إلى صفحة السماء، ويظلون هناك هداة لنا يرسلون ضياءهم كلما انتكسنا في الليل البهيم، ويهمسون لنا بعلوهم كي نظل مشرئبين إلى جمالهم على عروش التسامي البعيدة.

ما سر العظماء؟ وما فلسفة الأقدار فيهم؟

هل هم الفضائل في اعتلائها قمة الإنسانية غير أنها تشكلت بصيغة بشرية وصار اسمها فلان وفلان؟! هل هم صوت الصمت يحكي لنا كيف يعمل السمو



خفيًا من كائن بشري ملكًا، ولكنه بسيف وجنان؟!

هل هم حجة الله علينا أن بعض اللحم والدم غادر الطين وارتضى الملأ الأعلى دارًا وأهلا؟!

العظماء هم لغز العقيدة الرّبــانية التي تعيد تشكيلنا، وتبث فينا معاني السماء ثم تسري بنا إلى معارج القبول، العظماء لبوا نداء الله وعلمونا أنه حين يمنحك الله منبراً مساحة من ملكوته. تشبث بها جيِّدا، وازرع فسيلتك ولا تخشَ أصوات الأعداء! أذن في الناس ولا يرهبك خلو الأرض من ساجد، وارفع أعمدة البيت المأمول ولا تتوقف، فهو منْ وعدكَ أن يجعله معموراً بالقائمين الساجدين.

علمونا أن نهزَّ النخلة الضاربة في أعماق المستحيل، وهو من سيسقط الرطب عليك جنيًا.

علمونا ألا نيأس وإن منعوا عنا دلاء زمزم، فهو من أجراها يوم كانت ذات جفاف، وعلمها كيف تفور.

علمونا أن نكون هاجر أو إبراهيم، أو حتى قدم إسماعيل، وعلمونا ألا ندير ظهورنا ونقول: «للبيت ربٌّ يحميه»...! وقد كان كذلك القائد عبد العزيز الرنتيسي الذي أدار صدره للأقصى كان واحداً ممنْ سجل له التاريخ فعله وقوله يوم أعلنها بعظمته العالية... للأقصى رجال تحميه!

أولاً: تاريخ البداية

يولد الناس بأسماء وألقاب تمنحها لهم جذورهم الوراثية ثم يتمايزون باختياراتهم وقراراتهم الذاتية، لكن فارسنا أبى إلا أن يكون ممن يشقون طريقهم بالتضحيات والدم، وقد كانت حياة الشهيد البطل الرنتيسي أصدق نموذج لذلك.

الاسم: عبد العزيز علي عبد الحفيظ الرنتيسي، أما الألقاب فهي أوسمة تطاولت به بعد خطوات كتبت بعصارة السعي في سبيل الله، فكان يلقب بـ «الطبيب الثائر» و «صقر حماس»، و «أسد الأقصى» وحق له ذلك.

وُلِد عبد العزيز الرنتيسي في 23 تشرين الأول - أكتوبر 1947م في قرية يبنا «بين عسقلان ويافا» قبيل تقسيم فلسطين بأقل من أربعين يومًا، لجأت عائلته بعد حرب نكبة فلسطين الكبرى 1948م إلى مناطق قطاع غزة وسكنت مخيم خان يونس للاجئين وسط القطاع، وقد هجرت العائلة بفعل الإرهاب الصهيوني من منظمات الهاغانا العسكرية، وكان عمره يومها ستة شهور.

وقد نشأ الدكتور عبد العزيز الرنتيسي بين تسعة إخوة وأختين، يصف طفولته بقوله: توفي والدي وأنا في نهاية المرحلة الإعدادية، فاضطر أخي الأكبر للسفر إلى السعودية من أجل العمل، وكنت في ذلك الوقت أعد نفسي؛ لدخول المرحلة الثانوية، فاشتريت حذاء من الأحذية المستعملة، «البالة»، فلما أراد أخي السفر كان حافيًا، فقالت لي أمي: «أعط حذاءك لأخيك فأعطيته إياه، وعدت إلى البيت حافيًا ...!، أما بالنسبة لحياتي في المرحلة الثانوية فلا أذكر كيف دبرت نفسي»[1] إن حياة تبدأ بهذه الفصول القاسية من النقص والفقر وشدة الحاجة لكفيلة أن تجعل الإنسان في هم البحث عن الكفاية فقط، ولكن الرافعي أجاد حين كشف لنا عن حكمة الله في الكثير من أحداثنا بقوله: «سبحانك اللهم،

1- http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title

إن هذا الشجر ليتجرد ويذوي، ثم لا يمنع ذلك أن يكون حيًا يتماسك ويشب، وإنه ليخضر ويورق ثم لا يعصمه ذلك أن يعود إلى تجرده ويبسه، فما السعادة أن نجد الزينة الطارئة ولا الشقاء أن نفقدها، وما الشجرة إلا حكمة منك لعبادك تعلمهم أن الحياة والسعادة والقوة ليست على الأرض إلا في شيء واحد هو نضرة القلب»، ولقد شهدت الأيام أن البطل الرنتيسي كان هو نضرة فلسطين وماء نعيمها!

التحق عبد العزيز الرنتيسي في السادسة من عمره بمدرسة ابتدائية تابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في المخيم الذي تقطنه الأسرة، وعمل مبكرًا وهو في مرحلة الصف الأول الابتدائي بسبب وضع الهجرة الفلسطينية البائس وذلك للمساهمة في إعالة أسرته الكبيرة العدد والتي مرّت بظروف مالية صعبة في حينها، ثم أنهى الرنتيسي دراسته الثانوية العامة (التوجيهي) المصرية عام 1965م رغم كل المعوقات المادية والظروف القاهرة، وهذه من البطولة المبكرة.

كان عبد العزيز الرنتيسي في ظروفه تلك من المتفوقين، وهو الأمر الذي أهله للحصول على منحة دراسية في مصر على حساب وكالة غوث اللاجئين (أونروا) حيث درس هناك طب الأطفال في مصر لمدة 9 سنوات وتخرج في كلية الطب بجامعة الإسكندرية عام 1972م، ونال منها لاحقًا درجة الماجستير في طب الأطفال، الأمر الذي مكنه أن يعمل طبيبًا مقيماً في مستشفى ناصر «المركز الطبي الرئيس في خان يونس» عام 1976م[1].

بعد ذلك عمِل الرنتيسي في الجامعة الإسلامية بغزة منذ نشأتها عام 1978م محاضرًا لتدريس المساقات العملية وعلم الوراثة وعلم الطفيليات.

1- http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/b63292d1-b90b-40dd-958d-ebeaec8c10ad

ثانياً: تاريخ التحول الفكري

تعد فترة إعداد الماجستير في مصر هي نقطة التحول الفكري في حياة القائد الرنتيسي، إذ تأثر الشهيد في تلك الفترة باثنين من شيوخ الإخوان المسلمين، وهما الشيخ محمد عيد، والشيخ إبراهيم المحلاوي، وكانا يخطبان في مسجدي السلام وإبراهيم باشا في القاهرة. غير أن الشيخ المحلاوي تحديدًا كان له الأثر الأكبر في شخصية الشهيد وحياته، حيث قال عنه: «ترك في نفسي تأثيرًا هائلاً وقد عزمت أن أقلد أسلوبه الهجومي ولكن في مواجهة الاحتلال»[1].

تعد هذه الكلمات هي البرهان الساطع على أهمية دور المنابر الدعوية وجليل عمل النماذج والقدوات الدعوية في روح الأمة. و القدوة من أقوى الأساليب تأثيرا في تعديل وتغيير سلوك الناس ويستطيع كل إنسان أن يحققها في نفسه، إذا توفَّرت لديه الهمة العالية، والعزيمة الصادقة، والإرادة القوية، كما أنها لا يحدها زمان ولا مكان، فهي تظهر في جميع أفعال الإنسان وأقواله، وحركاته وسكناته، وما أجمل ما نُقل عن إبراهيم بن أدهم عندما قال يوماً لأصحابه: ادعوا الناس وأنتم صامتون قالوا: كيف ذلك؟ قال: ادعوا الناس بأفعالكم. نعم إنها لمسؤولية خطيرة حيث هي مساحة للبناء والإحياء وصناعة الأفكار.

التحق الطبيب عبد العزيز الرنتيسي في صفوف جماعة الإخوان المسلمين على يد الشهيد الدكتور المفكر إبراهيم المقادمة أثناء دراسته للماجستير في مصر، ثم بايع جماعة الإخوان المسلمين عام 1976م. ولما عاد إلى غزة، كان يحمل في نفسه وقلبه وعقله تلك الأفكار الجريئة التي قادته إلى الحركة الإسلامية، ليصبح أحد أبرز رموزها ثم ترأس جماعة الإخوان المسلمين في محافظة خان يونس، وكان له شرف مشاركة الشيخ أحمد ياسين في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس في ديسمبر عام 1987م.

1- احمد ، محمد حسن، شهداء على بوابة الاقصى، مركز الاعلام العربي، مصر، ص152-153، بتصرف.

ملامح اللوحة الخالدة

أولاً: تعدد المواهب والهبات

تعدد المواهب هو موهبة بحد ذاتها وهي منحة تدل على ذكاء متقدم وتميز مبكر، وقد كان الدكتور الرنتيسي متعدد المواهب، وذا طاقة جبارة جعلته يسد أي ثغرة تبدو له في مسيرة الدعوة، فهو إلى جانب دراسته العلمية، وتخصصه في طب الأطفال، هو كاتب، وشاعر، وخطيب، ورجل إعلام، وداعية، وسياسي، وثائر، ومصلح اجتماعي. وقد برزت مواهبه هذه من شبابه، ثم نمت وتطورت حتى كان لنا منه هذه الشخصية المتكاملة.

لقد برز جانبه الإعلامي بوضوح عندما كان مبعدًا في مرج الزهور، فقد اختاره إخوانه هناك ليكون الناطق الرسمي باسمهم على رأس اللجنة الإعلامية، فكان يستقبل وفود الصحفيين طوال يومه وليله، يخاطب كلاً بلسانه، ويجيب عن أسئلتهم، لا يكل ولا يمل، وكان مسددًا في تصريحاته، وإجاباته، والبيانات التي كان يكتبها. وهكذا هو شأن الزعيم الذي تتولاه عناية الله وترعاه.

كان الرنتيسي حريصًا على كتابة المقالات ونشر الوعي بين أبناء أمته طوال مراحل حياته، بل إن القائد الشهيد عبد العزيز الرنتيسي حتى آخر أيامه، وفي ظل أقسى ظروف الحصار والملاحقة، ظل يتابع كتابة زاويته في جريدة «الأمان»، وفي جريدة السبيل وجريدة البيان الإماراتية، والوطن القطرية وسواها من المنابر الإعلامية التي تبلغ صوته وكلماته النيرة إلى شرائح المجتمع في طريق يحتاج إلى جَلَد طويل، إذ صناعة اليقظة مهمة، الزمن هو رهانها والصبر سبيلها، وقد كان القائد الرنتيسي يحسن ذلك بإتقان وتفانٍ عجيب.

كان يردد دومًا: «أرض فلسطين جزء من الإيمان. وقد أعلنها الخليفة عمر بن الخطاب أرضا للمسلمين قاطبة. ولهذا، لا يحق لفرد أو جماعة بيعها أو إهداؤها...»، يبث هذه المعاني وينشئها في نفوس قارئيه إنشاء وذلك بعض قتال القلم وجهاد المحبرة!



لقد كان الرنتيسي بحق هو رجل السياسة والتربية والحرب معاً، عركته التجارب المريرة، والمخاضات العسيرة التي خاضها إخوانه المجاهدون الذين سبقوه إلى الجهاد والشهادة في سبيل الله، حتى لحقهم على نفس الدرب.

وقد ذكرت صحيفة معاريف أن جهاز الأمن الإسرائيلي يدعي بأن الرنتيسي يوجه، ويبادر، ويخطط، ويبعث ويدير العمليات. أما (شارون) فكان يقول ساخرًا: «الرنتيسي ناطق حماس؟ نعم. هو ينطق، لكنه ليس ناطقًا. هو مؤسس حماس

وهو مسؤول عن قتل إسرائيليين»! ولقد كانت المخابرات الإسرائيلية توافق على ذلك وترى أن «الرنتيسي ليس فقط ملهماً لنشطاء حماس؛ بل هو مشغل حماس في يهودا والسامرة، وهو على اتصال مع حماس في الخارج. هو يستغل وسائل الإعلام كي يوسع تعليماته، وهو الخليفة الحقيقي لصلاح شحادة ويخطط لخَلف مع مرور الوقت، الشيخ ياسين»، وكانت تلك هي بعض مهام الرنتيسي ذي العبقرية الفذة.

ثانياً: النفس الربانية

كان الشهيد البطل ربانيًا في نفسه وكان يرى المقاومة هي الدليل على صدق الإيمان، وأن الإيمان وقود المعركة. كان قوي الأمل بنصر الله القريب، حتى وهو يعيش في أقسى الظروف، فقد أتم حفظ القرآن المجيد وهو في المعتقل وذلك عام 1990م، حيث جمعته الاقدار لمدة في زنزانة واحدة مع الشيخ المجاهد أحمد ياسين تقبلهم الله في الصالحين.

كان القائد الرنتيسي يرى أن هذه المرحلة القاسية تحتاج إلى الكثير من الصبر والتحمل، وهي المرحلة الممهدة لمرحلة التمكين في الأرض إن شاء الله، كان هذا البطل العظيم مجاهدًا ومشروع شهادة يسعى إليها؛ ليظفر بالفردوس الأعلى، ولقد كان مقاومًا تسكنه روح المقاومة، ويرفض أي نوع من أنواع الاعتراف بالكيان المسخ.

في بيت عزاء رفيق دربه الشهيد إبراهيم المقادمة، وفي سياق التعليق على الحدث قال الرنتيسي: «وأنا أصطف لآخذ واجب العزاء باستشهاد المقادمة كنت أشعر أنه قد يكون هذا العزاء لي في يوم من الأيام، لكن ذلك لم يزدني إلا إصرارًا على مواصلة الطريق وشوقًا للشهادة التي هي أسمى أمانينا، خاصة أن الذين سبقونا إليها هم أفضل منا، ونحن نؤمن أن لكل أجل كتاب وأن عمر الإنسان منا مقدّر قبل ولادته».

لا يزال يذكر التاريخ له كلماته: «إن كان لا بد من الموت فيا حبذا لو كانت شهادة» إن هذه النية العالية والأمنية الجليلة تعلو بالطاقة الإنسانية وتخلق فيها قوة جبارة يشهد لها تاريخ الأحداث.

ولقد سعى العدو في منهجية مدروسة إلى تفريغ حياة الإنسان المسلم من الغاية التي تمكنه من ناصية الشهادة وناصية القيادة، وناصية التاريخ كله، إذ «افتقاد الإنسان للوجهة وجعل هدفه من الحياة هي الحياة ذاتها وسلوك سبيل المتفرج السلبي لتعاقب الأيام يجعل منه روحًا ميتًا في جسد حي»!

وكان هذا هو صراع الوعي بين قادة الإصلاح وبين من يريدون لنا بقاءً رماديًا لا لون فيه!



لقد كان الشهيد الرنتيسي الطبيب الحاصل على شهادة الماجستير في طب الأطفال، درسًا في التضحية، درسًا في المعنى الحقيقي للحياة والمستقبل، فحياته كانت من الممكن أن تكون حياة رفاهية ونعيم لو أنه ركن إلى الدنيا وأقبل عليها وترك الجهاد، ولكنه أبى إلاّ أن يعلمنا أن الحياة الحقيقية هي حياة العزة والجهاد، وأن المستقبل الحقيقي ليس هذه الدنيا الفانية وإنما الآخرة وما عند الله هو خير وأبقى.

لقد علمنا الدكتور الرنتيسي أن المتعلمين هم طليعة الجهاد، وحملة الشهادات العالية وهم من يحملون الرايات ويقودون الكتائب في طريق الجهاد، وهذا يرد على زعم المغرضين أن من يقاوم الاحتلال إنما هم من الفاشلين اليائسين الذين ليس لهم خيار إلاّ هذا، وتنبيه لشباب المسلمين أن طلب العلم والدراسة لا يتعارض مع الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، بل يدعم بعضهما بعضًا.

ثالثاً: الإنسانية العالية

«من كان أكثر وعيًا، كان أكثر مسؤولية». تلك كلمات تصف حياة الذين كانوا غيث الأرض في أقدارهم بما تسنموا من رؤية سابقة وبصيرة هادية، فالمسؤولية هي الضريبة الطبيعية للوعي المبكر، ولقد كان ذلك جليًا في حياة القائد الرنتيسي إذ كان بحق نموذجًا للقيادي القريب من نبض شعبه، كان ديدنه، -منذ كان طبيبًا لخانيونس-، تقديم ما يستطيع للفقراء من أبناء الشعب، ويشهد له الجميع أنه لم ينقطع يومًا عن معايشة المواطنين، فكان دومًا قريبًا منهم في المعتقل، وفي السجن الكبير الذي يحمل اسم قطاع غزة.

كان القائد الرنتيسي صاحب نخوة ومروءة ونجدة، يضني جسمه من أجل الآخرين، وخاصة الفقراء والمحتاجين، ويُذكَر له أنه في سبعينيات القرن الماضي كان يذهب إلى القرى النائية في البادية مشيًا على قدميه، قاطعًا

العديد من الكيلومترات، وهو يحمل حقيبته الطبية، من أجل تطبيب الفقراء، وختان أطفالهم مجانًا...!

كما كانت له أنشطة خيرية أخرى في القرى والأرياف التابعة لخانيونس، ضمن أنشطة جماعة الإخوان المسلمين، لقد كان الإيثار من السجايا التي صاحبته منذ صغره، وحتى لحظة استشهاده -رحمه الله- لقد كان الرنتيسي يعيش على معنى مقولة: «علمت نفسي أن العيش في سبيل الله أصعب من الموت في سبيل الله»، وتلك هي المعادلة الأصعب وهي التي تبلغ العبد ختامًا مباركًا فيه!

كان الرنتيسي شخصية تبطن الكثير من معاني الإنسانية الجميلة، وتستقر فيها أبوة حانية تدفقت على كل من تعامل معه. فقد وصفه ابنه الكبير محمد بقوله: «إن الصورة التي في أذهان الناس عن والدي، أنه الثوري الشديد وهذا صحيح لكنه داخل الأسرة، صاحب الحنان الكبير، والقلب الرؤوف الهادئ. كنا إذا أصررنا على شيء ربما لا يريده، كان ينزل عند رغبتنا ويرضينا، خطابه المتشدد في الإعلام لم يكن في المنزل. وأكثر حنانه ومحبته كانت لأحفاده، فقد كان يحب الأطفال».

وذات يوم جاءه ضابط صهيوني مع ابنته الصغيرة إلى عيادة الدكتور بعد أن فشل علاجها داخل الكيان الغاصب، فنصحه أحدهم بأن يذهب لعيادة الدكتور الرنتيسي كونه مختصًا وفعلاً هذا ما كان وعالجها الشهيد وكتب لها الشفاء، وفعل ذلك برقي إنساني لا يعرفه إلا من كانت ثورته لأجل الإنسانية والعدالة والحقوق المغتصبة، وتلك كانت حقيقة الرنتيسي قوة في سبيل الحق وليس جبروتًا متعسفًا.

رابعاً: الرجولة الأصيلة

كان الرنتيسي يربي أولاده على الرجولة بكل ما تعني من صفات الشجاعة والنجدة والكرم، وسواها من السجايا الحميدة، فقد كان قياديًا متمرسًا، وصاحب مدرسة في التعبير عن مواقف لم يكن يراها تحتمل التهاون.

يتذكر ابنه محمد موقفًا أيام إبعاد مرج الزهور عندما كان قد بلغ من العمر 11 عاما حيث اقتحم الصهاينة البيت لاعتقال والده وعندما اقتاده الجنود الصهاينة نظر إلى محمد وقال: الآن أصبحت رجل البيت وتستطيع أن تعتني بأمك وإخوتك. المشوار هذه المرة يبدو طويلا.

إن الرجولة الحقة تعني أن تتحمل كامل أمانتك وتستوي في عمرك في الغاية التي آمنت بها دون تردد ولا تخاذل ولا تغيير للبوصلة، والرجولة الحقة تعني أن تكون حاضرًا إذا شب الحريق لإطفائه ولا تختبئ وراء ركيعات تدعو بها أن تتوقف النار بمعجزة خارجية.

يقول القيادي في حركة الجهاد الإسلامي، خالد البطش: إن الشهيد الرنتيسي كان قائدًا وطنيًا وإسلاميًا كبيرًا، ورجلاً صلبًا يعرف الحق ولا يحيد عنه، ويضيف إن الرنتيسي تمتع بالجرأة والجسارة وعدم التردد أو الخوف، منبهًا إلى مواقفه الشجاعة وتصريحاته بحق العدو الصهيوني التي يشهد بها التاريخ.

«عندما يشب حريق في بيت ويدعوك أحدهم للصلاة والتضرع إلى الله ينبغي عليك أن تعلم أنها دعوة خائن؛ لأن الاهتمام بغير إطفاء الحريق والانصراف عنه إلى عمل آخر هو التيه وإن كان عملاً مقدسًا».

خامساً: أسد مقدام

كان للرنتيسي شخصيته الرزينة، ومنطقه الحكيم الذي يقنع به محاوره، ويعبئ به الجماهير، ويغيظ الصهاينة وعملاءهم، لقد كانت شخصيته شخصية مواجهة دون مواربة، فقد كان يرى ويطالب بضرب أي إسرائيلي تقدر على ضربه في أي زمان ومكان داخل فلسطين، لأن الإسرائيلي محارب خسيس، وإذا تمكن منك غدر بك.

اعتقل أول مرة عام 1983م بسبب رفضه دفع الضرائب لقوات الاحتلال الصهيونية والإدارة المدنية اليهودية، أما المرة الثانية فكانت في 1988/1/15م جرى اعتقاله لمدة 21 يومًا بعد عراكٍ بالأيدي بينه وبين جنود الاحتلال الصهيوني الذين أرادوا اقتحام غرفة نومه فاشتبك معهم لصدّهم عن الغرفة، فاعتقلوه دون أن يتمكّنوا من دخول الغرفة، وكان أول من اعتُقل من قادة حركة حماس بعد اندلاع شرارة انتفاضة فلسطين الأولى والتي كانت في عام 1987م.

ثم اعتقل المجاهد عبد العزيز الرنتيسي في المرة الثالثة في 4 شباط 1988م حيث احتجز في سجون الاحتلال الصهيوني لمدة عامين ونصف بتهم التحريض الإسلامي ضد الاحتلال وتشكيل خطر على أجهزة الاحتلال الصهيوني، ثم ما لبث أن أخلي سبيله في 4 أيلول 1990م، ثم اعتقلته قوات الاحتلال في 14 كانون الأول 1990م وفق نظام الاعتقال الإداري الصهيوني لمدة عام.

ثم أُبعِد د. عبد العزيز الرنتيسي في حملة الإبعاد ضد 418 قياديًا من حركتي المقاومة الإسلامية «حماس» والجهاد الإسلامي إلى مرج الزهور جنوبي لبنان في 1992/12/17م، وتولى مهمة الناطق الرسمي باسم المبعدين الذين تمترسوا ورابطوا في مخيم العودة بمنطقة مرج الزهور لإرغام الكيان الصهيوني على إعادتهم وهذا ما كان لاحقًا بعد عام تقريبًا، وفور عودته من مخيم مبعدي

مرج الزهور، اعتقلته قوات الاحتلال الصهيوني وأصدرت المحكمة العسكرية الصهيونية عليه حكمًا تعسفيًا ظالمًا بالسجن حيث بقي أسيرًا سياسيًا حتى أواسط عام 1997م.



خرج الدكتور عبد العزيز الرنتيسي من المعتقل لمتابعة دوره القيادي بحركة حماس عام 1997م، واصطدم مع السلطة الفلسطينية آنذاك فاعتقلته الأجهزة الأمنية الفلسطينية اعتقالا سياسياً بسبب مواقفه وتصريحاته في الاعلام، وكان هذا بعد قرابة سنة من خروجه من سجون الاحتلال الصهيوني وذلك بتاريخ 1998/4/10م، وأفرج عنه من السجن الفلسطيني بغزة بعد 15 شهرًا بسبب وفاة والدته وهو في المعتقلات الفلسطينية، ثم أعيد للاعتقال السّياسي مرة اخرى بعدها ثلاث مرات ليُفرَج عنه بعد أن خاض إضرابًا عن الطعام، وبعد أن قُصِف المعتقل من قبل طائرات الاحتلال وهو في غرفة مغلقة في السجن المركزي بغزة في الوقت الذي تم فيه إخلاء السجن من ضباط و عناصر الأمن

خشية على حياتهم، لينهي بذلك ما مجموعه 27 شهراً في سجون السلطة الفلسطينية، وسبع سنوات في سجون الاحتلال الصهيوني.

حاولت أجهزة السلطة الفلسطينية اعتقاله مرتين بعد ذلك، ولكن محاولتها باءت بالفشل بسبب تجمهر وتجمع آلاف من أبناء حركة حماس كحماية له، وجرى تسوية الأمر سلميا دون اعتقاله، ويسجل للشهيد انه اوقف سياسة الاعتقال السياسي عند السلطة الحاكمة في غزة، والتي كانت تعتقل على الرأي المخالف لها وان كان لفظيا.

يقول الشهيد عن تجربة السجن عند الصهاينة: «منعت من النوم لمدة ستة أيام، كما وضعت في الثلاجة لمدة أربعٍ وعشرين ساعة، لكن رغم ذلك لم اعترف بأي تهمة بفضل اللّه، وأعظم فائدة هي إتمام حفظ كتاب اللّه في السجن، كما انه يصقل الإنسان ويعوده الصبر والجلد، ويهذب النفس، فالسجن مصنع الرجال»[1].

وأبلغ موقف في الدلالة على شجاعته هو موقفه حين قام مدير عام المعتقل وهو صاحب رتبة عسكرية رفيعة، ويُدعى «شلتئيل»، بطلب عقد لقاء مع ممثّلي المعتقلين، وحين اجتمع الممثلون عن مختلف الفصائل في غرفة مدير السجن، وكانوا جلوسًا، فلما دخل عليهم مدير المعتقل وقف الجميع إلا أسد فلسطين، فقد رفض الوقوف لهذا الصهيوني، فحاول مدير المعتقل أن يجبره على الوقوف فأبى، فحاول أحد قادة فتح في المعتقل التدخّل، وأخبر مدير السجن بأن عبد العزيز إذا قرر لا يتراجع، فرفض مدير السجن الاستماع إليه وأصرّ على موقفه، ولكن الرنتيسي رفض بشدّة، فخاطبه أحدهم: يا دكتور هنا يوجد بروتوكول يجب أن يُحترم، فقال له: ديني أولى بالاحترام ولا يجيز لي الإسلام أن أقف تعظيمًا لمخلوق.

1- مرجع سابق، احمد، حسن، ص155.

سادساً: الروح الشاعرية

كان شاعراً، وكان إخوانه وتلاميذه المجاهدون يحفظون الكثير من شعره الذي يتغنّى فيه بالحرية، وتحرير فلسطين من الاحتلال، وهو شعر خطابي حماسي في غالبه، وذو رسالة يريد أن يؤديها، وقد نشر بعض شعره في الصحف والمجلات، وبقي قسم آخر لم ينشر، منتظراً أصحاب الهمة والغيرة لجمعه ودراسته وإصداره. وديوانه اسمه حديث النفس ويحتوي على 50 قصيدة شعرية.

وهنا بعض النماذج الشعرية التي تكشف عن روح سامية، ومشاعر متدفقة، وأحاسيس في غاية الجمال، فقد كان الرنتيسي روحا تفيض بالحب والحنان. فهنا قصيدة كتبها بعد أن ركب الباص مع الذين أفرج عنهم من السجن وفي آخر لحظة جاء أحد الضباط ونادى عليه: إن لك هدية من رابين ستة شهور أخرى، فقال: الحمد لله وعاد إلى غرفته في السجن وكتب يومها قصيدة لابنه الذي كان ينتظر وصول الحافلة التي تقله وكان عمره 4 سنوات، ولكنه لم يلتقِ به لأنه أعيد للسجن فكتب قائلاً:

لم يا بني أراك تبحث في الزحام ... لم يا بني أراك تأرق في المنام
نم يا أحيمد لا تمزق مهجتي ... نم يا أحيمد حيث قد نام الحمام
أنا يا أحيمد لا يفارقني الأسى ... أنا يا أحيمد قد هجرت الإبتسام
هذي السلاسل يا صغيري فتنة ... الله قدرها ليختبر الأنام
لا تبك يا ولدي كفاك فإنني ... رغم القيود سأمتطي متن الغمام
إن فرقوا بيني وبين أحبتي ... أو مزقوا قلبي بأنصال السهام
أو أرقوا نومي ونوم أحيمدي ... أنا لن أطأطئ لا ولن ألقي الحسام
هذا السبيل سبيل من طلب العلا ... هذا السبيل سبيل مرشدنا الإمام
هذا سبيل العارفين بربهم ... هذا سبيل الخالدين من العظام
فإذا عرفت اليوم سنة أحمد ... وزهدت في دنيا الثعالب واللئام
وعلمت أن الصابرين مقامهم ... يوم الحساب يضاهئ الصحب الكرام
فأرسم على الثغر إبتسامة شاكر ... واصبر بني غدا سينقشع الظلام

وهذا مطلع قصيدة كتبها يخاطب ابنه محمد وحَمّلَها رؤيته للجهاد فقال:

هـذي وصـيـة والــدٍ خـلـف الـسـدود   لم تُـثْـنِـه الآلام عـن كـسـر الـقـيـود
أنـا يـا محـمـد يـا بـني مـجـاهـدُ   أرجـو الـشـهـادة أو إلى «يِـبْـنَـا» نعود
فـهـنـاك بـيـتي حـيـث مـسـقـط هـامتي   وهـنـاك آثـاري ومـقـبرة الجـدود
وهـنـاك مـدرسـتي ومـسـجـد بـلـدتي   فـاعـبر إلـيـهـا واقـتَـحـم تـلـك الحـدود
واعـلـم بـأن بـلادنـا وَقْـف فـلا   تـخـدعـك أحـلام الـسـلام مـع الـيـهـود
فـبِـدُون تـطـهـير الـبـلاد مـن الـعـدا   فالسلم وَهْـمٌ أو سـراب مـن وعـود
فـبِـدِيـن طـه يـا مـحـمـدُ فـاعـتَـصـم   فـهو السبيل لـقـهـر إخـوان الـقـرود
وإذا زحـفـت عـلـيـهـمُ يـومـا فـكـن   عندا اللقاء على مـقـدمـة الـجـنـود
وإذا سـقـطـتَ أيـا بـني مجـنـدلاً   فمَآلُك الفردوس تنعـم بالخلـود
بـين الجـنـان مـع الـنـبي المصطفى   وبصحبـة الصِّديق والصحب الوفود
هـذي المـنـازل يـا محـمـد فـانـطـلـق   لتصيب منها المرتقى الصعب الكـؤود
واعـلـم بـأن مـنـالـهـا فـوز فـلا   يُقعِدك عنها كل كـفـار كَـنـود
وعـلـيـك بـالخـلـق الـكـريـم وبـالـتـقـى   والصوم والإكثار من طول السجود
وانـصـر كـتـاب الله يـنـصـرك الـذي   نصر الرسول على قُوَى الكفر الحقود
واصـبر بـني إذا ابْـتُـلـيـت ولا تكن   جَـزِعـاً فـإن الـصبر مَـدْعـاة الصمـود
بـطـلاً أريـدك يـا محـمـد فـلـتـكـن   أسـداً مهيبـاً بـل وتخـشـاك الأسـود
لـتُـقِـرّ عـيـني في الـتراب وعـنـدهـا   فـاغـرِس عـلـى قـبـري ريـاحين الـورود

وله قصيدة يخاطب فيها بناته الأربع بأسلوب تربوي راقٍ ومبدع حيث قال:

أنـــــتن خـــــيرات حـــســـان | أنــــتن تـــريــــاق الجـــنـــان
أسمــــــاء تـــســـكــن مـهـجـتي | وإيـــــنـــــاس مــــني المـقـلـتـان
سمـــــــر بخـــــــفـــــــة ظـــلــهـــا | مــــــلأت فــــــؤادي بـــالحــنـــان
وكـــــــأن آســـــيـــــا وجــهــهـــا | بـــــدر بـــلـــيـــلـــة إضـــحـــيـــان
هـــــن الـــــفـــــؤاد ونـــبـــضـــه | وحـــــيـــــاتــــــه في كـــــــل آن
لمـــــــا ذكـــــــــرت جمـــالهــــن | غــــــارت زهـــــور الأرجـــــوان
وإذا ذكـــــــرت صـــلاتــهـــن | وســـعـــيـــهـــن إلى الأذان
وعـــفــــافـــهـــن مــــــع الـــتـــقـــى | والـــصــــدق والـــعــــرض المــصــان
وقـــيــــامـــهــــن وصــــومــــهــــن | وحـــفـــظـــهـــن إلى الـــلـــســـان
أيـــقـــنـــت حــــقًـــــا أنـــهـــن | بـــــإذن ربـــــــي في أمــــــان

سابعاً: ذكاء وقّاد

كان القائد الشهيد يتمتع بذكاء مميز، وكان سريع البديهة، فطنًا لما يجري حوله، وتلك صفات لا تصح القيادة بدونها، ولا تستقيم المعارك بغيرها، وقد حُسِمَتْ الكثير من المواقف والمعارك في تاريخ البشرية بذكاء القيادات، وكان الرنتيسي -رحمه الله- يتصف باتقاد عقله وذكاء بصيرته، ويسردُ مَنْ عاصره مواقف له تؤكد هذه الصفة المميزة، وذلك حين قررت الفصائل مجتمعة إعلان الإضراب العام في سجن النقب باستثناء حماس وبدون مشاورتها، وقف الجميع محتارًا لماذا هذا الإضراب؟! ولماذا لم تتم بمشاورتنا أو إعلامنا حتى نضع أهدافًا لهذا الإضراب ودار نقاش طويل ومحير، وبلا إجابات مقنعة بين قيادات حماس في النقب، وكان الشهيد يسمع من غير أن يبدى رأيًا، وبعد أن عجز الجميع وأعياهم التفكير نطق الشهيد وقال: هذا الإضراب هدفه أنا ؟ فاستغرب الجميع، بل ذهلوا كيف؟ قال الذين أعلنوا الإضراب يريدون عزلي من منصب المتحدث



باسم المعتقلين مع قيادة السجن فأرادوا عمل الإضراب منفردين حتى تكون حماس خارج الصف وتظهر بمظهر المنشق عن الإجماع فيقومون بترشيح واحد منهم فتنتقل القيادة لهم، وفعلا أثبتت الأيام أن كلام الشهيد كان صائبًا، وأراد الله أن يختلف المتآمرون فيما بينهم، وفشل مخططهم.

قال عنه الشهيد سعيد صيام: الحقيقة.. صعب على الأحياء أن يتحدثوا عن الشهداء، لكن الدكتور عبد العزيز -رحمة الله- عليه يمثل رجل المواقف الذي لا يتزحزح ولا يهادن ولا يتنازل حينما يقتنع بصوابية موقفه، ثم تثبت بعد ذلك الأيام صدق فراسته. كان -رحمه الله- يتمتع بفراسة المؤمن فراسة غريبة متقدمة فقد كان يسبق في رؤياه كثيراً من الأحداث.

ومن مواقف الذكاء وحسن استغلال المواقف أن إدارة السجن كانت تحيط المعتقل بمكبرات الصوت، وتُشغَّل من خلالها الأخبار الصهيونية والأغاني الصارخة، وتزعج الجميع أثناء الصلاة أو قراءة القرآن، فاحتال الدكتور وأحد أصدقائه وتصنعا الاستمتاع لنشرة الأخبار، فلاحظ ذلك مدير السجن فسأله ماذا يفعل المهندس والدكتور فأجاب الدكتور نستمع لنشرة الأخبار، فصرخ الضابط على أحد الجنود بأن اقطع المذياع ظنًا أنه يعاقبهم على ذلك، فكانت هذه الحيلة للخلاص من الإزعاج.

أهم الإنجازات المباركة

ولقد كان الدكتور الرنتيسي ممنْ شغل غزة عملاً صالحًا مباركًا فاستحق بجدارة أن يكتب في سماء العزة شهيدًا عظيمًا ونجمًا هاديًا.

فلقد تحمل في العمل الإسلامي عدة مواقع إدارية متنفذة وفي عجالة سريعة نسطر له أهم المسئوليات والمواقع القيادية التي تولاها والتي كانت على النحو الآتي:

- عضوية هيئة إدارية في المجمّع الإسلامي، والجمعية الطبية العربية بقطاع غزة، والهلال الأحمر الفلسطيني.
- كما كان للدكتور عبد العزيز الرنتيسي مشاركة فعَّالة في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في قطاع غزة في شهر كانون الأول عام 1987م بعيد انتفاضة فلسطين الكبرى الأولى بأسبوع تقريبًا. يقول الشهيد: «كنت مسؤول منطقة خانيونس في حركة الإخوان المسلمين، وفي عام 1987م قررنا المشاركة بفاعلية في الانتفاضة، وكنا سبعة الشيخ أحمد ياسين وعبد الفتاح دخان ومحمد شمعة وإبراهيم اليازوري وصلاح شحادة وعيسى النشار، وقد اخترنا اسمًا للعمل الحركي هو حركة المقاومة الإسلامية، ثم جاء الاختصار إلى حماس».
- في 24 آذار (مارس) 2004م، في أعقاب استشهاد مؤسس وزعيم حركة حماس الشيخ أحمد ياسين بيومين، انتخب الدكتور عبد العزيز الرنتيسي قائدا عاما لحركة «حماس» في قطاع غزة، خلفاً لزعيم الحركة الشهيد الشيخ أحمد ياسين.

خاتمة السعي: الشهادة وريح المسك

«الشهادة هي دعوة لكل الأجيال في كل العصور: إذا استطعت، انتزع الحياة وإلا فقدمها!»..

وقد فعل القائد المقدام الرنتيسي كلا الأمرين. يوم عاش لله ومات لله. وقدم الحياة حضورًا ورحيلاً لله! دومًا الشهداء هم الجواب على سؤال الحقائق. أتى أحد الضبّاط سيد قطب -رحمه الله- أثناء المحاكمة وسأله عن معنى كلمة «شهيد»، فقال: «شهيد: يعني أنّه شَهِدَ أنَّ دين الله أغلى عليه من حياته»...!

كان الرنتيسي ينتظر الشهادة. ولقد قالها ذات يوم وسجلته له دفاتر الغيب (الشهادة أحد المرامي التي نرمي إليها فإذا ما أطلت برأسها سوف لا نكون إلا مرحبين بها). وقد كان وربي... يوم استشهاده كأنما يزف نفسه إلى الجنة زفا!

كان قامة عالية وكانت حياته مثل زيتونة فلسطينية غارقة في عمق التاريخ توقد كل حين، وزيتها يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، كان نورًا على أمته ونارًا على عدوه وتلك وربي معادلة لا يتقنها إلا الشهداء!

أتسمح لي أن أمر ببابك؟

أتقبلني لحظة في رحابك؟

لألثم حيث هوى الموت. أقبس بعض الشعاع.

لأقرأ بين يديك اعتذاري.

لأحرق في الكلمات الحزينة عاري.

لأشعر أني آدمي. وأني بظلك صرت الشجاع!

محاولات الاغتيال

لقد سبق استشهاد الدكتور الرنتيسي محاولات عديدة للاغتيال ففشلت جميعها لأن أجله مازال فيه بقية وهذه المحاولات كانت على النحو التالي:

- المحاولة الأولى في مرج الزهور، في خيمة الإعلام، في اليوم الأول من شهر رمضان عام 1992م، يومها حضر شخص يتحدث العربية، وأدعى أنه مترْجم لصحفي ياباني، دخل الخيمة، وترك حقيبة فيها قنبلة موقوتة، انفجرت مع أذان المغرب بالضبط، وأحرقت الخيمة بأكملها، ومن رحمة الله أن الجميع كان خارج الخيمة على مائدة الإفطار... سمع الجميع صوت الانفجار، وهبوا لإطفاء الحريق، وبحثوا عن الصحفي ورفيقه، فلم يجدوا لهما أثرًا.
- وفي 2003/6/10م تعرض لمحاولة اغتيال ثانية، استشهد فيها اثنان من مرافقيه وعددٌ من المارة بينهم طفلة، كما وأصيب نجله أحمد بجروح خطيرة.
- وفي شهر أيلول 2003م تعرض أيضًا لمحاولة اغتيال فاشلة.
- كما تعرض لمحاولة اغتيال أخرى في اليوم الثالث لاستشهاد الشيخ أحمد ياسين نجا منها بأعجوبة، ولم تكشف عنها حماس إلا بعد تأكيدها من قبل أجهزة الأمن الإسرائيلية.

يوم الشهادة يوم الوفاء

يصف ولده محمد يوم استشهاده بقوله: «وصل الدكتور إلى منزله في الساعة الثالثة قبل فجر يوم السبت 2004/4/17م في سرية تامة كانت زيارته لنا بعد أسبوع من الغياب لم نره فيه، طلبنا منه عدم الخروج، وقضاء ساعات معنا وبعد إلحاحنا وافق، وكان عادة يأتي إلى المنزل بعد منتصف الليل، ويغادر قبل الفجر. وقضى ما بقي من الليل يتحدث مع العائلة المشتاقة إليه، والتي لا تراه إلا قليلاً.

جلس يتحدث عن زواج أخي أحمد الذي أصيب خلال محاولة الاغتيال، وذلك بعد أن حصل على مدخراته من الجامعة الإسلامية التي كان يحاضر فيها، وقد سدد ما عليه من ديون، واقتطع مبلغًا من المال لزواج أحمد «21 عاماً» وقال لنا: «الآن أقابل ربي نظيفًا: لا لي ولا عليّ».

استيقظ الرنتيسي صقر فلسطين واغتسل، وتعطر، وانطلق لسانه ينشد، على غير عادته، نشيدًا إسلاميًا مطلعه: أن تدخلني ربي الجنة. هذا أقصى ما أتمنّى!

وقال لرفيقة دربه: أم محمد: إنها من أكثر الكلمات التي أحببتها في حياتي».

وقال محمد: إن مرافق والدي، السيد أكرم نصار زارنا يوم السبت بعد العصر، وتحدث مع والدي قليلاً، واتفقا على الخروج.

وقبل أذان العشاء بقليل خرج الرنتيسي برفقة ابنه أحمد الذي كان يقود السيارة ذات النوافذ المعتمة، متنكرًا بلباس معين، وأوصله إلى مكان محدد في مدينة غزة، وبعد دقائق وصلت إلى ذلك المكان سيارة يقودها أحمد الغرة، ومعه السيد أكرم نصار، وبهدوء انتقل الرنتيسي من سيارة نجله إلى السيارة الأخرى التي انطلقت بسرعة، لكنّ صاروخين من طائرات الأباتشي الأمريكية الصنع كانا أسرع من الجميع، وصعدت الأرواح الطاهرة إلى بارئها، لتستقر في حواصل طيور خضر، ترتع في الفردوس الأعلى بفضل الله وكرمه.

كان يردد رحمه الله: إنه الموت سواء بالقتل أو بالسرطان. نحن جميعًا ننتظر آخر يوم في حياتنا. لن يتغير شيء. سواء كان بالأباتشي أو بالسكتة القلبية. الموت واحد. أنا أفضل الأباتشي.». صدق الله فصدقه.

وقد استشهد الدكتور المجاهد عبد العزيز الرنتيسي مع اثنين من مرافقيه، أكرم نصار ومحمد أبو ناموس في 17 نيسان (أبريل) 2004م بعد أن قصفت سيارتهم طائرات الأباتشي الصهيونية في مدينة غزة، ليختم حياة جهادية

ودعوية وطبية متواصلة لينال الشهادة في سبيل الله مقبلاً غير مُدبر وعمره كان أقل من 57 عامًا.

شارك قرابة نصف مليون فلسطيني في تشييع الشهيد الرنتيسي ومرافقيه اللذين استشهدا معه، يوم الأحد 2004/4/18م في غزة وحدها.

انطلق الموكب الحزين الثائر من مستشفى الشفاء في غزة، يتقدمه عدد من قادة حماس وقيادات الفصائل الفلسطينية الأخرى، وآلاف المسلحين، في عروض عسكرية كبيرة. وتوجه الموكب إلى منزل الشهيد لإلقاء النظرة الأخيرة عليه، ثم تابع إلى المسجد العمري الكبير، من أجل الصلاة عليه.

اكتظت الشوارع التي مرَّ فيها الموكب بالمواطنين والتحمت المسيرات بعضها ببعض، مشكلة أمواجًا بشرية ضخمة، وأدى أكثر الناس صلاة الجنازة في الشوارع المزدحمة.[1]

أهل الشهادة في الآثار قد أمنوا ... من فتنة وابتلاءات إذا قبروا
ويوم ينفخ صور ليس يزعجهم ... والناس قائمة من هوله ذعروا
وما سوى الدين من ذنب وسيئة ... على الشهيد فعند الله مغتفر
أرواحهم في علا الجنات سارحة ... تأوي القناديل تحت العرش تزدهر
وحيث ما شاءت من الجنات ... تحملها طير مغردة ألوانها خضر

1- http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title

في هذا الموقف الجلل قدمت زوجة الشهيد البطل الرنتيسي السيدة «أم محمد» وأبناء الشهيد نموذجًا عاليًا رغم أنها أصيبت بأعظم مصاب في زوجها شريك عمرها، حيث رفعت رأسها فخورة سعيدة أن نال زوجها مراتب الشهداء، وقالت من جاءنا معزيًا فليدبر ومن جاءنا مهنئًا فليق [1] ولسان حالها يقول:

لا تبكه فاليوم بدء حياته   إن الشهيد يعيش يوم مماته!

إنها حفيدة فاطمة وأسماء ونسيبة، إنها تخاطب كل نسائنا عن الدور الحقيقي الذي ينبغي أن يكون للمرأة في بيتها في تربية أبنائها في إخراج أبناء متربين على الإسلام فخورين به عاملين له يضحون لأجله، إن «أم محمد» ما هي إلاّ واحدة من بوارق الأمل في هذه الأمة، انها هي وأخواتها على أرض الإسراء من يجعلننا نشعر بالفخر والعزة، ولكن أيضا يشعرننا بالخجل أن ملايين الرجال من هذه الأمة لم يصنعوا عشر ما صنعته هذه الزوجة المجاهدة والأم الصابرة، لم يصنعوا معشار معشار ما صنعت أم البطل القسامي محمد فرحات التي قدمت ابنها فداء للأقصى والإسلام وبعد استشهاده فتحت بيتها لاستقبال الناس لا للعزاء.

ورغم رحيل الرنتيسي، فإن كلماته لا زالت تعيش بين أبناء الشعب الفلسطيني، فلم تخلُ مسيرة أو احتفال من خطبه الرنانة وهو يقول «سننتصر يا شارون. سننتصر يا بوش»، حتى الأطفال صاروا يقلدونه حينما كان يقول «لا نفرق بين أية مدينة من مدن فلسطين، فيافا كغزة، ورفح كتل الربيع، والخليل كالجليل».

لقد وصفته صحيفة معاريف بأنه «ابن موت». وكان هذا هو عنوان تقرير الصحيفة الإسرائيلية حول عملية اغتياله قائلة بأنه «مصنع القنابل المتكتكة» حسب تعبير المجرم المسمى رئيس هيئة الأركان شاؤول موفاز!!.

http://www.saaid.net/mktarat/flasteen/r7.htm -1

إن قيام الكيان الصهيوني بهذه الاغتيالات الرعناء وبهذا الشكل الصارخ لأفراد عُزّل يشهد العالم بعدالة قضيتهم ويتنادون لتأييد حقوقهم؛ لهي دليل واضح أن الصهاينة لا يخيفهم ولا يردعهم شجب واستنكار؛ فضلاً عن صمت واستنكار، ولن يتخلوا أبدًا عن خيار حمامات الدم واجتياح المدن، وهم وإن احتلوا مناطقنا فقد صادروا حتى منطقنا الذي نفكر فيه.

إن خسارتنا ليست في ازدياد أعداد الشهداء وتتابع قوافلهم المباركة، بل الخسارة الحقيقية هي الكساد الغثائي لكثير من الأحياء الضعفاء الذين لا يُكترث بهم ولا يعوّل عليهم ممن يعيشون على هامش الحياة ويضيفون إلى الأمة أرقامًا أصفارا من الشخوص الخاوية. وسنن النصر والحياة تقضي بأن سقوط شهيد على الأرض قد يرفع الله به كرامة أمة ويعزّ به أقوامًا. ومع ذلك؛ فإن حياة العطاء والبذل والعمل للدين فنٌّ يجيده صنّاع الحياة، ومقامات يتدرجون فيها إلى منازل الشهداء وهم أحياء، فأبناء فلسطين أهل الصمود والمقاومة قد أجادوا فنَّ صناعة الحياة كما أجادوا فنَّ صناعة الموت.[1]

تقبل الله الشهداء وجعل سعيهم ودمهم

يقظة لأمة آن آوان قيامتها

1- القحطاني، مسفربن علي، مقال بعنوان الرنتيسي. شكرًا لك حيًا وميتًا.



سيرة الشهيد القائد

عماد عقل

1971م - 1993م



الجهاد هو الصلاة السادسة لنا، وسوف نقرع أبواب الجنة بجماجم اليهود.





الكتابة عن قادة المقاومة ليست كتابة سيرة شخصية، بل هي توثيق لسيرة المقاومة ذاتها حيث يَتحد الذاتي بالموضوعي، ويندمج الشخصي بالتاريخ، وتبدو الفوارق شفافة بين خط المقاومة وخط الرحلة الشخصية للمقاوم بحيث لا تكاد تبين، إذ هما في الحقيقة تفاعل قدري شاء اللّه من خلاله ولادة أحداث الجهاد كلها في أرض فلسطين.

تكاد صفات المقاوم تصبح هي أسباب انتصار الحدث والفعل المقاوم، وتكاد سماته تصبح علة النتائج المقطوفة، وربما هي حكمة اللّه ألا ينفصم المجاهد عن رحم الفعل حتى تؤرخ حكايته من خلال أفعاله الكبري، ويظل بها مرتبطا بحبل سري يغذيها بوجوده وتغذيه بتخليده، والدم بينهما مشترك، تنقل إليه المقاومة نبضها ويعطيها عصارة جهده، ويولد لها ويولد بها ويموت إذا انفطم عنها.

ولقد كان عماد عقل الشهيد ذلك البطل الذي صام عن العجز والضعف والخور، وصلى إماماً في السبق للبطولة، وقد قيل لكل قرن سابق، ولكل مضمار سابق، وكان عماد سابقاً في قرنه لفكرة زلزلة العدو بكل ما يتفتق عنه العقل الفلسطيني من ذكاء وإبداع، فكرة إرباك العدو بالعمليات الاستشهادية، والتفجيرات المتوالية والضغط المتواصل على الأمن الذي يشكل عقدة النفسية الإسرائيلية.



استطاع عماد عقل أن يؤسس لفكرة إشغال العدو بالتصدي لهجمات المقاومة، فلقد كانت عين عماد مستقرة على غاية استوطنت عقله واحتلت قلبه وبذل لها كل الوسع وذلك معنى الجهاد الحقيقي، حيث جعل الشهيد قيامه وركوعه وسعيه في ميدان واحد، نصرة الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ولأجله شرع الجهاد.

كان عماد مؤمنا إلى حد مذهل بالقضية التي يقاتل لأجلها، وكانت القبلة في الرؤى واضحة لا تشظي فيها، كانت القبلة محددة، والبوصلة تؤشر إلى علو الأهداف، والنداء في روحه يصدح كل ساعة الله أكبر من كل جبروت، وأكبر من كل إمكانيات العدو، كانت تسابيحه وتراتيله عميقة بعمق كل كلمة في كتاب الله جاءت كي تصنع أمة ترتدي عباءة العز أبدا، وكان فقهه عمريا يدرك أن هذا الدين جاء ليخرجنا من العبودية إلى الحرية.

كانت عقيدة عماد أن الحرية هي التي تصنع إيمانا واقفا، وما سوى ذلك فهو إيمان في انحناء يطرب له الأعداء، لقد جمع عماد عقل بين الإيمان الثائر وبين الجهاد المدوي، وكان أعظم من أن يكون صاحب إيمان باكي!، أثخن عماد عقل في العدو ونال منه بزناد يبلغ المستحيل، ويوقف العدو مبهورا من سعي مؤمن قارب أن يبلغ سعي أمة!

أولاً: البذرة المباركة

الاسم: عماد حسن إبراهيم عقل، والشهرة عماد عقل، وكان يكنى بأبي حسين، ولُقب بصاحب الأرواح السبعة والمقاتل العنيد، وبالرجل القيادي، والاستراتيجي العسكري.

ولد عماد عقل في 1971/6/19م في مخيم جباليا والذي أقامته الأمم المتحدة لإيواء اللاجئين الفلسطينيين المهجرين من أراضيهم على يد العصابات الصهيونية، ولد الشهيد في بيت بسيط، صغير المساحة متواضع البناء ومكون من غرفة واحدة، ولد الشهيد لعائلة تعود أصولها إلى قرية برير قرب المجدل في أراضي 1948م، وكان ترتيب الشهيد الثالث بين أخوته الذكور وقد سماه والده بهذا الاسم تيمناً بالقائد عماد الدين زنكي الذي حارب الصليبيين في بلاد الشام وفلسطين حتى ارتقى شهيداً.

ثانياً: التعليم فكرة مقدسة في الوعي الفلسطيني

يتألق الشعب الفلسطيني بتقديس مبكر للعلم، إذ يعد من أقل الشعوب العربية أمية. وعلى الرغم من ظرفه القاهر وتعرضه للاحتلال الغاشم فإنه ظل واقفا على عتبة العلم يحتمل الجوع في سبيل بلوغ أبنائه مراتب المعرفة لقناعته بأن العلم هو سلاح المواجهة الذي تبقى في أيديهم صامدا لمواجهة طوفان توغل التهميش والفناء الممنهج للشعب الفلسطيني، وقد سطر التاريخ لهم أنهم رغم المخيمات والجوع والفقر لم يخرجوا أبناءهم من المدارس للعمل والتجارة بل ألحقوهم بمدارس الأونروا دافعين تكاليف الدراسة من لقمتهم وكد زنودهم.

التحق عماد بإحدى المدارس الابتدائية في المخيم فكان النبوغ واضحاً عليه، حيث كان من بين الخمسة الأوائل في المدرسة. ثم انتقل إلى المرحلة الإعدادية

بنفس التفوق ثم إلى الثانوية حيث ظهر أثر التربية المسجدية في شخصيته حيث تميز بتفوقه في مادة التربية الإسلامية إضافة إلى حبه لمادة الجغرافيا حيث كان معلم المادة يسند له بعض المهام للمساعدة في شرح المادة.

تقدم عماد عقل لامتحان الشهادة الثانوية العامة (التوجيهي) تحفه دعوات والديه، ويقينه بتوفيق الله واستعداده المتوج بالدراسة، شاء الله أن لا يضيع له جهد، ويوفقه بدعوات والديه حيث حصل على الترتيب الأول على مستوى المدرسة، والمخيم بل المناطق المجاورة للمخيم أيضا.

بعد ذلك تقدم بأوراقه وشهاداته إلى معهد الأمل في مدينة غزة لدراسة الصيدلة، إلا أنه ما أن أتم إجراءات التسجيل ودفع الرسوم المقررة حتى اعتقلت القوات الصهيونية، في 1988/9/23م، وقدمته للمحاكمة بتهمة الانتماء لحركة (حماس)، والمشاركة في فعاليات الانتفاضة المباركة، فقضى الشهيد عماد عقل 18 شهرًا في المعتقل، ليخرج في شهر مارس/آذار 1990م، غير أنه خرج من سجنه وهو أكثر إصراراً على إكمال علمه داخل غزة أو خارجها.

وفي العام الدراسي 1991-1992م تم قبول عماد في كلية حطين في عمّان قسم الشريعة بعد أن قام أخوه الذي سبقه للجامعة بترتيب أوراقه وتجهيز السكن لاستقباله، وقبل سفره بأيام وصل له خبر قلب حياته رأساً على عقب، واخبر والده بأنه تراجع عن السفر لأن أحد زملائه تم اعتقاله وخشي عماد أن يكون صاحبه قد ذكر اسمه أثناء التحقيق معه، فخشي أن يعتقل من قبل الجيش أثناء مروره على المعبر «وأضاف والده»: حاولت أن أقنعه بأن يسافر قبل أن يعترف عليه زميله المعتقل ويستغل الوقت فرد علي قائلاً: لن أسافر وأنا منذ هذه اللحظة مطارد من قِبل جيش الاحتلال فخرج من المنزل ولم يكن معه أية قطعة سلاح يحمي بها نفسه وأكد لي عماد قبل خروجه انه لن يسلم نفسه واختار إما النصر أو الشهادة.

ثالثاً: أصول البناء التربوي



نشأ عماد عقل وتربّى على طاعة الله في بيت متدين، ويكفي القارئ أن يعرف أن والده -رحمه الله- كان يعمل مؤذنا لمسجد الشهداء في مخيم جباليا لتتكون في مخيلتك كيف تربي هذا الشبل؟ نعم، لقد تربى في بيت يفتخر بانتمائه للإسلام العظيم بل ويعمل على رفع شأنه في مساجد الله. نشأ عماد بين أكناف المسجد من صغره فكان حب العبادة والصلاة والتقرب إلى الله واضحا عليه منذ صغره وهذا من آثار التربية الصالحة للأهل.

لبنات التميز

أولاً: القيادة الفطرية

بعض الناس يولدون بصفات فطرية؛ منها القيادة والقدرة على تحريك الجماهير، وجمع الناس حولهم، وهي هبات إن توجهت في الخير كان لها آثار مباركة. وقد كان عماد في الصف الأول الثانوي ولكنه مع ذلك كان قادراً على تجميع أشبال المسجد حوله يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى طريق الحق ويزرع فيهم حب دينهم ووطنهم ويحرضهم على مقاومة المحتل في مخيم هو مخيم الثورة.

ورغم حداثة سن هذا الشبل فإن الرائي له كان يشعر بوجودِ صفاتِ القيادة. حيث اتصف بصفات كثيرة أبرزته لقيادة العمل، ومن هذه الصفات التي جعلته يتصدر من هو أكبر منه سنا صفات أهمها على الإطلاق، الجدية، والشجاعة المنقطعة النظير، وتفاعله الحقيقي مع هموم الأمة والدعوة، ناهيك عن تفوقه وتميزه الدراسي، والثقافة الكبيرة وسرعة الحفظ وفن الإلقاء، وفوق ذلك كله حرقته للعمل والجهاد في سبيل الله بما توفر بين يديه من إمكانيات والسعي لتطويرها.

ثانيا: ثبات الفكرة

لقد قيل (بقدر سمو الدعوة و سعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها، و ضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها، و جزالة الثواب للعاملين)، وقد كان ذلك إيمان عماد عقل وبه كان ثباته على أرض الجهاد وعليها عاش ومات، إذ بعد أن فشلت أجهزة المخابرات الصهيونية في الوصول إلى جنرال حماس وتصفيته لجأت إلى أسلوب آخر وهو المساومة حيث أن رئيس الوزراء الصهيوني رابين اتصل بأهله وعرض عليهم أن يخرج عماد إلى مصر أو الأردن بسلام على أن يعود بعد ثلاثة سنوات دون أن يقدم إلى المحاكمة فرد بطل الإسلام عماد ردا يدل على امتلاء القلب بالفكرة التي قام لأجلها، رد «إن رابين لا يستطيع أن يمنع شابا قرر أن يموت».

كانت فترة سجنه على قسوتها ترسم ملامح رجولته؛ ليخرج من زمن السجن أسدا ستشهد صولاته روابي فلسطين العظيمة، خرج الأسد من عرينٍ هو مصنعُ البطولةِ ليشهد له الجميع بقوة شخصية وقيادته الحازمة.

وفي أثناء سجنه قال كلمة لها دلالات عظيمة أخذت طريقها للتنفيذ فور خروجه من السجن، حيث سأله الضابط الصهيوني قبل الإفراج عنه ماذا

تعلمت من السجن، فرد عليه عماد بقوله:«تعلمت أن لا أعود إلى هنا مهما كانت الظروف». وقد كان كما قال، فما عاد عماد إلى السجن بل ظل مثل سيف مسلول للّه استل من غمد التاريخ، وأقسم أن يثخن في جراح العدو. لقد جعل حياته قسما وبرَّ به يوم قال: (سنقرع ابواب الجنة بجماجم اليهود) كانت أمنيته أن يحول (الشعب الإسرائيلي إلى رهائن) ولطالما رددها بقوة الحق الذي سكبته قوة الله فيه قائلاً: (نقول للحقير رابين: إن معتقلينا لن ننساهم أبدا، هؤلاء المعتقلون هم أعضاء في أجسادنا، سنخطف متى نشاء، و سنقتل متى نشاء، و سنفجر السيارة المفخخة متى نشاء، وسنطعن بالسكين متى نشاء).

قال المفكر الإسلامي محمد الغزالي: (إن الأمة التي تستثقل أعباء الجهاد والكفاح وتتضايق من مطالب الجهاد إنما تحفر لنفسها قبرها وتكتب على بنيها ذلاً لا ينتهي آخر الدهر) ! تبدو ضريبة الجهاد عالية لكنها أهون من موت يتكرر، أهون من موت لا يتوقف، أهون من انكسارنا كل يوم!

وقال صاحب الظلال: «إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة... هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون»[1].

1- في ظلال القرآن - سيد قطب- ج3 ص1684.

ثالثاً: علو في الحياة وفي الممات

ورد في الأثر عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مُقَامُ الرَّجُلِ فِي الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»[1]، وكان السلف الصالح يقول: (أيها المغرور، وإن نوم المجاهد أفضل من قيام الليل وصيام الدهور).[2]

لقد كان عماد عقل يؤمن بذلك إيماناً شكل كل مسيرة حياته إذ كان يعلنها بوعي المؤمن الثائر (إن الجَهاد هو الصلاة السادسة لنا، الجهاد هو الصلاة السادسة لنا، نحن نأكل ونشرب ونصلي ونجاهد، إن قتل اليهود عبادة نتقرب بها إلى الله)، لذا استحق أن يرعب إسرائيل!

ولهذا كانت ردة الفعل الصهيونية على مقتل «عقل» مدوية باعتبار أنه «دوّخ الصهاينة وأرعبهم»، حيث قال رابين: «إنّ مقتل عماد عقل يمثل إنجازًا مؤثرًا وهامًا في الحرب ضد (الإرهاب)».

وقال أحد قادة «الشاباك» وقتها: «إن مطاردة عقل كانت من العمليات الصعبة والمعقدة والمحبطة في تاريخ عمليات المطاردة التي قام بها جهاز الأمن الصهيوني «الشاباك» منذ تأسيسه».

وقال أحد ضباط القيادة في رئاسة أركان الجيش الصهيوني: «كان من أخطر المطلوبين الذين عملوا في قطاع غزة، رجل ميداني بارع لم يخش شيئًا... كان من الخطورة بمكان الاصطدام به ليلاً».

1- صححه الألباني برقم: 5886، صحيح الجامع للألباني.
2- المعجم الأوسط-الطبراني-ج8 ص358: دار الحرمين – القاهرة.

رابعاً: السرية العالية

كان أكثر ما ميز الشهيد رحمه الله في العمل هو كتمانه الشديد وحرصه على السرية، لدرجةِ أنه يُخفي حقيقة أمر ما، رغم أنه هو المسئول المباشر عن هذا الموضوع، لكنه يظهر أمامك وكأنه لا علاقة له بالأمر المطروح للنقاش ولا يعرف عنه شيئا، وتلك والله طاقة نفسية عالية لا يقدر عليها إلا الأبطال الذين عاشوا لفكرة خارجة عن ذواتهم.

تاريخ البطولة

تتناثر سيرة عماد عقل مثل قطرات مطر كل قطرة كأنها شلال سنابل من الخير الذي يفور ولا يغور، تحتشد القطرات، تتجمع فتصنع لسفينة المقاومة مجراها ومرساها. سيرة عماد عقل هي تاريخ بطولة تحدت العوائق وانطلقت تصنع لنا بتاريخها تاريخا. وفي النقاط التالية استعراض هادئ للعمر الذي امتلأ حتى كأنه من كثرة ما فيه كان أعمارا، وقال ابن عطاء الله السكندري: «رُبَّ عُمُرٍ اتَّسعت آماده وقلت أمداده، ورُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آماده، كثيرة أمداده، ومن بورك له في عمره، أدرك في يسير من الزمن، من المنن ما لا يدخل تحت دائرة العبارة ولا تلحقه ومضة الإشارة».

1- الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين

انتمى عماد عقل للحركة الأكثر التزاما على الساحة الفلسطينية حيث عايش عماد كل أحداثها وعايش رجالاتها وعرفهم عن قرب. لذا بايع عماد جماعة الإخوان المسلمين وهو في الصف الأول الثانوي وكان من أوائل الـ50 عضواً بجماعة الإخوان في منطقته والتي كانت قليلة العدد فيمن انتمى للحركة الإسلامية.

ورغم حداثة سنه إلا أنك تراه جندياً في صفوفِ الإخوان، فيتبادر لذهنك أنه في هذا الميدان منذ سنوات عدة، لكنه في حقيقة الأمر كان شبلاً بايعَ حديثا جماعة الإخوان، فهو إنسانٌ متفانٍ في عمله، مخلص في أدائه، يدفعه حبَّ دينه ووطنه إلى العمل من أجل تحرير هذه البلاد من دنس بني صهيون.

2- المشاركة في التأسيس لجهاز (ردع وتصفية العملاء)

ما أن أنطلقت الانتفاضة الفلسطينية والتي كانت شراراتها الأولى من مخيم عماد عام 1987م حتى تقدم الشهيد الصفوف مشكلاً المجموعات من الشباب المسلم في المخيم لملاحقة جنود الاحتلال وقطعان المستوطنين، وشارك رحمه الله في البدايات بكتابة الشعارات الجدارية ضد العدو الصهيوني، وعرف عنه ولعه الشديد بالمظاهرات والمسيرات الاحتجاجية، فشارك في الكثير من فعاليات الانتفاضة ضمن مجموعات السواعد الرامية التي تكونت في المخيم بعد انبثاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس) جناحاً ضارباً (لجماعة الإخوان المسلمين) في الضفة الغربية وقطاع غزة.

وما أن شكلت حماس جهازها الأمني في منطقة شمال غزة، والذي كانت مهمته في البدايات رصد العملاء والأماكن المشبوهة وتحركات قوات الاحتلال، حتى كان عماد ضمن هذا الجهاز بعد اجتيازِ اختبارٍ عملي من قيادة الجهاز بنجاح [1].

من هذه النقطة بدأت رحلة عماد في العمل الأمني، وانطلق بقوة صقر يصطاد العملاء بذكائه، ووافق على العمل في هذا القسم مضطراً لعدم توفر سلاح، وقال:«في حال توفره سأكون أول من يحمل السلاح ويطلق النار على اليهود، ولا أريد العمل في مجال العملاء بالمطلق».

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=917400

ولقد بدأت السكاكين المتوضئة والخناجر الموحدة تلاحق رقاب العملاء مُنزلةً فيها حكم اللّه ليرتفع لواء القسام على ثرى غزة، وعملت المجموعة على خطف العملاء والتحقيق معهم، حيث كانت تستفيد مما لديهم من معلومات وتسجل اعترافاتهم على أشرطة تسجيل كوثائق للإدانة وأدلة لا يمكن إنكارها، ثم تنفذ حكم اللّه فى العميل إذا رفض التوبة. وكان لهذه العمليات الناجحة وقع بالغ عند الجماهير لما لها من أثر واضح في تطهير المجتمع من العناصر الفاسدة التي سممتها المخابرات الإسرائيلية، وظل الناس يتابعون في شغف عمليات الكتائب التطهيرية في غزة وجباليا والشيخ رضوان ومخيم الشاطئ.

3- المشاركة التأسيسية في العمل العسكري

حين توفرت الظروف على تمكين المجاهدين من السلاح انتقل عماد عقل مباشرة إلى العمل العسكري المسلح بل إلى قيادة هذا العمل، وذلك لما تميز به -رحمه اللّه- من فطنة وخفة حركة إلى جانب حذره واستعداده الدائم.

ورغم شح السلاح وعدم توفره فهذا لم يمنع عماد ومجموعته من العمل المقاوم اذ كانت أول باكورة أعمالها هي إلقاء 80 زجاجة مولوتوف على مركز شرطة جباليا والتابع لسلطة الاحتلال، رغم الإجراءات الأمنية المعقدة من قبل قوات الاحتلال إلا أنهم لم يتمكنوا من اكتشاف المجموعة المنفذة.



إلا أن عشق العمل المقاوم دفع عماد والمجموعة للتفكير في

الحصول على السلاح بأي وسيلة، ففكر في خطف أحد كبار العملاء المسلحين للحصول على سلاحه، ورغم الخطة المحكمة إلا أن العميل المخضرم كان شديد الحرص وسريع الحركة حيث شك في المجموعة وحاول الفرار من المكان، وبشجاعة هجم الشهيد غسان أبو ندى على سيارة العميل محاولاً السيطرة عليها غير أن العميل أطلق النار عليه فارتقى شهيداً.

هنا أخذت الأمور منعطفا آخر، فلم تعد الأمور كما كانت قبل استشهاد غسان، حيث جرت الأمور على غير ما خُطط، فكان لها ما بعدها من أحداث فارقة ومهمة.

نعم لقد كان الرحيل المفاجئ لغسان وخاصة أنها المرة الأولى التي تكون فيها مواجهة مباشرة مع شخص مسلح، حيث احدث إشكالية كبيرة وهي كشف المجموعة، حيث طلب المجاهد المرحوم مجدي حماد من المجموعة أن يخرجوا إلى مصر لأنهم أصبحوا مطلوبين لقوات الاحتلال، فاتفقوا على عدم المبيت في البيوت خوفا من اقتحام قوات الاحتلال لبيوتهم ولمراقبة مجريات الأمور وما تؤول إليه، وحدث ما كان متوقعاً بالفعل، حيث داهمت قوات الاحتلال كافة منازل المجاهدين ولم تجد أياً منهم وبالتالي أصبحوا مطاردين في حين اُعتقل المجاهد مجدي حماد على الحدود المصرية ومجاهد آخر أثناء محاولتهم الخروج ونتيجة للتعذيب الشديد اعترفا على كافة أفراد المجموعة بمن فيهم الشهيد عماد فأصبحوا جميعا مطاردين ومطلوبين لقوات الاحتلال.

حاول بعض أفراد المجموعة إقناع عماد بتسليم نفسه وخاصة أنه لا يوجد عليه اعتراف واضح، وأقسى حكم سيكون سبع سنوات حسب الاعترافات التي لدى قوات الاحتلال، ثم اقترحوا عليه الخروج من غزة، وذلك لشح السلاح، فرفض -رحمه الله- أن يغادر الى خارج الوطن ونقل عنه عند بداية مطاردته قوله: «من الآن فصاعدًا فأنا مطارد للاحتلال، وسوف أذيقهم العلقم بإذن الله».

عاش الشهيد البطل عماد عقل مع إخوانه المطاردين حياة الأُخوة بمعناها الحقيقي، ومما يسجل للشهيد ما يرويه أحد الإخوة المجاهدين الذين عرفوه، إذ يقول: «في أحد مكامنه كنت وأحد الإخوة معه فقمنا نصلي، ففضّل البقاء في حراستنا ثم صلى بعد ذلك؛ حتى لا نؤخذ على حين غرة، كان خلال ذلك يتحرك في الغرفة جيئة وذهابًا، وكأنه يفكر في أمر يشغله، وصنع بعدها لنا الطعام فلم يتناول سوى لقيمات قائلاً: لا أريد الإكثار حتى لا أتثاقل إلى الأرض، فيشغلني ذلك عن مقارعة أعداء الله»[1].

تاريخ يستحق التوثيق

هنا نؤرخ لأول عملية عسكرية تم إطلاق النار فيها على جنود الاحتلال وكان ذلك بعد معاناة الحصول على السلاح حيث تمكن بعض المخلصين من شراء أول قطعة سلاح من شخص بدوي وهي قطعة سلاح من نوع كارلوستاف ثم تم توفير قطعة سلاح أخرى وهكذا....

وحين اكتملت العدة من وجهة نظر القائد عماد وجب التخطيط لعملية عسكرية يوجع بها الصهاينة، فبدأ التخطيط بعد رصد الهدف ومراقبته وتوزيع الأدوار وتحديد المشاركين في هذه العملية، حيث تم توزيع عماد وآخر في إطلاق النار والبطل الثالث أوكلت له إلقاء قنابل يدوية محلية الصنع وبرفقتهم السائق المحترف.

كانوا أربعة مشاركين انطلقوا إلى الهدف وهو موكب قائد الشرطة الإسرائيلية في قطاع غزة الميجر جنرال يوسي افني، وبالفعل بدأ الاشتباك حيث تمكّن عماد من إطلاق النار على سيارة قائد الشرطة في حين توقف السلاح مع

1- http://islamstory.com

المجاهد الآخر، ولم يطلق النار، بينما ألقى المجاهد الثالث القنابل، وكانت المفاجأة أنها لم تنفجر غير أنهم أوقعوا إصابات محققة في سيارات الموكب بعد أن أصيبت بأربع وعشرين رصاصة، ودون أن يتمكنوا من الرد على مصدر النيران، وانسحب المجاهدون بسلام من المنطقة دون أي إصابات، في حين اعترفت قوات الاحتلال بإصابة الميجر يوسي افني بإصابة متوسطة ومعه آخرون.

رغم كل ما حدث من إشكاليات في هذه العملية إلا أنها كانت ناجحة، وكانت الفرحة مرتسمة على وجه عماد كثيرا، وكانت دافعا للجميع للاستمرار وعززت القناعة «أن أسطورة الجيش الذي لا يقهر» قد انتهت منذ خروج أول رصاصة من رشاش عماد.



توالت العمليات البطولية واحدة تلو الأخرى فاستهدفت المجموعة قتل رجل المخابرات الإسرائيلي الذي كان يعرف في منطقة بيت لاهيا بأنه تاجر خضار ومواشي لكنه كان ضابطا كبيرا اسمه ديفيد كوهين، ثم عملية استهداف نقطة المراقبة في مركز شرطة جباليا ونفذها الشهيد عماد عقل وحده.

في تاريخ 1992/5/22م انتقل إلى الضفة الغربية وعمل على تشكيل مجموعات جهادية هناك، حين اخبره الشهيد صلاح جاد الله بوجود مجموعات من

الشباب في الضفة يتمنون انتقال تجربة العمل العسكري لهم في الضفة وهم جاهزون للعمل، وبالفعل تحرك عماد سريعاً إلى شطر الوطن بعد تجهيز هوية مزورة حيث تمكن من اجتياز حاجز بيت حانون برفقة الشهيد صلاح كمواطن دون أن يكون معه سلاح وبمجرد وصوله للضفة الغربية ظهر أمام شباب الضفة على انه طالب جاء للدراسة من غزة مكث عماد هناك 15 يوماً لاستطلاع الأوضاع ثم رجع لغزة بعد أن رأى الأمور مشجعة هناك للعمل العسكري أكثر وبصورة أسهل وخاصة أن السلاح متوافر هناك أكثر.

وبالفعل تم الاتفاق مع الشهيد صلاح على نقل العمل إلى الضفة، وبعد أسبوع انتقلت كل المجموعة إلى الضفة المحتلة والتقوا جميعا في ساحات المسجد الأقصى المبارك، وقاموا باستئجار شقة في منطقة العيزرية وتواصلوا مع الشيخ المجاهد صالح العاروري وبدأت رحلة المقاومة في الضفة منذ تلك اللحظة.

رغم الصعوبات التي وقعت بها المجموعة في بداية العمل في الضفة، وخاصة اعتقال جزء منها إلا أن ذلك لم يثنِ البقية عن إكمال المسيرة، وتحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله، فطلب عماد من معاونيه من شباب الضفة ترتيب مغارة مناسبة لتكون مقراً للتدرب على السلاح، وعندما تم ترتيب أمر المغارة، بدأ تدريب الشباب الذين تم فرزهم من بين صفوف نشطاء الحركة على السلاح وتنظيمهم في إطار كتائب الشهيد عز الدين القسام باسم (مجموعة شهداء الأقصى)، وبهذه المجموعة المجاهدة، مضى الشهيد القائد في ثبات وتفاعل رغم كثرة التبعات وجسامة التحديات ولسان حاله يصرخ لن أترك أحفاد القردة والخنازير آمنين يعبثون ويفسدون، وإذا كان (عماد) قد تولى مسؤولية قيادة كتائب القسام في مدينة الخليل، وما يتبع هذه المسؤولية من إشراف على تجنيد المجاهدين وتدريبهم على استخدام الوسائل القتالية وإعدادهم للقيام

بعمليات ضد قوات الاحتلال، إلا أن ذلك لم يحل دون مشاركته في العمليات العسكرية الجريئة التي نفذتها مجموعة شهداء الأقصى تخطيطاً وتنفيذاً.

في تلك الفترة قام الشهيد عماد بتنفيذ العديد من العمليات النوعية ضد قوات الاحتلال في مدينة الخليل أبرزها عملية الحاووز والتي قَتل فيها جنديين اسرائيليين بالقرب من الحرم الابراهيمي الشريف.

عاد من بقي من المجموعة التي رافقت عماد للضفة إلى غزة وبقي عماد لوحده يقود العمل الجهادي من الخليل، ونفذ عدداً من العمليات هناك. وكان -رحمه الله- يتميز بحذره وحرصه الزائد وكان يجب الاستفادة من أخطائه ويتعلم منها خاصة فيما يتعلق بضبط أعصابه والتروي في التفكير والتنفيذ.

بدأت المجموعة الجديدة تعمل تحت اسم مجموعة شهداء الأقصى، ففي الحادي والعشرين من تشرين أول 1992م هاجمت مجموعة الشهيد القائد بالأسلحة الأوتوماتيكية سيارة من نوع رينو 5 عسكرية كانت تسير على طريق الظاهرية باتجاه مدينة الخليل مما أدى إلى إصابة كل من كان فيها إصابات مختلفة. وبعد أربعة أيام فقط من تنفيذ هذه العملية البطولية نفذت المجموعة نفسها عملية ثانية وهي عملية وصفها أحد الضباط في جيش الاحتلال بأنها من أجرأ العمليات التي استهدفت المواقع العسكرية الصهيونية. وقد اعترف الناطق العسكري بمقتل ضابط في هذه العملية.

أثار هذا النشاط الملحوظ لخلية شهداء الأقصى مخاوف الجانب الإسرائيلي، مما دفعه إلى تعزيز قواته في منطقة الخليل وزرع عشرات من العملاء بغية الوصول إلى طرف خيط يقوده إلى هذا الشبح المرعب، وبعد حملة مسعورة من الملاحقة والاعتقال التي طالت العشرات من أبناء حماس في تلك المنطقة تم اعتقال بعض أفراد المجموعة، أما بقية الأفراد فقد لحقوا بركب المطاردين.

أسفرت التحقيقات التي أجراها جهاز الشاباك بالتعاون مع جيش الاحتلال عن الكشف عن علاقة القائد عماد عقل بمجموعات الخليل ودوره ضمن البناء الهيكلي والتنظيمي للجهاز العسكري في حركة حماس بالضفة الغربية مما جعل إقامته صعبة للغاية.

هنا كانت مهمة القائد قد انتهت في الضفة الغربية لتبدأ رحلة العودة إلى مركز الدائرة، لذا غادر الشهيد مدينة الخليل في الثالث والعشرين من تشرين الثاني 1992م متجها إلى قطاع المجد والبطولة، استطاع عماد اجتياز كافة الحواجز العسكرية ونقاط التفتيش التي أقامها جيش الاحتلال ودخل عبر بوابة حاجز إيرز الذي يربط القطاع بالمناطق المحتلة عام 1948م متخفياً في زي مستوطن يهودي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على جرأة وشجاعة منقطعة النظير ناهيك عن مقدرة فائقة على التأقلم وسرعة البديهة.

وما أن وصل إلى قطاع البطولة حتى بدأ فصل آخر في معركة التحدي يرتسم بخيوط متشابكة معقدة. ليدخل العابر الجديد دائرة الشبح الأسطوري المقلق في عرف جنرالات الغدر الصهيونية، ولم يكن القطاع آنذاك أخف وطأة مما كانت عليه الضفة الغربية، فعمليات القسام القاسية والمتتابعة حولت ليل المحتل إلى نهار وفرضت علية حالة من الاستنفار الدائم. وبدأت همجيتة المقيتة تزداد بشاعة وجنونا[1].

بعد أن فشلت أجهزة المخابرات الصهيونية في الوصول إلى جنرال حماس وتصفيته، لجأت إلى أسلوب آخر وهو المساومة، حيث إن رئيس الوزراء الصهيوني رابين اتصل بأهله وعرض عليهم أن يخرج عماد إلى مصر أو الأردن بسلام، على أن يعود بعد ثلاثة سنوات دون أن يُقدّم إلى المحاكمة، فردّ بطل الإسلام عماد عقل بقوله: «إن رابين لا يستطيع أن يمنع شابًّا قرر أن يموت».

1 http://www.aqsaa.com/vb/archive/index.php/t-3987.html

وهكذا أخذ عماد بندقيته ليكتب بها الرد العملي على عرض رابين، ففي ليلة الخامس والعشرين من شهر نوفمبر عام 1992م، وعلى مدخل حي الشيخ رضوان في غزة أردى برصاصه جنديا صهيونيا، وبعدها بشهر كان يربض أمام مفرق الشجاعية في مدينة غزة ليصرع ثلاثة من الجنود بينهم ضابط كبير، وفي نفس المفرق وبعد حوالي شهر استطاع أن يصيب اثنين من جنود الصهاينة، وفي شهر مارس كانت رصاصاته تخترق أجساد ثلاثة من جنود الاحتلال في جباليا، وفي غرب الشيخ رضوان عند منطقة السودانية، كان عماد هناك وذلك في 1993/3/20م ليصرع ثلاثة من جنود الاحتلال ثم قفز إلى حي الزيتون ليقتل ثلاثة آخرين، وهكذا نفذ عماد خلال سنتين من المطاردة أكثر من 40 عملية، منها إطلاق نار على الجنود والمستوطنين، وخطف العملاء والتحقيق معهم وقتل العديد منهم.

عُرف الشهيد القائد بخفة حركته وسرعة بديهته وخبرته العسكرية التي أذهلت القادة العسكريين الصهاينة، وجعلتهم يعدونه أخطر مطاردي الضفة وقطاع غزة، حتى أطلقوا عليه اسم (المطارد ذي الأرواح السبعة)، وذلك لتمكنه من الإفلات من قبضة جيش الاحتلال أكثر من سبع مرات، رغم وجود عشرات الحواجز العسكرية في الطرقات ووجود صورة الشهيد لدى الجنود والضباط الصهاينة.

إنجازات عظيمة في أرقام

خسائر العدو البشرية (حسب مصادر العدو) في العمليات التي شارك الشهيد فيها.

- 1992/4/5م –الشيخ عجلين – غزة تحطيم سيارة مخابرات وإصابة ركابها.
- 1992/10/21م – منطقة الحاووز – الخليل أربعة جرحى بينهم ضابطة.
- 1992/10/25م – موقع عسكري – الخليل مقتل جندي وجرح آخر.
- 1992/11/25م – الشيخ رضوان – غزة مقتل جندي.
- 1992/12/7م – طريق الشجاعية بيت لاهيا ثلاثة قتلى بينهم ضابط.
- 1993/2/12م – مفترق الشجاعية – غزة جريحان.
- 1993/3/12م – الطريق الشرقي للشجاعية–غزة أربعة جرحى.
- 1993/3/20م – مقبرة الشهداء – جباليا ثلاثة قتلى وأربعة جرحى.



- 1993/5/28م – غرب الشيخ رضوان – غزة سبع إصابات.
- 1993/5/30م – حي قرقش (المشاهرة).
- 1993/9/12م – حي الزيتون – غزة ثلاثة قتلى.
- 1993/10/19م بيت لاهيا جريحان.

الخاتمة المباركة: الشهادة

قال الفضيل بن زياد: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل – وقد ذُكر له أمر جهاد العدو – فجعل يبكي ويقول: (ما من أعمال البر أفضل منه فليس بعد لقاء العدو شيء. ومباشرة العدو بنفسه أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدو هم الذين يدافعون عن الإسلام وعن حريمهم فأي عمل أفضل منه ؟ الناس آمنون وهم خائفون، قد بذلوا مهج أنفسهم).

وتلك هي خلاصة المعنى، إذ الناس في أمنهم والمجاهدون يبذلون أعمارهم كي تظل البوابات مغلقة في وجه التتار الجدد، يصفدونها بسلاسل السعي ويرابطون على ثغور الأمة كلها حتى لا تجتاحها جحافل المغول، يقبلون دون تلكؤ، ويقفون بصمود يصد عن الأمة كلها فيح التتار، يسكبون دمهم طوفانا يغرقون به الجحافل الظالمة، ثم يبقون مسكهم بيننا عبيرا يهدينا إلى مواطن النعيم.

كان يوم الأربعاء الموافق 1993/11/24م، هو توقيت اللقاء بالخاتمة المباركة الشهادة، كان الشهيد في بيت خنساء فلسطين أم نضال فرحات يتناول إفطاره حيث كان صائما مع بعض رفاقه في حي الشجاعية، شعر الشهيد البطل بأن بيت (أم نضال فرحات) محاصر من قبل قوات كبيرة من الجيش وحرس الحدود لم يشهد لها سكان الشجاعية مثيلاً من قبل، حيث قدرت بأكثر من (60) سيارة عسكرية من مختلف الأنواع والأحجام، إضافة لسيارة إسعاف عسكرية وسيارة



لخبراء المتفجرات وطائرة مروحية حلقت فوق المكان إلى جانب عدد كبير من سيارات الوحدات الخاصة، وشمل الحصار العسكري الذي شارك فيه المئات من الجنود الصهاينة وعدد من ضباط الاستخبارات بقيادة قائد المنطقة الجنوبية كافة أنحاء المنطقة الشرقية من حي الشجاعية ومنطقة سوق الجمعة واعتلى العشرات من هؤلاء الجنود أسطح المنازل المحيطة بالمنزل الذي تحصن فيه الشهيد القائد.

هذه اللحظات من تاريخ المقاومة بل من تاريخ الأمة لأن تاريخ عماد هو تاريخنا جميعا، تصفها لنا أم نضال فرحات «خنساء فلسطين» قائلة:«جاء عماد إلى المنزل قبل المغرب بساعة لكي يأخذ غرضا من الغرفة الخاصة به والمجاهدين على أن تأتي السيارة لتقله بعد ساعة، وجلس مع أبنائي كعادته، ودخلت سلمت عليه وسألته عن أحواله -فإذا بي أرى نورا يشع من وجهه لم أره من قبل-وعلمت حينها أنه صائم فأبينا عليه الخروج إلا بعد الإفطار عندنا فجلس وأخذوا يتبادلون الحديث».

وأشارت هنا إلى أن أبناءها أخذوا يحدثونه عن الشهادة وكأنهم على علم بأنه سيلقى الله بعد لحظات، موضحة أن ابنها مؤمن قال لعماد في تلك اللحظات:

«والله يا عماد إنني رأيتك الليلة وقد استشهدت، فتأثر عماد بالكلمات وقام ووقف بزاوية الغرفة ودعا دعاءً طويلاً وبعدها أخذ ينظر في كل زاوية من زوايا الغرفة التي كان يجلس فيها والمجاهدين ويتذكر الأسرى منهم والشهداء. وبعدها أتيت بالطعام وأفطر وأثناء ذلك وقبل استشهاده بلحظات قال له نضال ممازحاً: متى ستستشهد يا عماد وأحمل جسدك وهو مخردق بالرصاص؟».

وتابعت أم نضال:«بعدما انتهى من تناول طعام الإفطار أراد مغادرة المنزل، فقلت له: اشرب الشاي ومن ثم اخرج وكنت حينها أرتدي ملابس الصلاة وصليت المغرب وما أن سلمت من الصلاة حتى كان صوت المكان يبعث على وجود شيء، فنظر نضال من النافذة ليجد الوحدات الخاصة وجيش كامل محاصراً المنزل من جميع الجهات، حيث إننا حاولنا أن نخرجه من الباب الخلفي فوجدناهم عنده وحاولنا أن نذهب به إلى الغرفة المختصة (الخندق) وإذا بالجنود بالقرب منها، وأخذنا نسعى إلى وسيلة لإنقاذ عماد، ماذا نفعل وأين نذهب بك يا عماد؟، وتشير هناك إلى أنه في تلك اللحظة لم أفكر في أحد من أبنائي سوى الحفاظ على حياة عماد -رحمه الله- وحينها أحسست الأرض وكأنها ضاقت علينا بما رحبت».

وتكمل ام نضال: «لقد كان الموقف صعباً جداً، فبعد استنفاذ كل الوسائل جاء نضال وقال لعماد ليس لك إلا الشهادة، فاحتضنوا بعضهم وأوصى نضال بأن يبلغ الشباب بسداد الدين عنه، وصلى ركعتين في صالة البيت ودعا ومن ثم خرج إلى أعلى المنزل، فخرجت وبناتي خلفه وأخذنا نكبر، فودع أولادي ودعا دعاء ونظر إلينا وكبر ونزل عن سور المنزل وهو يكبر وكان هناك اثنان من العملاء فأطلق عليهم النار من مسدس عيار 14 ملم كان بحوزته فأصابتهم والجنود، وما أن رآه جنود الاحتلال حتى قاموا بإطلاق النار الكثيف باتجاهه وظننا حينها أنه استشهد ولكنه رغم ذلك زحف حتى شجرة الزيتون خلف المنزل فرآه مجموعة أخرى من جنود الاحتلال فأفرغوا كل ما في مخازنهم النارية الحاقدة في جسده حتى سقط شهيدا بعد معركة استمرت قرابة الخمس ساعات.

أصابت إحدى القذائف المضادة للدروع الشهيد، حيث كانت الإصابة مباشرة في منطقة الرأس التي تناثرت إلى عدة قطع لدرجة أن الجزء العلوي من رأسه قد أزيل، وملامح وجهه لم تعد تظهر طبقاً لما رواه الشاب نضال فرحات (24 عاماً) الذي قام بنقل جسد الشهيد خارج المنزل، ويقول شاهد حضر دفنه:«وجدنا في جسمه 70 طلقة وعدة طعنات بالسكاكين».

أُمّـاهُ لا تَجْـزَعِـي فَـالحَـافِـظُ اللّهُ .:.:. إنّــا سَـلَـكْـنـا طَـرِيـقًـا قـد خَـبَـرْنَـاهُ
أُمّـاهُ هَذَا طَرِيقُ الحَقّ فَابْتَهِجِي .:.:. بِمُـسْـلِـمٍ بَـاعَ لِـلـرّحْمَـنِ دُنْـيَـاهُ
هَزِئْتُ بالأَرْضِ والشّيْطَانُ يَعْرِضُهَا .:.:. فِي زَيْـفِـهَـا بِـبَـرِيـقِ الـذُّلّ حَـلاّهُ
عَشِقْتُ مَوْكِبَ رُسْلِ اللهِ فَانْطَلَقَتْ .:.:. رُوحِـي تَحَـوّمُ فِي آفَـاقِ رُؤْيَـاهُ
أُمّـاهُ بَايَعْتُ رَبّـي وَاعْتَصَمْتُ بِـهِ .:.:. مَـا كُـنْـتُ أَعْـرِفُ دَرْبَ الخَـيْرِ لَـوْلاهُ
أُمّـاهُ ذَلِـكَ دَرْبِـي قَـدْ أَمُـوتُ بِـهِ .:.:. فَـلا يَـسُـوؤُكِ كَـأْسٌ إنْ شَـرِبْـنَـاهُ
لا تَجْزَعِي لِفَتًى إِنْ مَاتَ مُحْتَسِبًا .:.:. فَـالْمَـوْتُ فِي اللهِ أَسْمَـى مَـا تَمَـنّـاهُ

هنيئا لك مقاما يشتهيه كل مؤمن، هنيئا لك مقاما يبلغ بك صحبة النبيين، هنيئا لك حياتك ومماتك فقد كانت كلها لله، وكفاك بذلك شرفاً وعزاً.

ولقد مكن الله لمجاهدي القسام بقيادة الشهيد القائد عوض سلمي (تلميذ عماد) من الانتقام لدماء عماد وبسلاحه الشخصي من قتل الكولونيل الصهيوني مئير مينز المسئول المباشر عن استشهاد عماد رحمه الله.

لقد تمكن الشهيد عماد عقل وحده من قتل اثني عشر جندياً صهيونياً خلال العمليات التي خاضها ضدهم وجعلت الهالك رابين يقول:ليتني أقوم من نومي لأجد قطاع غزة (عرين البطل عماد) قد ابتلعه البحر، بل إنه اضطر للذهاب بنفسه إلى أهل عماد ليساومهم على خروج عماد من فلسطين بسلام في رحلة نفي لمدة ثلاثة أعوام، فما كان من عماد إلا أن قال قولته المشهورة: «ماذا تريد

يا رابين أن تفعل، هل تقدر أن تمنع شاباً يريد الموت في سبيل الله؟ سأبقى في فلسطين حتى أنال الشهادة وأدخل الجنة».

وهو القائل «سنحاربهم (جنود الاحتلال) كما نحارب الشيطان وسيكون زادنا في المعركة حب الموت في سبيل الله وليس حب الحياة، هيهات أن يغلق باب الجهاد فهو عبادة، الجهاد هو كالصلاة لنا نأكل ونشرب ونجاهد». ولهذا لم يكن غريباً أن يقول عنه والده:«إنني فخور به وكفاني شرفاً أن أكون والده».

و مازالت كتائب عز الدين القسام ترابط على وعد النبي ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق). رواه مسلم، حتى تستيقظ بقية الأمة وتصبح اليقظة سلوكا لا حياد عنه، وتقدم كل ما تملك حتى تستحق أن يتنزل عليها وعد النصر، والحقيقة أنه قد (يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد، ولم يتم بعدُ تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً! قد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً، إلا وتبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله. قد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله. قد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء).

تقبل الله الشهداء وجعل سعيهم ودمهم

يقظة لأمة آن آوان قيامتها



سيرة القائد الشهيد
يحيى عياش
1966م - 1996م



على الكريم أن يختار الميتة التي يجب أن يلقى اللّه بها؛ فنهاية الإنسان لا بدّ أن تأتي ما دام قدر اللّه قد نفذ.





ما أن أذاع تلفزيون العدو نبأ الاغتيال حتى اهتزت فلسطين بكل أرجائها ودبت قشعريرة وسرى شعور حزين، وحاولت القلوب الفزعة أن تكذب أو تشكك، واهتزت الكلمات في الحناجر حين أعلنت حماس توقف عقل الفتى العاشق، وسكنت نبضات قلبه، فبكى كل شيء في فلسطين حتى كاد طوفان الدمع أن يغرق شوارع غزة وحارات نابلس وطولكرم والخليل. ومرَّ ليل الجمعة الباكية ثقيلاً على الجبال والوديان والناس بينما سكنت الأمواج في انتظارٍ حزين، وفي الصباح تراكض الباحثون عن وطنٍ نحو (رافات)[1]، يعانقون جدران منزل المهندس متوعدين بالثأر ومؤمنين على دعاء أم يحيى «قلبي وربي راضين عليك». وكم تمنى أولئك لو أنهم تشرفوا بتشييعه أو على الأقل مشاهدة وجهه أو ملامسة كفه، فيتعلمون كيف يضرب وكيف يصنع لنا الحياة. الشعب كله صار يحيى، وصار يحيى الشعب كله، فعظمة الشهادة والإنجاز أبت أن يكون المهندس ابن (رافات) وحدها ولا ابن حماس دون غيرها، فكما كان عمله وحياته لكل فلسطين من بحرها لنهرها جاء استشهاده ليملأ كل



1- رافات، قرية الشهيد يحيى عياش ومسقط رأسه في الضفة الغربية (، والزاوية)، (وبديا)…….

فلسطين بالأمل والرجاء، تماما كالبرق سطوعًا ليست انطفاءته إلا ميلاداً للحياة.[1]

يرتج القلم وتتوارى الحروف خجلا وتتصاغر الكلمات في حضرة القادة الشهداء، لكن الجرح النازف يحفز القلم للكتابة عن روح مباركة نقشت بدمها سطورًا قدسية، فيها معاني تدرك الأقدار أبديتها وتعلن السماء خلودها الأزلي.



1- http://www.alqassam.ps

أولاً: البطاقة التعريفية

يقال إن لكل امرئ من اسمه نصيباً ويحيى كتب حياته بلغة تليق بالشموس والنجوم! «يحيى» حيث الحياة في اسمه امتداد لا انتهاء له، وعياش وتلك صيغة مبالغة أهدته إياها الأقدار ليكتمل له المعنى اكتمالا!

ومن جميل أسرار القدر أن أباه حين ولد له هذا الطفل البكر في 6 مارس/آذار عام 1966م أسماه يحيى تيمنًا بنبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام، الذي سماه الله يحيى لعلمه (تبارك وتعالى) بأنه سيقضي شهيدًا وذلك معنى الاسم المبارك إذ الشهادة حياة لا مكان للموت فيها! ثم ألهم الله والد يحيى عياش تسمية المولود باسم شهيد الأنبياء ليبقى على الخطى المباركة ويسجل في ديوان الأحياء الخالدين!

هذا الطفل كان معجزة في ولادته وفي صغره وفي شبابه حيث تقول والدته حين وضعته في قرية (رافات): «كانت ولادته سهلة رغم أنه كان المولود البكر، إذ لم يكن هناك أي ألم أثناء ولادته؛ لأنه ولد صغير الحجم. فقد كان وزنه عند ولادته كيلو غرامًا ونصف فقط. وكل من رآه أثناء ولادته لم يكن يتصور بأن هذا الطفل سيعيش ويكبر ويصبح رجلاً». ثم سيصبح أسطورة فلسطين ومعجزتها المباركة!

كان الطفل غضًا يرفل في أعوامه الأربعة يوم كان يتشبث بقوة بثياب أبيه ويتوجه إليه تكرارًا ومرارًا طالبًا منه السماح له بمصاحبته إلى المسجد لأداء الصلاة، كان الطفل يُلِح بالطلب بغرابة عجيبة ويشد أباه من ملابسه لكي يأخذه معه، فيستجيب الأب لتوسل الصغير ويحمله وهو لا زال بعيدًا عن زمن التكليف، إلا أن هذا الطَّرق المستمر من يد الطفل على قلب أبيه كان لا يدع له فرصة لاتخاذ قرار مختلف.

بدأ الوالد باصطحاب يحيى إلى المسجد القديم في القرية، وهو قريب من بيته وسط دهشة الحضور وشدة استغرابهم التي أعلنوا عنها بقولهم: هذا صبي صغير، ولا يتقن الوضوء فكيف يتقن فرائض الصلاة وسننها؟

ومع هذا التعجب بدأ المصلون يلاحظون الطفل وهو يكبر في عالم المحراب، وينبته الله نباتًا حسنًا، ويعلق قلبه بالمسجد حيث تجتمع نواميس الخير وملائكة الله، وقد شهد له رواد المسجد بأن: «يحيى كان من الشباب المحافظين على صلاة الجماعة، وكان يحب أن يصلي في الصف الأول. وكان يجلس في الجهة الغربية للمسجد ليقرأ القرآن».

كانت تلك أولى إرهاصات الاصطفاء وبواكير الخير، إذ شرح الله صدر الطفل للمسجد وأنبته فيه نباتًا حسنًا وجعل له ميلاً وتعلقًا بالقرآن وصحبة الخير. فأضحى حليف محراب، وأليف تقوى، وفارس ميدان، وبطل جهاد، تظلله آيات كريمة نقشها في قلبه وحفظها عقله.

ثانياً: الألق المبكر

(ثقْ أن لك قوة مدخرة). قانون جوهري كتبه الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- بمعنى أن الشباب يمتلكون إمكانيات عالية، وطاقة مميزة وذكاء خلاقًا، ولكن غالبه يمضي دون تفعيل ولا استثمار، وينتهي غالب هؤلاء الشباب إلى حياة اعتيادية روتينية لا تصنع أثرًا في تاريخ أمتنا ولا مستقبلها المنشود؛ لذا تبدو صناعة الرواحل الفاعلة اليوم هي المهمة الأخطر لكل إصلاح منشود وتغيير حقيقي، وكلما كان الغرس مبكرًا آتى ثمارًا أطول عمرًا وأقوى حضورًا!

لقد كان «يحيى عياش» تلك القوة المدخورة والطاقة العقلية الجبارة التي برزت مبكرًا، وتفجرت في أحضان المقاومة العظيمة، فكان إضافة نوعية متألقًا في بذله

وعطائه بلا حدود، فقد كان يحيى في صغره معروفًا بذكائه الحاد،وحفظه الدقيق، حيث بدأ حفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره في السادسةِ من عمره، وعلى الرغم من الصمت والخجل والهدوء الذي تميز به يحيى في بلوغه، إلا أن اتقاد الذكاء فيه كان شعلة لا يمكن للعين أن تخطئها. فلقد دخل المدرسة الابتدائية في قريته عند بلوغه السادسة من عمره، وبرز بذكائه الذي لفت إليه أنظار معلميه، إذ أنه لم يكن يكتفي بحفظ الدروس المقررة للصف الأول، بل كان يحفظ دروس الصف الثاني أيضًا.

فقد كانت الصفوف في مدرسة القرية مجمعة بحيث تكون كل مرحلتين دراسيتين في غرفة واحدة نظرًا لمحدودية عدد الغرف الدراسية في المدرسة. وعليه فقد التقطت أذنا يحيى المعلومات والدروس التي كان المعلم يشرحها للصف الثاني حتى إنه حفظ دروس القراءة في كتاب الصف الثاني من قراءة التلاميذ أمامه في الحصص.

وكان معروفًا بتفوقه في الدراسة خصوصًا في مادة الرياضيات، لدرجة أنه كان متقدمًا على صفه سنة وأحيانًا سنتين في مادة الرياضيات. لقد رافق التفوق يحيى منذ الصف الأول وحتى إنهائه المرحلة الثانوية وحصوله على شهادة (التوجيهي) التي نال فيها المرتبة الأولى دائمًا خلال دراسته لاثنتي عشرة سنة في رافات والزاوية وبديا.

كان يحيى قد انتقل إلى مدرسة الزاوية الإعدادية بعد إنهائه الصف السادس الابتدائي في مدرسة رافات نظرًا لكون مدرسة قريته لا تستوعب أكثر من هذه المرحلة، فدرس المرحلة الإعدادية والأول ثانوي في مدرسة الزاوية، ثم انتقل بعد ذلك إلى قرية بديا حيث درس الثاني والثالث الثانوي (الفرع العلمي) في مدرسة بديا الثانوية، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية عام 1984م بمعدل 92.8% وحصل على معدل 95% في الرياضيات ومعدل 95% في الفيزياء.

ويروي والده عن مستوى ذكاء يحيى الصغير فيقول: «كتب معلم الرياضيات بالصف الأول الثانوي في مدرسة الزاوية الإعدادية مسألة على السبورة، وقال للتلاميذ: من يستطيع أن يحل هذه المسألة؟ فلم يجبه أحد، وجلس طلاب الصف عاجزين عن حلها، فجن جنون المعلم من ضعف التلاميذ في هذا الصف، فذهب يشتكي إلى مدير المدرسة، وقدرًا كان هناك المعلم الذي يدرس الصف الأول الإعدادي الذي كان فيه يحيى موجوداً، فقال: أنا مستعد أن أحضر لكما طالبًا من الصف الأول الإعدادي ليحل المسألة. وفعلاً، أحضر يحيى ثم توجه الجميع إلى الصف الأول الثانوي، وبالفعل، قام يحيى بحل المسألة وسط دهشة المدير والمعلمين والتلاميذ». وعلى أثر هذه الحادثة، بعث مدير مدرسة الزاوية الإعدادية رسالة تقدير واحترام إلى والد الطالب يحيى عياش، يهنئه فيها على ذلك الشاب الذكي، صاحب الأخلاق الرفيعة، وقال المدير في نهاية رسالته: «إنني أتوقع أن يكون لهذا الفتى شأن عظيم في حياته المستقبلية».

لقد كان يحيى عياش شابًا نابغًا التقطته أحضان المقاومة العظيمة، وتألق فيها شمسًا لا تنطفئ وأسطورة شهد لها الأعداء قبل الأصدقاء، وهذا قدر كريم ساقته العناية الإلهية لهذه العقلية الفذة التي انهمرت في أفعالها مثل شلال من الأعمال المدهشة العظيمة.

ثالثاً: معالم الخارطة النفسية

الإنسان أحاسيس تنبض بها روح لا يدري أحد كيف يعثر عليها؟ ولكننا نلمح معالم الروح عبر أشواقها وتوقها إلى غايات مختلفة، ونكتشف النهايات من نبض البدايات، ومن صدى الخطوات نتعرف على طبيعة المكنون في كل سائر! ولقد كان يحيى عياش إنسانًا يمتلك خارطة نفسية، نقطة السويداء فيها غاية عليا هي العيش لهدف سام بلغ به الثريا وجاوزها! كانت حياة عياش دائرة

من السعي نقطة ارتكازها تقف على رغبة عارمة في بلوغ هدف جليل، تطهير المقدسات، وكان يحيى يرسم بمسطرته وأقلامه الهندسية مشروعًا متكاملاً يمنحه شهادة تخرج من طراز سماوي رفيع. كانت الهندسة في عقله تتشكل ثم تستقر في قلبه وسيلة لغاية عظيمة، وكان الذكاء يتدفق في عينيه وهو يرسم أهدافه بدقة المهندس الذكي، ويجعل من الهندسة سبيلاً لتحقيق أحلامه وآماله وطموحات هذا الدين.

لذا حين غادر يحيى الضفة الغربية متوجهًا إلى عمان لفحص إمكانية الدراسة عاد مسرعًا لقريته رغم أن إعلان أسماء المقبولين تضمن قبول يحيى في كلية العلوم بالجامعة الأردنية وكلية الهندسة بجامعة اليرموك.

وعبثًا حاول الوالد في تلك الفترة إقناع ابنه بالموافقة على الدراسة في جامعة اليرموك، وعدم الالتفات إلى المصاريف المالية المترتبة، لكن يحيى رفض هذا العرض رفضًا قاطعًا، وأصر على الالتحاق بجامعة بيرزيت وهي جامعة خاصة، وتعتبر من أهم جامعات الضفة الغربية وقطاع غزة، وبهذا يكون يحيى وضع قدمه على أولى عتبات الحلم!

يصفه الصحفي فايد أبو شمالة الذي عاصر الشهيد عن قرب أثناء فترة الدراسة في جامعة بيرزيت بقوله: «صورته في الذاكرة مشرقة وبراقة، وتدور في مخيلتي دائمًا صورة شاب ودود ولطيف، له جاذبية خاصة، مميز في هيئته وحركته ويلفت النظر لكونه شديد الحياء، إذا تحدث فإنك بصعوبة تسمع صوته، خلوق وحساس المشاعر، يتأثر بالحسن ويفرح له، ويتأثر بالقبيح ويتضايق منه. وأذكر أنني كنت أعجب كثيرًا من شدة إيمانه وإخلاصه، وأتذكر مقولة (الأتقياء الأخفياء) الذين إذا حضروا لم يعرفوا؟ وإذا غابوا لم يفتقدوا، وحقيقة هو كان منهم، فقد كان يشارك في كل شيء ولا يبرز في أي شيء.. وكان يتفاعل مع الأحداث بشكل قوي دون أن يصدر عن تفاعله أي ضجيج أو

صخب، فالضوضاء والصخب والمجد العابر ليس طموحًا ليحيى عياش، فعينه كانت ترنو إلى ما هو أعز وأغلى».

في أجواء الجامعة بدأت علاقة يحيى مع الكتلة الإسلامية وتحديدًا يوم 2 أكتوبر -تشرين أول عام 1984م. إذ جرت العادة عند الكتلة الإسلامية أن تقيم حفل تعارف يضم الطلبة من أبناء الكتلة، وجميع الطلبة الجدد الذين يلبون الدعوة ويظهرون موافقة مبدئية على الانضمام إلى صفوف الكتلة.

في هذا اللقاء، الذي عقد في مسجد بيرزيت القريب من الحرم الجامعي القديم تم التعارف بين الطلاب القدامى والجدد، وعرف الشهيد وقتها بنفسه قائلاً: «أخوكم في الله يحيى عياش من رافات -سنة أولى هندسة». وكانت عبارة (أخوكم في الله) هي عنوان المحبة بين كل أبناء الكتلة الإسلامية، وأثبتت الأيام حقا أنهم جميعًا إخوة في الله.

تعتبر هذه المحطة من أهم المحطات في حياة الشهيد القائد يحيى عياش، إن لم تكن الأهم، باعتبار أن الكتلة الإسلامية في جامعة بير زيت والتي عاش فيها ما يزيد عن خمس سنوات شكلت محضناً ومدرسة قامت بصقل شخصية المهندس ووجهتها نحو المسار الذي عرفت به شخصية الشهيد.

وشارك المهندس إخوانه في كافة المواقع ومراحل الصراع والاحتكاكات المباشرة سواء كانت مع سلطات الاحتلال وحتى مع الكتل الطلابية المنافسة. وحققت الكتلة بروزاً وحضوراً سياسياً فاعلاً، وغدت تجمعاً طلابياً له وزنه ومكانته في العمل الطلابي داخل الجامعة، لم يتخلف يوماً عن أي اجتماع للكتلة أو نشاط أو مسيرة داخل الجامعة.

وقد شارك يحيى بتنظيم الكتلة الإسلامية مظاهرة طلابية عارمة يوم 5 ديسمبر -كانون أول من عام 1986م ما لبثت أن تحولت إلى مواجهات عنيفة بين الطلاب وقوات الاحتلال الصهيوني أسفرت عن استشهاد اثنين من شباب الكتلة

الإسلامية، وتركت هذه المواجهات آثارها البالغة على المهندس الذي شاهد أخاه وزميله جواد يسقط بالقرب منه إثر إصابته بوابل من نيران جنود العدو.

إن القراءة الهادئة في سيرة الشهيد القائد يحيى عياش لتبرز عدة معالم بينة في شخصيته وروحه وسلوكه ولعل أهم هذه المعالم هي:

المعلم الأول: الإخلاص المضيء:

قال علماء السلف الصالح: « أن منْ اجتهد في باطنه ورَّثه الله حسن معاملة ظاهره، ومن حسَّن معاملته في ظاهره مع جهد في إصلاح باطنه ورثه الله الهداية إليه)، لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69] وهذا يعني ضرورة تدقيق الإنسان في ظاهره ومعاملاته، وقد قيل: (لا يصلح عبد إلا أصلح الله بصلاحه سواه، ولا يفسد عبد إلا أفسد الله بفساده غيره).

فإن فعل العبد ذلك وضع له القبول في الأرض ومعنى القبول؛ أن يقع النداء بمحبتِه، فتقبله جميعُ البواطن؛ لذا قال السلف الصالح: «أيها المقبول هنيئًا لك، أيها المردود جبر الله مصيبتك».. ولا يكون قبول دون سعي من العبد وشدة إخلاص وسر بينه وبين الله.

ولقد عُرِفَ يحيى عياش (تقبله الله في عليين) بصفات من الصلاح مع حرص عجيب على الخفاء والبعد عن الأضواء. ورأى الناس القبول له في الحياة وفي الممات، فقد ذكر رئيس الكتلة الإسلامية بالجامعة انطباعاته عن يحيى بنقاط محددة وعبارات نقتبس منها التالي:

«شاب بسيط ومتواضع، تميز ببساطة ما يرتديه من ثياب وأحذية. وهو شاب ورع وتقي، حرص على عدم البقاء في الجامعة في أيام العطل الأسبوعية حتى يبتعد عن الفساد. ولم يُعرف أنه شكا من أحد أو انتقد أحدًا، أو أن أحدًا غضب منه،

فقد أحبَّ زملاءه وأساتذته واحترمهم، وكانت معاملته مع الجميع حسنة للغاية وبالتالي احترمه الناس وأحبوه. وعلى الرغم أنه كان من أنشط الشباب في كلية الهندسة، إلا أنه كان حريصًا على الابتعاد عن الأضواء، ويتشدد في ذلك».

وسبحان من يطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور فيكافئ عباده على قدر حظهم من مراقبته وتقواه والإخلاص إليه. لله در الإمام الشافعي القائل:

قد ماتَ قومٌ وما ماتتْ مكارمُهُم وعاش قومٌ وهمْ في الناس أمواتُ

وصدق ابن عطاء السكندري حين قال: الأعمال: صور قائمة، وأرواحها: وجود سر الإخلاص فيها.

المعلم الثاني: العمل الجاد:

كان يحيى مسكونًا بالعمل الهادئ وموقنًا بأن «الذين يزرعون بالدموع؛ يحصدون بالابتهاج!»

لم تكن قضية الشهرة تعنيه لأن الشاب الذكي كان يبحث عن موطئ قدم له في سمو لا علو بعده، وفي مقام لا تدانيه منزلة، وكان يعلم أن الذين يبذرون قمح أرواحهم؛ تورق أغصانهم في المشارق والمغارب، فثمة خبز تعرفه موائد السماء لا تصنعه إلا أيادي العظماء، فمنْ ترتيل السواقي الصابرة في الصمت تعجن أرغفة الزمن الآتي!

تخرج يحيى عياش مهندسًا كهربائيًا من جامعة بيرزيت في شهر مارس -آذار من عام 1993م، وهذا يعني أنه قضى ثمانية أعوام على مقاعد الدراسة الجامعية، ويعود السبب في ذلك إلى الإضرابات والإغلاقات المستمرة لجامعة تعتبرها سلطات الاحتلال «جامعة تخريج الكوادر القيادية» لمختلف الفصائل الفلسطينية.

وقد غاب يحيى عن الحفل ولم يحضر مراسم تسليم الشهادات، لأنه كان وقتها مطلوبًا لجهاز الشاباك وتطارده قوات الاحتلال بسبب دوره في التخطيط لعملية (رامات افعال بتل أبيب) في تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 1992م، وبهذا يكون يحيى قد ابتدأ نشاطه العسكري على مقاعد الجامعة دون صخب ولا ضجيج، وفي صمت ينتج سعيا تهتز له عروش الظالمين، ولقد صدق من قال: «إنَّ نيتك هي مطيتك، وهي براقك الذي يسري بك إلى سدرة أمنياتك، وعلى قدر إخلاصك يبلغ الله بأمنياتك حيث تحب وتشتهي، ولقد كان يحيى ممتلئا بحب هذه الفكرة وعشقها، وراغبًا في العيش لها، فصدق الله في ذلك وصدقه الله في تحقيق أعلى المقامات والغايات، ولطالما كرر كلماته (على الكريم أن يختار الميتة التي يجب أن يلقى الله بها؛ فنهاية الإنسان لا بُدّ أن تأتي ما دام قدر الله قد نفذ) تلك الميتة المختلفة هي التي أرقت يحيى عياش واشتد في السعي لها وهي التي بلغها ونالها فقد اطلع الله على سريرته و علم ما بداخله فأكرمه بها، وصدق علماء التزكية يوم كانوا يوصون تلاميذهم بقولهم:

«لا تحسب أنّ أسرار القلوب مستورة، بل اعلم علم اليقين أنّها عند الله بخط جلي مسطورة». فسبحان من رأى مستور قلبه ووهبه ما يقر به عينه».

المعلم الثالث: الشعور بالمسؤولية:

إن المسؤولية هي ضريبة العظمة، وقد كانت تلك بعض أقدار يحيى عياش التي كانت أشبه بحلم كان مثل ظله أو ربما مثل نجمة ظلت تتراءى له وتغريه على الصعود. ولأجلها انتعل «يحيى» كل المسافات مسافرًا بقضيته من زمن الليل إلى زمن النهار، ولأجلها انخرط بكل طاقته وذكائه وعقليته المميزة في تحقيق الغاية التي آمن بها وأيقن بأحقيتها.

لقد كان يحيى يوقن بأن معادلة الحياة هي: وقت + ضغط= انجاز، وهذه حقيقة نطقت بها سير العظماء وكل تاريخ الحياة، وكان يدرك أن بعض الناس يصنعون

في زمن قصير ضفاف شواطئ من الأجر الأزلي الخالد. كان يحيى عياش يحيا لأمنية واحدة، ويعلم أن أمنية واحدة تكفي لبقية الطريق! لأنها أمنية تعني حضورًا خالدًا في الملأ الأعلى. أمنية تحتاج إلى إعداد ثقيل!

إن الشعور بالمسؤولية أمام الأمانة التي ادخرك الله لها واصطفاك لأجلها تعني الشجاعة التامة في تحملها بكل تبعاتها، وهذا هو الإيمان الذي تسربل به الصحابة وفتحوا به المشارق والمغارب وطاروا به على أعنة الخيل من مكة حتى بلغوا به نهر الصين العظيم. يقول الشيخ محمد الغزالي: «هناك إيمان جبان قاعد قد يفر إلى صومعة أو يحيا داخل قوقعة لا يجرؤ على الضرب في أرض ولا يستطيع مغالبة الأنواء» وذاك إيمان القاعدين الجبناء!

أما يحيى فقد كان على خطى الصحب الكرام، فلقد سعى بجد ونشاط، وقام بكافة تكاليف وأعباء الدعوة الإسلامية، سواء داخل الجامعة، أو في مدينة رام الله وحتى في قريته، بل إنه وظف السيارة التي اشتراها والده في خدمة الحركة الإسلامية، حيث دأب على السفر بها إلى رافات، وقام بإرساء الأساسات وشكل أنوية لمجموعات من الشباب المسلم الملتزم، وحينما انفتح الأفق على (حركة المقاومة الإسلامية حماس)، كانت هذه المجموعات في طليعة السواعد الرامية ورماة القنابل الحارقة التي واجهت قوات الاحتلال خلال سنوات الانتفاضة المباركة.

ونظراً للدور الريادي الذي قام به، وحكمته في حل المشكلات وتصفية الخلافات بين الشباب من مختلف الانتماءات السياسية والأيديولوجية، فقد اعتبرته الفصائل الفلسطينية (شيخ الإخوان في رافات) على صغر سنه حينها، ورجعت إليه في كافة الأمور التي تتعلق بالفعاليات أو الإشكالات خلال الأعوام (1988–1992م)، إذ جمع الله له حسن الخلق، مع جدية عالية، واجتهاد آتى أكله مبكرا في التأسيس للمجموعات التي صنعت بداية الانقلاب في المعادلة السياسية الراهنة.

ويكشف أبو الفداء أحد المقربين من الشهيد قبل مطاردته، والذي شارك معه في تأسيس حركة حماس في رافات بأن يحيى جاءه بعد صلاة يوم الجمعة في يناير -كانون الثاني من عام 1988م، وقال له: «أيرضيك ألا يكون للإسلام صوت في قريتنا؟؟ لماذا لا نؤسس لحركة حماس في القرية كما في غيرها».

واتفق الاثنان وتعاهدا، فكانت شرارة حماس الأولى وانطلاقتها في القرية.

ويسرد أبو الفداء تاريخ يحيى المشرف قائلا: إنه خرج ويحيى ملثمين لإغلاق الشارع الرئيس للقرية في يوم إضراب أعلنته حركة حماس، وفجأة ظهرت دورية عسكرية صهيونية على نفس الشارع.

فاختبآ خلف الجدار الحجري القريب، وحين نظر أبو الفداء إلى يحيى، فإذا به يقرأ القرآن، ثم يقول له: «أبا الفداء، ما ظنك باثنين اللّٰه ثالثهما»، وقد كان اللّٰه دومًا معه.

تعدُّ سنوات الانتفاضة الأربعة الأولى، من أكثر الفترات غموضًا في حياة المهندس باستثناء حادث واحد وهو قيام سلطات الاحتلال بفرض منع التجول على القرية يوم 1991/10/12م، ومن ثم شن هجوم على مسجد رافات بحجة أن حماس تستخدم المسجد في التحريض على مقاومة الاحتلال. هذا يدل أن تلك الفترة كانت الأكثر أهمية في حياة يحيى السرية، والتي ظهرت آثارها لاحقًا، فقد كانت السرية تحيطه بشكلٍ مكثف ليصل بها؛ لبلوغ أهدافه التي آمن بها وارتضى الحياة في سبيلها.

ويذكر أصدقاؤه حادثًا وقع له أثناء عودته مع عدد من رفاقه، بعد أدائهم لصلاة العشاء في مسجد (أبو قش)، إذ اعترضتهم مجموعة من جنود الاحتلال في عدة سيارات عسكرية، وبعد عدة مداولات بين الجنود الإسرائيليين، أطلق العدو سراح الشباب باستثناء يحيى الذي قُيدت يداه ورجلاه واقتيد في إحدى السيارات العسكرية إلى منطقة جبلية وعرة ومعزولة خارج القرية.

وقد شعر يحيى بما يدبره الجنود حين توغلوا به في إحدى الأودية المعتمة، خاصة وأنه سمع عن استشهاد العديد من الشباب خلال الانتفاضة بمثل هذه الطريقة. وتوقع يحيى أن يطلق جنود الاحتلال النار عليه؛ ليبدو الأمر وكأنه مقتل هارب من وجه السلطات، ولهذا رفض يحيى الانصياع لإرادة الجنود بمغادرة السيارة والابتعاد قليلاً، وبدلاً من الفرار، ظل يحيى ملاصقًا للجنود الذين راحوا يدفعونه بعيدًا عنهم، إلى أن ظهرتْ فجأة ثلاث نساء يرتدين لباساً أبيض وبشكل غير متوقع توقفن لمشاهدة ما يحدث، الأمر الذي أربك الجنود وجعلهم يسرعون إلى سيارتهم ومغادرة المكان دون أن يقتلوا المهندس.

وتؤكد صحيفة معاريف هذه الحادثة، حيث أشارت إليها في سياق تعليقها الذي نشرته تحت عنوان (القضاء على الأسطورة) يوم الأحد 7 يناير -كانون ثاني عام 1996م، وعلقت الصحيفة العبرية على الحادثة بالقول: «كانت هذه برهانًا على أن عياش محمي من الله تعالى، وأن أجهزة المخابرات الإسرائيلية غير قادرة على إصابته».

المعلم الرابع: الرقي الأخلاقي:

«التخلية من أمراض القلوب قبل التحلية بالأخلاق» هكذا عنونها علماء التزكية والسلف، وسماها مالك بن نبي «التصفية النفسية من القابلية للاستعمار»، ولقد صدق البنا إذ قال: «أخرجوا المستَعمِر من أنفسكم يخرج من بلادكم».

إن الذين تحرروا من دواخلهم وكسروا قضبان العبودية لغير الله وطهروا عالمهم من تلك الشوائب وارتقوا في مدارج العلو هم من استطاعوا أن ينتصروا في معركتهم الخارجية! ولقد كان الشهداء دومًا أصحاب سيرة تشم منها رائحة المسك، قبل أن تشمها من أجسادهم الطيبة الطاهرة يوم يلقون الله، فالمسك في أخلاقهم، وخطواتهم وكلماتهم دوما هي ريحهم وطيبهم.

ولقد وُصِفَ يحيى من قبل أحد زملائه بالجامعة: «كان دائمًا يغض الطرف داخل أسوار الجامعة، ويبقي بعيدًا عن أجواء الصخب، وكثيرًا ما شاهدته منشغلاً بتلاوة القرآن وطاعة الرحمن بالذكر والمأثورات».

ويصف أحد أصدقائه عُلو سلوكه بقوله «لست أذكر أن أحدًا من إخوانه قد تضايق يومًا منه أو اشتكى أو أظهر امتعاضه من السكن معه، ولم يكن -رحمه الله- يظهر امتعاضًا حيثما سكن».

ويروي أحد اخوانه ويدعى أبو الفداء عن أخلاقه وشخصيته القيادية، فيقول: «اجتمعنا في منزل يحيى ذات يوم لتدارس أوضاع الحركة والانتفاضة، فغضبت من شقيقي وصحت فيه لسبب ما، فزجرني يحيى وقال: «نحن دعاة، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك».

ويصفه أحد أصدقائه بقوله: «لا يذكر نفسه أو يمتدحها أثناء حديثه، ويتحدث بصوت خفيض دون أن يرفع صوته على أحد قط، وينسحب من أي نقاش تعلو فيه الأصوات؛ لهذا حرص يحيى على الطرح التوفيقي في تناوله للموضوعات أثناء النقاش، والابتعاد عن الثرثرة في الموضوعات الجدلية. ومع كل هذا، كان يحيى لا يتكلم في الجموع ولا يتحدث بشكل مباشر إلا مع شخص واحد فقط ولا يزيد على ذلك». حقًا لقد كان يحيى رمانة القبان التي تضبط الإيقاع، وتعدل الميزان.

وللشهيد مواقف تدل على سموه النفسي ورفعة خلقه، وشدة استعلائه عن الدنيا، فقد عُرض عليه ذات يوم مبلغٌ من المال من إخوانه في المقاومة فرد قائلاً:

(بالنسبة للمبلغ الذي أرسلتموه، فهل هو أجر لما أقوم به؟ إنْ أجري إلا على الله، وأسأله أن يتقبل منا، وأهلي ليسوا بحاجة، وأسأل الله وحده أن يكفيهم، وألا يجعلهم يحتاجون أحدًا من خلقه؛ ولتعلموا بأن هدفي ليس ماديًا، ولو كان كذلك لما اخترت هذا الطريق؛ فلا تهتموا بي كثيرًا، واهتموا بأسر الشهداء والمعتقلين، فهم أولى مني ومن أهلي).

وحين سئل عن حال زوجته وأهله أجاب إجابة المؤمن المحتسب الذي ترك الدنيا لأهلها فقال:

(لا شك بأن العائلة تعاني، ولكن هذا ابتلاء من الله -عز وجل-، وهو القائل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: 31]، ولما ذُكِرتْ له السلطة وأفعالها وسعيها الحثيث في محاولة اعتقاله قال: (إنهم -أي السلطة- يحاولون بكل جدية اعتقالي أو قتلي فهم بالنسبة لي لا يختلفون عن اليهود سوى أننا لا نحاربهم؛ لأننا نعتبرهم من بني جلدتنا وهم يحاربوننا بالنيابة عن اليهود).

المعلم الخامس: الإنتاجية العالية:

في دراسة بحثية نفسية حول أسباب الفاعلية في الحياة وجد العلماء أن غالب الذين أخفقوا في بلوغ مرادهم كان بسبب قناعة خطيرة، أنهم لا يؤمنون بإمكانية تحقق مرادهم، ولكأن قدرات الإنسان تستجيب لهذا الإيحاء الخطير!! فتعجز.. وتهِن عن إكمال المسير؛ لذا فإن القناعات هي أخطر ما يُزرع... ازرع في عقلك قناعة تمنحك قدرة، ويقول ابن القيم: «لو أن رجلاً وقف أمام جبل وعزم على إزالته لأزاله».

لقد كان يحيى عياش مؤمنًا بقدرته نحو تحقيق غايات تزلزل إسرائيل إذ قال -رحمه الله-: «بإمكان اليهود اقتلاع جسدي من فلسطين، غير أنني أريد إن أزرع في الشعب شيئًا لا يستطيعون اقتلاعه». ثم يفسر طبيعة هذا الشيء الذي سيسعى لزرعه، ولن يتمكن أحد من اقتلاعه بقوله: «لا تنزعجوا فلست وحدي مهندس التفجيرات، فهناك عدد كبير قد أصبح كذلك، وسيقضون مضاجع اليهود وأعوانهم بعون الله»!.. وقد كان الله عند حُسنِ ظن عبده به وأجرى على يديه ما أجرى.

ويذكر من أرخ للشهيد أنه لبى دعوة الإخوان المسلمين، وبايع الجماعة في بداية العام 1985م فأصبح جنديًا مطيعًا وعضوًا عاديًا بإحدى أسر الإخوان المسلمين في مدينة رام الله، وعمل بجد ونشاط وقام بكافة التكاليف وأعباء الدعوة الإسلامية سواء داخل الجامعة، أو في مدينة رام الله أو قريته رافات.

بدأ نجم العياش يسطع في العام 1993م بعد أن اكتشفت أجهزة الأمن الصهيونية أن ذاك الشاب الوسيم «يحيى عياش» هو مهندس العبوات الناسفة والسيارات المفخخة، فشرعت بحملة مراقبة حثيثة ومداهمات يومية لبلدته ومنازل أقاربه وأصدقائه من أجل إعتقاله.

فقد برع في مجال تركيب العبوات الناسفة من مواد أولية متوفرة في الأراضي الفلسطينية. وعقب مذبحة المسجد الإبراهيمي في فبراير 1994م طور أسلوبًا بالهجمات سمي «العمليات الاستشهادية»، واعتبر مسؤولاً وقتها عن سلسلة من هذا النوع من الهجمات، فكان له قدم السبق والريادة في صنع الاستشهاديين.

أولئك الاستشهاديون أذهلوا العالم كله بإقدامهم وشجاعتهم وهم يواجهون الموت المحقق طمعًا في الشهادة والإثخان في الأعداء، حتى قال أحد قادة اليهود عنهم: «إن مشكلتنا هي بالأساس مع أولئك الشباب المستعدين لجعل أنفسهم قنابل حية، فمن الصعب جدًا مواجهة هذه النوعية من الأشخاص».

وتمكن المهندس من الإفلات من قبضة الاحتلال مرات عديدة، حتى جن جنون قادتهم الذين أصبح شغلهم الشاغل وهمهم الأكبر الوصول إلى يحيى عياش الذي استطاع خلال فترة مطاردته التخطيط لأكثر من 11 عملية استشهادية تسببت في مقتل وإصابة المئات من الصهاينة.

نجح المهندس في تخطي جيش المخبرين، وضباط الشاباك والوحدات الخاصة التي كانت تطارده وتداهم منزله باستمرار، وانتقل إلى قطاع غزة.

عَلِم الشهيد يحيى عياش بقدرة محيي الدين الشريف وتفوقه في صناعة وتجهيز المتفجرات، فاستدعاه إلى قطاع غزة في النصف الأول من عام 1995م ليتلقى تدريبات مكثفة في صناعة وتجهيز المتفجرات وتفخيخ السيارات، ذلك أن همَّ المهندس يحيى عياش كان كيفية إيجاد من يكمل المسيرة من بعده، ووجد ضالته في المهندس محيي الدين الشريف وآخرين، ثم عاد محيي الدين الشريف، والذى أصبح المهندس رقم 2 إلى الضفة الغربية في الأسبوع الأول من شهر يوليو /تموز 1995م، حيث أقام قاعدة ارتكاز، وقد عمل من خلالها على تجنيد الاستشهاديين.[1]

أمضى -رحمه الله- خمس سنوات مطاردًا، وقلَّما ظهر خلالها بالنهار، كانت تمضي عليه أيام صعبة، لا يجد فيها ما يأكله، ولا يجد ملابس جيدة يرتديها، لم يأبه بمظهره يومًا، كان همُّه الأكبر أن يوقع بالاحتلال أكبر الخسائر».

ما الجهاد؟ أليس هو إفراغ ما في الوسع والطاقة في مغالبة العدو سواء كان هذا العدو هو النفس، أو الشيطان، أو الظالم، أو المنافق، أو الكافر، ولقد أفرغ يحيى عياش كل وسعه في رضى الله، ونظرة سريعة على العمليات العظيمة التي قام بها تكشف لك عن عظمة جهاد هذا القائد المبارك.

أبرز العمليات التي شارك وخطط لها المهندس يحيى عياش:

- 22 تشرين أول 1992م: تفجير سيارة مفخخة في مستوطنة رامات أفعال.
- 16 نيسان 1993م: الاستشهادي ساهر تمام يفجّر سيارة مفخخة في مستوطنة (محولا) في بيسان وأسفرت عن مقتل اثنين من الصهاينة
- 4 تشرين أول 1993م: الشيخ سليمان زيدان يفجر سيارة مفخخة قرب حافلة تقل جنود الاحتلال عند مستوطنة بيت إيل شمال رام الله، و3 قتلى صهاينة وإصابة 30 آخرين.

1- https://www.facebook.com/notes/al-aqsa-mosque

- 9 تشرين أول 1993م قام مجاهدون من القسام بمحاولة أسر جنديين صهيونيين عند واد القلط، إلا أنهما أبديا مقاومة مما اضطر المجاهدون لقتلهما.
- 6 نيسان 1994م: الشهيد رائد زكارنة يفجر سيارة مفخخة قرب حافلة صهيونية في العفولة ومقتل 8 صهاينة وجرح مالا يقل عن ثلاثين.
- 13 نيسان 1994م: الشهيد عمار عمارنة يفجر شحنة ناسفة ثبتها على جسمه داخل حافلة صهيونية في مدينة الخضيرة داخل الخط الأخضر، ومقتل 5 صهاينة وجرح العشرات.
- 19 تشرين أول 1994م: الشهيد صالح نزال يفجر نفسه داخل حافلة ركاب صهيونية في شارع (ديزنغو ف) في مدينة تل أبيب، ومقتل 22 صهيونيًا وجرح ما لا يقل عن 40 آخرين.
- 25 كانون أول 1994م: الشهيد أسامة راضي يفجر نفسه قرب حافلة تقل جنوداً في سلاح الجو الصهيوني في القدس ويجرح 13 جنديًا.
- 22 كانون ثاني 1995م: عملية استشهادية في محطة لجنود الاحتلال في بيت ليد ومقتل 23 جنديًا صهيونيًا وجرح أربعين آخرين.
- 9 نيسان 1995م: حركتا حماس والجهاد الإسلامي تنفذان هجومين استشهاديين ضد المستوطنين الصهاينة قرب مستوطنة كفار داروم في قطاع غزة، ومقتل 7



مستوطنين.

- 24 تموز 1995م الاستشهادي لبيب عزام يفجر نفسه داخل حافلة ركاب صهيونية في رامات غان بالقرب من تل أبيب ومقتل 6 صهاينة وجرح 33 آخرين.
- 21 أب 1995م هجوم استشهادي استهدف حافلة صهيونية للركاب في مستوطنة رامات اشكول في القدس المحتلة ومقتل 5 صهاينة وإصابة أكثر من 100 آخرين.
- عملية راماد جان: تدمير حافلة وسقوط عدد من الصهاينة ما بين جريح وقتيل.
- راماد سكون: مقتل 5 ضباط وإصابة 100 جندي وإحراق حافلتين.
- عملية واش الطير: مقتل ثلاثة جنود وتدمير الحافلة.

وها هو الشهيد يحيى عياش يحيل حياتهم جحيمًا بالعمليات الاستشهادية التي خطط لها والتي أسفرت عما لا يقل عن تسعين قتيلاً وجرح ما لا يقل عن أربعمائة وتسعين إضافة إلى خسائر مادية فادحة، قام العياش بتفخيخ كل شيء، حتى أنه فخخ جثة حيوان ميت على قارعة الطريق فانفجرت موقعة خسائر في الصهاينة.

وبعد كل ذلك كان يردد تقبله الله: (لسه الحبل على الجرار، والله -إن شاء الله-ما أخليهم يناموا الليل ولا يعرفوا الأرض من السماء)

إن الإنسان إذا وضع نصب عينيه غاية وأفرغ الوسع فيها فجمع بين الإعداد من نفسه والإمداد من ربه مكن الله له ما يريد وعلى الوجه الذي يريد.

شهادات الأصدقاء

- **شهادة أم المهندس:**

«لقد تركنا جميعًا دون أن نشبع منه وداس على الشهادة الجامعية. ومنذ أن أصبح يحيى مطلوبًا، فإنه لم يعد ابنًا لي، إنه ابن كتائب عز الدين القسام».

- **شهادة زوجته:**

تقول: «كنت أتمنى أن استشهد مع يحيى، وكنت أدعو أمامه في إحدى المرات بأن يكون يومنا أنا وهو وبراء لنستشهد معًا، لكنه رفع يديه للسماء وقال: «اللهم لا تستجب لها وخذني شهيدًا لوحدي لتعيش أم البراء وتربي هذين الولدين».

وتضيف: «كان لا يمشي إلا بالليل، بين الأشجار، في الجبال، يرتدي سترة سوداء وبنطالاً أسوداً، لم يتنكر أبدًا في حياته، وكان يستغل كل فرصة ليأتي لرؤيتنا رغم انتشار العملاء، وتربص الاحتلال له في كل لحظة».

- **شهادة الشيخ يوسف القرضاوي:**

«إن المصنع الذي صنع البطل يحيى، لا يزال يصنع الأبطال، وان المعهد الذي تخرج منه ما برح يخرج كرام الرجال، إنه الإسلام بعقيدته وشريعته وقيمه العليا، إنه الإسلام بقرآنه وسنته ورجاله الأطهار، والذين كلما غاب منهم طلع كوكب آخر أو أكثر.»

- **شهادة الأسير عبدالله البرغوثي في كتابة أمير الظل:**

«استوقفني شيخ بعد إحدى المواقف التي ضربت فيها شخصين يسبان الذات الإلهية، وقابلته مرة أخرى في جنازة أحد الشهداء فلما رآني الشيخ قال لي: ما رأيك بأن تذهب معي لتناول الغداء، فقلت له: إني مستعجل فقال لن أؤخرك كثيرًا، بدي أغديك وأعطيك أمانة توصلها لصاحبها، وفي البيت



جعل الشيخ يسألني أسئلة وأنا أجيب عن بعضها والبعض الآخر لم أجب عليه ولكن أعتقد أن الله جعل الحاج يعرف الإجابة دون أن أجيب، ومن ضمن الأسئلة ماذا لو دخل يهودي إلى هنا فقال عبد الله عندها لا داعي للطعام فسآكل الجندي حياً.

بعد انتهاء الطعام شكرته وشكرت زوجته وهممت بالمغادرة فتركني، وما أن اجتزت جزءًا من الحديقة حتى نادى عليَّ وقال: ألم أقل لك بأني سأعطيك أمانة لتوصلها لصاحبها؟ ظللت صامتًا، ثم اخذ الفأس وحفر حتى وصل لكيس أسود فرفعته وقد كان به حقيبة جلدية، فسألته لمن أوصل هذه الأمانة؟ فقال لي: أوصلها لصاحبها، فقلت له بالله عليك يا حج من صاحبها؟ فقال: أوصلها للمهندس، فقلت: أي مهندس؟ فقال: وهل يوجد مهندس بفلسطين غير يحيى عياش، فقلت له: إن يحيى عياش قد استشهد، قال أعلم ولكنها حقيبته تركها عندي أمانة قبل أن يذهب لغزة ويستشهد، خذها وأوصلها له.

ظللت صامتًا حائرًا، فقال: ألست أنت من غضب لله؟ قبل أيام، ألم تقل بأنك ستأكل الجندي حيا وبدون ملح؟ خذها يا ولدي فصاحبها استشهد منذ زمن وابني في الأسر، خذها وسر على درب المهندس عياش، حرام أن تبقى مدفونة في الأرض وقد اندلعت الانتفاضة الثانية، أخذت الحقيبة وتركته وهو يبكي وذهبت».

شهادات الأعداء

- المحلل السياسي في تلفزيون العدو ايهود يعاري يقول: «منذ بداية الصراع بيننا وبين الفلسطينيين لم يظهر أي شخص أيداه ملطخة بالدماء اليهودية مثل يحيى عياش».
- رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق إسحاق رابين: « لا شك أن المهندس يمتلك قدراتٍ خارقةً لا يملكها غيره، وأن استمرار وجوده طليقًا يُمثل خطرًا داهمًا على أمن «إسرائيل» واستقرارها».
- موشيه شاحل وزير الأمن الداخلي السابق: «لا أستطيع أن أصف المهندس يحيى عياش إلا بالمعجزة، فدولة «إسرائيل» بكافة أجهزتها لا تستطيع أن تضع حلًا لتهديداته».
- جدعون عزرا نائب رئيس المخابرات سابقًا: «إن احتراف المهندس وقدرته تجلّت في خبرته وقدرته على إعداد عبوات ناسفة من لا شيء».
- يهودي آخر يقول عنه: «لقد تحول المهندس لأكثر من عامين إلى كابوس يسيطر على أجهزة الأمن الإسرائيلي وتمكن خلالها من إيقاع عشرات القتلى الإسرائيليين في طريقه».
- شمعون رومح –أحد كبار العسكريين الصهاينة–: «إنه لمِنْ دواعي الأسف أن أجد نفسي مضطرًا للاعتراف بإعجابي وتقديري بهذا الرجل الذي يبرهن

على قدرات وخبرات فائقة في تنفيذ المهام الموكلة إليه، وعلى قدرة فائقة على البقاء وتجديد النشاط دون انقطاع».

- الضابط الصهيوني «سفيكا»: في أحدى المرات بعد إحدى العمليات في تل الربيع قال لزوجته مهدئاً: عندما نقتل عياش، سأربط جثته بسيارتي، وأجره في شوارع «تل أبيب»، وبعدها أقطع جسده قطعا صغيرة لأوزعها على كل عائلة «إسرائيلية» ممنْ قتل عياش أحد أبنائها ليأكلوها».

الموعد الشهادة

ما هي الشهادة؟!

الشهادة هي لحظة اكتشاف الخلود والغيب، وتفاصيل الفرح الأزلي، هناك حيث النعيم ينتثر فوق رؤوس الشهداء كحبات المطر، حيث أيديهم تلمس النور وتقطف المستحيل!!. دانية لهم حقائق الآخرة. هناك تبدأ كل البدايات. وهناك يتضاعف الزرع والحصاد.

وهناك يسمعون حروف أسمائهم في غناء الحور العين، وهناك يذوقون لذت الفرح على مائدة النبي ﷺ.

هناك يدرك الشهداء عظمة الألم وروعة البذار!!

لقد نذر يحيى عياش القائد البطل والقامة السامقة والنموذج الفريد الحياة لغاية واضحة عبر عنها بقوله: «مستحيل أن أغادر فلسطين، فقد نذرت نفسي لله ثم لهذا الدين، إما نصر أو استشهاد، إن الحرب ضد الكيان الصهيوني يجب أن تستمر إلى أن يخرج اليهود من كل أرض فلسطين).

فكانت حياته جهاداً ختمها الله له بشهادة تليق بسعيه المبارك الكريم، ويذكر من كتب في تلك الفترة أنه تم تجنيد خيرة العناصر الحربية في الجيش

والمخابرات الإسرائيلية لتنفيذ المهمة، وفي الوقت نفسه عمل الشاباك على تفعيل شبكة من العملاء الفلسطينيين، وتم تفعيل أحد كبار الخبراء في التكنولوجيا الحربية الإسرائيلية، ليقوم بإعداد جهاز هاتف جوال ملغوم، ونجح الخبير في ذلك، فصنع بطارية خاصة للهاتف الجوال نصفها بطارية ونصفها مواد متفجرة (40 – 50 غراما) من نوع خاص جدًا، يعتبر شديد الانفجار من جهة، ولكنه مكتوم الصوت.

كان المتبقي فقط هو أن يجد العدو طريقة لتسليم عياش الهاتف وإقناعه بأن يستخدمه، إذ كان المطلوب فقط أن يحمله بيده ويقول: «ألو».

تمكنت المخابرات الإسرائيلية من تسليم الهاتف لعميل فلسطيني لإسرائيل، وهو قريب لأسامة حماد، الذي كان عياش يختبئ عنده ذلك اليوم 5 يناير كانون الثاني 1996م. وتؤكد الرواية الإسرائيلية أن العميل الفلسطيني لم يكن يعرف أن الهاتف ملغوم، ولكنه نفذ ما كان مطلوبا منه بحذافيره، فقد سلمه الهاتف، بوساطة القريب، وقام بقطع خيوط الهاتف الأرضي في ذلك البيت، مما أتاح تنفيذ المخطط.

حصل عياش على الهاتف الجوال، في الساعة الثامنة والنصف من ذات الصباح، وكان من نوع «ألفا»، القابل للثني. روى أسامة حماد لاحقاً وهو صديق عياش المقرب الذي كان شاهدًا على اغتياله، أن الفلسطيني الذي أعطاه الهاتف طلب منه أن يبقيه في حالة تشغيل. وقال حماد: إنه في تمام الساعة 8:30 اتصل به كمال حماد ووبخه لأن جهاز الهاتف كان مطفئاً. قام أسامة بتشغيل الجهاز، وبعد دقائق معدودة انقطع خط الهاتف الأرضي في البيت بشكل مفاجئ. رنّ الهاتف الجوال في تمام الساعة 9:00 وكان على الخط والد يحيى الذي طلب التحدث مع ابنه، أخذت له الهاتف الجوال وسمعت أنه يسأل عن صحة والده، قال حماد: خرجت من الغرفة لأتركه وحده.

وبعد أن بقي عياش وحده في الغرفة، إشارة إلكترونية تم بثها إلى الهاتف الجوال أدت إلى تشغيل النظام محكم الصنع، الذي تم زرعه في الجهاز، وشغلت العبوة المتفجرة الصغيرة. لم يسمع أحد صوت الانفجار المميت الذي وقع. حين عاد حماد إلى الغرفة شاهد عياش غارقا في دمه. تحدث عبد اللطيف عياش، والد «المهندس» عن آخر مكالمة له مع ابنه: «حولوا المكالمة إليه وتحدثت معه. قال لي: كل شيء بخير أبي، انتبه لصحتك. وفجأة انقطعت المكالمة. اعتقدت أن السبب هو مشكلة بخدمة الاتصالات، حاولت معاودة مكالمته لكن الخط كان مقطوعا. أبلغوني عند الظهيرة بأنه استشهد».

يوم الجمعة الموافق الخامس من يناير عام 1996م، استشهد يحيى عياش أو دعونا نقول ظل يحيى حيًا، وظل عياش فالشهداء لا يعرفون محطة الموت، ولا ينتهون إلى الفناء. خرجت فلسطين في جنازته -رحمه الله- إذ خرج نحو نصف مليون فلسطيني في قطاع غزة وحده، وظل يحيى أيقونة الجهاد وركنًا ملهما للشباب المقاوم وحكاية لن ينتهِ السطر الأخير فيها قبل تحرير فلسطين كاملة بإذن الله.

زُفَّ يحيى عياش بأغاني الحب ووعود الثبات على الطريق، وصدح الرنتيسي في جنازته بميثاق العهد فقال:

عياش حيٌّ لا تقل عياش مات — وهل يجف النيل أو نهر الفرات
عياش شمسٌ والشموس قليلة — بشروقها تهدي الحياة إلى الحياةْ
عياش يحيا في القلوب مجددًا — فيها دماء الثأر تعصف بالطغاةْ
عياش ملحمة ستذكر نظمها — أجيال أمتنا كأغلى الذكرياتْ
عياش مدرسة تشع حضارةً — عياش جامعة البطولة والثباتْ
يا ذا المسجى في التراب رفاته — من لي بمثلك صانعاً للمعجزات؟
أنعم بقبرٍ قد تعطر جوفه — إذ ضم في أحشائه ذاك الرفات
آن الأوان أبا البراء لراحة — في صحبة المختار والغر الدعاةْ
أبشرْ فإن جهادنا متواصلٌ — إنْ غاب مقدامٌ ستخلفه مئاتْ

الدروس والعبر المستفادة من سيرته وتجربته

أولاً: كانت جنازة الشهيد استفتاءً عفوياً بأن خيار الجهاد والمقاومة لا يزال في قلوب أبناء فلسطين.

ثانيًا: أثبت الشعب الفلسطيني بأن من يقدم لفلسطين بإخلاص وأمانة كعماد عقل ويحيى عياش وعوض سلمي وغيرهم يجد صدى أفعاله لدى الجماهير مجسدًا في جنازاتهم.

ثالثاً: أن كرة اللهب البشرية التي اندفعت لوداع المهندس هي في إحدى صورها تعبير صريح عن حالة الغضب ومشاعر الاحتقان التي يكنها الفلسطينيون لعدوهم رغم كل الاتفاقات والترويج لحالة الصداقة الجديدة التي كشفت زيفها انتفاضة الأقصى المباركة.

رابعاً: نقل العمل العسكري نقلة نوعية وكبيرة لم تُسبق قبل ذلك حيث كانت متفجراته من بيئة محلية ومن صنع يديه.



خامساً: أن أهم أسباب تفوق تجربة الشهيد كانت في نقله وتوريثه للعمل والخبرة الجبارة التي امتلكها، وكان لفريق العمل الذي مَنَّ به الله على الشهيد أعظم الأثر في بلوغه غاياته، كما كانت سريته العالية سببًا في حفظ العمل واستمراره وتحقيق نتائجه المذهلة.

كلمة حركة المقاومة الإسلامية حماس في عرس الشهيد يحيى عياش

تزف حركة المقاومة الإسلامية «حماس» إلى جماهير شعبنا الفلسطيني شهيدها البطل المجاهد القائد يحيى عياش قائد مجموعات الاستشهاديين في كتائب الشهيد عز الدين القسام الذي اغتالته أجهزة الغدر الصهيونية.

شعبنا الفلسطيني البطل:

إن حركتكم المجاهدة (حماس) إذ تزف شهيدها البطل القائد يحيى عياش إلى جنات الخلد، وتهنئ قائدها البطل لنيله شرف الشهادة في سبيل الله، فإنها تستذكر سلسلة طويلة من حلقات الفداء التي قدمت نفسها رخيصة في سبيل الله وحرية الوطن والشعب.

إن الشيخ عز الدين القسام وصحبه الأبرار ومن تبعهم على طريق الجهاد من أبناء كتائب القسام البطلة وكل مجاهدي وشهداء شعبنا. وصولا إلى يحيى عياش ليسوا إلا حلقات في سلسلة الجهاد المباركة المستمرة لا يضرها من خذلها ولا من تآمر عليها، إلا أن اغتيال عياش في وقت تهلل فيه الأبواق المأجورة لحلول السلام المزعوم يؤكد أي سلام هذا الذي نجحت سلطة «الذاتي» في جلبه لشعبنا بعد أن فرطت في كل شيء.

إن حركة حماس إذ تؤكد لشعبنا أن صراعها لم ولن يكون إلا مع الكيان الصهيوني الذي يقف وراء هذه الجريمة الغادرة فإنها تشير إلى السلطة باعتبارها الثغرة التي أوجدها الكيان الصهيوني في جدار الشعب الصامد، وحصان طروادة الذي تتغلغل من جوفه أصابع الصهاينة لتضرب كل يوم في مكان جديد.

إن عجز عشرات الآلاف من أفراد الأجهزة الأمنية التي أقامتها السلطة بين ظهراني شعبنا الفلسطيني عن حماية المجاهدين وأبناء الشعب الفلسطيني في

مناطق الحكم الذاتي تأكيد من جديد على الأهداف المشبوهة من وراء إغراق المناطق الفلسطينية بهذه الآلاف المؤلفة من رجال الشرطة وأفراد المخابرات.

شعبنا الفلسطيني.

إن اغتيال الشهيد البطل يحيى عياش الذي دوخ الكيان الصهيوني و أجهزة غدره أكثر من ثلاثة أعوام لا يؤكد شيئًا قدر ما يؤكد استمرار المعركة، فإذا كان يحيى عياش قد استشهد فكل الشعب يحيى و كل أبناء «حماس» يحيى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227]، أما الشهادة فقد كانت الأمنية التي طاردها يحيى طويلاً، و هي الأمل الذي يلاحقه أبطال «حماس» في كل ساعة، و نقول للسلطة التي جعلت إطفاء جذوة الجهاد هدفا لها: «ما دمتم قد عجزتم عن كبح جماح شهوة القتل لدى شركائكم الصهاينة الذين استباحوا أمن الشعب الفلسطيني في مناطق الحكم الذاتي، فإنكم أعجز عن وقف الجهاد حتى داخل المناطق التي نصبتم أنفسكم حارسًا للصهاينة فيها».

إن حركة «حماس» إذ تؤكد للشعب الفلسطيني الذي يتعرض لأبشع حملة تضليل في تاريخه المعاصر، أن اغتيال الشهيد القائد يحيى عياش جزء من معركته مع الكيان الصهيوني الذي يسعى لابتلاع الشعب بعد أن ابتلع أرضه فإنها تعاهد الله على المضي قدما في برنامج الجهاد والمقاومة ولينتظر الغزاة المحتلون وأذنابهم رد الحركة على الجريمة الصهيونية.

لقد جاء اغتيال الشهيد البطل يحيى عياش قبل أسبوعين فقط من انتخابات الحكم الذاتي التي يريدها الصهاينة والسلطة وسيلة لإضفاء شرعية ما على اتفاقاتهم الهزيلة.

إن حركة «حماس» تدعو الشعب الفلسطيني بهذه المناسبة إلى الالتفاف حول خيار المقاومة ورفض الاتفاقات الهزيلة وكل ما يتمخض عنها، بما فيها مهزلة الانتخابات.

إن الشعب الذي أنجب عز الدين القسام وعبدالقادر الحسيني وياسر النمروطي وعماد عقل وكمال كحيل وطارق دخان والشهيد الدكتور فتحي الشقاقي والمعلم القائد يحيى عياش لقادر دائمًا على أن ينجب المزيد من قيادات ورموز الجهاد والنضال، وإن مسيرة الجهاد على طريق تحرير أرضنا ومقدساتنا ستتواصل وتتعاظم وستزيد دماء شهدائنا اشتعالا ؛ لتكون ثورة وبركانًا يحرق الأرض تحت أقدام الغزاة المحتلين.

والله أكبر ... والنصر لشعبنا المجاهد

حركة المقاومة الإسلامية

حماس-فلسطين -الجمعة 5-1-1996م.

تقبل الله الشهيد يحيى عياش

ورزقنا حسن الاتباع وجعلنا على آثارهم المباركة وبلغنا مراتبهم.



سيرة الشهيد القائد

محيي الدين الشريف

1966م - 1998م



الأصل عند الأخ الصمود عند الاعتقال، وأن يكون عنده «خطة صمود» وليس «خطة اعتراف».





تعد سيرة القائد الشهيد محيي الدين الشريف نموذجا ملهما للأجيال التي اختارت طريق المقاومة، فقد أسس الشهيد منهجا في الثبات على الجهاد، منهجاً يبدو مثل سطور الحقيقة كتبها الشهيد بصمود مذهل، وصنع منها رواية النخيل الشامخ الذي لا تقدر مناجل بني إسرائيل على حصده ولا النيل من جذوره.

كتب الشهيد رواية فلسطين التي ظلت وعدا أزليا للعباد وليس للعبيد! كتب رواية الوطن الذي تسلل اليه اليهود في عتمة ليل تملؤه أنفاس المنتظرين للخلاص.

كتب رواية أمة كان قدرها أن تعيش في زمن البقرة الصفراء حيث يواري المحتل الإسرائيلي جريمة الإنسانية المغدورة في غفلة الأمة العربية جمعاء، يواريها ويجعل من الثوب الفلسطيني أكفانها الممدودة.

جاء محيي الدين الشريف وكل من معه كي يوقفوا كتابة النصوص السوداء الجديدة، كي يوقفوا حياكة أثواب الجند المشتاقين لهيكل إسرائيل المزعوم، جاءوا لمجابهة الجند الذين يؤسسون أوهامهم على نصوص التوراة الفاسدة.

جاء الشهيد كي يوقف التواءات الطريق، التواءات



المرحلة، التواءات الموازين الأممية التي تنحاز لصوت الغابة، جاء كي يحق الحق ويوقف رائحة ابن سلول المنبعثة في تل أبيب والأراضي المغتصبة!

جاء الشهيد من رحم القسام في مرحلة كانت معاول السلام تردم خنادق الأحزاب، وتنقض قلاع الأمة الثقافية، وتدفن آيات الأنفال، وتصنع عرجا لا تستقيم بعده خطوات الأمة!

كان القسام بكل جنده يلمحون في ليل الأمة كيف ينشأ الناشئ في بني صهيون على حمل أكوام الرمل كي يلقيها على قبر سعد بن معاذ، على قبر من أنشأ فيهم حكم السماء، وعلى كل سعد فينا!

كانت الأمة العربية مشغولة ببريق العجل وبتخليط السامري فيها، كانت تنقاد له وهو يصنع لها آلهة من البريق المزيف، وكان القسام وجنده يرابطون على اليقظة ويمنعون النوم أن يتسلل إلى بصيرتهم.

كان جند القسام يسمعون حسيس بني صهيون في الليل الدامس، يمنعون ضجيج السلام الموهوم من أن يبلغ آذانهم، وينصتون بوعي للسيرة المحمدية، ويدركون أن في سورة الإسراء وعداً ولكن الوعد لا يتنزل إلا بسلاسل الأسباب، وقد أراد القسام بكل كتائبه وجنده وقيادته أن يكون هو وعد الله وأسبابه الجليلة وقدر الله المقدور في الأمة!

أولاً: ميلاد سنبلة

كان الاسم محيي الدين ربحي سعيد الشريف وأما اللقب فهو مهندس القسام الثاني.

ولد الشهيد المهندس محيي الدين الشريف في بلدة بيت حنينا شمال القدس المحتلة عام 1966م، وفيها تلقى تعليمه الأساسي وتحديداً في مدارس القدس، ومنها حصل على شهادة الثانوية العامة، وقد كان شابا متفوقا مما أهله لاستكمال مرحلة التعليم الجامعي.

بلغ التفوق بالشهيد إلى دخول كلية العلوم والتكنولوجيا في جامعة القدس المفتوحة، ليدرس هندسة الإلكترونيات ويتميز في هذا المجال وذلك في خدمة المقاومة فيما بعد.

ثانياً: ميلاد الدرب

في إحدى كليات جامعة القدس بدأ محيي الدين الشريف التعرف على فكر الحركة الإسلامية، والعيش معها في صفاء الروح في رحاب المسجد الأقصى، حيث كان يتنقل بين حلقات العلم فيه ويشارك في الاعتكافات والأنشطة الدعوية.

كان الشباب يعتبرونه نموذج التربية الفريد، فقد تجاوز الشريف في نشاطه كل من سبقه وتقدم عليهم. وكان له الفضل بعد الله في تأسيس النواة الصلبة للكتلة الإسلامية في جامعة القدس، والتي ظلت تسيطر على مجلس الطلبة لأكثر من 15 عاماً.

بنى الشريف ميراثا عظيما من خلال عمله مع الكتلة الإسلامية، وكان له تاريخ حافل بالأحداث، إلا أن أهمها على الإطلاق كان حدث الاعتقال الذي

كان على خلفية النشاط والمشاركة في انتفاضة المساجد، ليتعرف من خلاله على ثلة المجاهدين في الضفة الغربية، والذي فتح له فيما بعد المجال للعمل في الجناح العسكري لحماس، حيث كلف بمساعدة المطلوبين وإيوائهم ليسجن مرة أخرى لعام ونصف، وبعد خروجه من المعتقل بدأ التحول الكبير في حياته الجهادية حيث ترى تدبير الله في ترتيب الأقدار وكأن حكايات الأنبياء تنبعث في ورثتهم إذ تلمح معنى ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: 40] في كل خطوة لشهيد أو حركة لمجاهد صادق أو مسلك للثلة المرابطة على حراسة الحق في هذه الأرض.

ثالثاً: النقلة النوعية

كانت القفزة الحقيقية التي أكرم الله بها الشهيد وجعل بعدها لسعيه صدى في مسامع العدو، زلزل به كيان المحتل الإسرائيلي هي الانتقال إلى غزة للتدريب حيث علم الشهيد يحيى عياش بقدرة محيي الدين الشريف وتفوقه في صناعة وتجهيز المتفجرات فاستدعاه إلى قطاع غزة في النصف الأول من عام 1995م ليتلقى تدريبات مكثفة في صناعة وتجهيز المتفجرات وتفخيخ السيارات. ذلك أن هم المهندس يحيى عياش كان العثور على من يحمل الميراث الجهادي بعده ويكمل المسيرة ويحفظ تصاعد العمليات الجهادية. ولقد وجد يحيى عياش ضالته في الشهيد محيي الدين الشريف وآخرين.

بعد التدريب المكثف عاد المهندس رقم (2) محيي الدين الشريف إلى الضفة الغربية في الأسبوع الأول من شهر يوليو/تموز 1995م، حيث أقام قاعدة ارتكاز عمل من خلالها على تجنيد الاستشهاديين.

عمل مجاهدنا القسامي بتوجيه من المهندس يحيى عياش على إقامة خمس خلايا عسكرية في شرقي مدينة القدس خططت لتنفيذ هجوم استشهادي في

الجامعة العبرية وفي مخبز (انجل) بالشطر الغربي من المدينة المقدسة إلى جانب التخطيط لعمليات أسر جنود صهاينة من تل أبيب وحيفا واللد. كما خططت هذه الخلايا لاختطاف حافلة ركاب وإجراء مفاوضات لإطلاق سراح عدد من المعتقلين والأسرى في سجون الاحتلال.

وبناء على البرنامج الذي تلقاه من المهندس يحيى عياش، عمل محيي الدين على تجنيد الاستشهاديين لبيب عزام وسفيان جبارين. وبتعاون الشهيد محيي الدين الشريف مع عبد الناصر عيسى، تم تنفيذ العمليتين الاستشهاديتين الأولى في الحافلة رقم (20) العاملة على خط «رامات غان» باتجاه تل أبيب بتاريخ 1995/7/24م والثانية في الحافلة رقم (9) العاملة على خط «رامات اشكول» والمتجهة نحو مقر شرطة الاحتلال بتاريخ 1995/8/21م، واللتين أسفرتا عن مقتل (12) صهيونياً وإصابة (139) آخرين.

وبعد ذلك جند الشهيد محيي الدين الشريف خلية من منطقة رام الله لتصفية الميجر جنرال «داني روتشيلد» منسق شؤون الحكومة الصهيونية في الضفة عبر نسف منزله في مدينة القدس في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) 1995م، غير أن هذه العملية لم يكتب لها النجاح.

ثم كان استشهاد المهندس يحيى عياش لينتقل الشهيد للعمل مع القائد محمد الضيف وعادل عوض الله والاسير حسن سلامة.

سنبلة المقاومة، ملامح ومعالم

المعلم الأول: صبر أقوى من الرماح

إن القارئ في سيرة البطل الشهيد ليقف بوضوح على معلم بارز في شخصيته ألا وهو نية الثبات والعزيمة على الصبر مهما كان توغل الرماح في الجسد المجاهد. كانت الأحداث تضطرب من حوله وتنبئ بالإعصار، وكان هو ثابت في الفلك ويرى الطوفان ينحسر والسفينة تستقر على الجودي، وانحسر الموج عن من استعصموا بأمر الله. ولقد كان الله بحكمته يصنع من الشهداء ومن كل الذين ساروا على درب الحق عجينة تخبز لتحقيق موعود الله في الأرض.

كان الشهيد البطل رجلاً عركته الأيام بتدبير الله، وصنعت منه الأحداث هذه الشخصية القيادية الصابرة المتقدمة، فخاض الغمار بكل عزم وثبات، وقرر ألا يقوم بتسليم نفسه لقوات الاحتلال، فكان عليه أن يحتمل ضريبة هذا الخيار، فكان أن خاض مرحلة التحدي بكل العزم والبذل والمضاء.

أعدَ الشهيد نفسه لتلك الأيام العصيبة، بل ولأحرج الفترات التي مرّ بها العمل العسكري، ولذا كان البطل يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويختم القرآن في كل ثلاثة أيام وإذا تجاوز ففي أسبوع، وتلمس في ملامح وجهه صدق المبادئ التي يحملها، تلك المبادئ الإسلامية الأصيلة التي ترفع كل من ينتسب لها.[1]

كان يعلم أن وقود الشحنة يشتعل كلما زاد الاتصال بالله، وأن لله أسبابه وأمداده التي يجهلها البشر يقذفها في يد من استحق أن يكون على خطى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]

1- http://palestinewiki.net/index.php?title=%D8%A

كان الشهيد يستهزئ بالمطاردة والحصار ومحاولات الاغتيال ودائماً يستشعر ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]، يعلمه من خلال تلك التراتيل التي تنسكب في ثنايا روحه كل صباح ومساء عبر القرآن، فلقد كان القرآن سياجه من عواصف الخوف والشك والاضطراب!

المعلم الثاني: إنسانية فياضة

كل الشهداء يحملون الدفء في أرواحهم، يفيضون به على الصقيع الذي اشتد من حولهم، يدثرون القلوب بإنسانية وعاطفة تنسي من حولهم كل الشتاءات الجائعة التي مرت عليهم وكادت أن تجعلهم يباسا.

الشهداء فقط هم القادرون على حمل الشمس دوما في عطائهم، يشعلون بها ليل الشتاء ويحرقون بها قلوب الأعداء، وتلك معادلة لا تتقنها إلا أيدي الشهداء!

كان محيي الدين الشريف شديد الحب للأطفال، وكان الأطفال كذلك يبادلونه حباً عارماً، وكانوا يعرفونه باسم أكرم وهو أحد الأسماء التي كان يسمي بها نفسه أثناء رحلة المطاردة.

كان شديد الحرص على تقديم الهدايا المفيدة للأطفال بنفسه، وكانت إحدى الفتيات التي لم يتجاوز عمرها في ذلك الوقت السنوات الست تقول: «إن عمو أكرم كريم جدا».

إحدى الأمهات الفلسطينيات التي كانت تتردد على البيت الذي أقام فيه الشهيد ولم تكن تعلم من هو الشخص الذي يقيم في البيت، وكان الأطفال المقيمون في البيت دائمي التحدث لجدتهم عنه. وتشاء الأقدار أن تلتقي به في أحد البيوت دون أن تعرف من هو، وتذهب وتحدث زوجة أخيها وتقول لها من هذا الذي عند زوجك فتقول لها انه صديقه، ولكن لماذا تسألي؟ فترد «أنها لم ترَ مثله في حياتها قط فإن النور يشع من وجهه»!

ربما من المهم أن نتوقف قليلا عند أجواء المطاردة التي يحياها المطارد حيث يكون محاصرا بين الترقب والانتظار، يتنفس الحذر من عروقه، ويقف دون غفلة في مواجهة الموت المتربص به، يظل المطارد في دائرة الشد والجذب بين العمل الموكول به وبين احتياجاته الفطرية للهدوء والاستقرار.

تمضي أيامه بألوان لا نعرفها، بألوان بعضها الشوق للحظة صمت لا يشوشها خوف مباغت، مرهقة وثقيلة وقاسية تلك الحياة التي لا يعرف مذاقها إلا المطاردون، ومع كل ذلك نرى الشهيد الشريف يتفقد إنسانيتنا ويعلمنا كيف نبتسم للطفولة وسط العذاب، يعلمنا تفاصيل الجمال في مشهد المطاردة القاسي، ويعلمنا كيف ينتصر الحب!

عاشره مارك مينه وهو فلسطيني نصراني اعتقلته سلطات الاحتلال إبان الانتفاضة واحتجز مع الشريف فترة من الزمن ووصف شخصية الشهيد بأنه رزين وحكيم وهادئ وكان لطيفاً وقال: كان الشهيد -رحمه الله- يعاملني معاملة طيبة وهو يعلم أنني مسيحي. كان الشهيد صاحب أدب وإنسانية عالية.

المعلم الثالث: لا انحناء في مواجهة زرّاع الغرقد

هذه السمة هي منهج اختطه الشهيد في كل تحركاته وسعى لتثبيته في عوالم الشباب من حوله، وجعل من نفسه نموذجا مباركا في تحقيق هذا المعنى، وجعله قاعدة التعامل مع العدو المحتل، فقد كان يدرك أن زراع الغرقد من الاحتلال وعملائه يعملون لكسر شوكة الصمود الفلسطيني، ولإجهاض المقاومة وعرقلة ميلاد الجهاد في فلسطين، لذا جعل الشريف من نفسه فارس فلسطين في رفع الدرع وصد غوائل الليل الذي يريد أن يستبيح حاضر الأمة كلها.

فحين انضم الشهيد محيي الدين الشريف إلى صفوف الحركة الإسلامية أثناء دراسته الجامعية فيها تعرض -على غرار آلاف الفلسطينيين - لاعتقال دام

سنتين ونصف السنة إبان الانتفاضة الأولى، ثم اعتقل قرابة العامين عام1991م بسبب إيوائه مجاهدين من كتائب الشهيد عز الدين القسام.

وكان الشهيد خلالها مدرسة في الصمود في غرف التحقيق، فلقد سطر الشريف البطل أروع آيات الصمود في أقبية السجون عند العدو في كافة مراحل التحقيق، ولسان حاله يقول فإما حياة تسر الصديق، وإما ممات يغيظ العدا.

وسطّر لإخوانه المجاهدين قاعدة الصمود والتحدي، فكان يقول دوما «الأصل عند الأخ الصمود وأن يكون هناك شيء اسمه خطة صمود وليس خطة اعتراف، إذاً اعتقل الشخص واعترف على التهمة التي ضبط متلبسا فيها فقط فهذا يعتبر سقوطاً جزئياً أما إذا اعتقل واعترف على كل شيء وذكر أسماء الأشخاص الذين يعرفهم والخطط التي يعرفها فإن هذا يدخل في الخيانة والإثم والله اعلم».

ومن صور التعذيب التي تعرض لها المجاهد الشهيد محيي الدين الشريف ما يقوله عن نفسه: «كنت أتعرض للشبح أياماً عديدة على ماسورة وبوقفة غير معتدلة، مقيد اليدين من الخلف أو على كرسي صغير، وبعد ساعات من الشبح اشعر بالتعب والنعاس فتأخذني سنة من النوم لا تتجاوز اللحظات ولكنها تكون نعمة من الله ورحمة، لأصحو بعدها وكأني أخذت قسطاً كبيراً من النوم رغم أنها لحظات لم تتجاوز الثواني»، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ .[الانفال: 11].

وذات يوم قال له أحد الإخوة المقربين انه إذا توفرت إمكانية لإخراجك إلى خارج فلسطين فإن في ذلك ضربة أمنية قوية للعدو فما كان من أخينا إلا أن قال له: «هنا المحيا وهنا الممات، وأريد إن تقطع ساقي وأشار إلى قدميه»، صدق الله فصدقه، وتقطع ساق شهيدنا البطل تحت التعذيب بعد اعتقاله على يد جهاز

الأمن الوقائي برئاسة جبريل الرجوب والذي أشرف بنفسه على تعذيبه، وكان ذلك في أثناء التحقيق حتى يتم انتزاع اعتراف منه ولكن أنى لمن ذاق حلاوة الإيمان أن يخضع لطواغيت الأرض - وهو صاحب مدرسة الصمود القسامية – فبقي صامداً تحت التعذيب ولم ينبس ببنت شفة وكان قربانا للكلمات التي آمن بها وعلمها للشباب من حوله وقدوةً لمن بعده.

ولقد وصفه مناحيم كلاين الخبير في شؤون المقاومة في جامعة بار–ايلان بأنه (خبير لا يعمل الا ضمن دوائر ضيقة وصلب لا يتراجع عن قناعاته)، لقد كان حصنا وقلعة لا يعرف اعتلاءها الأقزام المحتلون.

المطاردة

هو المجاهد يطارد في الماضي وفي الحاضر ويدفع عن أسوار القدس هجمات بني صهيون، يدفع عن لغة القدس صوت العبرانيين، يقاتل كي تظل ثغور الأمة محمية من اختراق البرابرة المغول.

هو المطارد المجاهد من يحمي سماء فلسطين من أن تتربع فيها نجمة سداسية، ويبقيها بنجوم المعراج صافية متألقة، يحميها من تسلل النجمات المعتمة، ويدفع ثمن ذلك عمره لأجلنا، وهذا ما كان إذ بعد خروج الشهيد الشريف من السجن بأسبوع أصبح في عداد المطاردين ذلك أنه كان من أوائل المنتسبين إلى مجموعات الاستشهاديين التي أسسها الشهيد يحيى عياش وحاولت سلطات الاحتلال اعتقاله في تموز (يوليو) 1995م غير انه نجح في الإفلات من قوات الاحتلال وأدرج منذ ذلك الحين على قائمة المطاردين.

يروي الشهيد البطل كيف ابتدأت المطاردة فيقول: «كنت في البيت فرن جرس الهاتف وكان في المنزل أكثر من تلفون بحيث شاءت الأقدار أن ارفع السماعة أنا وإحدى قريباتي كانت في البيت لترد على الهاتف وكل منا في غرفة منفردة

وتبدأ هي بالحديث مع الطرف الأخر وهو أحد اليهود المحاصرين المنزل فسألها عني – وكان هدف العدو التحقق من وجودي في المنزل – فقالت له انتظر حتى أراه وبسرعة تركتُ سماعة الهاتف مفتوحة ثم فتحت الشباك فوجدت الجيش يحاصر المنزل فقرأت بدايات سورة يس إلى قوله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] وقفزت من الشباك وبدأت بالزحف ومررت بالقرب من الجنود ولكن الله أعمى أبصارهم كما أعمى أبصار قريش عن النبي ﷺ عند هجرته وأخذت بالزحف إلى أقرب شجرة ولا يوجد بيني وبين الجندي إلا بضعة أمتار وأنا اقرأ القرآن ثم تم اقتحام المنزل فجنود داخلوا المنزل وآخرون خارجه واستمر هذا الأمر أكثر من ساعة وأنا مكاني وبعدها بدأت رحلة المطاردة في يوليو 1995 م[1]».

ورغم أهمية موقعه إلا أن الشهيد محيي الدين الشريف كان مشتاقاً للقاء ربه، ففي يوم 1995/8/23م خرج من بيته وهو يحمل بيده حقيبة، اتجه نحو مكان ما حيث قام بتصوير شريط فيديو يودّع فيه أهله لأنه يعتزم القيام بعملية استشهادية، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة بعد اتصالات من القائد محمد ضيف.

وكان قادة الشاباك الصهيوني قد وصفوه بأنه قنبلة موقوتة لا تعرف متى ستنفجر واعتبر المطلوب رقم (1) في الضفة الغربية بعد عمليات الثأر ليحيى عياش.

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=1140761

أوسمة وإنجازات

بعد استشهاد المهندس رقم (1) يحيى عياش استطاع الشهيد محيي الدين الشريف الثأر له بسلسلة من العمليات جعلت القدس وتل أبيب مدن أشباح، وصاغت مراحل جديدة من مراحل الجهاد تمثلت بتطوير أسلوب التفجير بواسطة جهاز التحكم عن بعد واستخدام عبوات أكثر تطورا من ذي قبل.

جاءت عمليات الثأر الاستشهادية الأربع في القدس، وعسقلان، والقدس مرة أخرى، وتل أبيب، انتقاماً للجريمة التي ارتكبها العدو باغتيال المهندس يحيى عياش. وقد أسفرت العمليات عن مقتل 64 صهيونياً وإصابة أكثر من (373) آخرين وحولت المدن إلى أشباح لما أحدثته من هلع ورعب.

وهنا تفصيل للعمليات التي قام المجاهد «محيي الدين الشريف» بالتخطيط لها:

1- في 1996/2/26م قام الشهيد «مجدي أبو وردة» بتفجير نفسه بحافلة في القدس المحتلة على خط رقم (18) المؤدي لمقر القيادة العامة لكل من الشاباك والشرطة الإسرائيلية مما أدى إلى مقتل وإصابة العشرات.

2- لم تمض (45) دقيقة على التفجير الاول للشهيد أبو وردة حتى فجر الشهيد «إبراهيم السراحنة» حقيبة مفخخة وسط تجمع لجنود الاحتلال عند مفترق عسقلان مما أدى إلى سقوط (32) صهيونياً بين قتيل وجريح.

3- بعد مرور أسبوع واحد على الهجومين الاستشهاديين فجر الاستشهادي «رائد شغنوبي» عبوته الناسفة في شارع يافا في القدس وذلك في الثالث من آذار / مارس 1996م ليعلن المتحدث باسم الشرطة الإسرائيلية عن مقتل وإصابة (290) صهيونياً.

4- وفي منتصف شهر أيار/ مايو 1996م حاولت مجموعة فدائية بأمر من الشهيد محيي الدين الشريف أسر جندي صهيوني في مدينة القدس إلا أنه تمكن من الفرار من داخل السيارة.

4- نظم الشهيد مجموعة من المجاهدين في ضواحي القدس الشرقية حيث قامت بوضع عبوتين ناسفتين في حاوية قرب موقف للحافلات بمدينة تل أبيب انفجرتا بفارق نحو عشرة دقائق بتاريخ 1997/1/15م مما أدى إلى إصابة نحو (16) صهيوني حسب اعتراف المتحدث باسم شرطة الاحتلال.

5- بعد ذلك جهز الشهيد عبوات ناسفة قام المجاهد موسى عبد القادر غنيمات من صوريف بتفجيرها في مقهى (ابروبوس) الكائن في شارع «بن غوريون» في حوالي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم الجمعة 21 آذار/ مارس 1997م مما أدى إلى مقتل (3) صهاينة وإصابة نحو (46) آخرين.

6- استمر الشهيد في عطائه الجهادي فخطط ونظم لعملية «سوق محناه يهودا» بتاريخ 1997/7/30م حيث قام اثنان من المجاهدين بتفجير العبوات التي يحملانها بفارق عدة ثوان عند مدخلي السوق الذي يعد أكبر مجمع تجاري في الجزء الغربي المحتل من مدينة القدس منذ عام 1948م وهو من معاقل «حركة كاخ» الإرهابية وأسفرت العملية عن مقتل (17) صهيونياً وجرح أكثر من (160) آخرين.

7- لم تكن العملية الاستشهادية المزدوجة في «سوق محناه يهودا» سوى أول الغيث حيث دوت ثلاثة انفجارات متتالية عند حوالي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس الموافق 1997/9/4م في شارع «بن يهودا» بمدينة القدس اهتزت معها عقول وأفئدة الصهاينة، وقد أسفرت العملية عن مقتل وإصابة

(196) صهيونياً[1]، وتحدثت أجهزة أمن الاحتلال بأن بصمات محيي الدين الشريف واضحة عليها.

عمل قبل اغتياله على تطوير أسلوب التفجير بواسطة جهاز التحكم عن بعد.[2]

الشهادة عتبة الشرف الخالدة

أرنو إلى الموتِ، إن الموتَ في شَمَم بطعنةِ الرمحِ أو بالسيفِ يُعتَبَرُ
والموتُ فوقَ فِراشِ الذلّ في فَزَعٍ ذنبٌ لصاحِبِه، يا ليت يُغتَفَرُ
لمّا رأيتُ عدوّ اللّهِ في وطني قد ضاقَ ذرعاً بِهِ المحراثُ والشّجَرُ
وأنّتِ الروضَةُ الحسناءُ إذ عَبَثَتْ كفُّ اللئيم بها، واستنجدَ الثمَرُ
ومسجدُ القدسِ يشكو غدرَ مُغتَصِبٍ يدعو أيا مُسلماً مَنْ ليْ سينتَصِرُ؟
يشكو، فلم يستَجِبْ يوماً لصرختِه إلا القليلُ، وجُلُّ الناسِ مُستَتِرُ
كأنّما الأرض آذانٌ بها صَمَمٌ وقلبُ سُكّانِها الجلمودُ والحَجَرُ
من أجلِ ذاك أيا محبوبتي انْطَلَقَتْ روحي كقنبلةٍ في البغي تنفجِرُ
ولو مَلَكْتُ سوى الروحِ التي قُبِضَتْ ألفاً، لفجرتُها في وجهِ من غَدَر،
أجودُ بالنفسِ كي تبقى كرامتُنا تاجاً على الرأسِ يا أُمّاهُ يزدَهِرُ.

لقد بدأت محاولات اغتيال البطل الشهيد محيي الدين الشريف مبكرة حيث نجا من محاولة لاغتياله في العام 1996م عندما فتح عملاء لسلطات الاحتلال وأفراد من المستعربين النار على سيارة كان يستقلها غير انه تمكن من النجاة ومغادرة موقع الهجوم حينها بأعجوبة.

1- https://ar-ar.facebook.com/notes/10151316582116360
2- http://www.shabab.ps/vb/archive/index.php/t-96300.html

ويقول الشهيد عادل عوض الله والذي اعتقل في سجون السلطة إن العديد من الذين اعتقلتهم الأجهزة الأمنية شاهدوا صورة محيي الدين معلقة في مكاتب التحقيق وقد كتب عليها «مطلوب حيا أو ميتا»، وأن أجهزة الأمن قامت وبناءً على إخبارية خاطئة تفيد بتواجده مع عائلته في سيارة من نوع «رينو9»، قاموا على إثرها بإطلاق النار على سيارة مشابهة وقتلت سيدة فلسطينية في هذه الحادثة.[1]

ولقد تم ترتيب فصول جريمة اغتيال القائد البطل عبر «العقيد جبريل الرجوب» مدير الأمن الوقائي وزبانيته وذلك بأن وضعوه في سيارة مفخخة وقاموا بتفجيرها.

فقبل عدة أيام من استشهاد محيي الدين، اعتقل الأمن الوقائي شاباً من رام الله كان يوصل الطعام والشراب إلى محيي الدين في مخبأه، وبعدها انقطعت أخبار الشهيد محيي الدين حتى وُجِد مقتولاً في انفجار السيارة.

ففي 1998/3/29م دوى انفجار في بلدية بيتونيا الصناعية في مدينة رام الله وعلى بعد مئات الأمتار من المقر الرئيسي للعقيد جبريل الرجوب قائد جهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية.

وبعد أربعة أيام من الحادثة قالت السلطة إن الجثة التي كانت في السيارة تعود للمهندس محيي الدين الشريف المطلوب رقم (1) لسلطات الاحتلال وكانت المفاجأة حينما أعلن الطيب عبد الرحيم أمين عام السلطة الفلسطينية أن المتورطين هم الحلقة الضيقة المحيطة بالشهيد وبالتحديد الشقيقان عماد وعادل عوض الله، حتى وصل الأمر بنبيل أبو ردينة مستشار رئيس السلطة ياسر عرفات إلى اتهام ستين شخصاً في حماس من بينهم د. عبد العزيز الرنتيسي بالتورط بالجريمة.

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=1144088

لم يصدق أحد رواية السلطة، ووقف والد الشهيد وهو أحرص الناس على دم ابنه ليقول: «تاريخ حركة حماس نظيف ولم تَشُبْهُ الاغتيالات، حيث لم يعرف عنها أنها قامت باغتيال أي من أفرادها أو من غير أفرادها، ونحن لم نسمع بالاغتيالات إلا بعد مجيء السلطة الفلسطينية»، وبعد هذا التصريح منعت السلطة والد الشهيد من أى تصريح صحفي.

تعرض الشاب الذي كان يوصل الطعام للشهيد لتعذيب شديد كي يكون شاهداً على أن عادل عوض الله طلب منه أن يقوم باغتيال محيي الدين الشريف، أو أن يعترف بأن عادل هو من قام باغتيال الشهيد محيي الدين.

كانت القصة جاهزة ومحبوكة ليرويها هذا الشاب، لكنه رفض أن يعترف إلا بوجود أحد قادة حماس في رام الله خوفاً على حياته كما قال لمحققي الوقائي، أحضر المحققين القيادي المعروف محمود مصلح وجلس ليستمع إلى اعترافات الشاب، حينها قال الشاب لمحمود مصلح أنه تعرض لتعذيب شديد لإجباره على تلفيق تهمة اغتيال محيي الدين لعادل عوض الله، وبذلك كشفت كذبة الأمن الوقائي قبل أن تحصل، وتكشّفت المؤامرة قبل اعلان فصولها.

وقد أكدت وقائع عملية الاغتيال وروايات الشهود كذب ادّعاء رواية السلطة، وذلك استناداً للحقائق الواردة التالية:

1- اغتيال القائد محيي الدين الشريف جاء في إطار سلسلة من عمليات الاغتيال والملاحقة والاعتقال التي نفذتها السلطة الفلسطينية ضد مجاهدي حماس وباقي القوى الفلسطينية، حيث اعتقلت السلطة العشرات وحققت معهم ومارست إرهابها ضد عائلاتهم.

2- ما تلا عملية الاغتيال من تطورات ميدانية، تثبت ظاهرة التنسيق الأمني المحكم بين أمن السلطة والصهاينة، من اجل القضاء على شبكة المقاومة. حيث تم اعتقال عماد عوض الله، وتدبير تهريبه ثم مراقبته وملاحقته واغتياله مع شقيقه الشهيد القائد عادل عوض الله.

3- إن السلطة الفلسطينية كانت مرتبطة باتفاقيات أمنية مع الاحتلال لحماية جنوده ومستوطنيه وبالتالي فإنها معنية بملاحقة المجاهدين.

4- إن السلطة الفلسطينية كانت تريد تصفية أي صوت معارض للتسوية وكانت تحاول إسكات معارضي اتفاق أوسلو، وبينت الوقائع أن الضربات التي وجهها محيي الدين الشريف للاحتلال في أكثر من مكان كادت تطيح بهذا الاتفاق، لذلك عقدت قمة شرم الشيخ في آذار/مارس 1996م واتفق فيها على ملاحقة وتصفية قادة المقاومة.

4- عملت السلطة على اخفاء الطبيب وتقريره والذي عاين جثمان الشهيد لأنه كتب فى تقرير الطب الشرعي «إن الشهيد تعرض لتعذيب شديد، وأن سبب الوفاة هو 3 رصاصات اخترقت جسد الشهيد».

وعليه فإنه من خلال ما سبق يتبين أن عملية اغتيال القائد محيي الدين الشريف هي جريمة ارتكبتها أجهزة مخابرات السلطة الفلسطينية التي كانت تنسق مع المخابرات الإسرائيلية والأمريكية، وقد ثبت لاحقا أن هذا التنسيق ساهم في اغتيال واعتقال عدد من قادة المقاومة.

من جهتها حرصت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) على التأكيد على قدسية الدم الفلسطيني وعدم الانجرار للفتنة من خلال بياناتها وانضباط عناصرها وطالبت بتشكيل لجان تحقيق مستقلة وهو ما رفضته السلطة الفلسطينية في ذلك الوقت.

على الصعيد ذاته حمّل مصدر مسؤول في حركة (حماس) حكومة العدو الصهيوني وأجهزة استخباراتها وعملائها مسؤولية اغتيال محيي الدين الشريف وأكد أنه اغتيل بإطلاق الرصاص عليه ثم وضع في سيارة مفخخة تم تفجيرها عن بعد.

وأكد المصدر المسؤول أن «هذا الاغتيال لن يوقف مسيرة المقاومة بل سيزيدها قوة واتساعاً»، مشيراً إلى أن «المجاهدين يعتبرون الشهادة أغلى أمنياتهم، وطريق الشهادة لا تخيفهم».

وطالب المسؤول في حركة (حماس) السلطة الفلسطينية بـ «نشر نتائج التحقيق وبيان ملابسات هذه الجريمة وتفاصيلها».

وأضاف «هذه الجريمة تؤكد الوجه الإرهابي القبيح لدولة الاحتلال التي تمارس إرهاب الدولة المنظم بحق أبناء شعبنا وأرضنا ومقدساتنا»، مشدداً على أن «قتل الشريف سيخرج ألف مجاهد يواصلون مشواره ويحملون رايته».

ولقد قدمت حركة المقاومة الإسلامية حماس رؤيتها في تصريح صحفي تعقيباً على جريمة اغتيال المهندس البطل محيي الدين الشريف حيث اتهم الدكتور عبد العزيز الرنتيسي المتحدث باسم حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في قطاع غزة سلطات العدو الصهيوني وعملاءها باغتيال الشريف.

وقال:«إن حماس لا تفرط أبداً بأبنائها وما الرد على عملية اغتيال يحيى عياش عنا ببعيد، ونحن نؤكد أن هدف المجاهد دائماً إما النصر أو الشهادة وبالتالي فقد حقق محيي الدين الشريف -رحمه الله- إحدى الحسنيين».

ودعا الرنتيسي الشعب الفلسطيني والأمتين العربية والإسلامية إلى الوقوف وقفة جادة في وجه الصلف الصهيوني الذي يمثل عدواناً مستمراً على أبناء الشعب الفلسطيني وعلى الوطن والمقدسات.

وقال الرنتيسي: «كل الدلائل التي أعلن عنها حتى الآن تشير إلى عملية اغتيال حيث يؤكد التقرير الشرعي أن الشهيد تعرض لإطلاق الرصاص أولاً ثم فجرت فيه عبوة ناسفة».

وأضاف الرنتيسي إن «ما حدث لا يعفي السلطة الفلسطينية من المسؤولية، مشيراً إلى أن الاغتيال تم في منطقة خاضعة لسلطة الحكم الذاتي».

وهكذا أصرّ الدكتور الرنتيسي في كل تصريحاته على تحميل السلطة مسؤولية اغتيال الشهيد البطل محيي الدين الشريف، مما جعل السلطة تعتقله.

وفى بيان اخر للحركة صدر بتاريخ 1998-04-30 اكدت فيه على أن شهادة «كلينتون»، دليل آخر على فبركة قصة اغتيال الشهيد محيي الدين الشريف فلقد أشاد الرئيس الأمريكي بل كلينتون في تصريحات نشرتها صحيفة الجيروزاليم بوست بالطريقة التي عالجت بها السلطة هذا الموضوع، قائلاً: «أعتقد أن الطريقة التي عالجوا بها القضية الأخيرة المتعلقة بحركة حماس تعزز مصداقية عرفات» معتبراً أن رئيس السلطة الفلسطينية أقدم على مخاطرة وأنه استجاب للشروط التي وضعتها إسرائيل للانسحاب من الضفة الغربية.

وقالت: إن هذا دليل آخر يضاف إلى سلسة الدلائل التي تؤكد على الدور المشبوه للأجهزة الأمنية لسلطة الحكم الذاتي في فبركة وتلفيق قضية المجاهد محيي الدين الشريف.

والحقيقة أن هذا التصريح الأول من نوعه الذي يصدر عن الرئيس الأمريكي حول قضية اغتيال الشهيد محيي الدين الشريف يؤكد ما أعلنته (حماس) عن دور بعض أجهزة أمن السلطة بالتعاون مع استخبارات العدو في جريمة الاغتيال، وهو أحد ثمرات التنسيق الأمني بين سلطة الحكم الذاتي والعدو الصهيوني برعاية الإدارة الأمريكية.

وإنه لمن المخزي والمؤسف أن تقوم السلطة الفلسطينية بهذا الدور في هذا التنسيق الأمني، حتى لو كانت متطلباته تمس مباشرة بأمن الشعب الفلسطيني، وأن يأتي هذا الدور في إطار الاستجابة للشروط الأمنية التي وضعتها حكومة نتنياهو كثمن يدفع لاستحقاق سياسي هزيل.

وكما قال الشاعر نزار عن ظلم الذين يتحكمون في الشعوب العربية

نجهل أسماء من يصنعون القرار، نموت، ولسنا نناقش كيف نموت؟

وأين نموت؟ فيوماً نموت بسيف اليمين، ويوماً نموت بسيف اليسار،

ولا نتذكر أوجه من قتلونا، ولا نتذكر أسماء من شيعونا

فلا فرق – في لحظة الموت – بين المجوس، وبين التتار.

بلادٌ، تجيد كتابة شعر المراثي، وتمتد بين البكاء، وبين البكاء، بلادٌ، جميع مدائنها كربلاء.

وهكذا تماما فعلت السلطة الفلسطينية بأبنائها، خانتهم وغدرت بأرواحهم!

يموت الملايين منا، ولا تتحرك في رأس قائدنا شعرةٌ واحده،

ولم أك أعرف أن الطغاة، يضيقون بالآلة الحاسبة!

قال الأستاذ عبد الخالق النتشة أحد قادة حركة المقاومة الإسلامية «حماس» في مدينة الخليل جنوب الضفة الغربية: «إن الشعب الفلسطيني وكل أبناء حركة «حماس» يشعرون بتأثر بالغ لاستشهاد أحد أبطال كتائب الشهيد عز الدين القسام الجناح العسكري لحركة (حماس)».

ووصف النتشة الشهيد بأنه: «من الذين وهبوا أنفسهم لدينهم ووطنهم على حد سواء»، وأضاف «لقد أحب الشهادة ونالها وإنه لشرف عظيم أن ينال هذه الشهادة في زمن التخاذل والمؤامرة، وفي زمن عز فيه الرجال الأوفياء»، وقال: «إنني آمل أن يكون تلامذة محيي الدين خير خلف لخير سلف»، مؤكداً أن «استشهاد المجاهدين هو ماء الحياة لآلاف الشهداء وأبناء الأمة وستكون دماؤه الزكية لعنة على الخونة والمتخاذلين».

رحم اللّه الشهيد وأجزل له المثوبة في عليين وأخلف الأمة فيها خيراً وانتقم له ممن مكن لليهود منه!



سيرة الشهيد القائد
عادل عوض الله

1967م - 1998م



نحن الطليعة ورأس الرمح الذي حارب به الشعب الفلسطيني كيان العدو، ليس لنا إلا التقدم هذا قدرنا ونحن رضينا به





يزهو القلم شرفا إذ أتيح له أن يتدفق في وصف سيرة المصطفين الأخيار، يزهو القلم إذ ينسكب حبره كلمات تتضوع بأريج الشهداء، يزهو وهو يعزف إيقاعا يبلل الروح وتنتشي به حدائق الحياة إذ يصيغ النثر والقصائد في وصف من تليق بهم ثياب الملائكة،

لكن هل تطيق اللغة بكل بيانها وبلاغتها أن تصف الأرواح التي صنعت على عين الله ! هل تملك اللغة رصيدها من التعابير التي تليق بأنوار تتوهج مثل شلالات فرح في عليين، وهل تبلغ اللغة أن تصف حديث الله مع الشهداء، هل تبلغ اللغة أن تصف مكاشفة الله لعبدالله بن حرام حيث كلمه كفاحا وقال له:(يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ) رواه ابن ماجه، هل تقدر اللغة أن تصف كيف وقعت الكلمات في أذن جابر بن عبدالله، كيف كان إيقاعها وكيف كان بردها وكيف غابت الدنيا حتى كأنها لم تكن شيئا مذكورا !

خبرني كيف تحكي لك اللغة هذا الحوار بين جابر وبين الله إذ يسأله جابر أن يرد إلى الدنيا كي يموت لأجله مرة ثانية فيقول الله له: (إنه قد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا ربِّ، فأبلغ مَن ورائي بما أعطيتنا من نعمة)، ربما تعطيك العربية الحروف ولكنها تقف حائرة كيف تحكي لك عذوبة النعيم، ولذة الزمان السرمدي، وعظمة اللقاء بالله !



يقبض الشهيد على الحقيقة المطلقة في فيض اللقاء بالله، تنتهي الأرض في ذاكرته إلى حكاية جد قصيرة، تنتهي إلى لحظة تغيب في زمن النسيان، تشرق روحه بنور ربها، ويشهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، تتوارى اللغة عاجزة عن العبور إلى الربيع الموشى في لحظة الاتصال.

ينهمر النعيم هناك ويغسل تاريخا من العذابات، تفتح مدائن السلام أبوابها وتنعتق الأرواح لألف عام وألف عام وألف دهر لا ينقضي، تنعتق من الحزن ويقال لهم (ادخلوا الجنة بسلام).

ثمة تفاصيل في الجنة تصبح خلودا أزليا، ثمة لحظات تغنيك عن كل بريق الدنيا، ثمة ابتسامة على وجه محمد ﷺ تجعل الأحلام كلها دانية لك ظلالها، ترعى روحك آمنة على بوابات الجنة حين تمتد يده إلى يدك، تغرق في دفئها، يصحبك إلى حيث أبي بكر وعمر وشهداء مثل النجوم، تضحك لك أنوار الفردوس الأعلى، يتلألأ نعيم الحور من حولك، يطرز الفرح على ثيابك، تتنسم أنفاس النبي في سلامه عليك، تهمس لك الجنة (لا شقاء بعد اليوم)، فأنت في صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين!

بذرة الميلاد الأولى

ولد عماد عوض الله بتاريخ 1967/4/14م، أما أخوه عادل وذراعه الأيمن فقد ولد بتاريخ 1969/9/6م وولدا في مدينة البيرة.

درس القائد الشهيد عادل المرحلة الابتدائية في مدرسة المغتربين والمرحلة الإعدادية في مدرسة البيرة الجديدة وأنهى المرحلة الثانوية في مدرسة الهاشمية. وانتقل الشهيد عوض الله إلى الجامعة بعد أن أنهى المرحلة الثانوية بتفوق وامتياز.

درس الشهيد عادل في قسم الرياضيات في كلية العلوم والتكنولوجيا التابعة لجامعة القدس، ثم انتقل إلى جامعة بيت لحم لدراسة اللغة العربية إلا أن الجامعة أغلقت أبوابها مع بداية الانتفاضة الأولى، ولقد انضم القائد البطل إلى جماعة الإخوان المسلمين منذ نعومة أظفاره وأصبح قائدا ميدانيا لمدينتي رام الله والبيرة.

الأثر يدل على المسير

كانت الرحلة في عيون الشهيد آثار انتصار مبكر، فتى تبحر في قواربه الشمس وتدلك على أن غاية الفتى أكبر من أن تحيط بها أعمار الناس القصيرة، كان يمشي وهو مطمئن أن الله لن يخذل خطوات تبحث عن مسار صائب، كان الفتى الغض يملك عقله وإيمانه وقنديل نور في قلبه بحجم شموس الكون كلها، وكانت تلك هي الإمكانيات التي صنع بها المسير!

نبت مثل فسيلة صغيرة لكنها كانت تستبطن كل بساتين العالم، كان غضا ولكنه كان قادرا أن يكون بشموخ النخيل، فصنع من الحجر رصاصة ومن الرصاصة قرارا لا يلين!

يصفه مسؤول أمني كبير في جهاز الشاباك الإسرائيلي بقوله «إنه من أبرز قادة المقاومة، قائدٌ حقيقيّ وشخصيةُ كاريزماتيّة، فِطْنته ومهنيته واحترافه أمور لافتة في شخصيته».[1]

ويقول عنه صحفي صهيوني ناقلا عن مصادر امنية « هو قائد حقيقي أشرف على جهاز واسع جدا من النشطاء في كل الضفة الغربية، وربط بينهم وهو شخصية غير عادية. ونشطاء حماس يكنون له احتراما كبيرا، وقد أعجبوا بفطنته، ومهنيته واحترافه».

يصفه أحبته بقولهم لقد كان الشهيد المجاهد «عادل عوض الله» شديد الذكاء، قوي الحجة، دمث الخلق طيب اللسان، إلا أن أهم ما ميز الشهيد كان مجموعة من الصفات التي جعلت منه شخصية ذات رمزية وهي على النحو التالي:

الصفة الأولى: سرية في حذر

لقد كان الشهيد شديد الحذر والسرية في التعامل مع محيطه ومع معارفه وأقرب الناس إليه، وكان الحذر مقدماً عنده على الثقة بالآخرين، وسلوك الشهيد نابع من قوله. -عليه السلام- (استَعينوا على حوائجِكم بالكِتمانِ)[2]، ولقد سطرت خطورة الإفشاء للأسرار في نظرية أمنية تقول: (لا تقل إنه عزيز، فإن لكل عزيز عزيزاً) أي أن لا تقول لصديقك سرا وتقول عنه عزيز، فكما هو عزيز عليك هناك إخوة أعزاء عليه سيقول لهم، ويعد التقصير الأمني أو الإهمال من أهم الثغرات التي يبلغ من خلالها العدو إلى جسد المقاومة.

لَا تُفْشِ سَرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ... فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحَا
فَإِنِّي رَأَيْتُ غُوَاةَ الرِّجَالِ... لَا يَدَعُونَ أَدِيمًا صَحِيحَا

1- http://bokra.net/Article-1221208
2- المصدر حلية الأولياء، وقال حديث غريب

ويحدث الأسير حسن سلامه فك الله أسره بالقصة التالية عن صفة السرية الشديدة في الشهيد عادل رحمه الله قائلاً: «عند خروجي للضفة للقيام بعمليات الثأر لاستشهاد يحيى عياش تواصلت مع عادل عوض الله بحكم معرفتي به من أيام السجن، وكنت اعرف مدى حرصه الأمني الشديد والذي يجعله لا يثق بأحد بسهولة وخاصة أنه شخص مستهدف من الشاباك، لأنه شخص ليس عاديا ورجل له مكانته وكلمته في الحركة.

وعندما تقابلنا كنت أعرف حرصه الشديد، وتوقعت أن يقوم بتفتيشي للبحث عن أي سلاح أحمله لذلك خبأته في منطقة القدم، وفعلا قام بذلك فمازحته وقلت له عما تبحث يا رجل، فضحك».[1]

الصفة الثانية: استحضار التجربة

كان الشهيد حريصا على التعلم من التجارب التي خاضها في حياته وخاصة تجربة السجن، وحياة المرء في حقيقتها ترتكز على جانب التعليم وجانب التجربة، وقد قيل في الحكمة: (إن العقل كالسيف والتجربة كالمسن)، وقيل: (ليست العظمة في ألا تسقط أبدا، العظمة أن تنهض كلما سقطت) !، وقد غنم الشهيد عادل بهذا المبدأ إذ قيل: (غنم من أدبته الحكمة، وأحكمته التجربة)، فالتجربة زيادة عقل للمرء!

وقد رأينا ذلك بوضوح حين سُجن القائد عادل عوض الله أول مرة في سجون الاحتلال على خلفية مشاركته في نشاطات الانتفاضة الاولى، إذ ظل منكراً للتهم والاعترافات الموجهة إليه أربعين يوماً تحت تحقيق قاس، ثم اعترف بعدها بأشياء بسيطة على نفسه، وعند عودته إلى الزنزانة نتف شاربه ندماً على الاعتراف الذي أقره، وقرر بعدها ألا يلين في حياته مرة أخرى أمام أي كان وتحت أي ظرف وقد حكم عليه ثلاث سنوات ونصف[2].

1- سلامة، حسن، عمليات الثأر المقدس لاستشهاد القائد يحيى عياش، ص37.
2- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=1144088

وفي بداية عام 1996 وفي أعقاب عمليات الثأر لمقتل المهندس يحيى عياش داهمت قوات كبيرة من أجهزة الأمن الفلسطينية منزله وطلبت من عائلته أن يسلم هو وشقيقه عماد نفسيهما، يومها رفض عادل الاستجابة لهم وقال: «أفضل الشهادة على الرجوع إلى السجن مرة أخرى».فقد ذاق القائد تجربة السجن وخبر تفاصيلها وأدرك أن المطاردة مهما كانت مرارتها أهون من الاعتقال والسجن، وما كان له أن يلدغ من ذات الجحر مرتين.

ولقد نجح القائدان عادل وعماد بالاختفاء فعلا عن أعين أجهزة الأمن الإسرائيلية والفلسطينية عامين كاملين على الرغم من الجهد الاستخباري والأمني الكبيرين للبحث عنهما، قبل أن يتمكن جهاز المخابرات العامة الفلسطيني من اعتقال القائد عماد من أحد المنازل، فيما بقي القائد عادل حراً طليقاً يخطط للإثخان في العدو واستهداف جنوده ومغتصبيه.



الصفة الثالثة: استراتيجية التخطيط الهادئ

تميز الشهيد بالقدرة على وضع الخطط الطويلة المدى وعلى إحكام العمل وتنفيذه بهدوء ودقة عالية، وفي ذلك يقول «عاموس هرئيل» في تحقيق صحفي عن حماس: «بأن الجهاز العسكري لحماس كان منتشراً في أغلب مناطق الضفة الغربية، وفي بعض الأماكن فقط شكل القادة المعتقلون من كتائب عز الدين القسام غرفة عمليات».

ويدعي هرئيل بأن محققي الشاباك اكتشفوا خططا أثارت الهلع في صفوف قادة أجهزة الأمن (الصهيونية) فيما لو قامت حماس بتنفيذها، ومن ضمن هذه الخطط الكبيرة كما يشير التحقيق «سلسلة العمليات الناسفة الخمسية» بحيث يتم تفجير سيارات مفخخة الواحدة تلو الأخرى في المدن الكبرى وفي يوم واحد وضع إنذار نهائي بعد تنفيذ كل تفجير بان العملية التالية بعد عدة ساعات فقط وذلك إذا لم يتم إطلاق سراح كل المعتقلين في السجون الصهيونية.

كما خطط القائد عادل عوض الله وفق ما يدعيه هرئيل لأسر عدد كبير من الجنود بهدف المساومة و التفاوض، وخطط لقتل ضباط كبار في الجيش وعدد من أعضاء الكنيست والحكومة (الصهيونية). ومع أن التحقيق يرى بأن أجهزة الأمن (لدولة الاحتلال) نجحت خلال عدة أشهر من تدمير ما سماه البنية التحتية لحماس في الضفة الغربية إلا أنه يعترف في الوقت نفسه بأن حماس أثبتت على مدى السنوات قدرتها على استرداد قوتها بسرعة ملفتة للانتباه وفي هذه المرة أيضا ستسارع في تفعيل وتطوير شبكةٍ كالتي تم كشفها وفق ما جاء في وسائل الأعلام الصهيونية.

لقد كان الشهيد سريع التحرك ولكنه كان دقيقا وهادئا في إتقان العمل وإحكامه، ومن ثم إبهار العدو بالتخطيط المتقن، وذلك يدل على عمق فهمه للأمر. فالسرعة ليست هي المؤشر على الإنجاز بل المؤشر هو نوعية العمل المنتج ومخرجات السعي.

الصفة الرابعة: الوعي السياسي

الوعي وإدراك مجريات الأمور سياسيا وعسكريا وبكل تفاصيلها ومن ثم بناء القرارات على أساس من هذه الرؤية المبصرة الواعية. وفي شريط فيديو نشره الشهيد القائد عادل عوض الله قبل استشهاده بأيام ردا على المؤامرة الفلسطينية الإسرائيلية المشتركة لإلصاق تهمة قتل الشهيد محيي الدين الشريف بالأخوين عوض الله للتغطية على الجريمة النكراء بحق الشهيد محيي الدين الشريف يبدو فيه هذا الوعي السياسي جليا إذ يقول فيه:

«يكفينا شرفا أيا كانت الأداة التي تتعرض لنا يوما برصاصاتها قتلا أو بغير ذلك من أساليب القتل فإننا نقول: إننا حتى في حالة ثبوت أن من سيطلقون النار علي وعلى إخواني المجاهدين من كتائب عز الدين القسام فهي رسالة روحية ونصيحة ممن يكون حينها استشهد والى إخواني من بعدي أن لا يكون الرد إلا ضد المحتل الصهيوني لنثبت أولا طبيعة منهجنا الذي نتحرك به، وإننا لن نكون بأي حال من الأحوال مثلهم ويستحيل أن نكون مثلهم ولن نفعل فعلهم ولن نرد على مكرهم بمثله إنما يكفيهم أن تكون شهادة تاريخية ....، أسجل بها أمام أبناء شعبنا حقيقة ما قيل وحقيقة واقع غيرنا».

ثم قال في رسالته لشباب القسام:

«نحن الطليعة ورأس الرمح الذي حارب به الشعب الفلسطيني كيان العدو، فحرام أن ينكسر هذا الرمح، ليس لنا إلا التقدم، هذا قدرنا ونحن رضينا به، وهذا جهاد نصر أو استشهاد»، صرخة أطلقها الشهيد القسام في أحراش يعبد نرددها نحن بواقع عملي في كل حين وفي كل لحظة. فباب الجهاد والاستشهاد مفتوح دوما فتقدموا بلا استرخاء، خيار المقاومة والجهاد هو خيارنا في حركة حماس،

قلنا ذلك قبل أوسلو، وقلنا ذلك منذ لحظة انطلاق جهادنا، ولأجل هذا نسبنا أنفسنا إلى القسام، ولأجل هذا كنا فرعا للحركة الإسلامية التي قدمت ما

قدمت على أرض فلسطين الطاهرة حتى اللحظة الحالية التي نواجه ولا زلنا نواجه فيها عدونا الصهيوني، النصر لنا، وهذا وعد الله لنا، وبشرى لنا من الله كوننا أولياءه لان النصر سيكون لنا في الدنيا وقبل الآخرة.

وكشف الشهيد عادل عن حادثتين حدثت معه شخصيا تدلل على مدى التنسيق الأمني بين السلطة والعدو الصهيوني فيقول: «ونحن لا ننسى ونعلم تماماً أنه أصدرت مرتين أوامر بإطلاق النار على العبد الفقير الذي يتحدث إليكم عبر هذا الشريط كانت المرة الأولى عندما وصلتهم في جهاز أمنهم الوقائي أخبار خاطئة بان عادل عوض الله يتحرك في سيارة في مدينة البيرة سيارة «رينو 9»، وفعلا كنت وقتها أتحرك في هذه السيارة إلا أنهم قاموا بإطلاق النار خطئاً على شاب من البيرة تحرك بنفس مواصفات السيارة التي وصلتهم عنها الاخباريات».

لقد كان يعرف -رحمه الله- أنه ملاقي ربه شهيدا وكان على يقين أن شهادته ستكون على يد السلطة أو الصهاينة فشدد بقوله: «الرد على استشهادنا لا يكون إلا ضد الصهاينة».

الصفة الخامسة: ربانية السيرة

وعلى الأرض أرواح نقية تشعر بالمطر، وتشعر السماء بهمسها الخفي في السحر، تستجلب الغيوم بتوسلاتها، ويستجيب الله لصلواتها الحميمة فتسح مجاديف السماء لها كالقرب.

تظل بوابات السماء موصولة بها، تبتهج للغيث إذ يلبي ترقبها، يطمئن المطر حين يرحل الغبار عن عوالمها، ثم يغفو السحاب على موعد مع دعواتها، أولئك هم ربانيو الأمة الذين يستسقى الغمام بهم!

ولقد كان الشهيد كذلك حيث تصفه زوجته فتقول: «كان زوجي صاحب خُلق عال ودين كبير، كان يحافظ على صلواته الخمس في المسجد، ودائما له ورد من القرآن الكريم، كان يقوم بالتسبيح والقراءة أثناء المسير أو الجلوس

وحده، وكانت القراءة والرياضة من أحب هواياته، كان مثالاً للزوج الصالح، ومنذ بداية حياتنا الزوجية ونحن نسير على منهاج النبوة».

تاريخ للغد الآتي

هذه حقائق يجب أن تسجل للتاريخ وللأجيال كي تَطلع على ما جرى وكيف حاولت السلطة الفلسطينية والمخابرات الإسرائيلية إخفاءه، وبعد استشهاد المهندس يحيى عياش أصبح الشهيد عادل عوض الله المطلوب على رأس المطلوبين لدى سلطات الاحتلال والأجهزة الأمنية الفلسطينية التي أخضعت بيت العائلة إلى المراقبة الدائمة.

حاولت الأجهزة الأمنية الفلسطينية بعد اغتيال محيي الدين الشريف إلصاق تهمة اغتيال الشريف بالشقيقين عماد وعادل عوض الله لتغطي على تورطها في تلك العملية، الأمر الذي نفاه عادل في شريط فيديو أرسل إلى وكالة رويتر[1].
لقد ألقى الأمن الوقائي القبض على عماد عوض الله بتاريخ 1998/8/18م، ومكث عماد ما يقارب الأربعة أشهر مشبوحاً وتعرض لتعذيب شديد جداً، وفي رسالة كتبها عماد بعد هروبه من سجن السلطة في عملية اتضح فيما بعد أنها كانت مفبركة ومعدة من قبل السلطة الفلسطينية بالتنسيق مع الاحتلال الصهيوني، الهدف منها الوصول إلى الشهيد القائد عادل عوض الله. حيث قال في أول يوم لي في الوقائي التقيت بعدد من قيادات السلطة، وهم الطيب عبد الرحيم وجبريل الرجوب وأمين الهندي والحاج إسماعيل جبر وتوفيق الطيراوي ومحمد الجبرني «أبو أسامة» وهو نائب جبريل الرجوب وقد حقق معي فيما بعد، وكان الطيب عبد الرحيم يتصدر الجلسة إلا أنه لحظة دخولي

1- http://www.alqassam.ps

وقبل أن أجلس بادرني جبريل الرجوب من بينهم قائلا وعلى وجهه ابتسامة اختلط فيها معنى الشماتة بالنصر ليش قتلت الزلمة يا فلان «يعني الشهيد محيي الدين الشريف»، فكان ردي المباشر وأنا أتجه للجلوس «ما قتلتش حد».

بعد ذلك بدا الطيب بالحديث قائلا أنا جاي من غزة ومعي صفقة من الرئيس عرفات كي أعرضها عليك، وهي أن تقول: «إن رصاصات خرجت من سلاحي باتجاه الشهيد محيي الدين الشريف بدون قصد مني، وهم بعد ذلك سيرتبون أمر خروجك من القضية»، فكان ردي عليه «مش أنا اللي بتاجر بدم الشهداء والأمر مرفوض عندي». وعندها عرض علي جبريل الرجوب وآخرين من الموجودين الصفقة التالية:

1- أن أقول إن الشهيد تمت تصفيته لثبوت تعامله مع الاحتلال.

2- أن الشهيد تبين أنه لا أخلاقي وعليه تمت تصفيته.

وكان رد الشهيد البطل ابحثوا عن غيري ليشوه لكم الكتائب والشهداء. بعد هذه الكلمات تركت المجموعة المجال وهم جلوس لمحمد الجبريني الذي كان على ما يبدو متابعا لعملية التحقيقات التي جرت قبل اعتقال الشهيد مع كافة الإخوة الذين تم اعتقالهم، حيث وجه للشهيد عدة أسئلة عن علاقته بفلان أوعلان وذكر أسماء إخوة كانوا قد اعترفوا تحت التعذيب بأنه نظمهم للجهاز العسكري وسلمهم سلاحاُ.

يقول الشهيد نفيت أي علاقة لي بهؤلاء الإخوة، وبعدها وقفت أمامهم جميعا ورفعت يدي إلى السماء من خلال شباك الغرفة مقسما ومعاهداً رب العالمين أنني لو نشرت بالمناشير وقطعت فلن تأخذوا مني كلمة أظلم بها نفسي أو غيري.

بعد جلسة مع هؤلاء استمرت ساعة تقريبا تم أخذي لمكتب آخر ومنه لسيارة نقلتني من رام الله إلى أريحا وكان يجلس معي في السيارة مدير جهاز المخابرات العامة أمين الهندي.

وبعد 128 يوماً، قال جهاز الأمن الوقائي: أن عماد استطاع الهروب من سجن أريحا ذي الإجراءات الأمنية المشددة، وبث تسجيلاً مفبركا مصوراً لأحد الحراس قال فيه أنه ساعد عماد على الهروب من داخل السجن.

كل هذه التفاصيل سعت الأجهزة الأمنية لحجبها وإبدالها بمغالطات وأكاذيب تشوه بها مسيرة المقاومة وتضرب بها تاريخ حركة القسام وتوحي بأن الفساد ينخر في أصولها وأنها تتعارك على مصالح الدنيا ومتاعها ومناصبها مثل بقية الأحزاب والتيارات النفعية، وقد تعاونت مع أجهزة الأمن الإسرائيلية في قنص الشباب المجاهد.

نهار الشهادة، نهار لا ينطفئ

الشهادة ليست فناء، ولا رحلة عدم، ولا موت موجع. الشهادة هي البقاء، كل يوم يستيقظ الشهداء قبيل أول شعاع، يطرحون على أنفسهم هذا السؤال، إذا كان هذا اليوم آخر أيامي على الكوكب، ما هي اللحظات التي أرغب في تذوقها؟! لا شك، أنها لحظات الفرح بفرحٍ يسكبه الشهيد في روح أحدهم، في فناءٍ من وطن منسي، أو في سلال وطن كانت فارغة إلا من الانتظار، انتظار عمر الشهيد!

نلمح البركة في عمر الشهيد، فقد سكب روحه في سنابل الوطن، يمنحه الله عمرا جديدا، ولن يكون ذلك اليوم إلا ابتداء عمر مديد في خلود أزلي كريم.

لقد قدم عادل عوض الله وأخوه عماد أرواحهم لله، وأنفقوها في سبيل أن لحظة انتصار لا ريب آتية، ومن المؤلم أن قصة استشهاد الأخوين تعد من أكثر القصص الغامضة والمعقدة في تاريخ النضال الفلسطيني حيث شارك في اغتيال الشهيدين عدد من الأجهزة الأمنية في السلطة الفلسطينية، وتم ذلك

بالتنسيق مع جيش الاحتلال الصهيوني، وذلك من خلال توزيع الأدوار بينهما من اعتقال وتحقيق وتعذيب للوصول للشهيدين وحتى مرحلة خطفهما ثم إعدامهما بل وصل الأمر للسعي لتشويه تاريخهما وسمعتهما.

بدأت هذه القصة بمحاولة إلصاق تهمة قتل الشهيد محيي الدين الشريف والذي قام بها جهاز الأمن الوقائي بعد اعتقاله فحاولوا فبركة القصة على أنها تصفية داخلية في القسام لإبعاد التهمة عنهم، فقام الجهاز باعتقال الشهيد عادل وتعذيبه تعذيبا شديداً من أجل الاعتراف بهذه الجريمة.

بعد تسهيل هروب عماد من قبل السلطة الفلسطينية ومراقبته حتى وصل إلى أخيه عادل تم إعلام القوات الإسرائيلية بمكانهما، وهنا بدأت القصة تأخذ فصلاً آخر من الغموض.

حيث بثت القنوات الإسرائيلية شريط فيديو لتقرير تأكيد أنه تم قتل الشهيدين، في منزل صغير مكون من غرفة أو غرفتين في أرض خالية، على جدرانه شعار كتائب القسام و علم أخضر كبير معلق في الغرفة من الداخل، وقطعتي سلاح و عدد من مخازن الرصاص و عدة قنابل يدوية تشكلوا في صفين مرتبين و كاميرا للتصوير، وفي المقابلة مع متحدث باسم الجيش قال فيها أنهم نجحوا في قتل عادل و عماد، حيث ظهر في التصوير كيسان أبيضان لا يمكن رؤية ما بداخلهما قيل أن فيهما جثتا الأخوين عوض الله، وقد كان هذا الاعلان يوم الخميس الموافق 1998/10/9م.

وقال تيسير مسودة شقيق أكرم مسودة صاحب المنزل: «أن شقيقه ليس من حركة حماس وأنه اعتقل في عام 1974م بتهمة الانتماء إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، ونفى مسودة أن يكون الشهيدان عادل وعماد قتلا داخل منزل

العائلة معتبرا أن سلطات الاحتلال تريد الإساءة إليهما والتشهير بهما. حيث يبعد المنزل أكثر من ألف متر عن أقرب منزل إليه وتؤدي إليه طريق ترابية.

من خلال هذا التقرير يتضح حجم التضارب والكذب والفبركة حيث أنه من المستحيل أن يقوم مطلوب للاحتلال بتعليق صور أو شعارات أو أعلام تبرز هويته، كما أنه لا يوجد أي دليل على محتوى الكيسين اللذين قيل أنها للجثث.

أضف إلى ذلك أن هناك تصريحاً لأحد الصهاينة يكشف كذب هذه الرواية ففي عام 2003م أجرت صحيفة يديعوت أحرنوت مقابلة مع قائد الوحدة الخاصة «يمام» وهي نفسها التي نفذت عملية «اغتيال» الأخوين، قال معلقاً على عملية الإنقاذ الفاشلة للجندي «فاكسمان» التي قتل فيها هو والخاطفون الثلاث «لو سُمح لوحدتي بالقيام بعملية تحرير «فاكسمان» لأخرجناه كما أخرجنا الأخوين عادل وعماد عوض الله»[1].

من خلال كلام هذا الصهيوني نستطيع القول إن الشهيدين تم القبض عليهما غالبا أحياء بعد نفاذ الذخيرة أو بحيلة أخرى وهذا ينافي تماماً رواية الجيش الصهيوني والتي تقول أنهما قتلا في اشتباك.

ويعتقد أن الشهيدين قد تم احتجازهم في السجون السرية وخاصة السجن السري رقم (1391)، والذي أكد بعض الأسرى المحررين الذين خرجوا أحياء منه عن بشاعة أساليب التحقيق وأماكن الاعتقال، وهي عبارة عن زنازين لا تتجاوز مساحتها 2متر مربع، يشرف عليها وحدة مختارة تسمى الوحدة (504) المتخصصة في التعذيب وفنونه وأنواعه وأصنافه، حيث تمارس فيها أخطر وأقسى أنواع التعذيب والقتل بحق الأسرى بعيداً عن كاميرات الإعلام وزيارات المحامين والصليب الأحمر الدولي[2].

1- http://www.qudsn.ps/article/37294

2- دوعر، غسان، السجون السرية الإسرائيلية، مركز الزيتونة، ص76

حكاية استشهاد الأخوين ستفتح صحائفها في موقف لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، في يوم قصاص طويل لن ينجو منه المجرمون، في يوم قال الله عنه ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ .[المائدة: 119].

قال الشيخ أحمد ياسين بعد استشهاد الشقيقين عماد وعادل عوض الله: « نعتبر أنفسنا في معركة، المعركة يوم لك ويوم عليك وحماس تعتبر شهداءها شهداء قضية عادلة لن تضيع دماؤهم سدى، وسيجد الصهاينة من المقاومة الإسلامية وكتائب القسام الرد المناسب، وتتحمل دولة الاحتلال الصهيوني وعملاؤها كل المسؤولية عن الدماء الطاهرة الزكية التي سالت على أرض الخليل الطيبة» .

وأضاف «إن الصهاينة أجبن الناس في العالم، والجبان دائما يضع احتياطات أكبر مما يتصور الناس؛ لأنه خائف من المطاردة، لكنهم بالتأكيد سيجدون المطاردة المناسبة على عدوانهم وتآمرهم على رجالنا وأبنائنا وقادة كتائبنا» .

وأكد الشيخ أحمد ياسين «إن تصفية واستشهاد عماد وعادل عوض الله لن يوقف المسيرة بل سيزيدها قوة وعنفا، ولا يمكن للممالك أن تبنى إلا بالتضحيات، وتقوم إلا على دماء الشهداء لذلك سترى في المستقبل مزيداً من سفك الدماء على طريق للتحرير» .

وتحت عنوان «حرب مقدرة» كتبت صحيفة هآرتس في مقالها الافتتاحي «قتل الشقيقين عماد وعادل عوض الله هو جزء من حرب الصهاينة المقدرة ضد الإرهاب الفلسطيني الذي تنتهجه تنظيمات مثل حماس والجهاد الإسلامي، إنه صراع يدور بلا توقف وغالبا في السر» .

وتحت عنوان «تصفية حكيمة» قالت صحيفة يديعوت احرنوت في تعليق رئيسي كتبه مراسلها ومعلقها العسكري المعروف «رون بن يشاي» «إن أسلوب تصفية

محكم يستند إلى تكنولوجيا عالية يعتبر مهينا وغادرا حسب مفاهيم الإسلام وهو ما يوجب ردا ساحقا وفتاكا يغسل بالدم أيضا الحزن والإهانة على حد سواء».



ولقد ختمت فصول هذه القصة الطويلة يوم الثلاثاء 2014/4/29م حيث تم تشييع جثماني الشهيدين بعد أن تم تسلمهما من الجانب الصهيوني، وذكرت المصادر الطبية أن جثتي الشهيدين الأخوين عماد وعادل عوض الله لم تتحللا رغم مرور 16 عاماً على استشهادهما، وأن زوجة أحد الشهيدين تعرفت على زوجها من القميص الذي كان يرتديه[1].

1- http://aqsatv.ps/ar/details-3857.html

أبـــشـــروا أهـــلَ الـشـهـيـد
فـــابـــنـــكـــم مــــــازال حـــيـــا

واشـــــكـــــروا لله فـــضـــلاً
فـــهـــو في الـــفـــردوس يـحـيـا

مـــا تـــهـــاوى مـــن جــــوادٍ
بـــل عـــلا فـــوق الـــثـــريـــا

قـــبـــرُهُ قـــد فـــاح عـــطـــراً
لـــيـــس سِـــرّاً أو خَـــفـــيّـــاً

لا تـــقـــولـــوا قـــد تُـــوفّي
هْـــوَ في عِـــزٍّ رَضِـــيَّـــا!

إلى روحك مع صحبك في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث تشاء بإذن الله.

إليك تهدي طفلتك التي تركتها جنينا في رحم أمها ورحلت إلى الجنة قبل ميلادها بشهرين.

إليك تهدي كريمتك ندى تفوقها في شهادة الثانوية العامة وحصولها على المركز الأول في محافظة رام الله بنسبة 99 % لعام 2016م.

تماما كما كان يتمنى عادل عوض الله أن يكون السبق دوما حليفه وحليف غرسه المبارك

أوصيت أن تسمى ندى كأنك كنت تلمح أنها ستكون الندى الذي يظللك بعد نهاية الطريق

الندى الذي سيتساقط عليك فرحا بعد الرحيل.

الندى الذي سيبقيك غضا طريا كأن الروح فيك تنبض من جديد.

إليك يا سيدي تهدي زوجتك صبرها ورباطها واحتسابها لعمرها، تهدي لك ثمرة مباركة تشهد بقوله تعالى ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]، **فحفظ الله** لك نسلك وجعله صدقة جارية ووساماً لك يوم الدين. هنيئا لأسرتك بك،

وهنيئا لأمتك بك، وهنيئا للمسرى بك، وهنيئا لك نعيم الفردوس الأعلى بإذن الله يا أجمل الشهداء!

رحم الله الشهيدين وأجزل لهما المثوبة في عليين وأخلف الأمة فيهما خيراً وانتقم لهم ممن مكن لليهود منهم!



سيرة الشهيد القائد

صلاح الدين دروزة

1964م 2001-م



اللهم ارزقني شهادة تنال جميع بدني.





عرف الشهيد البطل الكثير من الناس ولم يعرفه الكثيرون، امتاز بحدس عجز عنه الكثيرون، خاض غمار الانخراط بصفوف العمل الجهادي والمقاوم فتتلمذ على يده الكثيرون، وكانوا خير تلاميذ تعلموا من خير أستاذ، كان جل وقته في الله ولله وفي سبيل نيل الحرية والكرامة ولو كانت على حساب سعادته وفرحته.

الشهيد قائد فذ، وعملاق سياسي محنّك، وهو كذلك الإداري الموفق، والعسكريّ الفاعل الشجاع الذي هابته السلطات الصهيونية، ولقد لاحقته السلطة وأقرّت بجرأته الفصائل، وذكره الجيران والخلان بأحسن الفضائل.

كان الشهيد أول رأسٍ سياسي وعسكري يعانق المجد في عالم الشهداء، وأزكى دم نوراني يُسفَك في سبيل الحرية والفداء، الصوّام القوّامً، التقي النّقي صاحب الهيبة والإباء، أحد قادة حماس الأفذاذ وممثّلها في لجنة الفصائل، وهو مؤسس الكتلة الإسلامية في جامعة القدس، وأميرها الأول.

لم يكن القائد أبو النور رجلا خارقا للعادة، لكنه امتاز بمواصفات وقناعات جعلت منه رجلا مؤثرا وعنصرا فعالا يصنع الحدث ويمهد للتغيير نحو الأفضل، وهذه الملامح الشخصية التي عرفها الناس ممن عايشوا صلاح عن قرب قد تبدو للوهلة الأولى



صفات عادية ولا يتميّز صاحبها عن غيره من بني البشر، لكن هذه الملامح حين يحضرها صاحبها في وجدانه فتتمكن من نفسه وهو عندما يسقطها في حياته فيصبح هو وإياها توأمين حينها فقط تصنع هذه الصفات «التغيير» وتتحول تلك الملامح الشخصية إلى قوة دافعة وثورة عارمة تصنع المعجزات، وكذلك كان صلاح الدين رحمه الله.



أولاً: الاسم عنوان حياة

صلاح الدين نور الدين رضا دروزة ولقبه (أبو النُور)، ولد الشهيد صلاح الدين في نابلس عام 1964/5/28م لأسرة معروفة بالتدين والتقى والصلاح، فوالده نور الدين دروزة هو أحد الوجوه الإسلامية المعروفة في نابلس وأحد الدعاة الذين اشتعل الرأس فيهم شيبا لهموم الأمة ومعاناتها، وكان والده من أشهر معلّمي أحكام تجويد القرآن في المدينة.

وعائلة دروزة من العائلات المجاهدة ولا تتوقف تضحياتها عند حد، إذ أن للشهيد صلاح ثلاثة أخوة هم عماد وهو شهيد، وضياء الدين ويمضي الآن حكماً بالسجن مدة خمسة أعوام بتهمة عضويته في كتائب الشهيد عز الدين القسام أيضاً، والرابع بهاء الدين الذي ما زال يعاني من تمديد اعتقاله إدارياً لأكثر من عام.

التحق الشهيد بكلية العلوم والتكنولوجيا (أبو ديس) في جامعة القدس لدراسة علم الأحياء، وتخرج في العام 1986م، أسس في العام 1984م الكتلة الإسلامية وكان أميرها، كانت له أمنية أن يكمل دراسته العليا في تخصص العلوم السياسية.

وبعد تخرجه لم يعمل في مجال تخصصه، إذ عمل في مصنع النور للحقائب وكان هو المدير المسئول عنه إلى جانب ولده، فكان لديه موهبة في التفصيل وقص الحقائب لذلك حينما كان يرى أي حقيبة يقوم على الفور برسمها على ورقة من شدة حبه لمجال عمله فهو يتمتع بذكاء عالٍ جدا.

تزوج صلاح الدين من فتاة مقدسية تحمل شهادة جامعية من أبو ديس تخصص فيزياء، ورزق منها بستة أبناء هم:إباء ونور الدين وآلاء وعز الدين وأسماء ومحيي الدين.

هذه ملامح حياة ربما تبدو هادئة أو شبه عادية ولكنها في الحقيقة كانت مقدمة لحياة مختلفة تمور بالإنجازات العظيمة وسيكون لها ما بعدها في تاريخ فلسطين وتاريخ المقاومة المباركة.

ثانياً: صفات الصلاح في الشهيد صلاح

محبة في قبول

كان القائد البطل من القلائل الذين لا تملك حين تتعرف عليه إلا أن تحبه، ولا تستطيع حين تعمل معه إلا أن تؤثر فيك همّته، ويدهشك مدى استعداده للتضحية والعطاء في أصعب الظروف، وذاك معنى القبول للعبد، لأن الله إن رضي العمل تقبله، والقبول؛ هو المسافة بين حقول ينتابها الجدب، وحقول لا تعرف الشيخوخة! حقول تظل خضراء يصب قمحها في موازين صاحبها حتى قيام الساعة، القبول هو معنى «وإذا وقع النداء من الله بمحبة عمل أو محبة فلان قبلتْه جميعُ البواطن»!، هكذا دون تفسير ولا أسباب !، فقط لأن الله «وضع له القبول في الأرض»، وكان ابن مسعود يقول:من هذا المقبول منا فنهنيه ومن هذا المحروم منا فنعزيه أيها المقبول هنيئا لك، أيها المردود جبر الله مصيبتك. لماذا ؟ لسبب واحد يعلنه القرآن ألا وهو، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

همة تناطح السحاب

دومًا حازمًا ترتسم الجدية على محياه، قلما يبتسم من كثرة همومه ومشاغله التي تثقل كاهله، فمن العمل الدعوي وانشغاله به إلى اهتمامه بالعمل السياسي والجماهيري والتثقيفي إلى جانب عمله في مجال المقاومة، ومع ذلك

تقول زوجته أنه: «كان إنسانًا حنونًا وعاطفيًا محباً لأهل بيته ولأسرته برغم انشغالاته الخارجية، وكان يعطينا وقتًا كافيًا، فبالإضافة إلى الاعتقالات المتكررة فلم أشهد عليه أن رأى أطفاله أو عاش معهم حياة عادية فقد مضى على زواجنا حتى لحظة استشهاده أربعة عشر عامًا لم يكن لي نصيب منه إلا سبع سنوات قضاها بين اعتقال ومطاردة، وأطفاله لم ير منهم أحدًا، فابنته آلاء كان عمرها سبعة عشر يومًا عند اعتقاله، وابنه محي الدين أبصر النور ولم يبصر والده، فقد كان معتقلاً عند السلطة، أما أسماء فكان عمرها عشرة شهور عند استشهاده، وكذلك كان زوجي صبورًا إذ كان يخفي مشاعره ولا يبديها للآخرين».

دوما للشهداء همة نلمس آثارها، نلمح معها تواضعا وصمتا، في ابتعاد عن الانتفاش الفارغ، أو الزبد الذاهب، الشهداء هم من يبقون في الأرض يصنعون لنا النهار رغم حلكة الليل الذي يختبرونه طوال مسيرهم، إن كل نقطة ضوء ننعم بها هي بعض تضحياتهم!

شجاعة لا تهاب



بعد عودته من الإبعاد في مرج الزهور توجه إلى ميدان العمل الجهادي وبشكل مباشر وكانت له مشاركات عدة، حيث آوى «العياش» ومن معه من المطلوبين، وقدم لهم المساعدة والدعم والمتابعة، ومن أشهر الخلايا التي وفر لها الدعم والإيواء والمساعدة الخلية التي قامت باختطاف الجندي الصهيوني «نحشون فاكسمان» في العام 1994م، وكانت

تلك العملية إحدى أكثر العمليات إيلاما، والتي قامت بها كتائب القسام وعملت على زعزعة حكومة الاحتلال وإضعاف معنويات جنوده ودفع ثمنها أبو النور حين اعتقل مرتين قضى فيهما 4 سنوات من عمره في سجون الاحتلال نتيجة لهذا النشاط المقاوم.

ولقد كان الشهيد صلاح يحب المجاهدين ولم يثنه السجن عن هذا الحب بل عمل على رعايتهم بصورة شخصية دون أن يبالي بالعواقب، كان يزور القائد أبا هنود في سجنه باستمرار ويرعى شؤونه، وكان من أوائل من وصل إليه يوم قصف السجن عليه، ثم كان هو من استقبله حين خروجه، وهيأ له المكان وقام على احتياجاته، وكذلك فعل مع الشهيد أيمن حلاوة حين أصيب في حادث عمل فكان رفيقه بالمستشفى، واستقبل العديد من المجاهدين الآخرين في بيته، لم يكن يضجر ولم يكن يتلكأ ولم يتذرع مرة واحدة بموقعه السياسي حين كان الأمر ضروريا وملحّاً.

سعي لا يكل

أشرف -رحمه الله- على تنسيق نشاطات الحركة في القرى أثناء الانتفاضة الأولى، ودعم فكرة ملاحقة العملاء التي بدأت في القرى منذ الأشهر الأولى لانطلاقة حماس.

وكان قائدا يعمل بيده، وكان عضوا أساسيا في لجنة الطوارئ المشرفة على نشاطات حماس في الانتفاضة الأولى وكانت إحدى مهامه طباعة وتوزيع بيان حماس الدوري، ويذكر إخوانه في العمل الجهادي أنه حين كانت قوات الاحتلال تفرض حظر التجوال على نابلس أياما متواصلة وترفع الحظر ساعة أو ساعتين كان الناس يهرولون إلى الأسواق لشراء مستلزماتهم المعيشية الضرورية، لكن صلاح خلال تلك الساعة كان يطبع ويوزع بيان الحركة مما يذهل الاحتلال ويحظى بإعجاب سكان المدينة الذين يتعجبون من قدرة حماس على العمل في أصعب الظروف.

كان يشرف على أضخم المسيرات والمهرجانات فيجدد ويبدع ويصرّ على أن يعمل بيده في ترتيب المنصة والكراسي والرايات منذ الصباح قبل أن يصعد ليكون أحد عرفاء هذا النشاط.

تاريخ من الشرف

كان أحد القيادات السياسية والعسكرية لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وكان الشهيد صلاح من الوجوه السياسية المعروفة في حماس، فكان ممثل الحركة في لجنة التنسيق الفصائلي في محافظة نابلس، وعرف بمواقفه التوفيقية والتجميعية مما جعله محل إجماع وقبول من الجميع.

لقد كان الشهيد ممثلاً للأسرى أمام إدارات السجون ذا مواقف صلبة يسعى دوماً لانتزاع الإنجازات وتحصيل المكاسب للحركة الأسيرة، ساعده في ذلك إيمانه العميق بقضيته وقضية الأسرى وقوة الشخصية التي كان يمتلك، وإتقانه الشديد للغة العبرية، كما عرف بتحدّيه للسجانين في أقبية التحقيق وعناده الشديد أمام أساليب بطشهم وإغرائهم على السواء.

تجلّى إبداع صلاح في هذا الميدان مع انطلاقة انتفاضة الأقصى عام 2000م، إن قلبه كان يحترق ألماً وهو يشاهد ضحايا شعبنا تسقط في كل يوم، والدماء تسيل والعيون تبكي، فراح بحكم موقعه يبحث عن رجال يدافعون عن شعبهم. وحين تأكد أن العمل الجهادي شبه معطل بسبب الظروف التي كانت في سنوات أوسلو وأنه لا يكاد يوجد شيء مرتب ومنظم على الرغم من وجود الطاقات والكفاءات، وحين علم أن الأمر يحتاج إلى من يعلق الجرس، لم يتردد ولم يغمض عينيه بانتظار المعجزات، فبادر هو بنفسه بالاشتراك مع أحد إخوانه المسؤولين، وحملوا الراية وقادوا المسيرة، فأعيد ترتيب الأوراق والأولويات، وأصبح هناك متابعة يومية واحتضان للعمل وأهله وتوجيه مدروس، فكانت الثمار عظيمة

وكبيرة وكانت النتائج سريعة وكان العمل مميزاً على مستوى الوطن،وكله بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء.[1]

صمود المعاني الجليلة في المواقف العصيبة

بدأت رحلة الشهيد صلاح مع سجون الاحتلال في العام 1989م حين اعتقل إداريا في سجن النقب نتيجة لنشاطه الواسع خلال الانتفاضة، ثم في العام 1990م حين اعتقل وتنقل بين عدة سجون صهيونية قبل أن يبعد مع 415 قائدا في حماس إلى مرج الزهور في جنوب لبنان بعد الضربات المتوالية التي وجهتها كتائب الشهيد عز الدين القسام للصهاينة وعلى رأسها اختطاف جندي صهيوني وتصفيته نتيجة تعنت الصهاينة ورفضهم إطلاق سراح أسرى فلسطينيين مقابل إخلاء سبيله، وبعد عودة الشهيد من مرج الزهور اعتقل في العام 1994م لـ (27) شهراً بتهمة عضويته في الخلية القسامية التي اختطفت الجندي الصهيوني (نخشون فاكسمان).

وخلال تواجده في السجن أو في الإبعاد كان صلاح يخدم إخوانه ويتحرك ولا يقف أبدا موقف المتفرج على الأحداث بحجة أن هناك من يقوم بحمل العبء بل كان دوما مبادرا معطاء وفي كل الميادين.

وفي مرحلة أوسلو دفع أبو النور ثمن مواقفه السياسية فاعتقل في سجون السلطة الفلسطينية مرتين ولمدة 11 شهراً.

1- مقال للأسير المحرر حسام بدران، www.paldf.net

إيمان يهدي وسيف ينتصر

لم يقتنع صلاح بعد عودته من مرج الزهور بالاكتفاء بعمله السياسي والجماهيري والتثقيفي على أهمية هذه المجالات وفضل العاملين فيها في تأجيج الصراع والمقاومة، لكن طموح أبي النور ونظرته للاحتلال المليئة بالكره، وإيمانه الراسخ بأن الاحتلال المريح هو خطيئة يتحمل مسؤوليتها أولئك القابعون تحت الاحتلال، لذلك فقد توجه إلى ميدان العمل الجهادي وبشكل مباشر، وكانت له مشاركات في النشاط المقاوم.

ورغم قيامه بدور كبير ومميز في العمل الميداني والجهادي في الانتفاضة الأولى والثانية، كان صلاح من الوجوه السياسية المعروفة في حماس، فكان ممثل الحركة في لجنة التنسيق الفصائلي في محافظة نابلس، وعرف بمواقفه التوفيقية والتجميعية ما جعله محل إجماع وقبول من الجميع، أما تألق صلاح وأكثر أيامه عطاء وتضحية فكانت خلال انتفاضة الأقصى فقد برز كقائد جماهيري وشعبي ينظم ويجمع ويقود، وقد تمتع بعلاقات واسعة ومميزة ليس في أوساط حماس فحسب، بل تجاوز ذلك ليشمل كل الشرائح والفصائل الفلسطينية في المنطقة. أما همّ صلاح الذي كان يظهر على ملامحه ويحرق قلبه فهو قافلة الشهداء التي كانت تتوالى في كل يوم ودموع أمهاتهم تلهب الأكباد وعيون أطفالهم البريئة تسأل: لماذا يقتل آباؤنا؟ ولا أحد يرد لنا الكرامة، ألا يوجد حرّ أبيّ يشفي صدورنا؟ فكان له دور أساسي في إعادة إحياء العمل الجهادي المقاوم في المنطقة، وكان هو وبعض إخوانه حماة ودعاة لهذا الجهد حتى نضج العمل وتفجرت الطاقات المكبوتة وتفرعت الشجرة أغصانا، فكانت كتائب القسام في منطقة نابلس رائدة العمل الجهادي في السنوات الأخيرة من الانتفاضة الثانية وآذت الاحتلال وأقضت مضجعه، فراح يتخبط في تصرفاته، يقصف ويغتال خيرة شباب حماس حقدا وقهرا لما أصابه، وكان أبو النور من أوائل القادة الذين استهدفتهم قوات الاحتلال.

خاتمة صلاح كانت صلاحا الشهادة

وبها ينابيع الشهادة ثمرةٌ تعطي الحياة حصانةً وجمالا، ومواكب الشهداء تزهر مجدا جديداً ينجبُ الأبطالاً.

لما بدأت قوات الاحتلال تصب جام غضبها على حركة حماس وتستهدف قادتها، اتجهت أنظار المحبين والمخلصين إلى قادة حماس، وكأنهم قد أيقنوا ببصيرة المؤمنين أن هذه الثلة من الرجال الأفذاذ قد اقترب أجلها، وان الاحتلال لا محالة سيستهدفهم بطريقة أو بأخرى، فبادر بعض الإخوة إلى إسداء النصح لأبي النور بضرورة اخذ جانب الحيطة والحذر في تحركاته، أحد الإخوة كان معه في منتصف الليلة السابقة لحادثة الاغتيال وعمد إلى إقناعه بضرورة تغيير سيارته التي أصبحت معروفة للجميع ويسهل مراقبتها بحيث تكون هدفا سهلا في كل الأوقات، وبعد أخذ وردّ استجاب أبو النور لطلبه ووافق على تغييرها، غادر دروزة منزله على المداخل الغربية لمدينة نابلس والذي يقع بجوار مصنع للشنط تملكه أسرته على أمل أن يعود عصرا كعادته ليتناول طعام الغذاء مع أفراد أسرته وهم ثلاثة ذكور وثلاث بنات (إباء ونور الدين وآلاء وعز الدين ومحي الدين وأسماء) إلا أن الاحتلال حرم تلك الأسرة من تلك الفرحة[1].

أراد اللّه أمرا آخر، حيث كان أبو النور على موعد مع ربه، فما أن دقت الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الأربعاء 2001/7/25م حتى أطلقت طائرات الاحتلال المجرمة خمسة صواريخ على سيارته وهو بداخلها فحولتها إلى كومة من الحديد وتمزق جسده الطاهر وتحول إلى أشلاء متناثرة ومتفحمة ولم يبق من الجسد سوى قدميه وحذائه.

1- http://www.alqassam.ps/arabic/% 9

نادى المنادي على من في الثرى باتوا | اليوم قد عرجت للخلد تناثرت
أرواحهم طفقت تصون بيعتها | في طريق القدس مشكاة
إن كانت الأرض سدت بابها قدرا | قد أفسحت بابها لكم السماوات
راحاتكم نزفت والبرد أرهقها | حتى تعانق سور القدس راحات
ويحفرون بصخر الأرض ما فتئوا | لكي تلوح لنا بالعز رايات
يا سائرين على وجه التراب هنا | هونا فنحن لنا في الأرض هامات
وكيف نبكي وفي الفردوس | مسكنهم وكيف نرثيهم والله ما ماتوا

لقد أصاب الأعداء جسد الشهيد لكن روحه كانت أقوى منهم جميعا، وظن العدو أنه بذلك طوى صفحة الجهاد الأخيرة في حياة صلاح، وما دروا أنهم قد صبّوا الزيت على النار، فصار إخوانه ومحبوه أكثر إقداما وأشد عودا، لقد كان ذلك اليوم الذي اغتيل فيه صلاح من أكثر الأيام قسوة في ذاكرة الناس في نابلس ممن عرفوا أبا النور وأحبوه، وما أن سمع الناس صوت الصواريخ حتى أسرعوا باتجاه الهدف ليروا بقايا سيارة، وليودعوا أخا احتل مكانا مميزا في نفوسهم ووجدانهم.

لقد كانت شهادته كما كانت حياته، عامل تغيير نحو الأفضل، وتحولت دماؤه إلى وقود يلهب أوار المعركة وصار حديث الناس كلهم، هنا كان يخطب صلاح، وهنا كان يتقدم المسيرات، وهناك كانت له بصمات، وفي جنازة كل شهيد كان صلاح دوما في المقدمة، لكن اليوم هو في الأعلى وفوق الأكتاف، وهو جدير بأن يعلو ويرتفع.

رحل صلاح، وخرجت في وداعه الألوف، وحمله أبطال القسام على الأكتاف في إحدى اكبر مظاهر الغضب في عاصمة جبل النار، وعلى دوار الشهداء سجي الجسد الطاهر للصلاة عليه وهنا يقف ابنه «نور الدين» ويرفع السلاح ويقسم على مواصلة السير على دربه حتى يتحقق وعد الله، ثم يحمل الجثمان مرة

أخرى ولكن هذه المرة على أكتاف ستة من كبار قادة ورجال حماس السياسيين يتقدمهم شهيدان حيّان، جمال منصور وجمال سليم، ويسيروا به إلى المقبرة الشرقية، وقبل أن يضم إلى التراب تعاقب على وداعه من طلبوا اللحاق به بصدق وكانت العبرات تختنق في حناجر المجتمعين وهم يستمعون إلى دعاء الشيخ جمال منصور بأن يكتب الله لجسده بكل ذرة فيه من الشهادة نصيب[1].

ومن المواقف الدامية أنه في 7 مايو 2013م اقتحمت قوات من جيش الاحتلال الإسرائيلية منزل صلاح دروزة بعد منتصف الليل، وقامت بتفجير الأبواب، ودخلت القوات وهي تسأل عن الشهيد صلاح دروزة، فردت زوجة الشهيد عليهم«لقد قتلتموه قبل اثني عشر عاماً اذهبوا واعتقلوه من المقبرة»، فقام الجنود باعتقال عز الدين أحد أبناء الشهيد.

تقبل الله الشهيد في عليين وهنيئا له أفراحه
في صحبة النبيين والصديقين والشهداء.

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=848501



سيرة الشهيد القائد
جمال منصور

1960م - 2001م



كونوا بين الناس رجالاً وبين الرجال أبطالاً، وبين الأبطال أمثالاً.





الكتابة عن سيرة القادة الذين تركوا بصمة عميقة في مسيرة التغيير التراكمية يُعَدُ من أصعب أنواع الكتابة، إذ تبدو محاولة ضم أطراف هذا الفضاء في بضع صفحات أمراً شاقاً وعسيراً إذ كيف يمكن للقلم أن يضع نقطة في نهاية حياة أحدهم وهي لم تنته! أو كيف للقلم أن يضع فاصلة لحياة ظلت مثلَ متواليةِ حسابيةِ تتسلسل في آثارها ونتائجها!!! بل كيف للقلم أن يرسم سلوك الروح منهم أو خطوة العمق فيهم؟ كيف للقلم أن يصف قرار إرادة أرواح قوية عزمت على ألا تغمرها الأرض بطوفان صخبها؟ أو تغرقها في تفاصيل الموج الهادر، فتتعطل بوصلة السفينة وهم ربانها! الكتابة عن هؤلاء القادة هي الكتابة عن حكاية رموز كانوا يحيون بأنفس تواقة تتشوق إلى مقامات تليق بقرار الخلافة الذي منحتهم إياه السماء، فانطلقوا يتابعون الجهد في سويعاتهم على مدى أيام وأشهر وسنوات، وانطلقوا يحفرون في صمت هادئ ملامح التغيير ومعالم المعركة وجماليات مشهد النصر، وعكفوا بجد على قراءة المرحلة بوعي متقدم، يفككون من خلاله المشهد وينشؤونه من جديد، قادة هم عباد الرحمن أعدوا أنفسهم وأعدوا الأجيال من بعدهم لزمن يتلهف لعقل مبصر وخطوٍ واعٍ يوجه مسيرة الفتح الآتي بإذن الله.



قادة علموا أن التغيير يحتاج إلى زمن أولى عتباته الوعي؛ إذ الوعي بوابة الإصلاح لأمة غارقة في الحالة العاطفية، وردود الفعل السريعة، والجهل الذي أطعمونا إياه ليل نهار، حيث كان القادة ومنهم القائد جمال منصور يرابطون على صناعة الوعي لدى الأجيال.

ولئن تميز كل قائد بصفات وسمات فإن الشهيد جمال منصور شهد له الجميع بأنه بوعيه جمع العقول والقلوب على حبِّ الدين وحب فلسطين الوطن والهوية، ولم تلن له قناة ولم يهدأ له بال في ذلك حيث سخّر فكره وجذوة روحه وجهده ليصنع من هذه الأمة الثكلى رجالاً يحملون المصحف بيد وبالأخرى بندقية. لقد سعى بوعي عميق إلى ترسيخ مفهوم الوحدة كما يراها بمنظوره الوحدوي البعيد عن الأنانية الحزبية والفئوية الضيقة، فكان نبراسًا وشعلة في التلاحم والعطاء، فلم يكن يومًا لينطوي على نفسه أو على منْ حوله، بل مدّ يده لكل سفينة تمخر عُباب فلسطين ليوصلها إلى برِّ الأمان.. وكانت تلك رؤية وبصيرة مبكرة وجهدًا جبارًا ذكيًا.



سطر الابتداء

الاسم:جمال عبد الرحمن محمد منصور واللقب فيما بعد:أبو بكر... يولد الطفل في ظلال رؤى كريمة تحمل بشارة خير على أنه ثمة غيب معقود على نواصيه الخير قادم عما قريب، فقد باحت والدة الشهيد -رحمها الله- عن مشاعر غريبة، وأحلام عجيبة رافقت الحمل في شهوره التسع، ومن ذلك أنها رأت في أحد مناماتها أن الحائط قد انشق وخرج منه شيخ جليل في لباس أبيض، كأنما الأرض كانت تتهيأ لاستقبال هذه الهدية وتبشر بها قبل ميلادها!

ولد الطفل المبارك في تاريخ 1960/2/25م، في الحي الشمالي لمخيم بلاطة بنابلس بعيدًا عن بلده الأصلي «سلمه» قضاء يافا بعد أن استقرت أسرته مثل بقية المهاجرين في مخيمات اللجوء في العام 1948م مثل من قال عنهم الشاعر:

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس ملء الأرض، لكني بلا وطن.

من ذا يصدقني؟

مثل كل الذين رحلوا دون أن يحملوا معهم إلا الذكريات

لم يحملوا معهم ما يعينهم على تحمل جفاف الاغتراب

لو قشة مما يرف ببيدر البلد.

خبأتها بين الجناح وخفقة الكبد

لو رملتان من المثلث أو ربى صفد...!

عاش جمال منصور طفولة عادية في منزل شيّدته وكالة الغوث. واختار لنفسه غرفة صغيرة لا تتعدى مساحتها أربعة أمتار تقع على شارع فرعي ولديها مدخل خارجي. كان الجميع يشعرون بتميز هذا الطفل، فقد تميز بين إخوانه، وتميز عن باقي أفراد العائلة، حيث كانت طفولته هادئة كالنسيم العليل، ورغباته متواضعة كالعالم الملائكي الجليل، فلا يطلب إلا لحاجة، ولا يثور إلا في النادر

القليل، كان خلوقًا مؤدبًا منذ صغره؛ غير مؤذٍ في لعبه، وإذا ما تشاكس الغلمان وتشاكوا رأيته بعيدًا عن معمعة التشاكي، واقفًا في الحياد مصلحًا أحيانًا. وأحيانًا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كان -كما تقول أمه – مرضيًّا عندها محبوبًا عند إخوانه وأخواته، أما أهم خصائصه المميزة كما شهد له بذلك ذووه، فهو عقله الذي كان يكبره سنًا؟ فلربما كان عقله يأكل من عمره!!!

تلك هي الصورة الأولى لملامح الطفولة لهذا الفتى الناشئ، لوحة فنية متميزة سرقت الأنظار وأمالت لها القلوب، نبتة تشبه الكثير من النباتات من اسمها وشكلها العام بيد أنها تأسرك بمذاقاتها الخاصة ورحيقها العذب، إذ تشعر أن ثمة رعاية خاصة وعناية إلهية تحوط هذا الطفل منذ صغره.

تلقى تعليمه في مدارس الوكالة في المخيم وكان متفوقًا في مدرسته أحبه المعلمون وشهد له زملاؤه، وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والإعدادية في مدارس الوكالة انتقل إلى مدرسة قدوي طوقان في نابلس ليكمل فيها تعليمه الثانوي.

وقد كان شهيدنا منذ صغره تبدو عليه صفة القيادة حيث كان يحرص على أن يكون في مواقع الإشراف والقيادة، لا حبًا في الظهور أو طمعًا في السيادة، لكنها فطرة مجبول عليها أن لا مكان له إلا رأس القافلة، ولا يسعه إلا صدر المجلس، وكان دائمًا يقول عن طفولته: «هناك فريقان من الأطفال فريق يقول أنا مع من؟، وفريق يقول: منْ معي؟، وقد كنت دائماً مع الفريق الثاني»، وهذا دليل علو همّة شهيدنا المتميز بشخصيته في غير استعلاء، فهو من طراز فريد قلما يجود الزمان بمثله.

هاهنا حجر عربي.

وفي كف طفل الجليل المحارب يا سادتي حجر عربي.

كيف يوقف دبابة في الخليل.

وحليب الوكالة والقهر كنا شربناه صرفا

فكيف يشب الفتى في بلاطه مُهرا؟

وحقا كانت تلك معجزة خارج حدود العقل، فقد ولد في المخيمات جيل لا يعرف الهرم ولا يبلغه التعب!

الصناعة الذاتية

اهتم جمال منصور منذ بواكير شبابه بالقراءة وشراء الكتب رغم قلة الموارد المالية إلا أنه كان يحرص على التوفير من مصروفه اليسير، فيشتري به بعض الكتب، وتكونت لديه مع الزمن مكتبة ضخمة، وقال الشهيد عن نفسِهِ:«أنه قرأ كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، وهو في الصف الثالث الإعدادي» أي حين كان عمره 15 عاما، ولقد بدأ التشكل الفكري للشاب جمال منصور في مدرسة قدري طوقان حيث انضم إلى الحركة الإسلامية في مرحلة مبكرة من عمره، وكان ذلك مكسبًا عظيمًا له وللحركة الإسلامية، وانطلاقة جديدة مهدت لتاريخ جديد لهذه الحركة، إذ أصبح هذا الشاب فيما بعد -وفي بداية الثمانينيات- من ذوي القيمة والقامة، والهمّة والهامة، بل من ألمع دعاة العمل الإسلامي. ممن يقوم عليهم العمل الإسلامي في مدينة نابلس.

وفي هذه الفترة العمرية بدأ جمال منصور بالتعرف على فكر سيد قطب وحسن البنا وأكثر من القراءة لسيد قطب وتعلق به، وكان يقول: من لم يقرأ لسيد قطب فقد فاته معظم الخير، وقرأ للقرضاوي وكان معجباً بشخصية الشهيد عبد الله عزام.

أكمل جمال منصور تعليمه العالي في جامعة النجاح الوطنية، وفيها قادَ الكتلة الإسلامية، وكانت فترة قيادته هي الأوضح والأهم في تاريخ الحركة الطلابية، حيث كانت الصراعات الساخنة والتحولات الجادة، والتمدد الإسلامي الملحوظ، داعيًا طلاب الكتلة أن يكونوا أبطالاً.

إن هذا الشاب صدق فيه قول الشاعر:

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا   ميلاد عاصفة وعرس زلازل!

إذ كان جمال منصور وحده أمة في التأسيس للعمل الإسلامي، وفي تثبيت قواعد الحق في ذرى الضفة وفي بناء جيل قادر على التحرير.

وتذكر المصادر أنه في ظل قيادة الشهيد للكتلة الإسلامية، حصلت الكتلة الإسلامية في الانتخابات عام 1979م على (10) مقاعد من أصل (11) مقعدًا من مقاعد مجلس اتحاد الطلبة، وفي انتخابات عام 1980-1981م، فازت الكتلة الإسلامية بجميع مقاعد المجلس، عندها توحدت كتل منظمة التحرير ووضعت لها هدفًا واحدًا، وهو إسقاط المجلس وبادرت هذه الكتلة الموحدة بسلسلة من الإجراءات الاستفزازية وصلت إلى حد تعطيل الدوام لمدة خمسين يوماً انتهت بمصادمات ضُرِبَ فيها أفراد الكتلة الموحدة التابعة لمنظمة التحرير وهربوا من الجامعة، وبعد هذه المصادمات وهذا النصر لقب الشهيد جمال منصور بأمير المؤمنين.

في تلك المرحلة تم إصدار مجلة (المنطلق) ليكون أول منبر إسلامي ينطق باسم الطلبة في ظل محاولات الطمس والإخفاء للصوت الإسلامي الصاعد من قبل الاحتلال وإدارة الجامعة، وأصحاب التيارات الفكرية المناوئة

لقد كان جمال منصور يعمل بأقصى طاقته إذ كان مؤمنًا بأن (كل يوم يمضي لا تعمل فيه الأمة عملاً للنهوض من كبوتها يؤخرها أمدًا طويلاً) كما قال الشهيد حسن البنا.

في العام 1983م تخرج جمال منصور من جامعة النجاح-كلية التجارة وحصل على درجة البكالوريوس في المحاسبة والعلوم الإدارية -وقد منعته السلطات الإسرائيلية من السفر إلى الخارج لإكمال تعليمه في الدراسات العليا، «لأسباب أمنية».

معالم العظمة

أولاً: العاطفة الإيمانية الوقادة

كانت شخصية جمال منصور تتسم بالبعد الديني والروحاني، فقد كان كثير الصلاة والصوم، وحريصًا على الأذكار في الصباح والمساء، وقد أعانه ذلك على أن يكون داعيًا في سبيل الله، كما كان شديد الحرص على رعاية حقوق الله والحفاظ على حرماته وتعظيم شعائر الله. فمنذ اليوم الأول في الخطوبة سأل خطيبته سؤالاً لم تفهم أبعاده إلا بعد الارتباط به، وكان سؤاله: ما قدرتك على تغيير عاداتك؟ وقد كان يرمي بذلك إلى كسر عادةِ دخولِ الرجال إلى حفل الخطوبة والزفاف على الرغم من الضغوط الاجتماعية حينها.

كانت هذه الخطوة سلوكًا مبكرًا لتميز فكري وشرعي تمتع به الشهيد حيث جعل من حفل زفافه أول َعرسٍ إسلامي تعلو فيه آيات الذكر الحكيم، ويصدح فيه المنشدون، وتجلجِل الخطابات الدينية طارحة البديل الأمثل للفن الهابط، وقد حضر حينها حفل الزفاف جمعٌ غفير وفدوا من القرى والمخيمات والمدن الفلسطينية وكذلك من الأراضي المحتلة عام 1948م، فكان عرسه مهرجانًا حاشدًا ومنهجًا دعويًا جديدًا.

وصدق الشهيد حسن البنا حين قال: «إن الرجال سر حياة الأمم ومصدر نهضتها، وإن تاريخ الأمم جميعًا إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين أقوياء النفوس والإرادات. وإن قوة الأمم أو ضعفها إنما تقاس بخصوبتها في إنتاج الرجال الذين تتوفر فيهم شرائط الرجولة الصحيحة».

تتسم شخصية جمال منصور بأنه كان يحب القدس والمقدسات، ويعمل من أجل القضية الفلسطينية، ويدعو لنفسه بشهادة تنال من جميع جسده في سبيل الله والقدس، وكانت تلك عاطفة إيمانية جياشة انعكست على كل حياته.

ثانياً: أصالة خلقية وقوة نفسية

لقد أوصى حسن البنا الجيل الإخواني الأول بقوله:«ميدانكم الأول أنفسكم، فإنْ انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإذا أخفقتم في جهادكم كنتم عما سواها أعجز، فجربوا الكفاح معها أولاً». فالانتصار في المعركة الداخلية هي عتبة الانتصار في المعركة الخارجية. وقد صدق الشهيد البنا يوم قال: «مظاهر الحياة لا تتجزأ، والقوة قوة فيها جميعًا، والضعف ضعف فيها جميعًا كذلك». فالقوي هو من امتلك زمام ذاته قبل أن يمتلك زمام توجيه الآخرين. وقد كان ذلك بينا جليا في شخصية الشهيد جمال منصور حيث جمع الله أطراف الخُلُقِ الرفيع ومظاهر القوة النفسية الداخلية، فقد كان جمال الإنسان العابد والمجاهد القائد والهمام المفكر العبقري الذي أقض مضاجع بني صهيون وهزَّ عروشهم، ذكي العقل، ثابت الجنان، سريع البديهة، حاضر النكتة، قوي الجسم، حسن التخلص في المواقف المحرجة، عميق الفكر، يأسر القلوب بكلامه الساحر، ويحسن التلطف والتصرف مع المخالف الفاجر. لا يستفزه شيء، ولا يغضب إلا لله وفي الله، فيصفح في حق نفسه، ولا يتنازل في أمر الله قيد أنملة. هو المحيط اتساعًا والبحر عمقا. قال ذو النون المصري:«من كمال سعادة المرء سبع خصال:صفاء التوحيد، وغريزة العقل، وكمال الْخَلْقِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَخِفَّةُ الروح، وطيب المولد، وتحقيق التواضع»[1].

كان جمال منصور حريصاً على وصية الإمام البنا الذي قال:«سنقاتل الناس بالحب»، وتلك سنة محمد ﷺ التي يحييها الشهداء في سلوكهم. ولقد وصفته زوجته بقولها: «شخصيته مؤثرة، وحديثه يأسر الألباب، ولم أكن أتوقع أن أرتبط بشخص يحمل مواصفاته؛ حيث كان واسع الاطلاع وشديد الحساسية».

1- شعب الإيمان-أبو بكر البيهقي-ج10 ص500 مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند ط1، 1423 هـ - 2003 م.

تعرفت عليه في السنة الأولى من دراستي عندما جاء يقدم لي التهنئة بمناسبة ارتدائي للحجاب، وكانت فرحتي بهذا اللقاء كبيرة، وبعد عودتي من عمان في إجازتي السنوية تقدم جمال لخطبتي فكانت فرحتي كبيرة وغمرتني السعادة ولم أصدق أن شخصًا مثله سأكون رفيقة دربه». امتاز الشهيد بأن أحبه كل من عرفه، وأنه كان رجل المواقف الصعبة... كان أبا بكر إذا بكى، وعمر بن الخطاب إذا غضب، وكان بجدارة السياسي المحنك والفقيه الحاذق.

ولقد قال حسن البنا: «إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور: إرادة قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه سكون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه»، وقد كان ذلك كله منظومة تجلت في روح وسلوك الشهيد رحمه الله.

ثالثاً: القوة العقلية والثقافة العليا

في مكتبته العامرة كانت له نظرة خاصة وثاقبة في نوعية الكتب وطبيعتها، فها هو يضيف إلى عبارة ابن المقفع ما يكملها ويتمم معناها فابن المقفع يقول: «اقرؤوا أفضل ما تجدون، واكتبوا أفضل ما تقرؤون، وأحفظوا أفضل ما تكتبون»، فأكمل الشهيد العبارة بالجملة التالية: وكان على ابن المقفع أن يقول: واعملوا بأفضل ما تحفظون، تكونوا أفضل الناس.

كان يعطي محاضرات ومواعظ دينية حتى أن من يسمع له كان يعتقد أن جمال منصور هو عالم في أمور الشريعة الإسلامية، وعندما تتجول في بيته ترى تحفة حقيقية وهي المكتبة الخاصة به حيث تحتوي على آلاف الكتب القيمة والشاملة.

وقد ألّف جمال منصور العديد من المؤلفات، منها:كتاب التحول الديمقراطي الفلسطيني من وجهة نظر إسلامية، وكذلك كتاب أجنحة المكر الثلاث، وله العديد من المنشورات والدراسات التي تتعلق بالقضية الفلسطينية، وكان بارعًا في الكتابة وتعامل بكتابة التقارير والمقالات لعدد من الصحف والمجلات، وكان دائمًا يشارك في الندوات والمحاضرات والمؤتمرات على مستوى الوطن، لقد تحرك جمال منصور في وعي عميق وفي إطار قول الشهيد البنا: (اشغلوا الناس عن الفكرة الباطلة بفكرة صحيحة، ولا تحاولوا هدم عقيدة فاسدة إلا بعد بناء عقيدة صالحة، ولا تهدموا على الناس أكواخ عقيدتهم، ولكن ابنوا لهم قصرًا من الإسلام السمح، حينها سيتحولون عن أكواخهم إلى قصوركم)، وهذا ما اجتهد جمال منصور في تقديمه عبر الحكمة والموعظة الحسنة والعلم العميق الثري.

رابعاً: جهاد لا ضعف فيه

(إنما تحيى الفكرة. إذا قوي الإيمان بها) وقد آمن جمال منصور بفكرته إيمانا ملك عليه حياته واستلذ التعب لأجله حتى كان يقول: (قد نتعب قليلا ولكن التعب لا يعلق بالثياب كما يعلق في النفوس، وإن النفوس التي لديها الهمَّة تستطيع تجاوز التعب). وكان يردد دومًا (أنا صاحب قضية وينبغي أن أعمل لها حسب الظرف المتاح، حتى لو كنت أركب في حافلة من مدينة إلى أخرى، وأعتقد أن علي رسالة خلال هذه المسافة، فالحياة ليست نزهة). وقد كان بذلك يؤكد كلمات البنا بأن «هذا الدين لا ينفع معه فضل مال ولا فضل جهد ولا فضل وقت».

ولقد عمل الشهيد دون كلل ولا ملل فأسس فرع نابلس للجنة الإغاثة الإسلامية لإغاثة الأيتام والفقراء والمحتاجين وكان مسؤولاً عنها، وأسس الشهيد مكتب نابلس للصحافة والإعلام، ولكن الاحتلال قام بإغلاقه واعتقال جمال منصور،

كما قام أيضًا بتأسيس مكتب للأبحاث أغلقته السلطة الفلسطينية بعد اعتقاله في العام 1997م، وهو الذي أسس المركز الفلسطيني للدراسات والإعلام والذي ما لبث أن قامت طائرات الاحتلال بقصف المركز.

لقد حفلت حياة جمال منصور بالكثير من الأحداث أهمها كثرة مرات اعتقاله سواء في سجون الاحتلال الإسرائيلي أو في سجون السلطة الفلسطينية بعد دخولها إلى نابلس، إذ اعتقل الشهيد جمال منصور خلال فترة دراسته وأثناء الانتفاضة الأولى أربع عشرة مرة، معظمها كان اعتقالاً إدارياً، حيث اعتقل عام 1995م وخضع للتحقيق مدة ثلاثة أشهر ونصف متواصلة في سجن عسقلان.

كان مدرسة في الصبر والاحتساب وكان دومًا يقول:(إن الله ليستحي أن ينصب لأهل البلاء ميزانًا أو ينشر لهم ديوانًا، بل يصب عليهم الحسنات صبًا) ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10] لكن أكبر مصيبة هي حرمان الأجر مع بقاء البلاء)!. أبعدته إسرائيل إلى مرج الزهور جنوبي لبنان مع عدد كبير من أبناء الحركة الإسلامية الذين كانوا معتقلين في سجون الاحتلال عام 1992م، وأُبعدوا حينها بناء على أوامر رابين مع 415 مجاهدًا إلى مرج الزهور، وامضوا عامًا كاملاً في الجنوب اللبناني، ولم يشفع لهم قرار الأمم المتحدة 799 القاضي بعودة جميع المبعدين فورًا إلى أرض الوطن حيث تمكنوا بثباتهم وإصرارهم على إلغاء الإبعاد من القاموس الفلسطيني وانتزعوا قرارهم بالعودة بعد عام واحد.

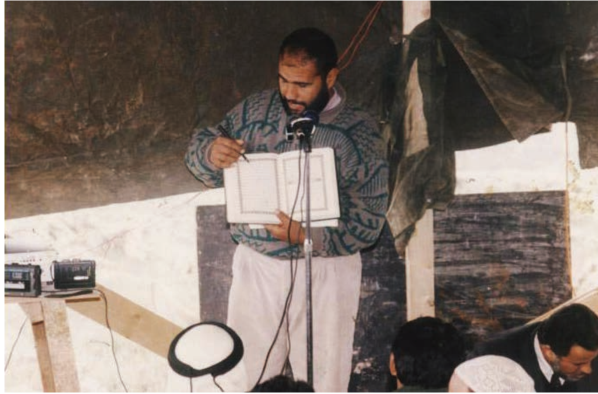
وكان الشيخ جمال في تلك المرحلة مسؤول اللجنة الإعلامية في مرج الزهور، وعضوًا في اللجنة القيادية للمبعدين، ولجنة العلاقات العامة خلالها.

كان يخاطب إخوانه المبعدين إلى مرج الزهور سنة 1992م قائلا: «كونوا بين الناس رجالاً وبين الرجال أبطالاً، وبين الأبطال أمثالاً».

ولم يعد «أبو بكر» إلى بيته بعد عودة المبعدين بل عاد إلى زنازين السجون الصهيونية، وتم التحقيق معه على خلفية رئاسته اللجنة الإعلامية أثناء الإبعاد، وقيامه بتأليف كتاب في الإبعاد.

بعد ذلك اعتقل لدى السلطة الفلسطينية خلال حملة قامت بها السلطة في عام 1996م، حيث أمضى في السجن مدة ثلاثة أشهر، ومن ثَمّ أطلق سراحه.

وفي عام 1997م أعادت السلطة الفلسطينية اعتقال الشهيد منصور هو وعدد كبير من أبناء حركة المقاومة الإسلامية حماس، وخلال مدّة اعتقاله مرضت والدته مرضًا شديدًا وتوفيت، وقد رفضت السلطة الإفراج عنه إلا بعد تشييع الجثمان، فطلب أن يكتب على باب المنزل عبارة:«يعتذر نجل الفقيدة عن استقبال المعزين بسبب وجوده في سجن السلطة»، وأمضى في سجون السلطة ثلاثة أعوام، ليطلق سراحه في العام 2000م؛ بسبب انطلاقة انتفاضة الأقصى.



وكان خلال ذلك في أوج تألقه الروحي والعقلي، بل كان يعلِّمُ من حوله قائلاً لهم: «فترة السجن إما أن تكون مجزرة لحذف الأعمار، أو تكون فترة بناء وإعمار».. وقد استطاع تطبيق ذلك في سجنه، فعمل على تطوير نفسه واكتشاف طاقاته ومواهبه، حيث أبدع في الرسم، وهو أول من رسم شعار حركة المقاومة الإسلامية حماس.

ومما يذكر أن «أمنون إبراموفيتش» كبير المعلقين في القناة الأولى في التلفزيون الصهيوني ذكر أن «ستانلي ميسكوفيتش» مدير مكتب وكالة الاستخبارات

الأمريكية في تل أبيب كان يحرص دومًا على تذكير قادة السلطة الفلسطينية أن عليهم أن يبقوا على اعتقال جمال منصور، حيث كان معتقلاً في سجون السلطة الفلسطينية، على اعتبار أن الإفراج عنه سينظر إليه أمريكيًا على أنه دليل على توجُّه السلطة الفلسطينية لدعم الإرهاب.

قال عنه الحاكم العسكري عندما اعتقل في بداية الثمانينيات وتدخل مدير الجامعة للإفراج عنه، فقال للحاكم العسكري: «أنه تم اعتقال أحد طلبة الجامعة، ونريد منكم الإفراج عنه»، فقال له الحاكم العسكري: هذا ليس طالبًا، هذا «خليفة»، فسأله: لماذا يصفه بذلك؟ فقال له: لأنهم وجدوا في حقيبته كل شيء عن الأمة الإسلامية عن مآسيها وأحوالها، عن ظروفها، عن نكباتها، عن الجرائم التي ترتكب بحقها، عن همومها، عن مزاياها، عن سكانها، عن كل شيء».

خاتمة السعادة: الشهادة

أحلام الأمس حقائق اليوم، وحقائق اليوم أحلام الأمس.

ولقد كانت الشهادة حلمًا وأمنية يراود جمال منصور كل ليلة. وحق له ذلك فعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال:«ما مِن عبدٍ يموت، لهُ عندَ اللّهِ خيرٌ يَسُرُهُ أنْ يَرْجِعَ إلى الدّنيا، وأن لهُ الدنيا وما فيها؛ إلّا الشهيدَ لما يرى مِن فضلِ الشهادَةِ، فإنه يَسُرُهُ أنْ يَرْجِعَ إلى الدنيا، فيُقْتَلَ مرَّة أخرى» [1].

نرى الشهيد في لحظة ما يجمع شتاته.. ويلملم آخر حبات العرق.

كأن بينه وبين الشهادة موعدًا! وكأن الزمن زمن المكافأة.

يرحل الشهيد وقد ترك على صفحة التاريخ أثرًا له، فقد قدم كل القرابين الجليلة. يمضي الشهيد وصدى الخطوات تجلجل في سمع الحياة وترهق ما بقي من روح الباطل الآثمة.

1- صحيح البخاري-ج 4 ص-17المحقق:محمد زهير بن ناصر الناصر-دار طوق النجاة-ط1، 1422هـ.

فقبل أسبوع من استشهاده كان جمال منصور يتهيأ للموعد فقد قال لزوجته: «ماذا ستفعلين إذا استشهدت»؟ فردت عليه قائلة: «البيت ضيق ولا يتسع لتقبل العزاء، فأنت شخصية مهمة!»، فاقترح قائلاً: «تستطيعون عقد مجلس العزاء في الجمعية الخيرية، وبالفعل كان عزاء الشهيد في الجمعية الخيرية كما طلب».

تقول أم بكر إن زوجها كان يحدثها طوال الأسبوع عن الشهادة، وعن كيفية تصرفها بعد استشهاده، لأن استهدافه كان مسألة وقت بالنسبة له، حيث طلب الشهيد القائد من زوجته عدم البكاء عليه كما تفعل بعض النساء. كأنه يهمس لها ببيت الشعر الخالد.

لا تبكه فاليوم بدء حياته إن الشهيد يعيش يوم مماته!

ذكرتْ أم بكر أن زوجها قام باصطحاب أبنائه قبل اغتياله بأيام قليلة في بداية العطلة الصيفية لشراء اللوازم المدرسية، فتعجب صاحب المكتبة لأمر أبي بكر، وقال له:«ليش مستعجل، فقال أبو بكر بأنه لا يضمن أن يبقى حيًّا»... لم يكن يخشى الموت ولكنه كان يستعد للشهادة. وشتان بين الأمرين ولطالما قالها: «أنا لا أخشى الاغتيال بل أخشى على نفسي من الرضا بالاحتلال».



في لحظة ما تتنادى أرواح الشهداء. في حواصل طير خضر. حول العرش تتهادى. تشتاق للصحب فتومض لهم بإشارة وبعدها يرحلون. وهذا ما جرى صباح يوم الشهادة إذ تقول زوجته. لقد دار هذا الحديث صباح يوم استشهاد

جمال منصور، وكانت هذه المحادثة آخر الكلمات التي تحدث بها الشهيد، قبل خروجه من منزله مودعا زوجته وأولاده الخمسة.

- أم بكر.
- نعم يا أبا بكر.
- أتدرين من اتصل بي الليلة؟
- لا، من؟

إنه الشهيد صلاح الدين دروزة، لقد زارني في المنام متصلاً هاتفيًا وقال: إنني مشتاق إليك...! بعدها ارتدى أجمل ثيابه وقال:إنني أرتدي هذه الملابس الجميلة حتى أكون مستعدًا للشهادة.

وفعلا في نفس اليوم 2001/7/31م قامت طائرات الاحتلال الصهيوني بقصف المركز الفلسطيني للدراسات والإعلام؛ مما أدى إلى استشهاد جمال منصور على الفور، هو وعدد من رفاقه وموظفيه في المركز.

لم يكن للزوجة الصالحة كلمات بعد خبر الشهادة إلا قولها: «أحمد الله أن اختار زوجي شهيدًا، ليفتح لنا طريقًا إلى الجنة، ونكون من السبعين الذين يشفع لهم إن شاء الله».

يا شهيداً أنت حيٌّ ما مضى دهرٌ وكانا
ذكرك الفوّاح يبقى ما حيينا في دمانا
أنت بدرٌ ساطعٌ ما غاب يوماً عن سمانا
قد بذلت النفس، تشري بالذي بعت الجنانا
هانت الدّنيا، وكانت درّة، كانت جمانا
فارتضيت اليوم عدنًا خالدًا فيها مصانا
ردّدي يا قدس لحناً عن شهيد في ربانا
واكتبي تاريخ شهم راح كي يحمي حمانا

تناقلت وسائل الإعلام الصهيوني الخبر ونقلت عن وزير الحرب الصهيوني بن أليعازر قوله في التقييم الذي قدّمه لمجلس الوزراء في اليوم التالي للمجزرة: إن من أهم إنجازات عملية التصفية التي استهدفت قادة حماس أنها مسّت بشكل مباشر الروح المعنوية للجمهور الفلسطيني.

يضيف بن أليعازر قائلاً: «لقد أثبتنا لهم أن أيادينا الطويلة ستطال كل من نعتقد أنه يتوجب أن يلقى العقاب الذي يستحقه، لا يمكن أن يلوذوا بأي مكان، فطائرات سلاح الجو الإسرائيلي وصواريخها الذكيّة بالمرصاد لكل هؤلاء».



أما وزير الثقافة الصهيوني الجنرال «ماتان فلنائي» فقد قال في مساء نفس اليوم الذي تمّت فيه المذبحة: «نريد أن نثبت لقادة حماس أنه لا يوجد مكان آمن لهم، نريد أن نجعلهم ينتقلون من مكان إلى آخر بحثًا عن الأمن، نريد أن نجعلهم ينشغلون بالحرص على توفير وسائل الأمن لهم».

وخاب العدو في توقعاته وخسئ، فقد بقي الدم الفلسطيني المبارك يسقي الأرض الطاهرة فلا تنبت إلا قادة وجنودًا كتبوا سطور النصر ممهورة بروح لا تكل ولا تمل حتى يُعاد كل شبر احتل في فلسطين.

إن الخلودَ لمنْ يموتُ مجاهدًا ... ليس الخلودُ لمنْ يموتُ جبانا

أو ليس موتي في حياتي مرةً ... لم لا يكون ختامها استشهادا؟

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

جمال سليم

1958م - 2001م



إن السـلاح الأقـوى والأمضـى فـي مواجهـة المحتـل هـو «وحدتنـا الوطنيـة».





مثل نسمة رقيقة أو ربما مثل جناح فراشة يتحرك الشهداء في الأرض. يمرون بسلام، ويمضون إلى دار السلام فقد كانوا سلامًا لكل فصول الحياة. أسرارهم لا تتوقف تظل تتكشف لنا مثل كنز مغمور في تراب الأرض، كلما نبشته انتفعت منه وأدركت جليل مكنوناته. الشهداء صامتون في فوضى الأصوات، ولكن صداهم يظل عميقًا في مسامع الكون، ويتشعب في ملامح الوجود مثل نهر رقراق يتهادى بخفة ولكنه لا يدع ناحية من الأرض إلا سقاها، فلا ننتبه له إلا إذا أزهر الغرس على جانبيه وتلألأ الأقحوان ضاحكًا على ضفتيه!

كلُّ شهيد هو حكاية روح، هو حكاية جرح أنبت حديقةً إذ في كل جرح حديقة !!!



تزهر الآلام فيه كسنابل قمح. تختبئ في معانيه ألوان الورد القاني. تظهره العين كالدم. وما هو إلا احمرار وردة قضي لها أن تتفتح! تبدو أفراحهم ناقصة وما ندري أنه ما نقص من فرحهم شيء، إلا ليزاد لهم في أفراح الآخرة الأزلية. الشهداء قدرهم أن يكونوا في خفاء الصمت الذي هو علانية المراتب يوم القيامة! ندهش بهم إذ يُقلَّدون الأوسمة في الدنيا، فكيف حين ينادَون من بيننا ليكونوا في رفقة النبيين والصديقين.

فيا أيها الشهداء انثروا أعماقكم فينا... أخبرونا كيف نتلو الوصية مثلكم في عتمة السعي... في عتمة الخندق... في لحظة التصوير للمشهد... في ثبات صبركم إذ ترحلون وتبتسمون كالأنبياء.

يا أيها الشهداء اهدموا أسوار عجزنا، وعلمونا كيف نبتعد عن ظلنا عن ذاتنا، ونلتقي بالله في عُمْرٍ جديد. يا أيها الشهداء لا تدفنونا. أعلنوا الفجر وأقيموا فينا الصلاة وأقيمونا!

ولقد كان الشهيد القائد البطل جمال سليم، الذي نحن بصدد سيرته العطرة، صاحب الابتسامة الدائمة، والعزيمة الوقادة، هو أحد أقمار فلسطين التي تلألأت بصمت وتدفقت فينا نورًا. كان نجمًا سطع في سماء المجد والكرامة، فكان سيلاً من الفكر، ونهرًا من البذل والعطاء، وأستاذية متقدمة في القيادة والسياسة.

انفرد بخصائص زكية، ولطائف بهية، جعلته نمطًا فريدًا، ومدرسة وطن واعية، وملحمة عزٍّ جامعة، وساحة للمجد التي لا ينضب لها معين، وساحة للفكر المنير، والعلم النافع الوفير، ومدرسة فكرية فريدة، مثّلت الوسطية والانضباط، فترجمت المعالم الدعوية، إلى عالم فكريّ متجدّد، عشق الشهادة والشهداء، فحق له أن يسمي نفسه أبا مجاهد»[1].

1- http://www.twtheq.com/flag.aspx?id=39

أولاً: ميلاد همَّة

ولِدَ القائد جمال سليم الداموني، بتاريخ 1958/2/2م، في مخيم عين بيت الماء، غربي مدينة نابلس، شمال الضفة الغربية، وتعود أصوله لقرية الدامون، قضاء عكا المحتلة عام 1948م، وهي قرية فلسطينية مهجّرة، تقع على مسافة 11 كم من عكا السليبة، يرجع أهلها في أصولهم إلى قبيلة الزيدانية، التي نزحت من الحجاز.

ولد جمال سليم لأسرة متدينة، ربته على الإيمان، والأخلاق الحميدة، فرضع من والديه حبَّ الله، وحبَّ الرسول ﷺ، وحبَّ الوطن والجهاد، وكان والده سليم أحمد إبراهيم الداموني، يعمل تاجرًا، لكن ظروفه المالية كانت صعبة بسبب الهجرة، مما أدى بالطفل إلى أن يعيش حياته في المخيم، كباقي أقرانه، في حياة كلها مكابدة ومعاناة، إلا أن هذا الطفل تميز بين أقرانه بشجاعته وجرأته، فلا يرضى بالذل والهوان على صغر سنه.

كان جده إبراهيم الداموني -رحمه الله- رجلاً صالحًا، وقد تنبأ لجمال سليم منذ صغره، بأن يكون له مستقبلاً عظيمًا، إذ عرف الطفل مبكرًا بالتزامه بالصلاة والصيام، وحب المساجد، وحب الخير، وخفة ظله، حيث يحدثنا والده أنه مرض في صغره وهو صائم وأخذه إلى الطبيب، وطلب منه الطبيب أن يفطر؛ لتناول الدواء وتتحسن صحته ولكنه رفض أن يفطر رغم شدة مرضه.

درس الشيخ جمال سليم المرحلة الابتدائية والإعدادية، في مدارس وكالة الغوث، في مدينة نابلس، وتميز بذكائه وتفوقه منذ صغره، فنال محبة واحترام المعلمين وزملائه الطلاب. وأنهى المرحلة الثانوية في المدرسة الصلاحية الثانوية بنابلس، عام 1977م، وكان الأول على الضفة الغربية، في مادة اللغة العربية في الثانوية العامة، حيث كان يحب اللغة العربية، وتفوق فيها، وعشق الشعر وبرع في التأليف والكتابة.

ولعله من الأهمية بمكان، أن يسجل للشعب الفلسطيني حرصه الشديد على تعليم أبنائه، ورعاية ذكائهم رغم الفقر والتهجير وظروف الحياة القاسية، ولقد كان هذا العلم هو السياج الذي حمى هذا الشعب المبارك من الذوبان والضياع في مخططات اليهود التي كانت تسعى إلى تجهيل وتفريغ الشعب من قضيته.

ثانياً: ميلاد الفكرة

درس القائد الشهيد في الجامعة الأردنية، في المملكة الأردنية، وحصل منها على درجة البكالوريوس، في الشريعة الإسلامية، في العام 1982م. فكان لطبيعة التخصّص الذي اختاره الشهيد القائد في دراسته أثرٌ واضح في بناء شخصيته وتشكيل معالمها.

انضم القائد جمال سليم إلى جماعة الإخوان المسلمين، أثناء دراسته الجامعية، في كلية الشريعة، في الجامعة الأردنية، في الفترة ما بين عامي 1978م - 1982م، حيث تتلمذ على يد مجموعة من القادة العظماء، والأعلام الكبار، من الرعيل الأول للجماعة، ومنهم الشيخ عبد الله عزام، والشيخ فضل عباس، والشيخ محمد المبارك، والشيخ حسن أبو عيد، والشيخ مصطفى الزرقا، والشيخ أحمد نوفل، فنال فضل صحبتهم، وتربى على فكرهم ومنهجهم، ونهل من معينهم الذي لا ينضب، رجع إلى فلسطين، يحمل فكر الإخوان المسلمين، ويدعو له بكل حماس وإخلاص، ويرفع راية العمل والجهاد، فكان من أبرز الناشطين الإسلاميين.

وبعد تخرجه عُرِضَ عليه أن يعمل في الأردن، وكذلك في السعودية، لكنه رفض لرغبته في العودة لخدمة أبناء وطنه، فأكرمه الله بأجر الرباط والجهاد.

عاد القائد الشهيد جمال سليم بعد تخرّجه وزواجه، إلى مسقط رأسه في الضفة الغربية؛ ليشتغل في الإمامة والخطابة في وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية في نابلس والقرى المجاورة، فعمل إمامًا وخطيبًا لمسجد (مادما) بقرية مردة قضاء سلفيت جنوب نابلس، ولقد أحبه أهل هذه القرية، وأعجبوا بدروسه

القيمة، وخطبه المميزة، ونال احترام الكبير والصغير في هذه القرية، ثم عمل إمامًا وخطيبًا في مسجد الباذان، فأحبه أهل الباذان، وأعجبوا بأسلوبه المميز، واشتهر بخطاباته ومحاضراته في مسجد «معزوز»، ثم انتقل للتدريس في قرية سالم، شرق نابلس، لشهور قليلة، ثم عمل مدرساً لمادة التربية الإسلامية، في المدرسة الثانوية الإسلامية بنابلس، التي اعتبرت معقلاً حصينًا للإسلاميين، ونال الشهيد احترام زملائه المدرسين والطلبة، وكان عندهم صاحب الكلمة الأولى من باب التوقير والاحترام لرأيه ومكانته، وظل معلمًا ومربيًا للأجيال، إلى يوم استشهاده.

هذا الحب الجماهيري من الناس والطلبة والأصدقاء هو دلالة صدقه إذ (للصدق رائحة لا تشم بالأنوف ولكن تُحَسُّ بالقلوب) كما يقول الشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله-، فالحب لا يُشتَرى ولكنه يقذف في قلوب الناس ويَلقى معه القبول للصالحين.

معالم التميز

أولاً: أخوة الهدف

كان الشهيد جمال سليم صادقًا في أخوته، مخلصًا في عواطفه الإيمانية وكان ذلك جليًا في علاقته مع القائد جمال منصور، حيث كانت بينهما علاقة قوية ومتينة، وكان كل منهما يحب الآخر حبًا عظيمًا، يلتقون على طاعة الله، ويفترقون على محبته وطاعته. وقضوا معًا عدة سنوات في زنازين السلطة

الفلسطينية، تنفيذًا لرغبة الصهاينة. وأثناء اعتقال الشيخ جمال منصور، كان يسعى جمال سليم جاهدًا مع السلطة للإفراج عنه، وعندما حاول اليهود قصف السجن الذي كان فيه، قاد أبو مجاهد أبناء نابلس في مسيرة واعتصام أمام سجن جنيد، طالبوا فيها بالإفراج عن المعتقلين، وعلى رأسهم القائد جمال منصور، إلى أن تم فعلاً الإفراج عنهم. فإذا أردت أن تبحث عن أبي مجاهد جمال سليم، تجده عند أبي بكر جمال منصور، فقدر الله -تعالى- أن يكونا معًا في حياتهما، في الأنشطة المختلفة، وأن يستشهدا معًا في نفس الضربة، التي استهدفت المكتب الذي تواجدا فيه، فكان من (رحمة الله) بهما أن استشهدا معًا. وقد قالها الأديب الطنطاوي: (إذا شئتم أن تذوقوا أجمل لذائذ الدنيا، وأحلى أفراح القلوب، فجودوا بالحب كما تجودوا بالمال!) هذا الحب الفياض هو الذي يبني نماذج القدوات ويخلق تأثيرًا في أرواح الجماهير. وقد قيل: (لا تعتبر القدوة أهم عنصر من عناصر التأثير على الآخرين، بل هي العنصر الوحيد)، ولقد وصفت زوجة الشهيد أم مجاهد الأثر الأخلاقي لهذه العلاقات الأخوية الراقية حيث تقول:«حدثني أبو مجاهد أن أحد الصحافيين الأجانب جاء لزيارة المبعدين في مرج الزهور، وعندما وصل دخل عليهم وهو يرتجف خوفًا؛ لأنه يقال عنهم إرهابيين ظنًا منه أن هؤلاء المبعدين لهم مخالب وأنياب يبطشون بها، فدخل عليهم وهو يقدم رجلاً و يؤخر رجلاً خوفًا منهم، وعندما تعرف عليهم ورأى جميل ما بينهم أُعجب بهم وبأخلاقهم وأعلن إسلامه»، ولعل هذا الرقي الأخلاقي يصدق فيه قول القائل «عمل رجل في ألف رجل، خير من قول ألف رجل في رجل». إن هذه أخلاق الذين هداهم الله وقال عنهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90].

ثانياً: صوابية القناعات

كان القائد جمال سليم يتمتع بقراءة عميقة للواقع والمستقبل، وكان يقدّر الواقع تقديرًا يدل على وعي عالٍ وفهمٍ يحمي القضية من الضياع في أروقة

القرارات الدولية إذ كان يعتبر سليم مثلاً أن قضية اللاجئين الفلسطينيين هي «لبُّ الصراع العربي الصهيوني، وتجسيدًا لمأساة شعب، دُمّر من قراه أكثر من 530 قرية». وكان دومًا يؤكد على أن هذه المأساة هي «أطول جريمة ضد الإنسان الفلسطيني، وهي قضية متوارثة لا تموت طالما بقي فلسطينيون يتوالدون ويتناسلون».

ورفض سليم فكرة العودة الجزئية لبعض الفلسطينيين إلى مناطق السلطة الفلسطينية، أو العودة الفردية للجيل الأول إلى فلسطين 48 كحل إنساني ضمن إطار جمع شمل العائلة، واعتبر هذه الأطروحات والدعوات «إلتفافًا على حق اللاجئين في العودة إلى ديارهم وأوطانهم». كان هذا الإصرار على عتبة الرؤية الصائبة هو الحصانة التي تحفظ للقضية الفلسطينية حقوقها على تقادم الزمن وتكاثر الأوجاع ومحاولات الالتفاف على القديم كي ينسى، وتغليب منطق الواقع على أصل الحقوق.

ثالثاً: التأسيس للبناء

شارك في الحوار الذي جرى في القاهرة بين السلطة الفلسطينية وحماس عام 1994م، وشغل الشيخ الشهيد موقع الناطق الإعلامي لوفد حماس في حوار القاهرة مع السلطة الفلسطينية والذي كان في العام 1996م، كما نشط في لجان التوعية والإصلاح وكان عضوا في لجنة المؤسسات الإسلامية والوطنية بنابلس، وشارك في تأسيس لجنة التوعية الإسلامية في نابلس وكان أمين سرّها، كما ساهم في تأسيس رابطة علماء فلسطين وشارك في اللجنة العليا للاحتفالات الوطنية والدينية في محافظة نابلس.

ترأس الشهيد القائد «أبو مجاهد» العديد من اللجان والفعاليات، خاصة بعد اندلاع انتفاضة الأقصى في أيلول/سبتمبر 2000م، وكان من الأعضاء المؤسسين للجنة «التنسيق الفصائلي» في محافظة نابلس، التي كان من أهم أهدافها تنسيق المواقف بين المقاومة الفلسطينية بمختلف تياراتها في الميدان.

وبعد أن اختير أمين سر لجنة التوعية الإسلامية وأمين سر رابطة علماء فلسطين في نابلس، أخذ يركز في لقاءاته الجماهيرية على دحض فكرة عدم قبول الإسلاميين للآخر، واختيارهم الديمقراطية خيارًا تكتيكيًا لا استراتيجياً. ومن كلماته في هذا الأمر: «إن الحركة الإسلامية تقف بكل ما أوتيت من قوة ضد الحكم الفردي الديكتاتوري والاستبداد السياسي وظلم الشعوب، وترفض أن تسير في ركاب أي ديكتاتور مستبد، وإن أظهر الود لها»[1].

لقد تحمل الشهيد القائد الكثير من الأعباء، وأسس كثير من الأعمال المهمة دون أن نلمح في شخصه إلا التواضع والرغبة فيما عند الله، والسعي الدائم لأجل تثبيت قواعد بناء قويم لا تهزه الأعاصير. وكان في ذلك كله مخلصًا صابرًا صامتًا كسنبلة ممتلئة بالقمح لا تزيدها الوفرة إلا انخفاضًا وتواضعًا.

رابعاً: ضخامة التضحيات

سيظل الناس تحت أثقال العزلة المخيفة، حتى يتصلوا بالله ويفكروا دائمًا في أنه معهم وأنه يراهم ويسمعهم، هنالك تصير الآلام في الله لذة، والجوع في الله صحة، والموت هو الحياة السرمدية الخالدة، هنالك لا يبالي الإنسان ألا يكون معه أحد؛ لأنه يكون مع الله!). ولقد كان الأمر كذلك مع هؤلاء القادة العظام الذين قضوا غالب أعمارهم في المعتقلات والتعذيب ومع ذلك لم يهنوا ولم يتنازلوا وظلوا هم الأعلون!

ولعل استعراض يسير لعمر القائد جمال سليم يدرك معه المرء كيف قدم هذا الشهيد زهرة أيامه لله -تبارك وتعالى- إذ بدأ الشهيد جمال سليم جهاده ضد المحتل منذ صغره، فاعتقل وهو لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، وحكم تسعة شهور في سجن نابلس المركزي عام 1975م، وكان أثناء فترة اعتقاله صلبًا قويًا ثابتًا، محتسبًا ما أصابه في سبيل الله، ولم يستطع جنود الاحتلال، أن يأخذوا منه ولو كلمة واحدة.

1- http://www.nablustv.net.

- ثم اعتقل في الانتفاضة الأولى عام 1989م، وحكم ستة شهور، في معتقل النقب.
- ثم اعتقل في العام 1990م في سجن الجنيد المركزي، وحكم تسعة شهور، ولاقى الشهيد ورفاقه تعذيباً شديداً أثناء هذا الاعتقال، وكانت محنة شديدة للحركة الإسلامية، حيث اعتقل معظم قادتها وأفرادها، وزج بهم في السجون.
- ثم أعيد اعتقاله في العام 1991م، وحكم حكمًا إداريًا.
- في عام 1992م أُسِرَ الجندي الصهيوني (نسيم توليدانو) على يد مجموعة من مجاهدي حركة المقاومة الإسلامية حماس، فجن جنون رابين رئيس وزراء الكيان آنذاك، وقام بعملية اعتقال شملت قيادات حركة حماس والجهاد الإسلامي في الضفة وقطاع غزة وكان القرار بإبعادهم إلى مرج الزهور في جنوب لبنان وكان الشيخ الشهيد جمال سليم أحد أولئك القادة المبعدين، حيث استمر إبعادهم عامًا كاملاً، وبعد عودته من الإبعاد لم يكن مستقره بيته بل المعتقلات الصهيونية إذ اعتقل وحكم عليه لمدة خمسة أشهر قبل أن يطلق سراحه.
- اعتقل مرة أخرى عام 1995م، وحكم ستة شهور في سجن النقب.

وعلى الرغم من قسوة البعد عن الأهل والأوطان إلا أن الشيخ وإخوانه المبعدين أصرّوا على تقديم نموذجاً رائعاً في اختيار قيادتهم عن طريق انتخاب قيادة جماعية تتحدث باسمهم، مكونة من 17 عضوا، يعاد انتخابها مرة كل ثلاثة أشهر. وجرى انتخابه أثناء مدَّة إبعادهم أكثر من أربع جولات انتخابية[1].

لقد صدق الشيخ الطنطاوي بقوله (إن في الوجود شيئًا أقوى من الحديد، وأمضى من السيف، وأحمى من النار، وأنكى من القنبلة الذريَّة، هو الإيمان). هذا الإيمان هو الذي يجعل الشيخ جمال سليم يعبِّر عن تجربة الإبعاد وحيثياتها التي ظلَّت حيَّةً في قلبه وعقله ليقول عنها: «إن الإبعاد يمثل ملحمة صمودٍ وبطوليه لأولئك الذين مثلوا الشعب الفلسطيني، وأعطوا صورة

1- http://www.omamh.com/site/pages/details.aspx?itemid=10858

للثبات والصبر والإيمان بحتمية العودة، رغم صور العقلية الهمجية للصهيونية البشعة، التي استهدفت تفريغ الأرض عبر سياساتها البائسة التي فشلت في إطفاء جذوة الانتفاضة».

لقد كانت حياة القائد جمال سليم هي انتصار عملي على كل محاولات الإحباط والهدم والسعي المنهجي لاغتيال الروح المعنوية والعقلية لدى القادة والمرابطين على أحقية هذا الجهاد المبارك، وكانت حياته هي تلخيص لفكرة عالية تقول: إنه «مهما كان القادم مجهولاً افتح عينيك للأحلام والطموح فَغدًا يوم جديد وغدًا أنت شخص جديد».

خامساً: سعي دؤوب

(إن حياة الإنسان لا تقاس بطول السنين، بل بعرض الأحداث) و (إنّ أصحاب الهمم العالية إذا هبطوا الجبل من جانب قاموا يحاولون صعوده من الجانب الآخر)... وكان ذلك هو ديدن جمال سليم وملخص حياته، فلقد واصل سعيه وحركته دون توقف، وظل يعطي بلا تردد حتى في أقسى الظروف، إذ أكمل كتابة رسالة الماجستير، أثناء اعتقاله عند السلطة، وبعد خروجه من السجن، تمكن من الحصول على شهادة الماجستير، بعنوان «أحكام الشهيد في الشريعة الإسلامية»، من جامعة النجاح الوطنية في العام 1996م، ومن يقرأ هذه الرسالة، يجد في كل سطر من سطورها، أن الشهيد كان يتمنى ويتوق للشهادة، فكتب عنها بصدق، وأكرمه الله بأن ختم له بها، فكانت هذه الرسالة القيمة، التي طبعت فيما بعد في كتاب، إضافة نوعية للمكتبة الإسلامية، التي كانت تفتقر لكتاب شامل، يختص بأحكام الشهيد[1].

وكان في بحثه يؤكد على ضرورة التفريق بين حق العودة وحق التعويض، فيقول: «حق التعويض ليس بديلاً عن حق العودة، وإنما هو حق ملازم لعودة

1- http://www.twtheq.com/flag.aspx?id=38

اللاجئين، فالتعويض يهدف إلى إصلاح الضرر، ودرء المعاناة المادية والمعنوية، التي لحقت باللاجئين الفلسطينيين خلال نصف قرن من الزمن، ولكنه لا يعتبر بحال تعويضاً عن الأرض، أو بدلاً عن حق العودة، فالتعويض بدلاً عن حق العودة بيع للوطن وتفريط في الأرض، وشعبنا لا يبيع أرضه ووطنه أبدًا.

شارك الشهيد في العديد من الندوات الفكرية والسياسية والدينية في المهرجانات والجامعات والمؤسسات الفلسطينية وتشهد له بذلك مساجد فلسطين وأرض فلسطين.

استراحة المحارب الشهادة

(لقد علمنا ديننا أن نستوهب الحياة بطلب الموت، وحبب إلينا نبينا الشهادة. نلحقها إذا هربت منا، ونفتش عنها إذا ضلت عنا. فبماذا تخيفون أمة تريد الموت؟!).

هلاّ رَنَوتِ إلى الشهيد بِنظرة ... لِترَيْ ضياءً ما له إخفاءُ
وتـرَي وليّـا للإله وعابدًا ... في وجهه تتزاحم الآلاءُ
هذا قيام الليل في قَسَمَاته ... نورٌ يحارُ بوصفه البلغاءُ
وكذا الشجاعةُ ليس في أُسْد الشّرى ... أَسَدٌ كمثل شهيدنا فدّاءُ
ما مات من للدين والقدس افتدى ... والقدس قدّس تربها الإسراءُ

كانت الساعة تشير إلى (1.45) من ظهر الثلاثاء الموافق 2001/7/31م حين كان مدير المركز الفلسطيني للدراسات والإعلام (فهيم دوابشة) قد فرغ من إعداد مستلزمات المؤتمر الصحفي الذي عقده الشهيدان جمال سليم وجمال منصور عضوا القيادة السياسية لحركة المقاومة الإسلامية حماس في المركز للإدلاء بتصريحات تتعلق بموقف القادة السياسيين في حماس من اعتقال السلطة الفلسطينية للعميل المدبر لجريمة اغتيال الشهيد القائد صلاح الدين دروزة قبل أسبوع واحد، بينما كان الصحفيان محمد البيشاوي وعثمان

قطناني أول الواصلين لحضور المؤتمر واجتمع شمل الخمسة والحارس الأمين للشيخين عمر منصور في مكتب أبي بكر.

أطلقت طائرة أباتشي صهيونية صواريخ حقدها تجاه المكتب لترتفع أرواح الشهداء الستة إلى باريها مع طائرين من طيور الجنة كانا يتمشيان قرب المركز فطالتهما الشظايا وفتّتت أجسادهم الغضّة. ومع إصابة هذه الصواريخ أجساد القادة الجمالين ومن معهما وإزهاقها أرواح المجاهدين الستة كانت هذه الصواريخ تهز كيان كل فلسطيني في الوطن والشتات.

أصدرت يومها حركة حماس بياناً، وذلك بعد ارتكاب المجزرة، أعلنت فيه أن ردها لن يطول، ولن يكون كالمعتاد، وكان المجتمع الصهيوني، يعيش أسوأ أيام حياته في انتظار الثأر.

وفي تاريخ 2001/8/11م، نفّذ الاستشهادي عز الدين المصري أقوى ردود الحركة على استشهاد قادتها وأساتذتها، حين فجّر حزامه الناسف في مطعم (سبارو)، ليهز أمن كيانهم المسخ، ويجبرهم على الاعتراف بفشلهم، وليوقع بهذه العملية 21 قتيلاً صهيونيًا، وليجعل من القدس الموعد المنتظر، والكابوس الذي يطارد المحتلين.

(أيها الناس إن قطعة الذهب قد تسقط في الوحل فيصيبها الأذى ولكنها تبقى ذهبًا والصفيح ليس كالذهب والشر ليس كالخير، والليل الأسود البهيم ليس كالضحى المشرق المضيء. واليهودي ليس كالمسلم ولو وضعت في يده أموال الدنيا ولو جمع في مخازنه أسلحة الدنيا، ولو وقفت وراءه أقوى دولة في الدنيا).

ولقد صدق الشيخ علي الطنطاوي بكلماته تلك إذ قتلانا إلى الجنة وقتلاهم إلى النار، واختلاف موازين القوى لن يغير من الحقائق التي أحقها الله، والشهداء في حياتهم وموتهم يرابطون على صواب الفكرة؛ لذا كان اسمهم ولقبهم شهداء الله!

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

محمود أبو هنّود

1967م - 2001م



يا ربّ أسألك موتةً في سبيلك
تشفي بها صدور المسلمين
وتغيظ بها قلوب الكافرين
وتسيء بها وجوه المنافقين
والمتخاذلين.





محمود أبو هنّود قمر أبيض من أقمار فلسطين، وقائد أخضر العينين علمنا كيف نتلو سورة النصر ونقطف العزة من بين يديه...كان محمود أبو هنّود مثل فارس ثائر يعرف كيف يصعد إلى السماء كل ليلة ببندقيته التي يقوم بها الليل، ويعتكف معها رباطًا في ذرى الجبال. كانت السهول والتلال والجبال تختزن خطوات محمود في مطاردته التي اتسعت سنوات سبعاً كانت تؤويه وتأنس به وتزاور في حرها وصقيعها عنه ليل نهار.

تاريخ محمود هو تاريخ أسطورة فلسطين الذي أذاق اليهود ويلات في وضح النهار وظلت عين العناية الإلهية تحرسه وتحميه حتى يؤدي باقي المهام.

محمود قصة الشاب الذي ظل على موعد مع الحور العين، وأبى أن يتزوج لأن عينه كانت على أفراح الفردوس الأعلى. أمير اختار قدره بعناية، واختار يوم زفافه بعناية!

يشع الفردوس للفرح الآتي ببهجة أبدية. يُشمُ التاريخ في عطورهم، يصغي الأزل إلى حكاية حزينة من عذابات صارت فرحًا. يتوقف شلال الحياة أمام توهج الأرواح الجليلة. إن تلك اللحظات في الفردوس كافية لأن تكنس الأرض كلها من تحت كل الصابرين والمتفانين وتبقيها في الذاكرة المنسية!



ولقد كان محمود أبو هنود العريس الذي انتظرته كل صبايا عمره، ولكنه انتظر الشهادة عروسًا لا بديل عنها. كانت أمه كلما أثقلت عليه برغبتها في زواجه يقترب منها باسمًا ويقول: «لك من الأولاد الذكور سبعة ألا تعطين الله واحداً!».

هكذا إذن للشهادة نية مسبقة، وكلما علت الدقة في قلبك جذبت الشهادة إليك. فتعلن للدنيا كلها أن عرسك قد دقت طبوله، والسماء أضاءت أنوارها لك، والحور تزينت لاستقبالك، الشهادة عزيزة جدًا لا تذهب إلا لمن يغازلها ويقدم مهرها، ولقد كان محمود طوال سنوات عمره قابضًا على المهر بعناية، قابضًا على بندقيته دون تراخ! قابضًا على أمنية دافئة عذبة، أمنية الشهادة!



الهوية الشخصية

محمود محمد أحمد أبو هنود، صاحب لقب (صاحب الأرواح السبعة). ولد الشهيد البطل في 1967/07/01م، في قرية عصيرة الشمالية قضاء نابلس. وحين بُشر الجد به قال بلهجة عامية:«اللّه يعينه على مقارعة اليهود»، سمع الأب هذه العبارة من الجد فانطلق مهرولاً نحو زوجته وأخبرها بما دار، وهو لا يستطيع منع نفسه من التساؤل: كيف يقول هذا الكلام ومحمود ما زال عمره ساعات؟!...لكن الأيام أثبتت فراسة الجد حيث أصبح محمود من أشد « المقارعين» للاحتلال، بل ذاق الاحتلال الصهيوني على يديه ويلات وويلات.

نشأ محمود في أسرة متدينة معروفة بتدينها ومحافظتها المميزة وله ستة أشقاء. لم يكن محمود طفلاً عاديًا، بل تميز كثيرًا عن إخوته ورفاقه، حيث لم يمارس محمود ألعاب الأطفال العادية، بل كان دائما يختار ألعابه بطريقة ملفتة. فلعبته المفضلة هي أن يقود المعارك، وينظم رفاقه في الشارع حتى كأنه فطر على القيادة وملك خصالها! كان يصنع أهدافًا من خامات البيئة البسيطة من حوله، ويصوب نحوها فيصيبها بكل دقة، وحسب أقرانه، فإن محمود كان يحب أن يلعب دور الطفل المحارب حيث كان يصوب بندقيته البلاستيكية عليهم ويلاحقهم في حقول الزيتون الممتدة في الجبال المحيطة بالقرية، ولطالما سمع صوته عاليًا في فناء البيت وهو يصرخ بعد انتهاء اللعب شهيد لقد استشهد محمود!

ما أعجب حكايات الوطن تشعر معها كأن فلسطين تهرول في صغارها وتكبر القضية بأعمارهم. ويظل الأطفال سر فلسطين! هم الجمر المخبوء في حجر الوطن، تسمع أصواتهم في الحارات وما تدري أن قصيدة الوطن تغزل من ألعابهم... من ضحكاتهم... من أمنية صغيرة تكبر في حدقاتهم!

كان محمود منذ بواكير صباه متعلقًا بالمساجد دائم الصلة بها، ويفتخر والده بأن نجله محمود عشق التدين منذ نعومة أظافره، ويشهد له المقربون

أنه منذ بلوغه السادسة من عمره وهو حريص على صلاة الفجر في المسجد مع والده، ويصف أهل قريته أحوال قريتهم قبل أن يثب فيهم البطل ويؤجج حبهم لله قائلين: (كان الجميع نائمًا فأيقظ محمود عصيرة).

بواكير الغيث

يصفه والده: تميز منذ صغره عن أشقائه وأبناء جيله باهتمامه بقضية شعبه، فكان يمضي وقته في قراءة التاريخ، وخاصة تاريخ فلسطين، وفي حفظ القرآن والحديث النبوي الشريف، حتى أصبح من أكثر شباب القرية تمسكًا بالإسلام والوطن. وعندما اندلعت الانتفاضة الأولى كان في طليعة حملة لوائها والمشاركين بها. ومع انطلاقة حركة حماس كان أبو هنود من أوائل الشباب الذين حملوا لواءها».

لقد عكف محمود مبكرًا على القراءة من مكتبة كان قد أحضر كتبها عمه كامل أبو هنود الذي كان يدرس حينها في دمشق ونقل إليهم فكر سيد قطب ويوسف القرضاوي وكبار مفكري الإخوان المسلمين والمراجع المهمة في العلوم الشرعية والسيرة النبوية والتي تلقاها محمود بعناية شديدة والتهمها التهاما،حتى إنه كان يضع نفسه في مقابل حائط الغرفة الخشبية حتى لا ينشغل عن القراءة بشيء ويعكف على ذلك ساعات وساعات مما جعله متميزًا، وصاغه صياغة مبكرة، نضج بها نضوجًا صنع لأمته نهارًا طويلاً!

انعكست هذه الثقافة على سلوك محمود، وخلقت فيه حس الرسالة، فبدأ مع أطفال عصيرة الشمالية وأشبالها يعقد لهم الجلسات الدينية في حفظ القرآن الكريم، وجلسات الحديث عن أمور الدين، حتى ربى أجيالاً من المسلمين تعتز بهم عصيرة الشمالية وما حولها.

إن محمود هو مثل النموذج الواعي، هم المبصرون في طوفان النائمين وفي الأوساط التائهة وكما قال الكاتب البرتغالي جوزيه ساراماغو «ما أصعب أن يكون المرء مبصرًا في مجتمع أعمى» حيث يترتب على من امتلك الرؤية أن يشعل الطريق لمن تغمرهم العتمة، يترتب عليه أن يعقد جسورًا من القرابة والألفة والتفاهم والمشاركة اللغوية بين (جزيرة أهل الفكر) و(شاطئ الناس) الذين ابتعد كل منهما عن الآخر. ولقد سعى محمود أبو هنود بكل طاقته كي يحمل الناس من بحار الغفلة إلى شواطئ الفكر الواعي والمهام العليا والغايات النبيلة للحياة.

الدراسة العلمية

أكمل دراسته في جميع مراحلها في قريته حتى أنهى الثانوية، ثم التحق بكلية الدعوة وأصول الدين بالقدس المحتلة حيث حصل على شهادة البكالوريوس في الشريعة في شهر شباط فبراير عام 1995م، وكان من ابناء الكتلة الإسلامية، التي احتضنت الكثير من الشهداء. ولقد كان من المعروف عن محمود وسط أهله ورفاقه شدة اهتمامه بالعلوم الشرعية منذ صغره. وكان اختياره لدراسة الشريعة عن رغبة منه في الالتحاق بركب العلماء الربانيين والانضمام إلى مواكب حملة الرسالة المباركة.

ومما يشهد لمحمود أنه كان شديد العزيمة في دينه، أخذ الكتاب بقوة وسعى في إحياء معالم الدين في نفوس أهل قريته. كان محمود صاحب إيمان مبصر، إذ الإيمان أقسام كما قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-:«هناك إيمان ضرير لا يبصر الحياة ولا يبحث في أسرارها! هذا الإيمان يمكن أن تنسبه إلى أي مصدر غير القرآن الذي يخلق الإيمان البصير لا الضرير. وهناك إيمان جبان قاعد قد يفر إلى صومعة أو يحيا داخل قوقعة لا يجرؤ على الضرب في أرض ولا يستطيع مغالبة الأنواء. هذا الإيمان تستطيع أن تنسبه إلى أي مصدر إلا كتاب الله الذي

قذف بالمسلمين في كل فجّ. وهناك إيمان ذليل يعيش في كنف المبادئ الأخرى أو يعيش على الفتات الملقى منها، هذا الإيمان لا يستقيم مع منطق صاحب الرسالة الذي جعل اليد العليا خير من اليد السفلى وجعل المسلم يعطي ولا يأخذ يصلح ويتحرك في الأرض ويعلم أن له رسالة هي جزء من دينه وعقيدته وإيمانه !

وكنْ رجلاّ إنْ أتوا بَعدَه   يقولون مَرَ وهذا الأثر

سمات الشهيد

السمة الأولى: الطبيعة الخيرة

عهد عن الشهيد محمود أبو هنود مساعدة أهل قريته في الحصاد في المواسم وبدون أجر وكان يخرج للحصاد قرابة المغرب بعد أن ينصرف أصحاب الأرض حتى لا يكلفهم طعاماً كإكرام للمساعدين في الحصاد، وكان يدعو الشباب للمشاركة وللمساعدة في ذلك.

كان أبعد ما يكون عن المشاكل والمنازعات بين الأقران، بل كان يسعى إلى الإصلاح بينهم وبكل صمت وبدون رياء، وكان لا يحب الظهور، هادئ الطبع وصاحب خلق وأدب.

السمة الثانية: الرغبة في الخفاء

حين أبعد الشهيد البطل مع مجموعة من قيادات وخيرة حماس إلى مرج الزهور عام 1992م في حادثة لا تنساها الذاكرة الجمعية لأبناء فلسطين كان محمود -رحمه الله- شديد الحرص على عدم الظهور أو لفت نظر الصحفيين إليه وكان دائم الخدمة في الأعمال المتعلقة بالمخيم والبعيدة تمامًا عن الأضواء ولقطات الكاميرا!

يصفه الأستاذ عبد الخالق النتشة ممثل حماس في محافظة الخليل حيث جمعته المحنة معه في مخيم مرج الزهور في جنوب لبنان قال: لقد كان أبو هنود -رحمه الله- جنديًا مجهولاً لا يحب الظهور، هادئ الطبع وصاحب خلق وأدب جم، وكان نعم الشاب الملتزم بدعوته، الغيور على دينه، كل من عرفه أحبه لمجرد رؤيته، ولقد كان تاليًا للقرآن محافظًا عليه، ثم أصبح مجاهدًا باع روحه وهي أغلى ما يملكه المرء دفاعًا عن دينه ووطنه المسلوب.

هم الرجال فعيب أن يقال لمنْ لم يتصف بمعاني وصفهم رجلُ

لقد صدق السلف يوم قالوا: «فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه فالله الله في إصلاح السرائر فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح الظاهر»، وهذا الذي نراه في سير الشهداء من جمال ذكرهم وإلقاء القبول لهم في قلوب الناس، وما ذلك إلا بسر الإخلاص. وكما قال ابن تيمية: «إذا حسنت السرائر أصلح الله الظواهر وسدد الأعمال ووفق في المآل».

السمة الثالثة: شجاعة نادرة

كان الشهيد كما وصفه رفاقه رجل المواقف، قوي العزيمة، ويُعرف بالتقوى، والخشية من الله، وحب القرآن الكريم، وغالبًا ما ينام بين الصخور والمصحف بين يديه.

كان محمود بقلب أسد لا يهاب ولا يتردد فإذا مضى فلا يلتفت إلى الوراء، وكان -رحمه الله- سريع القرار خفيف الحركة. وخلال إحدى المواجهات التي شهدتها عصيرة الشمالية عام 1988م أصيب محمود إصابة بالغة في الكبد والطحال والرئتين أدت إلى استئصال 25 % من كبده، ومنع جنود الاحتلال سيارة الإسعاف من نقله، وتقدم نحوه جندي صهيوني وداس بقدمه على رأسه وقال: لازم تموت، فرد محمود: «إذا كان لي عُمرٌ فسوف أعيش رغمًا عن أنفك! ثم بصق في وجه الجندي الإسرائيلي ودفعه جانبًا».

يقول عنه الجنرال (إسحاق إيتان) قائد المنطقة الوسطى في جيش الاحتلال الإسرائيلي وذلك في تعليقه على عملية الاغتيال للشهيد: «انه الصيد الثمين الذي طالما بحثنا عنه في كل بقعة من بقاع الضفة الغربية، انه الكابوس الذي أقلق مضاجعنا ردحًا من الزمن، لقد كان تصفية هذا الرجل هو إنجاز حقيقي لجهاز المخابرات والجيش الإسرائيلي، انه يكاد أن يكون الإنجاز الأكبر لنا منذ أن اندلعت الانتفاضة. !!»

أما (جدعون عيزار) نائب وزير الأمن الداخلي الصهيوني والذي شغل في السابق منصب نائب مدير المخابرات الإسرائيلية العامة «الشاباك» قال: «حتى بعد قتل أبو الهنود، فان الحديث يدور عن قائد ميداني من الطراز الأول، شاب يمثل زخم الوطنية الفلسطينية في العصر الحديث، شاب يمثل الرفض الفلسطيني المطلق والنهائي للوجود اليهودي بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط».

وأضاف «أنه قد اوهن جهاز المخابرات الإسرائيلية العامة الذي خصص الكثير من المال والجهد من أجل إلقاء القبض عليه أو قتله، وعدد «عيزرا» محاولات تصفيته أو إلقاء القبض عليه، وحسب «عيزرا» فإن المخابرات الصهيونية وحتى عملية عصيرة الشمالية في صيف العام 2000م، قامت بخمس محاولات لإلقاء القبض عليه، لكنه نجح في الفرار في اللحظة الأخيرة، وفي العصيرة الشمالية نجا أبو الهنود بأعجوبة تقترب من الخيال، ويضيف «عيزرا» لقد حشدنا له خيرة وحداتنا الخاصة التي تعد بالمئات لإلقاء القبض عليه، أو قتله، لم يكن لدى قادة الجيش أي شك في أن أبا هنود سيلقى القبض عليه وفي أسوأ الأحوال سيقتل في نهاية هذه العملية، لكن بدلاً من ذلك فاذا به يقتل ثلاثة من خيرة جنودنا ويجرح عددا آخر ويهرب».

ويواصل عيزرا حديثه عن قصة المخابرات الإسرائيلية مع أبي الهنود، حيث يشير أنه بعد أن ألقت السلطة الفلسطينية القبض عليه وأودعته السجن في نابلس لم يكن هناك أي شك في أنه آجلاً أو عاجلاً، فإن إسرائيل ستطاله في السجن، فقط كان الأمر يحتاج إلى مبرر أمام العالم، وبعد عملية الخضيرة

الاستشهادية التي قام بها الجهاز العسكري لحركة حماس، فقد كان الأمر مناسبًا حسب عيزرا لقصف سجن جنيد الذي كان يتواجد فيه أبو هنود، لكن هذه المرة نجا من محاولة التصفية بشكل أسطوري على حد تعبير عيزرا.

ولعل الناظر في سيرة الشهيد يدرك أن ثمة توفيقاً وتأييداً وعوناً من الله أوتيه وأن الله رعاه وقواه وأعانه بصدقه فيما بينه وبين الله، وكما قال الإمام ابن القيم:«وعلى قدر نية العبد وهمّته ومراده ورغبته يكون توفيق الله له وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم»!

أهم الإنجازات المباركة

يقول الرئيس البوسني السابق علي عزت بيغوفتش:« إما أن تغير وإما أن تستسلم للتغيير» إما أن تكون أنت قدر الله في الأرض وستار قدرته وبصمة الأثر المدوي، أو أن تمر عليك رياح الحياة فتشكلك كيفما تريد. ولقد قالها شاعر الإسلام محمد إقبال:«يتعلل المؤمن الضعيف بقضاء الله وقدره والمؤمن القوي هو قضاء الله وقدره»!

ولعل استطلاعًا سريعًا لأهم الإنجازات التي قدمها محمود في حياته التي عاشها بين السجن والمطاردة، لتكشف عن أنه كان من أولي العزم في تغيير الأوضاع القائمة من الذل والاستسلام والتصالح مع العدو، فقد سجل له الكثير من العمليات التي تنسب المسؤولية فيها إلى خلية أبي هنود ومنها:

- نوفمبر 1995م: إطلاق نار باتجاه سيارة أحد حاخامات المستوطنين المتطرفين قرب مستوطنة «كوخاف يعقوب»، وهو ما أدى لإصابة الحاخام بجروح.
- ديسمبر 1995م: إطلاق نار باتجاه سيارة عسكرية إسرائيلية قرب وادي الباذان «شرق نابلس» من دون وقوع إصابات.
- مايو 1996م: إطلاق نار على حافلة مستوطنين في مستوطنة بيت إيل، وهو ما أسفر عن مقتل مستوطن وإصابة 3 آخرين بجروح.

- مايو 1996م: إطلاق نار على سيارة عسكرية لقوات الاحتلال في جبل عيبال قرب نابلس، وهو ما أدى إلى جرح ضابط إسرائيلي بجروح طفيفة.
- إبريل 1997م: التخطيط لعملية استشهادية في المركز التجاري الرئيس وسط القدس الغربية، أسفرت العملية عن مقتل خمسة إسرائيليين، وجرح حوالي 169 آخرين.
- مايو 1997م: إطلاق نار على سيارة إسرائيلية قرب مستوطنة (ألون موريه) من دون وقوع إصابات.
- يوليو 1997م: تفجير عبوة ناسفة –جانبية–ضد سيارة جيب تابعة لقوات حرس الحدود الإسرائيلية على الطريق المؤدي لـ «مسجد النبي يوسف» في مدينة نابلس، أسفرت عن إصابة جنديين إسرائيليين بجروح.
- يوليو 1997م: خطط لعملية تفجير استشهادية مزدوجة في سوق (محانيه يهودا) في القدس الغربية، أسفرت عن مقتل 16 إسرائيليا وإصابة آخرين بجروح مختلفة.
- يوليو 1997م: خطط لتنفيذ عملية تفجير استشهادية «مزدوجة» في شارع (بن يهودا)، أسفرت عن مقتل 5 إسرائيليين وإصابة أكثر من 120 بجروح.
- نوفمبر 1997م: محاولة اختطاف جندي إسرائيلي لم يكتب لها النجاح.

ومما يجب أن يسجل إحقاقًا للحق و عبرة للجميع أن الظل الخفي الذي كان يرعى هذا المجاهد ويحفظ له سره و يعينه في تحقيق جهاده كان والده -رحمه الله-، فقد كان محمود يأتمن والده طوال سنوات المطاردة والتخطيط للعمليات على مكان اختبائه هو وإخوانه المجاهدين، وقد كان والده يختار الأوقات الصيفية الحارة أو الشتائية الممطرة فيتحرك فيها ليجلب لهم الطعام حتى يكون بعيدًا عن أعين اليهود وكان -رحمه الله- يتحرك في الأوقات العادية حاملاً لهم الزاد فيقطع مسافات ملتوية تكلفه ساعات من المشي حتى يضلل عين العدو ولطالما كان سببًا في حفظ أرواحهم بحفظه للسر وصبره على المشي

في جبال فلسطين حتى يظنه المراقب أنه يرعى ليس إلا وكان ذلك من شدة حبه للجهاد ورغبته في تحقيق غاية المجاهدين، ولم يدر أحد من أهل بيته بكل ذلك إلا بعد استشهاد محمود -رحمه الله- وتقبلهم أجمعين.

الموعد الشهادة

(إن حياة الإنسان لا تقاس بطول السنين، بل بعرض الأحداث) كما قال الشيخ علي الطنطاوي، ولقد كانت حياة محمود حكاية ألهمت الشباب من ورائه وزرعت المعاني العظيمة في قلوب من ترقبته أعينهم وتعلقت به قلوبهم، وكان يوم اغتياله يوم بعث لبقية القساميين والشباب الذين يبحثون عن السبيل كان في شهادته إمامًا كما كان إمامًا وقدوة ونجمًا هاديًا في حياته وعمره الجميل.

تعرض محمود خلال سبع سنوات من الملاحقة الدؤوبة لعدة محاولات اغتيال فاشلة، وفي مساء يوم الجمعة المبارك 2001/11/23م، كان محمود مع موعد مع المحطة الأخيرة في رحلة جهاد طويلة، فبينما كان ينتقل في سيارة (فان) مع مساعديه أيمن ومأمون في بلدة ياصيد قرب نابلس كان الاحتلال قد أعد له كمينًا محكمًا، حيث استهدفته المروحيات الصهيونية بخمسة صواريخ أصابت السيارة التي كان يستقلها وأدت إلى مقتل الشقيقين مأمون وأيمن، وتمكن محمود من القفز من السيارة، فطاردته الأباتشي بالرصاص والصواريخ.

الثائر الموقدُ من نار.. كالصباح أنار.. ضُربت عليه ألف زوبعة. وسحابة سوداء كالقار.

نعم لقد احتاج العدو الصهيوني إلى ألف زوبعة من السلاح الغاشم كي يقضي على هذه الأسطورة الجليلة! يقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الأجسام

وحسب رواية سيدة تسكن في بيت لا يبعد عن الموقع سوى بضعة عشرات من الأمتار، «فقد لاحقت المروحية أبو هنود، وأطلقت عليه صاروخًا أصابه مباشرة،

ثم فتحت النيران عليه من سلاح رشاش». وقالت السيدة التي فضلت عدم ذكر اسمها:«لقد شاهدت رجلاً يلبس قمبازاً وهو يركض في العراء، وشاهدت الطائرة تطلق عليه صاروخًا ثم تتبعه بعدة رشقات من الرصاص».

وقالت السيدة، وهي في الخمسين من عمرها، بـ «أن المروحية ظلت تقوم بأعمال تمشيط في المنطقة وهي تطلق رشقات من الرصاص من حين لآخر، لحوالي نصف ساعة، وقد غادرت، على ما يبدو، بعد أن تحققت من مقتل أبي هنود».

ولأن الهدف بحجم أبو هنود، حرص العدو على تصوير عملية الاغتيال، وظهر الشهيد وهو يقفز بين التلال أثناء المطاردة قبل أن يصيبه صاروخ على بعد حوالي مئتي متر من مكان السيارة ويمزق أشلاءه، ونقلت الاشلاء إلى المستشفى في سلة صغيرة حيث لم يبق من آثارها شيء، حيث كشف مدير مستشفى جنين أنه أصيب بصاروخ متفجر مزقه بشكل كامل. وبعد سلسله اتصالات وتدقيق أعلنت حماس أن هذه الجثة لأبي هنود.

ولشدة فرحتها سارعت رئاسة حكومة العدو إلى إعلان مسؤوليتها عن الاغتيال واصفة ما حصل بأنه «أحد أبرز انتصارات إسرائيل في حربها ضد الإرهاب». وقالت:إن «أبو هنود» أحد أكثر الإرهابيين خطورة، بل أنه الأشد خطرًا على الإطلاق. وكان على رأس اللوائح التي سلمت إلى السلطة الفلسطينية، وكنا نلاحقه منذ وقت طويل وحتى قبل بدء الانتفاضة».

فور انتشار النبأ خرجت جنين عن بكرة أبيها لوداع القائد ومساعديه، ولتتحول المسيرة الجماهيرية الحاشدة التي لم تشهد جنين مثلها إلى تظاهرة غاضبه ضد الاحتلال وجرائمه، وللتأكيد على الوحدة الوطنية والتمسك بعهد الشهداء.

شارك في المسيرة أكثر من خمسين ألف شخص، انطلقت من المستشفى الحكومي، حيث وضع الشهداء في صناديق سجيت بأعلام حركة حماس فيما تعالت الهتافات الغاضبة التي توعدت بالرد على الجريمة النكراء وتعهدت باستمرار مسيرة المقاومة والجهاد على درب أبي هنود، كما دعت «كتائب القسام» و«سرايا القدس» و«كتائب الأقصى» لردٍ فوري في العفولة والخضيرة.

وفيما امتلأت الشوارع بالمشيعين اصطف المئات على امتداد الشارع الرئيس الذي سلكته المسيرة كما تجمهر المئات فوق المنازل والعمارات مرددين الهتافات ذاتها. وتقدم الموكب مقاتلو «كتائب شهداء القسام» الذين أطلقوا النار في الهواء تحية للشهداء.

في ذلك اليوم بكت عصيرة الشمالية وأبناء شعب فلسطين أسطورة أرعبت اليهود طويلاً، وقالت والدته الكريمة: «الحمد لله الذي شرفني باستشهاده، الله يرضى عليه وييسر أمره، كان له سنوات يطلب الشهادة، ولم يمُت خسيسًا وعمل كل ما في جهده، والذي آلمني أن محمودا راح اغتيالاً، فكنت أتمنى أن يستشهد في مواجهة حقيقية مع جنود الاحتلال، الذين واجهوه ثلاث مرات وخرجوا خاسرين ومكسوفين، إن ابني مات شهيدًا، وهذا الأمر يكفي».

ويقول والده الحاج أبو أحمد: «إن هذه الميتة مشرفة، وكان يسعى محمود لها، حتى يلحق بربه شهيدًا». كما يدعوه للفخر والاعتزاز أن محمودًا سبقه للجنة، وأنه استُشهد ولم يتمكن الإسرائيليون من لمس جسده كما كان يتمنى. فلقد كان محمود يكره الضيم ويسأل الله دومًا ألا يمكن أحداً من سجنه!

قال عنه الدكتور «عبد العزيز الرنتيسي» الناطق الإعلامي باسم حركة حماس: إن «أبو هنود» قد استشهد في عملية الاغتيال التي وقعت شمال الضفة الغربية، وشدَّد الرنتيسي على أن الصهاينة لا يمكن لهم أن يصلوا إلى «أبو هنود» وحدهم، ولكنْ هناك أيادٍ قذرة يعلمها الشعب الفلسطيني شاركت في عملية الاغتيال.

ونقلت الإذاعة الصهيونية باللغة العبرية عن مصدر كبير في وزارة الدفاع الصهيوني قوله: إن التجربة قد أثبتت بشكل لا يدع مجالا للشك أن الشعب الفلسطيني وسيما جمهور حركة حماس سيكون دائمًا قادرًا على تحقيق المفاجآت في كل المجالات خصوصًا في العمل العسكري، وأضاف كلما رفعنا كؤوس الشمبانيا احتفاء بتصفية هذا الزعيم من حماس أو ذاك تبين لنا كم

نحن مخطئون، إذ أنه في كل مرة تتم فيه تصفية قيادي من حماس، فإنه يصعد من خلفه العشرات، إن لم يكن المئات، وحسب المصدر الإسرائيلي فإن على الجمهور الصهيوني أن يعي أن المعركة الدائرة حاليًا مع الشعب الفلسطيني لن تنته بتصفية أي قائد مهما كان مؤثرًا، مشددًا على أن كثيرًا ما يحدث العكس حيث أن تصفية القادة العسكريين ذوي الحضور الكاريزماتي، وإن كان له تأثير إيجابي في بادئ الأمر، فإنه يشكل في النهاية دافعاً للكثير من الفلسطينيين أن يسلكوا طريقهم.

علق (يوسي بيلين) الوزير السابق في حكومة باراك وأحد قادة حزب العمل: «إننا لم نفعل سوى أننا زدنا من شهيتهم للانتقام، ونحن سنتحمل المسؤولية عما سيحدث الآن».

وداعًا يا محمود. وداعًا يا جنرال القسام، ويا قائد الكتائب الميمونة... وداعا وفي الجنة الملتقى، ربما نراك على يمين الحوض بهيًا كما كنت في الدنيا. ونبحث عن الشهداء في الزحام نود لو كنا نحن الأشلاء يوم اللحظة العاصفة، ونود لو كان عمرنا كله ثمنًا لمقام الشهداء يوم الجائزة!

ومما جاء في وصية الشهيد القائد «أبو هنود»

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه وصية قائد كتائب عز الدين القسام الشهيد محمود أبو هنود كتبت وقد أيقنت يوم كتابتي بأن يدي تفنى ويبقى كتابها، فإن عملتُ خيرًا ستجزى بمثله، و إن عملت شرًا عليها حسابها. وصيتي للناس عامة وللحركة الإسلامية خاصة.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه الخيّرين ومن تبعهم وسار على دربهم من المسلمين والمجاهدين بإحسان إلى يوم الدين: وبعد أيها المسلمون، يا أبناء شعبي الفلسطيني المجاهد الصابر.

إليكم جميعًا أوجه تحياتي، وإليكم أشواقي ومن أجلكم جل دعواتي، من أجلك يا فلسطين تطيب التضحيات، ومن أجلك يا قدس نستلذ الآلام ولعيونك يا أقصى ترخص النفوس والأرواح.

يا أبناء شعبي الحبيب: الثبات الثبات، والصبر الصبر، مزيدًا من التضحيات مزيدًا من الالتفاف حول راية الجهاد فمن طلب الحسناء لم يغله المهر، فأرضكم ومقدساتكم وأعراضكم لن يحميها ولن يذبّ عنها هجوم الأعادي إلا عزائم وهمم أبنائها وفتيانها النشامى الذين شمروا عن سواعدهم، ووهبوا أرواحهم رخيصة في سبيل عزة وكرامة ورفعة أمتهم ودينهم وشعبهم.

الحمد لله الذي أكرمني وتفضل عليّ بأن اختارني بأن أكون في صفوف خير الناس في صفوف المجاهدين. فالحمد لله ربي على نعمك وكرمك بأن جعلتني مجاهداً في سبيلك. وأسألك يا ربي موتةً في سبيلك تشفي بها صدور المسلمين وتغيظ بها قلوب الكافرين وتسيء بها وجوه المنافقين والمتخاذلين.

أخواني المسلمين: أوصيكم بتقوى الله، أوصيكم بالعودة إلى الله ونهج نبيه وسيرة صحبه المجاهدين الصالحين أوصيكم بالوحدة تحت راية الدين القويم والاعتصام بحبل الله المتين تستمدون من الله المعين النصرة وتلوذون بحماه وتلجئون إليه إذا ما داهمتكم الخطوب. صلوا وصوموا واعملوا بأوامر ربكم وقفوا عند نواهيه، واعملوا على تنشئة أولادكم وذراريكم على الإسلام وربوهم على القرآن وحب الرسول ﷺ وعشق الجهاد أبعدوهم عن كل أسباب الخنا والتعلق بالدنيا علموهم التمرد على الذل ورفض الواقع السيء.

اخفضوا الجناح لبعضكم البعض وأحبوا إخوانكم، وتعاونوا على البّر والتقوى وراقبوا أبناءكم واحموهم من كيد العملاء لهم، واحذروا إسقاطهم في مستنقعات الرذيلة والعمالة. طلقوا الدنيا وحبها الذي يورث الجبن. إياكم واليأس والقنوط من رحمة الله ونصره، ولا تستمعوا لصوت الجبناء والمتخاذلين والذين يخذلونكم ويهددونكم بقوة أمريكا وأوروبا. ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] .

أيها المسلمون: اعلموا أن ما أصاب أمتنا وشعبنا ما كان سببه إلا بعدنا عن منهج ربنا وهدي نبينا ولهثنا وراء الغرب تارة ووراء الشرق تارة أخرى، فما أورثنا ذلك وما زادنا إلا ذلاً واستعبادًا وفتكًا وفرقةً.

أما أنتم يا أبناء الحركة الإسلامية يا من اصطفاكم الله من بين خلقه؛ ليحقق بكم قدره وليجري أسبابه فيعيد على أيديكم قوة دينه ويعلي بكم رايته ويحقق بكم وعيده بإساءة وجوه بني إسرائيل، فمزيدًا من الرباط والثبات على نهجه.

يا أبناء الحركة الإسلامية تقدموا الصفوف واحملوا الرايات رايات الجهاد والدفاع عن حياض الدين والوطن، لا تتخاذلوا ولا تتولوا فيستبدل الله بكم خيرًا منكم.

وإليكم يا خيرة الخيرة في أرض الله يا من ترفعون راية الجهاد، ويا من تقدمون التضحيات، إلى قادتي وإخواني وأحبتي في كتائب القسام، شُرفت بالعمل معكم، عشنا الأيام معًا بحلوها ومرها،أخلصوا النيات لله وداوموا العمل من أجل دينكم ووطنكم، لا تجعلوا العدو يرتاح في كل موقع على أرض فلسطين ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:139-140]

استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه والسلام عليكم ورحمة الله

أخوكم الفقير إلى عفو الله ورحمته

أخوكم المحب محمود بن محمد أبو هنود

كتائب عز الدين القسام 2001/8/29م.

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم

سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

يوسف السركجي

1961م - 2002م



إن نهاية حياتى بيد اللّه ولا يملك أحد من الناس أن يضع لها حدا، لذلك لا يخيفني هذا التهديد، سأعمل حتى ألقى اللّه.





في حياة الشهداء والقادة والمجاهدين والمطاردين والسجناء الكثير مما لم يذكر، ومما لا ينتبه له حبر التاريخ، ترى من الذي يفهم كيف يعيش السجين أو المطارد، كيف يعد خطواته ويعيش يومه ويسمع صوت الساعة وهي تدق في عمره!

كيف يتلقى النهار كل يوم دون ألوان، دون شمس، ودون صوت الصباح!

هل جربت أن تعيش الليل والنهار خارج الطبيعة، خارج فطرة الحياة، أن تضبط يومك بالساعة وليس بتموجات الشمس وألوان الشفق وسكون الغسق مثل كل السجناء الذين قضوا سحابة أعمارهم في السجون!

هل تعرف كيف تصبح حياة أمك وأبيك وحبيبة القلب خبرا على ورقة عبر الصليب الأحمر، أو خبرا جافا يأتيك عبر أحدهم ليس فيه لغة العيون ولا دفء الأيدي الحميمة، يأتيك مهربا لأنك مطارد أو قائد ميداني، تتسلل الأيام من بين يدي المطارد أو كل من نذر نفسه للشهادة.

تمضي طفولة صغاره إلى غير رجعة، تهرب منه الكثير من التفاصيل الصغيرة التي تصنع زينة الحياة الدنيا، يكبرون خلفه، ويسمع حكاياتهم مثل الغرباء، وذات يوم يكتشف أن تجاعيد البعد ارتسمت



على وجه رفيقته، وأن الكثير من الحزن تحكيه عيناها الذابلتان، وابتسامتها الفاترة!.

ترى من يحسب فاتورة المجاهدين، من يكتب دقائقها، من يسجل تلك التفاصيل فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها لهم، من سوى الله!

نلتقط في نشرة الأخبار لحظة الشهادة لهم، تذهلنا وتوقفنا على قاماتهم العليا، ونتحدث عن إنجازاتهم القتالية، لكن لا أحد منا يجرؤ على العبور إلى التضحيات الحقيقية، إلى قرار الشهيد بمغادرة رحم الحياة الطبيعية، إلى لحظة انسحابه من فراش الأنس إلى حصباء الجهاد والعذاب، لحظة خلعه لمشاعره على عتبة الفداء وإغماض عينيه عن صورة صغاره، كم مرة يئن المجاهد في سجنه أو مطاردته أو قراره، كم مرة يشتهي قلبه لو كان طفله بين يديه، وكم مرة علمنا بذلك ؟، وحده الله كان هو الحسيب وكان هو الرقيب وكان هو السميع البصير وكان هو الذي بيده أن يمنحهم السكينة ويربط على قلوبهم كي تكتمل المسيرة.

سيبقى الجانب الإنساني في حياة هؤلاء العظماء مخفيا لم يكتب بعد، وحق له أن يعاش ويعرف فهذا بعض تضحياتهم التي تستحق أن تذكر في صحائف الإنسانية الخالدة.

أولاً: ميلاد روح

أشرقت شمس الثلاثين من أيار عام 1961 على جبل النار لتزف نبأ ميلاد يوسف ذلك الطفل الذي سيكون له فيما بعد مستقبل حافل بالجهاد وسيتولى لفترة من الزمن قيادة كتائب العز القسامية وسيكون قائدها وملهمها ومن خيرة رجالها.

نشأ يوسف السركجي (أبو طارق) في عائلة ملتزمة إذ تميزت سيرة حياته بإضاءات وملامح لا تنبثق إلا من شخصية تتجذر فيها الأخلاق الإسلامية السامية.

نشأ الشهيد وترعرع على هذه الأخلاق حيث كان التزامه بالإسلام مبكرا وفي حداثة سنه وكان ذلك منذ أن كان أربعة عشر ربيعا، حيث جعل من الإسلام منهجه وطريقه وكان من شدة حبه لدينه قد اتخذ من دراسة الشريعة الإسلامية وسيلة لإرواء عطشه وحبه لهذا الدين.

تلقى الشهيد تعليمه الأساسي والثانوي في مدارس نابلس، ثم درس البكالوريوس في الجامعة الأردنية في كلية الشريعة، وتتلمذ على أيدي علماء وقادة إسلاميين بارزين منهم الدكتور عبد الله عزام-رحمه الله-والأساتذة أحمد نوفل وفضل عباس، وآخرون إلا أن الشيخ عبد الله عزام كان له تأثير خاص لا يوازيه أي تأثير حيث تنفس معه حب الجهاد والاستشهاد وبقي متمسكا بهذا الإرث الذي ورثه من شيخه الجليل إلى أن لقي ربه. ونتيجة لنشاطه المبكر في جماعة الإخوان المسلمين في الأردن تعرض القائد السركجي لصنوف المضايقات والمساومات من قبل السلطات الأردنية والتي تجلت في حرمأنه من استلام شهادته الجامعية لعدة سنوات[1].

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=942653

إلا أنه لم يتوان بعد استلام شهادته عن إتمام دراسته فأكمل دراسته العليا وحصل على شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة النجاح الوطنية.

ثانياً: ميلاد الفكرة

نحن نحمل مسؤولية الكثير مما يجري حولنا، نحن نحمل مسؤولية الكثير مما نحصده اليوم، إذ كل ما هو من غرس صالح، أو بذر فاسد، أو رشد وصواب، فإنما هو سعي الأيام وجهد السنين، يبذلها العاملون، وما كان من ضياع وضلال، فإنما هو عجزنا !، إذ كما قال الله تعالى: ﴿مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165] التي تحسن أن تبلغ الفردوس ان شاء الله!!، ولقد ألف الفقيه السرخسي موسوعته الفقهية في بئر عاقبه فيه السلطان!!، و كتب ابن القيم كتابه زاد المعاد على ظهور الجمال، !!، هذه المعاني فقهها تماما رعيل التأسيس المبارك للقسام إذ نراهم يعملون بمسؤولية عالية مدركين أنهم أسباب التغيير وأقداره فهذا القائد الشهيد السركجي يعمل إماما وخطيبا في عدة مساجد قبل أن يستقر به المقام في مسجد السلام وهناك يعكف على تربية وتنشئة مجموعة من الشباب فيتربى على يديه جيل من الشباب الذي حمل هم دينه ووطنه وشعبه، وكانوا فيما بعد طلائع الخير والإصلاح فلقد كان ممن تلقى التربية على يديه القائدان جاسر سمارو ونسيم أبو الروس الذين كان لهما شرف مرافقته في سجنه ومطاردته واستشهاده.

ويذكر له حُب إخوانه وأقرانه التعلم منه والاستماع لأحاديثه التي كان يحرص على أن تكون بالفصحى، وكان حديثه ممتعا يزخر بالعلم وفنون التربية، وكان من شدة حرصه على العلم والتعلم ألا يفوتّ فرصة إلا ويغتنمها لنفسه ولغيره، وكلما أتيحت له فرصة السفر بمستهل حياته حرص على مقابلة الفقهاء والعلماء لينهل من علومهم، فكان ممن انفرد برواية حديث الرحمة المسلسل حيث أجازه بروايته أحد أعلام الحديث في السعودية.

صفات الشهيد الوضاءة

أولاً: علو الإنسانية

(لا يمكن لأي إنسان أن يصبح عالما بمعنى الكلمة من غير أن يصير قبل ذلك إنسانا بمعنى الكلمة)، الإنسانية قمة الروح لأنها طاقة الخير المنتصرة على طاقة المادة و على النزعة البهيمية المجبولة فينا، ولا يرقى إليها إلا من انتصرت روحه على جسده ولقد كان الشهيد كذلك فقد كان حسن العشرة لأهل بيته مستنا بسنة الرسول ﷺ فكان في خدمة أهله طالما توافر له الوقت والظرف، ويساعد زوجته في أعمال البيت ويشعر بإرهاق العمل والوظيفة التي تمارسها، فكان كلما تسنى له يطلب منها أن تنال قسطا من الراحة ريثما يعد الطعام بدلا عنها.

كذلك كان قريبا من أبنائه وبناته لا يبخل بوقته وجهده، يلاعبهم وينزل إلى مستواهم العمري، ومما يذكره عنه أهل بيته بهذا الخصوص أنه كان يرسل أثناء غيابه لابنته الصغرى صفاء شريطا مسجلا يحادثها به وينشد لها الأناشيد المحببة ويطلب إليها أن تردد معه وكأنه إلى جانبها، مما دفعها أن تتخذ هذا الأمر كعادة محببة حتى بعد استشهاده، ومما يؤلم صفاء ويؤرقها أنها لم تنعم بدفء وحنان والدها الشيخ الشهيد مدة كافية فهي تصف حياتها مع والدها بقولها: «أبي عاش معنا مشاهد وصور فقط». وأمنيتها أن تنام في حضنه في الجنة حتى تعوض ما فقدته في الدنيا مما تنعم به غيرها من فتيات جيلها، وهي في هذا كله محقة كل الحق، فصفاء وشهد وطارق ومعاذ أحبوا أباهم حباً عظيماً، حباً يتناسب مع حبه وعطفه وحنانه، فقد كان حليما صبورا متفهما يراعي أبناءه ويحل مشاكلهم بنفسه ويراعي مناسباتهم الخاصة العزيزة على قلبه ولم يكن ليبخل عليهم بشيء.

ومن شدة حبه لأبنائه وتعهده لشؤونهم أنه وفي أثناء أيام اختفائه وعيشته الطويلة مطاردا، كان يمتلك منظارا فيحمله ويذهب إلى بقعة تواجه منطقة سكناهم فيراقبهم أثناء مغادرتهم لمدارسهم ويكحل عيناه برؤيتهم ولو عن بعد، وفي يوم شديد المطر اتصل ليرسل إليهم سيارة أجرة لتنقلهم إلى مدارسهم، فقد كان غائبا حاضرا بروحه وقلبه وتفكيره!

مثل هذه المعلومات ترفض المحاولة لتحرير التاريخ، تحريره من المشاعر والأحاسيس، محاولة أن تؤدي الأقلام دوراً محايداً كما تريد أقسام التاريخ الأكاديمية، محاولة إيجاد أقلام تكتب بلا نبض، بلا تصوير للحظات الإنسانية، لالتقاط دمعة الإنسان وآهته وزفرة الشوق فيه، وذلك مما لا يجب أن ينسى أو يغفل عنه، ونحن نوثق لتاريخ المقاومة التي حمت الأمة وصنعت سياجها!

ثانياً: رُقي خلقي

كان الإمام علي بن أبي طالب في كل معاركه يقول: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة على أن أعصي الله في نملة أسلبها لُب شعيرة ما فعلت)، كان يقاتل لأجل إحقاق الحق وليس لسلب الحق، وكان وهو في غبار معاركه لا تلتبس عليه الصورة والخطوط الفارقة بين مفاهيم الجهاد ومفاهيم الاستيلاء والظلم، لذا فإنك ترى في المجاهد صورتين، صورة الثائر الجبار للحق وصورة الشفوق الذي لا يقاوم أمام عيني أمه وصوت مظلوم في الساح، وقد كان الشهيد السركجي في ثوب علي بن أبي طالب إذ كان شديد الصبر، لا يشكو الألم، يعمل بصمت، شفوق على أهله وأسرته وإخوانه المجاهدين، ويؤثرهم ويقدم لهم أفضل ما يملك، أتاه أحد إخوانه المطاردين ذات يوم يطلب ما يلتحف به، إذ كان ينام بالعراء، فما تردد لحظة بأن يحمله فراشه الذي ينام عليه ويدفعه إليه، وكان أفضل ما لديه، وفى احدى المرات جاء فقير ذات يوم إلى بيته لم يذق اللحم منذ

مدة فتقاسم معه كل ما لديه في الثلاجة مناصفة، وكان رده دائما على من احتج على سلوكه هذا بترديده قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: 92]

ومن شدة حبه للناس كان يحس بألمهم ويقف إلى جانب أصحاب الحاجة حتى ممن لا يعرف، فقد كان يزور الجرحى بالمستشفيات في الانتفاضة الأولى، ويقلم أظافرهم ويقص شعورهم ويطعمهم بيديه ويشتري لهم المرطبات والحلوى، وكان هو المقاتل الذي أصاب دولة الاحتلال برهق وقلق وزلزال عميق!

ثالثاً: عطاء متدفق

كان رحمه الله يقبل قدم أمه إرضاءً لها، وكان في أيام إجازته في معتقل السلطة، حيث كان يسمح للمعتقلين أحيانا بالخروج وزيارة أهلهم لمدة يوم أو يومين، فكان يقضي إجازته مع والديه وإخوانه وأهله جميعا ولا يخصص زيارته لأهل بيته كما يفعل الآخرون، وكان في إجازاته يتصل هاتفيا مع إخوانه في الخارج ويدعوا لهم[1].

رابعاً: بلسم الجراح

ربما تبدو عظمة الغموض حين ترى البطل غير مبال بالعالم الخارجي وهم يعلقون مشنقته، تراه متدثرا بغطاء رحلته، ومعرضا عن الزمهرير في الخارج، تراه يعلن موقفه عبر ابتسامة الاستهزاء بكل القوى المحيطة به، يعلن قراره بالاستمرار في الرحلة عبر إغماض عينيه عن صوت العواء في الخارج وإطلاق صوته بمعزوفة الحق التي تستحق أن تسمع فقط، وتلك هي المسؤولية، وتلك هي ضريبة العظمة.

1- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=942653

ولقد كان الشهداء القادة يدركون ذلك فظلوا مرابطين على يقظة الروح الجميلة فيهم، وكان السركجي منهم إذ وُصف من جميع من عاصروه في كل الظروف والأحوال القاهرة أنه كان شخصية مرحة، وصاحب نكتة وكان لوجوده بين إخوانه المبعدين نكهة خاصة طيبت لهم تلك الأجواء القاسية ببرودتها وخشونتها ووحشتها، فقد كان صاحب روح دعابية مرحة، وكان شديد الحنان والحب والدفء لإخوانه، وكان شديد الإيثار ومحباً لخدمة الآخرين، كان معروفا بحبه وإتقانه لفنون الطهي، وكانت لأطباقه النابلسية الشهية دوراً في تخفيف المعاناة وإدخال السرور والبهجة على نفوس أصحابه وإخوانه المبعدين.

وللشهيد طرائف جميلة وذكريات حبيبة في نفوس إخوانه ومن ذلك أنه ذات يوم احتفل فيه معسكر الإبعاد بأكمله لوصول حذاء يناسب مقاس قدمه حيث أوصله أحد الصحفيين بعد عناء، حيث أن الشيخ قد عرف بجسامته وضخامة حجمه وطوله، مما جعل من مقاس حذائه مقاسا متميزا بكبره وكان طول رباط الحذاء يوازي طول رجل قصير.

وكذلك من الدعابات التي سجلت بتاريخ الإبعاد أن أجريت مصارعة من نوع خاص بينه كأطول رجل بين المبعدين وبين الشيخ حسن يوسف –فرج الله عنه وفك أسره– حيث عرف عن الأخير بأنه أقصر الإخوة المبعدين.

خامساً: إيمان قوي، وإرادة كالصخر

يقول أهل الحكمة: «هيئ نفسك لتقبل التجارب فهي المدرسة الأخرى في الحياة، ففي تجربة الحياة المثيرة يتعلم الإنسان من حادثة الحياة ما يزيد أحياناً على ما ناله من علم الكتاب، فإذا عركتك الأيام، وأمكنك الانتصار على كثير من عوائق الزمان، فإن نَصْرك في الغالب يهديك السبيل إلى مزيد من دروس الانتصار».



وقديماً قالوا: «إن النجاح في معترك الأيام يترك لصاحبه علامات ترشده، كيف لا تتعثر قدماه!»

لقد كان المجاهدون يعيشون تجارب صنعت منهم نماذج فريدة فقد عاشوا في تجربة الإبعاد إلى مرج الزهور أياما في العراء وتحت البرد القارس لا يجدون ما يلتحفونه أو يقتاتونه، ومع هذا لم تفت هذه المعاناة القاسية من عضدهم ولم تجد طريقا لتنال من عزمهم، ولقد كان القائد السركجي معهم، وكان صاحب يقين عال، وثقة بقضاء الله وقدره وإرادته التي تهيمن على كل أمر، فكان في أيام المطاردة إذا لاقاه إخوانه مصادفة في مكان ما يتعرفون عليه بشدة ويذكرون أنه ما كان ينبغي أن يتواجد في ذاك المكان خوفا على حياته، فكان يرد عليهم «وما أدراكم فقد تسبقوني بالشهادة وقد يكتب لي من بعدكم الحياة» وهذا ما كان فقد ودّع الكثير من أحبابه وأصدقاء دربه، فودع الجمالين وأبا هنود وأبا النور والكثيرين غيرهم.

وحين اعتقل أحد الأشخاص لدى الاحتلال وفي أثناء التحقيق معه أخبروه أن السلطات تنوي قتل أو اعتقال الشيخ يوسف السركجي، ولما بلغ الخبر للشيخ كان رده: «إن نهاية حياته بيد الله ولا يملك أحد من الناس أن يضع لها حدا، لذلك لا يخيفني هذا الكلام»، وكان بدروسه ومواعظه وأحاديثه يشحذ إخوانه ويشحن هممهم ويتنقل بينهم ليرفع من معنوياتهم ويبقيهم دائما على أهبة الاستعداد.

لقد عاش أبو طارق حياة مليئة بمعاناة المجاهد الذي نذر نفسه فداء لدينه ووطنه، فكان له مع زنازين الاعتقال صولات وحكايات، حيث قدر له أن يعيش خلف قضبان المعتقلات الصهيونية من عام 1988م وحتى عام 1995م على فترات متقطعة تخللها سنة من الإبعاد في عام 1992م حيث كان ممن أبعدوا إلى مرج الزهور مع 417 من قادة وكوادر حركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي في لبنان.

واعتقل بعد الإبعاد في العام 1995م لدى الاحتلال الإسرائيلي في سجن عسقلان وعانى من المرض أثناء التحقيق ووصل لدرجة أقرب من الفشل الكلوي دعاها لإطلاق سراحه وإبعاده إلى غزة وبعد توسط لدى المحتلين من السلطة أعيد إلى نابلس بعد عدة أيام وأدخل إلى المستشفى وتم استئصال إحدى كليتيه.

واعتقل لدى سلطة حركة فتح أكثر من مرة على خلفية اعترافات من بعض الإخوة، كما عانى بشدة أثناء وجوده في التحقيق لدى السلطة وتدهورت صحته حتى كاد أن يموت من التعذيب كما ذكرت عائلته ونشرت الصحف الفلسطينية تقارير عن وضعه آنذاك.

أعيد للتحقيق أكثر من مرة لدى الأمن الوقائي في أريحا بعد نقله من سجن جنيد بنابلس وكان كلما اعتقل عنصر من كتائب القسام أعادوا الشيخ أبو طارق للتحقيق في أريحا ونابلس، ووجهت له تهم بالمسؤولية عن كتائب القسام في الضفة أثناء التحقيق[1].

وبقي بعدها لمدة ثلاثة أعوام ونصف في سجن جنيد في نابلس يتعرض للتحقيق المتواصل على يد جهاز الأمن الوقائي، ولعل سبب استشهاده في تلك المنطقة تحديدا «المعاجين» هو بسبب هروبه من أعين السلطة الفلسطينية التي نشطت في ملاحقته في الفترة الأخيرة[2].

1- https://ar.wikipedia.org/wiki
2- http://www.alqassam.ps/arabic

اختفى الشهيد عن الانظار إثر قصف الصهاينة الشهير لسجن في رام الله ليعيش مطاردا، وكان هذا منذ بداية شهر ايار2001 وحتى تاريخ استشهاده.

والحقيقة أن الاعتقال أثر في تأصيل دور هذا الشيخ المجاهد الفذّ، كما كان للإبعاد حيث اختص بتجربة سياسية وجهادية فريدة، وكان ممن حظي بفرصة ممارسة حياة نموذجية في مجتمع إسلامي نقي وفريد، مما أخرجهم من هذه المحنة بمكاسب ما كانوا ليدركوها لو لم يعيشوا هذه التجربة الفريدة.

ولا شك أن مأساة حياة الاعتقال والإبعاد والاختفاء كان لها عند أبي طارق وجه آخر لا يعرفه إلا من جرب وعاش هذا النوع من الحياة، فكما قال شيخ الاسلام ابن تيمية –رحمه اللّه-:«إن سجني خلوة ونفيي سياحة»، فقد أتيح لشيخنا المجاهد أبي طارق أن يزيد من علومه ومعرفته في السجن وان يوصل هذا العلم إلى تلامذته المخلصين، وأتيح له أن يدخل باب الجهاد الحقيقي ويأخذ دوره الفاعل فيه، فكان ما كان وما كشف عنه النقاب لاحقا وبعد أن نال منه أعداء اللّه والإنسانية حيث أعلنوا بعد اغتياله عن دوره المهم والبارز كقائد لكتائب الشهيد عز الدين القسام في الضفة الغربية.

سادساً: علو في الثبات

يقول فولتير:(إن التعذيب يهدر الكرامة الإنسانية، ليس فقط كرامة المتهم بل أيضاً كرامة الحاكم لأن هذا الأخير بتعذيبه إنساناً مثله يكون فاقداً معنى الإنسانية بكاملها)، نعم إن التعذيب هو فقد الحلقة التي تربط الإنسانية ببعضها البعض، فمع كل لحظة تعذيب نحن نفقد المزيد من إنسانيتنا التي تميزنا عن بقية الكائنات.

يقول المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش: (على خلاف الحيوانات وهبنا اللّه نحن البشر الخطو المنتصب والكثيرين لا يستثمرون هذا الامتياز إذ ينحنون

طوال الحياة أو يقرفصون أليس هذا رفضا كافراً لهذه الهبة الإلهية الكبيرة أن نسير باستقامة؟، إن هذا الإنهيار القيمي هو إنهيار في تميزنا البشري!

لقد كان الشهيد أثناء وجوده في غرفة التحقيق وأقبية الزنازين الصهيونية ثابتاً ثباتا يوحي لك بأنك ترى جبلا أو سلسلة من الجبال تستعصي على كل محاولات الهدم المنهجية لروحه وإنسانيته وقيمه وفكره، قال له المحقق:عليك اعترافات أنك مسؤول عن حماس في الضفة عليك اعترافات من الخليل ومن نابلس وجنين وطولكرم وكل مدن الضفة فعدل الشيخ جلسته وقال له: «صحيح فأنا يدي طويلة تصل لكل مكان وأشار بيده لصدر الضابط الذي ارتعد وعلم أنها رسالة تهديد له».

أرسل الشيخ يوسف رسالة إلى جندي من جنوده وهو الشهيد قيس عدوان يقول له فيها: (يا من تصنع الخبر العاجل هل من خبر عاجل).

كان الشهيد معروفا عنه أنه مستجاب الدعوة غالبا موصول بالله، فقد تعرض ذات مرة لظلم شديد في سجنه الانفرادي حيث منع من حقوقه ومن الخروج من زنزانته فدعا على سجانه بأن يقع عليه مثل ما يعانيه الشيخ فما لبث حتى استجاب الله دعوته وبات ذلك السجان من ليلته تلك سجين الفراش بغرفة العناية المكثفة بعد أن أصابته جلطة حادة، ومنع حتى أقرب أقربائه من زيارته، فما كان من بقية سجانيه إلا أن تحاشوا تحديه حتى لا يعرضوا أنفسهم لدعواته.

ولكنه لم يستخدم سلاحه هذا إلا ضد أعداء الله، أما إخوانه وبقية من عامله فما وجدوا منه إلا سماحة وطيبة ولينا ندر أن يوجد مثلها[1].

1- www.paldf.net/forum/showthread.php?t=942653

سابعاً: أشداء على الكفار رحماء بينهم

هذه الصفة في غاية التعقيد النفسي وهي أكثر ما يحير من يدرس الشخصيات إذ يجمع المجاهد بين صفتين في غاية التناقض الشدة على العدو والرحمة على المؤمنين وقد كان ذلك بينا في شخصية القائد الشهيد يوسف السركجي حيث جمع بين بساطة مظهره وهدوء سلوكه وبين بركان جهاد كان يغلي في داخله لا يدركه إلا من عمل مع الشيخ في ميدان الجهاد.

كان الشيخ يبذل جل وقته وجهده في رعاية المجاهدين، وكان دائم التحريض على تشديد الضربات ضد الاحتلال، بل كان يطالب الإخوة بتنفيذ عمليات ضخمة بواسطة السيارات المفخخة، فكان سقفه دائما أعلى من سقف الشباب.

يقول أحد رفقائه: رأيته بأمّ عيني يحضر الطعام لإخوانه في السجن ويجهز لهم فطورهم، كان يطعم إخوانه بيده يقول له: هذه من يدي ويعود ليطعم الأخ الآخر، يقولون له كل أنت يا شيخ فيرد عليهم: لا تخافوا عليّ ... ويعود يطعم الأخ الآخر ويستحلفه أن يقبلها من يده.

كان الشيخ دائم الاستعداد للشهادة، ويذكر إخوانه من حوله على ضرورة عقد النية والاستعداد للقاء الله في ساحة الجهاد، بل وطلب منهم أن يقوم بنفسه بتنفيذ عملية استشهادية.

جمع الشيخ -رحمه الله – في شخصيته بين الدعوة والتربية والسياسة والجهاد والحركة والتنظيم، وأبدع في كل ميدان وما تخلف يوماً عن نداء الواجب، فكانت حياته كلها لله، وكانت مقولته: «سأعمل حتى ألقى الله»[1]. وقد عمل بصدق حتى لقي الله وأدى الأمانة على أكمل وجه.

1- http://www.omamh.com/site/pages/details.aspx?itemid=12821

العائلة واسطة العقد في اهتمام القائد

لم تكن أعباء القائد الشهيد تنسيه خطورة لبنة الأسرة وأمانة الأبناء وقداسة العلاقة الزوجية ولقد سطر في ذلك أجمل الحكايات التي تستلهم في رعاية العائلة من قبل إنسان قضى عمره بين السجن والمطاردة والسعي للمقاومة، فهذه زوجة الشهيد يوسف السركجي تشهد له بالقول:أن زوجها كان مثالياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى على الرغم من أن الظروف لم تسمح له بممارسة حياته بشكل طبيعي.

وتضيف:كان الشيخ السركجي مهتماً بأهل بيته وصلة أرحامه وأقربائه بشكل كبير، حتى أن الناس كانوا يستغربون عندما كان يساعد زوجته في أمور المنزل حتى في أيام مطاردته من قوات الاحتلال، وتذكر أم طارق أنهم عندما نقلوا إلى منزل جديد خلال مطاردة الشيخ السركجي، فوجئت بزوجها يعود إلى المنزل الجديد من أجل مساعدتها في فرشه.

وتصف ابنة الشيخ الشهيد يوسف السركجي اللقاء الأخير مع والدها قبل استشهاده بثلاثة أيام حيث تقول:«كان يرمقني مع أخوتي بنظرات غريبة كأنه يودعنا، وضع يده علي كتفي وربت على بحنان، فأحسست في تلك اللحظة أن والدي ينظر إلينا للمرة الأخيرة في حياته».



وتضيف شهد أن والدها كان يرسل لها الرسائل بشكل متكرر خلال مطاردته، وتقول:«لم أكن أفهم كثيرا من المعاني والعبر في هذه الرسائل

لكني اليوم أدركت كثيرا منها، وأكتشف الجديد فيها كلما قرأتها لما فيها من دروس وعبر وعظات[1].

كما تصف صفاء(18) عاماً، وشهد (21) عاماً والدهما الشهيد يوسف بأنه كان أباً رائعاً ليس لأنه شهيد فقط بل لأنه كان كذلك في الحقيقة. وتذكران أنه كان يأتي أيام المطاردة ليلعب معهما الألعاب التي تفضلانها حيث كان ينزل لمستواهما من أجل إدخال السرور والمرح عليهما.

تقول «أم طارق» أن زوجها كان يعدها لهذه المرحلة –أي بعد الشهادة- للمهمات الثقيلة التي ستلقى على عاتقها، كان يقول لزوجته الصابرة المجاهدة «أم طارق»:لا تخافي من الفراق فلن يضيعك الله وأولادك، فلو اطلع العباد الصالحين على حالنا لأشفقوا علينا فكيف بالله سبحانه وتعالى !!».

تذكرة المعراج: الشهادة

يا دامــي العــينين والــكفــين، إن الليل زائل
لا غـرفة التوقيف بـاقية، ولا زرد السلاسل
نيرون مــات، ولم تمت روما بعينيها تقــاتل!
وحبوب سنبلة تموت، ستملأ الوادي سنابل.

وتلك هي الحقيقة الخالدة في ضمير الكون أن الحق هو الباقي وأن الشمس هي قدر الأرض وقدر البشرية وقدر الحياة والظلام زمن عابر.

حين خرج الشيخ السركجي من السجن جمع المجاهدين من جديد، تحت قيادته وحمل السلاح بشكل مباشر ليختفي عن الأنظار بصحبة إخوانه المجاهدين محمود أبو هنود ونسيم أبو الروس وجاسر سمارو ومهند الطاهر وكريم مفارجة، وغيرهم من المجاهدين لتنطلق من ثم كتائب القسام من جديد في مدينة نابلس، ولتمتد إلى مدن الضفة المحتلة وتهز أركان الكيان

1- http://www.abrrar.net

الصهيوني بسلسلة من العمليات النوعية حتى لقي الله شهيداً، مع إخوانه، في عملية اغتيال جبانة.

ففي نحو الثالثة من فجر الثاني والعشرين من يناير عام 2002م كانت نابلس على موعد مع مجزرة رهيبة، حيث كانت مجموعة من الوحدات الخاصة من جيش الاحتلال الإسرائيلي تتسلل إلى المدينة من جهة الشمال وتطوق شقة سكنية تقع في الدور الأرضي من بناية مؤلفة من تسع طبقات في شارع عصيرة في الجبل الشمالي يتواجد بداخلها أربعة من قادة كتائب الشهيد عز الدين القسام هم القائد «يوسف السركجي» و«نسيم أبو الروس» و«جاسر سمارو» و«كريم مفارجة»، وتتبعها بعد ذلك نحو عشر دبابات وناقلات جند من جهتين وتتخذ مواقع لها في محيط البناية، بدأ جنود الاحتلال بإطلاق القذائف الحارقة داخل الشقة قبل أن يقتحموها، ثم بدأوا بإطلاق النار على رؤوس الأربعة بعد الاقتحام، بغرض التأكد من قتلهم.

وبعد انسحاب القوات الصهيونية سارع الناس إلى مسرح الجريمة ليجدوا أربعة أجساد محترقة وقد مُثّل بها وأطلق الرصاص على رؤوسهم من مسافة قصيرة، وتعالت أصوات التكبير المنددة بالجريمة وخرج الألوف في مسيرة غاضبة تجوب شوارع المدينة مطالبة بالثأر العاجل فيما أصدرت حركة حماس بيانا مقتضبا نعت فيه القائد وإخوانه وتعهدت فيه بالنيل من كل عصابات الإجرام الصهيونية.

رحم الله الشهيد يوسف السركجي الذي كان أحد أبرز مؤسسي الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) بالضفة الغربية (كتائب الشهيد عز الدين القسام) والقائد السري للكتائب، وهو أول معتقل يبعد إلى غزة من الضفة الغربية[1].

رحم الله الشهيد رحمة واسعة وجمعه بأحبته في عليين وجعلنا
على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مفتونين

1- http://www.omamh.com/site/pages/details.aspx?itemid=26883



سيرة الشهيد القائد
صلاح شحادة

1952م - 2002م



«الجهاد أمر رباني» ولا نطلب إذن أحد لمواصلته، ولن نحيد حتى نلقى اللّه شهداء.





الأعمار الوافرة دومًا زاخرة مثل جرار يختبأ فيها الزيت العتيق لمواسم الشتاء فيتقد بالزيت دفء الفصول وتطمئن الحياة في سرها الأعمار الوافرة نادرة في سياق البشرية، ولكنها هي من تكتب عناوين الوجود البشري، وتمهد الطرقات للسائرين من الملايين.، الأعمار الوافرة هي يقظة نجوم اختارت أن تظل هادية واشتعلت؛ لأجل أن تكمل الإنسانية طريقها نحو الحق والعدالة والكرامة التي فطرت عليها البشرية.

الأعمار الوافرة غنية وثرية بمعان تحفظ للبقاء الإنساني معالمه من أن تنتثر تحت عجلات الظلم والمصالح الفاسدة، وتدفع ضريبة ذلك من عذاباتها وآلامها وتضحياتها وترضى أن تكون هي فداء المعاني الجليلة، الأعمار الوافرة تدق ساعتها بغير دقائق الناس، وتشير عقاربها إلى غير جهة الناس، وتمضي ساعاتها في مسرى لا تطيقه الناس؛ لأنها تدرك أن أعمارها الحقيقية تبدأ بعد عتبة الموت، ولقد كان القائد صلاح شحادة ممن بورك له في عمره وانتظم حاله في سلك (رُبَّ عُمْرٍ قليلة آماده كثيرة أمداده)، وإنما تبارك الأعمار بحسن الأعمال وقد كان ذلك في عمر الشهيد جليًا!



ولئن قال الشاعر:

ما العمرُ ما طالتْ به الدهورُ   العمرُ ما تمَّ به السرورُ

فلقد تم للقائد الشهيد صلاح شحادة سرور الخالدين بما قدم من سعي ومصابرة على أحب الأعمال إلى الله ﷻ ألا وهو الجهاد وتأسيس جيوش المراغمة للعدو، لقد كان صلاح شحادة يحيي كل يوم من أيامه كأنها أخر يوم فيما بقي له من عُمرٍ. وكان يتقن عبودية المراغمة.. التي تعني أن تُتعِبَ حزب الشيطان وقد أراد أن يستريح... أن تمسك بأوراق بقائك في ارتعاشة الخريف! أن توقف النواح وتجمع الأكفان وتعلن لحزب الشيطان أننا باقون ولن نموت!

عبودية المراغمة تعني أن تفاجئ الشيطان فتزرع الفسيلة في المقبرة!

وفي الأسطر القادمة بيان لسيرة تطل أيامها مثل حدائق لا تعرف الجدب، وتبدو سنواتها مثل ريح المسك الذي لا يغيب! صلاح شحادة سيرة قائد المسافة بيننا وبينه كأنها سنوات فلكية فقد ارتضى لنفسه علوًا سامقًا في هيبة ووقار تبدو كأنها هيبة المقامات التي تنتظر الشهداء في مقعد صدق في عليين.

زمن البداية

هو صلاح مصطفى محمد شحادة، أبو مصطفى ولقبه الذي طار في الآفاق (الرجل الكتيبة) أو (رجل القسام الأول). وقد كان لقبًا لا زيف فيه ولا بهتان إذ كتبت ألقابه بأفعالٍ سجل صداها في تاريخ الذاكرة الفلسطينية وتاريخ الحق الأزلي.

صلاح شحادة طفل فلسطيني امتلك من تاريخ النكبة نصيبًا في عمقه وجرت عليه رياح الاحتلال بسمومها وغبارها كما جرت على كل الجيل الذي عرف مذاق التهجير مرًّا، فقد نزحت أسرتُه إلى قطاع غزة من مدينة يافا بعد أن احتلتها العصابات الصهيونية عام 1948م حيث أقامت الأسرة في مخيم الشاطئ للاجئين الفلسطينيين، وفي هذا المخيم ولد صلاح شحادة يوم 24_فبراير 1952م، في مخيم صار له وطنا... ربما لم تكن جغرافيا المسافات تعني للمهاجر شيئًا لو كان الابتعاد في سبيل لقمة العيش أو رحلة الحياة الطبيعية ولكنها هجرة قسرية أرغمتهم على مذاق النكبة أولاً، ثم مذاق النكسة ثانيًا، وبينهما كانت طاحونة الاحتلال تسحق القمح، فلا تذره إلا هشيمًا! كانت العذابات من كل المذاقات تتحد عليهم في زمن الفرقة العربية. تصفر الريح حول الخيام كي تقتلعهم، فيزدادون قوة وتجذرًا في الوجدان البشري يكملون تعليمهم، وتطول قامة أبنائهم، وتشهد الحياة لهم أن الموت مات على أعتاب إرادتهم، وكان أولئك هم المهاجرين!

ولد صلاح شحادة في ظروف التشرد لكنه كان يحمل في طياته معنى الفرح إذ جاء هذا الطفل بعد خمسة عشر عامًا، وكان الابن الأول الذي رزق به والده بعد البنات، في سياق كان يرى الطفل الذكر بعضًا من معاني الرزق والعون للوالدين لغيب مجهول وحياة كُتِبَ الفقر على عناوينها، ثم رزق والديه من بعده بأخوين.

كان والداه يغدقان عليه الحنان ويخشيان عليه من نسمه الهواء، ولكنهم رغم ذلك علماه معنى الرجولة والإقدام منذ صغره، فتلك طبيعة الفلسطيني وفطرته التي فطر عليها.

في عام 1958م دخل صلاح المدرسة الابتدائية التابعة لوكالة الغوث وهو في سن الخامسة وذلك في مرحلة مبكرة من عمره، ودرس في بيت حانون المرحلة الإعدادية، ونال شهادة الثانوية العامة من مدرسة فلسطين في غزة، ولكنه لم يحصل على المجموع الذي يؤهله للحصول على منحة دراسية من وكاله الغوث لدراسة الطب بالجامعات المصرية، ولعدم القدرة على تكاليف الدراسة لم يكمل دراسته في هذا الاتجاه.

كان والد صلاح يتمنى أن يصبح ابنه طبيبًا، ولكن انشغال الشاب المبكّر بالاحتلال الإسرائيلي لقطاع غزه بعد حرب يونيو 1967م أثر على تحصيله العلمي. إذ لم يكن الشاب ليتجاوز الخامسة عشر من عمره حتى بدأ يخوض غمار المقاومة ويؤوي المجاهدين في بيارات بيت حانون، ويزودهم بالأكل والشرب خفية عن والده، ويرصد لهم الطرقات والمنافذ ويقدم الدعم اللوجستي، وهذا ما شهد به أخو القائد صلاح شحادة من أن العمل الفدائي كان قد استهوى قلب صلاح منذ بواكير شبابه وملك عليه تفكيره، حتى أنه فكر بالذهاب للبنان، في ظل غياب العمل العسكري للحركة الإسلامية آنذاك.

كان العالم يتنبأ أن (أيام الهجرة تطول والعمر ينتهي فجأةً هكذا كلحظة الانفجار وينتشر الدويّ). حتى كأن هؤلاء المهاجرين فتات خبز تتطاير مع عاصفة الاحتلال الهوجاء، ربما سترى بعضهم في عرض البحر أو في الجزر البعيدة أو على خارطة المنافي، ولكن لن يكونوا ذات يوم حقيقة ثقيلة لا يمكن تجاوزها، هكذا تنبأ العالم ذات يوم إلا أن جهود قلة رابطت على زناد الفكرة وألقت بثقل إيمانها في المعترك غيرت معادلات الصراع وجعلت من غزة والمخيمات خنادق

الدوامات التي ستطيح بمشاهد الصراع، فعندما انتقلت أسرة صلاح شحادة إلى مخيم الشاطئ في غزة بدأ الشاب مشواره بالالتزام بالإسلام الحركي والمفاهيم الجهادية من خلال التحاقه بالمسجد الذي كان الشيخ أحمد ياسين يقدم فيه دروسه وفيه ترعرع الشاب صلاح علي يد شيخه المجاهد، وستذكر الصحائف يوم القيامة أن الناس قدموا على ربهم بحسنات من ذكر وصلاة وقدم الشيخ أحمد ياسين بحسنات من بعضها صناعة قادة التحرير وشهداء المسرى، وبناء جيل كان محكوم عليه بالتيه!

بقي الشاب صلاح ملتزمًا بحضور دروس الشيخ، ولم ينقطع إلا بسبب مغادرة الأسرة من جديد إلى بلدة بيت حانون، حيث التحق بالمرحلة الثانوية ولم يكن قد تجاوز السابعة عشر من عمره.

زمن الصياغة والتشكل

يقول المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش: «إن المجتمع العاجز عن التدين، هو أيضًا عاجز عن الثورة» إن التدين الحقيقي هو الذي يلهم جماهيره الثورة على الظلم والفساد والعدوان، وكل تدين منقوص يخلق قعودًا وعجزًا ؛ لذا فإن تلك التربية الصالحة التي استقاها صلاح شحادة من محضن الشيخ أحمد ياسين أدت به إلى اختيار طريقه بوضوح فحين وصل الشاب صلاح إلى الإسكندرية ليستقر فيها، التحق بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعية في الإسكندرية، وفي السنة الثالثة من دراسته بدأ التزامه بالإسلام يأخذ طابعًا أوضح،، وذلك بسبب تعرفه علي مجموعة كبيره من الفلسطينيين الذين سبقوه في جامعة الإسكندرية مثل الدكتور عبد العزيز الرنتيسي الذي كان يدرس الطب وسبقه بخمس سنوات والدكتور أحمد الملح الذي كان يدرس طب الأسنان واللذان تركا تأثيرًا عاليًا في نفسه وعقله وتوجهاته.

واتضح ذلك جليًا حين بدأ العمل في الدعوة إلى الإسلام فور عودته من مصر إلى قطاع غزة، إذ بدأ نشاطه الدعوى في البروز سريعًا وخاصة أن المنطقة التي يقطنها الشيخ كانت في تلك الفترة معقل الحركة الشيوعية، مما أدى إلى كثرة استدعاءات المخابرات اليهودية للشاب الشيخ، وأكثر العملاء في تلك الفترة من ترددهم على مسجدي العزبة والعجمي وحاولوا إثارة الفتنه ولكن الشباب كانوا لهم بالمرصاد ومنعوهم من تسجيل دروس الشيخ لتقديمها لليهود، ولقد دفع ذلك بالكولونيل يوسف طحان الحاكم العسكري لقطاع غزة ومعه ضابط الشاباك وخمسين جنديا يهوديًا إلى مداهمة بيت الشاب الشيخ وتفتيش جميع أنحاء المنزل للبحث عن منشورات وزعتها الحركة الإسلامية بالقطاع، ولما لم يجدوا ما يدينون به الشيخ صادروا هويته الشخصية وطلبوا منه أن يحضر إلى مبني الحاكم العسكري بغزه بعد يومين.

ولكن هذه الإجراءات لم تنل من عضد الشيخ واستمر في نشاطه الدعوي وقد نظم في تلك الفترة رحلة حج ضمت الكثير من الشباب وعددًا من كبار السن وزوجاتهم، وفيما بعد توسعت دائرة نشر الدعوة عن طريق المساجد، وقد تم تكليف الشيخ رئاسة لجنة بناء مسجد عمر بن عبد العزيز وأصبح خطيبًا فيه واستمر كذلك حتى اعتقل سنه 1984م.

زمن التغيير

(هناك شخص يستثمر ما قيمته أسبوعًا من السنة في حين أن آخر يستثمر ما قيمته سنة كاملة من كل أسبوع، أولئك الذين يعرفون قيمة الوقت يستخدمونه في الإعداد للأبدية)، وفي حجز مقاعدهم في الصفوف الأولى على أيقونة رمزية تلهم السائرين على الدرب، فحياته كانت ثرية وسخية ثرية في تدفقها وسخية في آثارها وذلك لا يجتمع إلا فيمن كانت أعينهم ترنو إلى

المطايا الراحلة بالمقربين إلى المطايا التي تحمل ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: 13-14] ولعل هذا الاستعراض العام لحياة القائد ليكشف عن هذا العمر السخي الثري ففي عام 1983م أصبح الشيخ صلاح عضوًا في أول مكتب إداري شكل للحركة الإسلامية، وذلك جنبًا إلى جنب مع الشيخ أحمد ياسين والدكتور إبراهيم المقادمة، وشكل في هذا المكتب نواة اللجنة العسكرية برئاسة الشيخ أحمد ياسين وعضوية عبد الرحمن تمراز وإبراهيم المقادمة وأحمد الملح وصلاح شحادة وأوكل للجنة الإعداد النفسي للشباب المسلم وتدريبهم ببرامج تربوية وعسكرية أُوكِل إليه كل ما يتعلق بأمور التدريب العسكري من شراء وتخزين للسلاح المناسب، والتعامل مع تجار الأسلحة.

واستمرت اللجنة العسكرية بمهماتها قرابة العام ونصف العام جرى خلالها وضع اللبنة الأولى للجهاز العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وقد أدى اعتقال اليهود لأحد السماسرة الذين كانوا على علاقة بعبد الرحمن تمراز إلى اعتقاله ثم الدكتور إبراهيم المقادمة في وقت لاحق وفي ساعة متأخرة من يوم 15 يونيو 1984م داهمت قوة من اليهود منزل الشيخ أحمد ياسين في جورة الشمس بحي الزيتون وقامت بتفتيشه ثم انتقلت للمنزل المجاور للبيت، وفي سياق مشابه اعتقل صلاح شحادة ومحمد خليل سمارة ومحمد شهاب، ومحمد رمضان مهره، وصابر أبو عودة، وبعد شهرين من التحقيق مع التعذيب قدمت ضدهم لائحة اتهام جماعية وحوكموا حسب قانون الطوارئ لسنه 1949م وتضمنت لائحة الاتهام تهمًا بتشكيل خلايا عسكرية وتدريب أفرادها على استعمال السلاح، وإصدار أوامر بشن هجمات ضد أهداف عسكرية صهيونية، وإقامة تنظيم ديني هدفه المس بدولة إسرائيل بالقوة والعنف، ثم إقامة دولة إسلامية على أنقاضها، والتآمر من أجل شراء أسلحة ووسائل قتاليه.

كان صلاح شحادة آخر أعضاء اللجنة العسكرية في أقبية التحقيق، وقد بقي فيها سبعين يومًا نقص خلالها أكثر من خمس وثلاثين (كجم) من وزنه، وقد صدرت ضدهم أحكام عالية، فقد حكم على الشيخ أحمد ياسين ب 13 عامًا، وعبد الرحمن تمراز وإبراهيم المقادمة ب 12 عامًا، وصلاح شحادة 5 أعوام منها ثلاثة مع وقف التنفيذ، ومصادرة سيارته التي استخدمت في نقل الأسلحة، ولقد صدر الحكم مخففًا عليه لأن الشابك لم يستطع إثبات التهمة عليه.

لقد كان الشيخ صلاح شحادة هو مؤسس الجهاز العسكري الأول لحركة المقاومة الإسلامية حماس، والذي عرف باسم (المجاهدون الفلسطينيون) وكان هذا وحده عملاً مباركًا جليلاً تزهر به الأعمار.

تميز مبهر

أولاً: التوازن الداخلي

للشهداء سمات مشتركة من أهمها أنهم على رقي عالٍ من الأخلاق وأصحاب توازن نفسي عجيب وذوو سلوك جميل يشهد لهم أهل الأرض جميعًا، وقد كان القائد الشهيد ممن امتلك ناصية الأدب والخلق الرفيع إذ تصف زوجته ماجدة أخلاقه فتقول: «تعلمت منه التواضع وامتلاك الأعصاب الهادئة، والتصرف في الأمور بحكمة» كان دومًا يقول لها: «إن القائد يجب أن يكون هادئ الأعصاب لا ينفعل!» وحين سألته: أين تعلمت هذا؟ قال لها: «في السجن، كان الوقت يمر ببطء، كنت في زنزانة عتمة طولها أقصر مني، وعرضها لا يكفي لأنام، وظلامها لا أرى منه يدي، ورائحتها كريهة، في الشتاء أبرد من الثلج، وفي الصيف رطوبة قاسية، لا أعرف فيها الليل من النهار، ومع ذلك عشت ولم أشعر فيها بأي ألم».

وقد صدق أحدهم إذ قال: «إذا أردت أن تصاحب رجلاً فأغضبه، فإن أنصفك من نفسه فلا تدع صحبته».



تقول زوجته: «كان حقًا صحابيًا في القرن الحادي والعشرين، لقد كان أمّة تفيض بالحبِّ والتسامح. فقد كان يقول: «يجب أن نربي الأجيال القادمة على الحبِّ والتواضع». وقد كان هو مدرسة في التواضع حيث تؤكد زوجته ماجدة أنه كان شديد التواضع، لا يغضب أحد منه، وكان على استعداد لأن يخاطر بروحه في سبيل أن يزيل غضب أي إنسان عنه؛ لأن شعاره كان دائمًا: «أحب أن ألقى ربي وليس في كتابي مظلمة لأحد، أريد أن أفوز بالجنان ورضى الرحمن»، وتستكمل زوجته قائلة:«كان يمتلك سحرًا عجيبًا يمكنه من أسر القلوب بنظرة واحدة منه، وفرض احترامه على العدو قبل الصديق».

له مقولة عميقة يقول فيها:«الأصل في الحياة الصلح والعفو لا القطيعة والضغينة والعدوان والقتال، والشعب عندما يتحرك يهزأ بكل تهديد؛ فالانتفاضة جعلت الشعب قادرًا على أن يفهم كل ما يقال له». ويعني بذلك أن جهاد العدو ليس محضنا للكراهية، بل هو سبيل لإزاحة الظلم ونشر العدالة والسلام.

كان صلاح شحادة على شدته في الحق رقيقًا وذا إنسانية عالية فقد كان يحب سماع الأناشيد الإسلامية التي تحض على الجهاد خاصة نشيد «هيأت لي

أمي فراشًا» وكان يبكي بكاء شديدًا إذا سمعها ويقول:«ودعت شهداء كثر من خيرة شباب الحركة الإسلامية سبقوني إلى الجنة، أوشك أن أقبّل قدم أحدهم وأنا أودعه وأرجوه أن يسلم لي على صحابة رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر، وأرجو من الله أن يجمعني بأولادي الاستشهاديين وصحابة رسول الله» .

وكان ورعا وتقيًا يخشى الله في الصغائر قبل الكبائر تصفه زوجته فتقول: «كان حريصًا جدًا على أموال حركة حماس، ويدقق كثيرًا كيف صرف الشيكل الواحد، ويحاسب معاونيه بشدة على ذلك» ودللت على هذا قائلة: «وجد رصاصة في المنزل ملقاة على الأرض فغضب غضبًا شديدًا وتناولها بسرعة وهو يقول: من يتهاون بالقليل يمكن أن يتهاون بالكثير»! وذلك كله من شدة مخافته من الله ﷻ وإحساسه العميق بعظم الأمانة وثقلها.

ثانياً: الجندية الدائمة

القيادة لا تعني الاستعلاء والترفع عن المهام البسيطة، بل القيادة الحقة هي في وراثة منهج محمد ﷺ الذي كان يقود الدعوة الاسلامية ويجمع الحطب في ليل المعركة ويكنس بيته وتأخذ عجوز بيده في نواحي المدينة ولا ينقص ذلك من قدره شيئا، ولقد كان القائد الشهيد في سره وعلانيته على منهج النبوة المباركة إذ تذكر زوجته ماجدة قنيطة:«بأنه كان نعم الزوج المثالي، إذا شعر بالملل أو التعب- خاصةً أنه كان أحيانًا يصل الليل بالنهار- وكان يمارس الرياضة، وإذا وجد بعض الأعمال المنزلية كان يقوم بها بنفسه، فكنت أنهاه، وأقول له: «يكفيك ما عليك من أعباء جهادية؛ فيرد عليَّ بقوله:لستُ خيرًا من رسول الله ﷺ لقد كان يساعد أهل بيته، فدعيني أحيي سنته»، وقد صدق الشيخ الشهيد أحمد ياسين يوم قال عنه:«بأنه نعم القائد والجندي»، ويضيف:«منذ أن بايع شحادة حركة الإخوان المسلمين في عام 1982م أصبح

مسؤولاً عن شمال قطاع غزة؛ لما تميز به من حبٍّ للعمل، واستعداد للتضحية من أجله، بالإضافة إلى شخصيته القيادية والاجتماعية والإدارية».. سعي في الليل والنهار وجندية في رداء القيادة وخطوات لا تميز بين مواقع المسؤولية ومواقع الخنادق وتلك هي سمات الشهداء القادة.

ثالثاً: التوريث الذكي

ربما يعد التوريث في العمل العسكري أو الحركي أو الإداري هو أخطر الحلقات على الإطلاق وهو المفصل الذي إن بقي نابضًا وولودًا بقي جسم الحركة بخير وظل العدو بمنأى أن يصيبها في مقتل، بل إن التوريث هو مؤشر ذكاء عالٍ ودلالة وعي بخطورة وأهمية الامتداد والبقاء مهما كانت معاول العدو قوية وضرباته موجعة، ولقد أدركت إسرائيل ذلك وصرحت به مرارًا واعترفت بأن قتل القادة لا يصنع فراغًا، بل يقدم عناصر ودماءً جديدة كانت قد هُيئت سابقًا، ولقد أكد الشيخ ياسين أن القائد صلاح شحادة تولى مسؤولية الجناح العسكري لحماس عام 1988م وأنه نجح خلال عامين في بناء الجهاز العسكري لكتائب القسام، ونجح من خلال عمله المؤسساتي أن يجد له تلاميذ في الميدان يتولون القيام بمهمته فور غيابه.

كان يقول دوما: «أيها الإخوة.. رؤية النصر أمنية يتمناها كل إنسان مسلم، فكل واحد منا يريد أعلام الحرية فوق كل ذرة من ترابنا، ولكن يا ترى من سيموت منا قبل ذلك؛ لأنها سنة الله في الحياة، اقتضت أن يدفع أناسٌ أرواحَهم؛ لتنعم أرواح غيرهم بالحرية... أناس يداسون ليرتفع غيرهم». فهو يرى أننا نموت لصالح فكرة وغيرنا يرث إكمال المسيرة لصالح الحق الذي يجب أن يعلو ولا يعلى عليه.

و مما يذكر أن الشيخ المعتقل جمال أبو الهيجا كان يقول له: «يا أبا مصطفى لقد انتهى دورك في الجهاد ومقارعة العدو؛ فاليوم هو دور تلاميذك، أما أنت

فقد كبر سنك، وإن المطاردة عليك ستكون صعبة، وبإمكانك أن تفيد الدعوة في المجالات السياسية أو الاجتماعية أو الدعوية، لكنه كان يبتسم ويقول: «لن نحيد حتى نلقى الله شهداء»، وكان يردد قول الله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:23] فالقائد صلاح شحادة كان يرابط على مهمته ويُعلم أبناء الحركة دون أن يتوقف سعيه وجهده، وكان ذلك مصداقًا لكلمات المفكر الإسلامي بيجوفيتش الذي يقول: «ليس الإنسان بما يفعل وليس الإنسان بما يريد، بل بما يرغب فيه بشغف»، وكان العمل وبناء القيادات هو شغف صلاح شحادة.

رابعاً: السعي الدؤوب



في كلمات عميقة يصف المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش حركة التغيير بقوله: «إن تقدُّم الإسلام -مثل أي تقدم آخر- سيتحقق على أيدي الشجعان الثائرين، لا على أيدي الوديعين المطيعين» مشيرا بذلك إلى أن تقدم الإسلام إلى منصة الشهود الحضاري مرة أخرى يتطلب شجاعة الثائرين ثم يقول: «كل ثورة حقيقية تتميز بسمات معينة وهي الإيمان والرغبة العارمة في التضحية والموت، وكل هذه المشاعر أبعد ما تكون عن المصلحة» كأن ما سبق هو شروط الثورات ويختم كلماته بمقولة خالدة وهي «المسلم بين خيارين لا ثالث لهما. إما أن يغيّر العالم، وإما أن يستسلم للتغيير»، وقد أخذ قادة حماس على عاتقهم أن يكونوا هم قدر التغيير في فلسطين. وفي الشهيد صلاح شحادة نموذج وبرهان

على ذلك فبعد أن خرج من السجن الذي قضى فيه الأحكام الظالمة التي صدرت بحقه، والتي تعدت العشر سنوات، كان أكثر صلابة وأكثر عزة، إذ خرج من المعتقل وهو يضع نصب عينيه أن يُذِيقَ الصهاينة ويلات المجاهدين، وأن يجعلهم يدفعون ثمن جرائمهم غاليًا إذ كان يؤمن بأنه «إذا كانت الأجواء ساخنة فيكفي عود ثقاب أو شرارة لإحداث الحرائق الكبيرة، علينا أن نتمسك بحقوقنا كاملة مهما اشتدت الكروب، فلا يوجد سقف للعطاء الوطني والإسلامي».

لذا لم يضع وقتًا طويلاً بعد الإفراج عنه حتى عاد إلى قيادة كتائب القسام ليطور عملياتها وإمكانياتها، وليختفي عن الأنظار ويصبح المطلوب الأول لجيش الاحتلال الصهيوني خلال انتفاضة الأقصى 2000م، وليوجع الصهاينة بعمليات القسام الاستشهادية والعسكرية وصواريخ القسام التي تم تصنيعها وتطويرها بجهود ذاتية وإمكانيات متواضعة، والتي أوقعت في جنود العدو وقطعان مستوطنيه المئات من القتلى والآلاف من الجرحى، وقد لاحقته استخبارات العدو لتصفيته بعد أن أقضّ مضاجعهم ونكّل بهم، و كان الله ينجيه في مرات كثيرة من شرورهم ومكرهم، إلى درجة أن الإرهابي الصهيوني شارون كان يخطط لاجتياح قطاع غزة كما اجتاح الضفة الغربية؛ لعله يعتقل أو يغتال الشيخ صلاح شحادة كأحد أهم أهداف الاجتياح، كما صرح الصهاينة بذلك.

وقد تمكن القائد صلاح شحادة من إعادة بناء الجهاز العسكري لحركة حماس مع مطلع سنة 2000م، والذي دمرته السلطة الفلسطينية في عام 1996م وما بعدها وفق اتفاقية «أوسلو» الهدّامة.

كان يصفه (بوغي يعالون) رئيس هيئة أركان الصهاينة:بأنه «الحوت» أو «القنبلة الثقيلة الموقوتة»، أنه لم يكن يسيطر على حماس القطاع فقط، وإنما أرسل ذراعين للضفة؛ حيث قام بإعادة بناء البنية التحتية عن بُعد، وأطلق العمليات، ونقل تكنولوجيا الصواريخ و«القسام»، ومارَس الضغوط للبدء في

إطلاقها باتجاه المدن الصهيونية، كما أجرى اتصالات مع حماس في الخارج، وألقى بظلاله على الشيخ أحمد ياسين، مكلفًا الصهاينة ثمنًا دمويًّا بصورة شبه يومية؛ فعمليتا عمانويل مثلاً كانتا من تنفيذ خلية أُرسلت بإيحاء منه.

كان الشهيد دؤوبًا فيما آمن به فقد حفظ عنه قوله:«الجهاد أمر رباني ولا نطلب إذن أحد لمواصلته». ولطالما قال:«أوصيكم بتقوى الله والجهاد في سبيله، وأن تجعلوا فلسطين أمانة في أعناقكم وأعناق أبنائكم إلى أن يصدح الأذان في شواطئ يافا وحيفا وعسقلان»، كان تحرير فلسطين قناعة وعقيدة وخيارًا لا بديل عنه، وسعيًا لا يتوقف في حياة الشهيد إذ كان كما قال بيجوفيتش: «ليست عظمة الإنسان أساسها في أعماله الخيرة وإنما في قدرته على الاختيار»، وكان خيار القائد الشهيد هو الخيار الذي قامت عليه السماوات والأرض نصرة الحق وإعلاء كلمة الله العادلة.

خامساً: الحياة الزاخرة

عمل الشهيد باحثًا اجتماعيًا في مدينة العريش في صحراء سيناء، وعُيِّن لاحقًا مفتشًا للشؤون الاجتماعية في العريش، بعد أن استعادت مصر مدينة العريش من الصهاينة في العام 1979م ثم انتقل الشهيد للإقامة في بيت حانون، واستلم في غزة منصب مفتش الشؤون الاجتماعية لقطاع غزة.

وفي بداية العام 1982م انتقل للعمل في دائرة شؤون الطلاب في الجامعة الإسلامية في مدينة غزة. بديلاً عن عميد شؤون الطلاب الشهيد الدكتور إسماعيل الخطيب، والذي اغتالته حركة فتح لرفضه تزوير الانتخابات لصالحها.

وفى ظل سعى حركة فتح للسيطرة على الجامعة الإسلامية في غزة، وبعد فشل تزوير الانتخابات، وفرض رئيس مسيحي للجامعة، قررت فتح اقتحام الجامعة والسيطرة عليها بالقوة، وبمساندة قوى يسارية و تنظيمات حاقدة

على كل ما هو إسلامي، وقد حُمل صلاح شحادة مسؤولية الدفاع عن الجامعة الإسلامية ضد كل التنظيمات المتحالفه، وقد قامت القوى السياسية بقيادة فتح بمهاجمة الجامعة للاستيلاء عليها بالقوة وذلك بهجوم مباغت في صباح يوم السبت الموافق 1983/6/4م شارك فيه بعض الطلاب العلمانيين من جامعه بيرزيت بالضفة الغربية، وقد هاجموا الجامعة بقنابل المولوتوف وصفائح البنزين وأجهزة الأكسجين والسلاسل والقضبان الحديدية، ولكن المفاجأة التي كانت بانتظارهم هو معرفه الإسلاميين بالمخطط ونصب كمائن لهم بالمساجد المجاورة مثل مسجد السلام ومسجد الكتيبة، وقد لعب الشيخ صلاح شحادة دورًا محوريًا في التصدي للمهاجمين وضربهم واعتقال بعضهم ورد كيدهم إلى نحورهم، وقد أصيب أكثر من ثلاثمائة طالب منهم بجروح وقد بقي صلاح شحادة داخل الجامعة حتى الساعة 12 ليلا لمراقبة الوضع وتأكيد فشل الهجوم وعدم تكراره.

بعد خروجه من المعتقل في العام 1986م شغل منصب مدير شؤون الطلبة في الجامعة الإسلامية إلى أن قررت سلطات الاحتلال إغلاق الجامعة؛ في محاولةٍ لوقف الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت في العام 1987م، غير أن الشيخ صلاح شحادة واصل العمل في الجامعة حتى اعتُقل في أغسطس 1988م.

هذه الحياة الزاخرة بالتأسيس للمقاومة وبالعمل الجهادي والاعتقال والبناء على جميع الأصعدة كانت خيارًا آمن به القائد الشهيد وعاش له واستنفد إمكانياته وطاقته لأجله وقد عبر عن ذلك بقوله: «يجب أن نرتقي إلى المحاربة بالدماء، وسنواصل المقاومة مهما كلفتنا، وإن فقدنا السلاح فسنقاتلهم بأيدينا، علينا أن ندرك أن الشعوب المضللَة لا تستيقظ إلا بدفع الضريبة من دماء المسلمين، فلا بد من تقديم القرابين، وعلى مشهد من العالم، ولا بد من التحدي السري والعلني».

سادساً: ثبات فريد

كان الشهيد بطلا يؤمن بالمواجهة ويردد دائماً: «أعمل عامًا واقفا خيرٌ من أن أعمل عشرات السنين تحت الأرض، فالأجل إذا جاء فلا أحد يدفعه، والشهادة أسهل من شربة ماء يشربها أحدنا». ولقد اعتقلته سلطات الاحتلال أول مرة في العام 1984م؛ للاشتباه بنشاطه المُعادي للاحتلال الصهيوني، غير أنه لم يعترف بشيء، ولم يستطع الصهاينة إثبات أي تهمة ضده، وأصدروا ضده لائحة اتهام حسب قانون الطوارئ لسنة 1949م، وهكذا قضى في المعتقل عامين.

ثم اعتقل بعد ذلك في 1988/8/18م، واستمر التحقيق حتى 1989/6/26م في سجن السرايا، ثم انتقل من زنازين التحقيق إلى غرف الأسرى، وفي 1989/5/14م أُعيد إلى زنازين التحقيق بعد أن تم الاعتراف عليه بمسؤوليته عن الجهاز العسكري لحركة حماس، واستمر التحقيق لمدة 200 يوم، وبذلك بلغ مجمل التحقيق معه عامًا كاملاً، وكانت التهم الموجهة إليه المسؤولية عن الجهاز العسكري لحماس، وإصدار أوامر باختطاف الجنديين (سبورتس، وسعدون)، ومسؤولية حماس والجهاز الإعلامي في المنطقة الشمالية، وحُكِم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات على تهمة مسؤولية حماس والجهاز الإعلامي في المنطقة الشمالية، أُضيفت إليها ستة أشهر بدل غرامةٍ رفضَ الشيخ المجاهد أن يدفعها للاحتلال.

ظل القائد البطل محتجزًا في العزل الانفرادي، وبعد انتهاء المدة حوّل إلى الاعتقال الإداري لمدة 20 شهرًا؛ ليتم الإفراج عنه في 2000/5/14م وهو يحمل تهديدًا من ضباط المخابرات الصهيونية بضرورة اغتياله في حال قيامه بأية نشاطات ضد الاحتلال.

ويصف تعذيبه أثناء التحقيق:«لم يَدَع جنود الاحتلال شعرة في ذقني أو صدري إلا نتفوها، حتى شككت هل يمكن أن تنبت لي لحية مرة أخرى؟ واقتلعوا أظافر قدمي ويدي، ولكني والله لم أشعر بألم، ولم أتفوّه بآهة واحدة. فقد كنت أردد

القرآن» . وتلك كرامة يمن الله بها عليه وصدق الله القائل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:27] **لقد تماهى القادة الشهداء مع سلف الأمة في الكثير من مواقفهم العظيمة وكانوا على خطاهم المباركة إذ يذكّرنا هذا الصبر بموقف للإمام أحمد قال له رجل: كيف تجدك يا أبا عبد الله؟ قال: بخير في عافية، فقال له:حممت البارحة؟ -أي: أصابتك الحمى-قال: إذا قلت لك: أنا في عافية فحسبك، لا تخرجني إلى ما أكره «أي أنه لا يريد أن يشكي حاله فيضيع أجر صبره!»**

يقول القائد صلاح شحادة: «لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالصبر والاحتساب وحثهم على الاقتداء بآثار المجاهدين المصابرين، ولقد دخلت السجن ولم أكن أدري أن السجانين والمحققين كانوا يحرصون على معاملتي معامله خاصة، وقد مكثت مائتي يوم في التحقيق تعرضت لأبشع عمليات التعذيب التي لم يتعرض لها باقي المجاهدين» .

يقول شهيد الظلال:«فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما، وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون؛ وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه!»[1] **.**

يقول (يعقوب بيري) رئيس جهاز الأمن الصهيوني السابق (الشاباك) في مذكراته التي تمت ترجمتها للعربية الشهادة التاريخية التالية:

1- في ظلال القرآن-سيد قطب-ج3ص1528: دار الشروق-بيروت-القاهرة – ط17 - 1412 هـ

«إن صلاح شحادة يمتلك شخصية قوية وصلبة وقادر على امتصاص جميع وسائل التعذيب، ومواجهة أية إغراءات في التحقيق، كان شحادة هو كاتم أسرار الشيخ أحمد ياسين، وهو ضليع في الشؤون الدينية وحسن المحيا».

ويروي (بيري) بأنه فشل في التأثير على شحادة ودفعه إلى الاعتراف بالتهم الموجهة إليه، ولكي يضاعف من التأثير عليه أحضر في إحدى جلسات التحقيق التي كان يشرف عليها بنفسه قائد القطاع الجنوبي في جيش الحرب الصهيوني وقتذاك إسحاق موردخاي وضابطين آخرين رفيعي المستوى في التحقيق ومع ذلك لم يفلح الجميع في التأثير على إرادة الشيخ، وقال (بيري): «لقد حرمناه من النوم لفترات طويلة، وحققنا معه بصورة مكثفة وطويلة، لكنه كان قويًا ومصرًا على عدم الخنوع».

مكث الشيخ في السجن اثني عشر عامًا، وتم تحويله للاعتقال الإداري لمده عشرين شهرًا بعد انتهاء مدة الحكم عليه، وكان بسجنه يستفيد من كل دقيقه، حيث يبدأ اليوم عنده بعد صلاة الفجر بمراجعة ما حفظه من القرآن الكريم والأذكار، ثم يرتدي ملابس الرياضة لمدة ساعة تقريبًا، وبعد الاستراحة يبدأ الشيخ بدروس الصباح، وباقي ساعات النهار كان يقضيها في مطالعة الكتب التي يحتفظ بها في مكتبته بالمعتقل وتضم كافة التخصصات من طب واجتماع وعلم نفس، ثم يعقد جلسة ثقافيه لمناقشه المعتقلين حول آخر التطورات السياسية.

كان هذا البطل المجاهد متزوجًا، وعندما دخل السجن كان لديه ستُّ بنات، عُمْر أكبرهن عشر سنوات، وخرج وله ستة أحفاد.

مواقف في ذاكرة الأمة

صلاح شحادة، والإرهابي اسحاق موردخاي:

يحكي صلاح شحادة قصته مع هذا الجنرال المحتل فيقول: «في هذه المرة أشرف على تعذيبي إسحاق موردخاي، وأخذ يقول لي: أنت رجل عسكري مثلي مرٌ جنودك أن يسلموا جثة سعدون، فسألته: هل سلم المجاهدون سلاحهم؟ وعندما ردَّ عليَّ بالإيجاب قلت له: من الخطأ أن يفعلوا؛ فطلقة رصاص واحدة أفضل عندنا من جندي منكم؛ لأننا بالطلقة سنقتل جنديًا آخر».

كان الإرهابي الصهيوني اللواء اسحاق موردخاي قائداً للمنطقة الجنوبية التي تضم قطاع غزة والنقب في جيش الاحتلال الصهيوني عام 1988م قبل أن يصبح وزيرًا للحرب، وقد حضر هذا الإرهابيُّ موردخاي إلى سجن غزة حيث كان يعتقل الشيخَ صلاح واستدعاه إلى مكتب مدير السجن، فجاء به الجنود الصهاينة مقيد اليدين والرجلين، فأبى الشيخ العزيز أن يتحدث مع موردخاي حتى يتم فك قيوده، فاستدعى موردخاي الجنود لحمايته من هذا الأسد الأسير، وأمر بفك قيوده، وسأله عن مكان جثث العسكريين الصهيونيين، فأنكر الأسد الهصور صادقًا معرفته أو معرفة أحد من إخوانه السجناء بالمكان، فقال له الإرهابي موردخاي: «يا جنرال صلاح إنّ جنودك جبناء يكذبون».

فقال له الشيخ صلاح: «إعلم أيها الجنرال أن رجالي مؤمنون وشجعان لا يعرفون الكذب ولا يجبنون، لقد اختطفوا جنودك وهم مدججون بالسلاح، بينما يقتل جنودك الأطفال والنساء والشيوخ والشباب العزل، وقد بالوا على أنفسهم عندما تمّ اختطافهم، وقبّلوا أقدام المجاهدين لإطلاق سراحهم، وكانوا يصرخون ويبكون كالنساء ويستنجدون بأمهاتهم، عندها خرج الإرهابي غاضبًا خجلاً من فعل جنوده الجبناء».

«أعدتها إلى منزلها تبكي»!

بهذه الجملة كان يلخص شحادة قصته مع والدة الجندي الصهيوني «أيلون سعدون» التي كانت تتردد كثيرًا على صلاح ليخبرها عن مكان جثة ولدها، وكان يرد عليها بلطف وأدب شديد «دعي مخابراتكم التي تدعي أنها لا تقهر لتخبرك عن مكانه»، ويُشار إلى أن الجندي سعدون قُتل في عام 1989م؛ حيث استطاعت الخلية العسكرية التي يرأسها شحادة خطف جنديين وقتلهما وإخفاء جثة أحدهما، وكان قد أدار عملية الخطف من داخل المعتقل.

السلال الوافرة بالخاتمة المباركة

ترى هل تستجيب الأقدار لأحلام الشهداء؟ وكيف يستدعي الشهداء عوالم الاصطفاء؟ كيف يرحلون فجأة من بيننا عبر معارج لا نلمحها؟ كيف يغادرون إلى الخلود وإلى مقعد صدق عند الحبيب؟ كيف لا نشم هواء الجنة في روائحهم؟ كيف لا نرى شوق الجنة في عبراتهم؟ كيف لا نسمع فرح الملأ الأعلى في خطوات رحيلهم؟ هل فجأة يصبحون شهداء فجأة دون أن يخبّرون؟ أم تهيؤهم الأقدار للمواعيد المحتومة؟ أم أنه علم الله الذي سبق فيهم وتهيأت لهم الفردوس الأعلى منذ لحظة خلق القلم وقال الله له اكتب ما هو كائن وما سيكون، فكتب أسماءهم وبعدها جفت الأقلام ورفعت الصحف وكان ما كان!

تصف زوجة الشهيد صلاح شحادة آخر يوم له: «ذهب ليلتها لوداع جثمان أحد الاستشهاديين فتقول:«عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل بعدما ذهب لذوي أحد الاستشهاديين بنفسه ليبشرهم بخبر استشهاده، وليخفف عنهم مصابهم، وأخذ يقول لي:إني أشم رائحة المسك تعطر ملابسي وتملأ المكان، وظلت رائحة المسك في أنفه حتى بعدما اغتسل وبزغ الفجر» . فقد كانت تلك روائح الخاتمة تزف إليه يشمها ويهيئ الله روحه للقاء إذ بعد مراقبة طويلة ومكثفة لتحركات

القائد العام لكتائب القسام، أصبح واضحًا للعدو أن ثمة أحدًا ما من الخارج يدير هذه الشبكة بصورة وثيقة؛ واتضح لهم فيما بعد أن هذا الدماغ يقيم في غزة، وفي الأشهر الأخيرة تأكد للمعلومات الاستخبارية أنه:«صلاح شحادة هو الرجل اللغز الذي يعتبر رقم [1] لعز الدين القسام في قطاع غزة، حيث احتل مكان رجال حماس الذين تمت تصفيتهم أو اعتُقلوا في «السور الواقي» و«الطريق الحازم»، وشكل مرجعية روحية وميدانية في كل شيء، وبدأ الجهاز الاستخباري يحكم الطوق على هذا الشخص».

استخدم العدو أحدث الوسائل والتقنيات التكنولوجية إلى جانب العملاء في العملية المشؤومة.

كانت يومها عقارب الساعة تشير إلى الدقيقة العشرين بعد منتصف الليل من فجر يوم الثلاثاء الموافق 23 يوليو _2002 حين اتصل العميل المجرم بمرؤوسيه هاتفيا (الجماعة وصلوا) في إشارة إلى القائد صلاح شحادة وزوجته وابنته إيمان ومساعده المجاهد زاهر نصار وما هي إلا لحظات حتى كانت طائره إف_16 تنفذ غارتها وتلقي قنابلها وتحيل الحي السكني المكتظ إلى ركام وبدت غزة التي أفاق سكانها على أصوات الانفجارات الآتية من حي الدرج بالمدينة والتي أسكتت هدير البحر مصعوقة أمام مشاهد النساء وأطفال تقطعت أوصالهم تحت الركام، وكانت الحصيلة مروعه فقد استشهد الشيخ صلاح شحادة وابنته الصغرى إيمان ومساعده زاهر نصار وتسعة أطفال وأربع نساء في حين أصيب 174 من بينهم 36 طفلاً دون السادسة عشر و23 امرأة، هكذا يكون اليهود قد قضوا على حي بأكمله لاستهداف القائد المجاهد، وقد اعتبر المجرم أرئيل شارون عمليه الاغتيال إحدى أنجح العمليات التي قاموا بها مهددا بمزيد من البطش لمحاربة حماس.

وذكرت صحيفة «يديعوت احرونوت» أنه بعد الحادث مباشرة رنَّ الهاتف في منزل (أرنون فرلمان)- المستشار الإعلامي لشارون-سأله شارون إذا كان على علم بآخر المستجدات وردَّ فرلمان: «نعم. تقصد الاستقالة المتوقعة «لداليا رابين فيلوسوف» نائبة وزير الدفاع؟! لا. ردَّ شارون: «أقصد اغتيال صلاح شحادة في غزة». !!

بعد منتصف الليل تلقى شارون أول تقرير عن العملية: هُدم البيت الذي يقيم فيه شحادة، ولم يكن من الواضح إذا كان شحادة قد قُتِل أو لا، وبعدها سمع شارون من سكرتيره العسكري الجنرال (يوآب غلانط) أن العملية تُوِّجت بالنجاح، فقد تم التعرف على جثة شحادة، وقد أُبلغ شارون أن مدنيين من النساء والأطفال قُتلوا في العملية.

ولقد تداعت الصحافة الإسرائيلية إلى التعليق على خبر العملية في تباين واضح إذ يقول الصحفي (ابن فيت) مراسل صحيفة معاريف:هو أبرز الشخصيات التي تم اغتيالها حتى الآن بلا شك بينما ينبه (ألي فيشمان) المحلل السياسي في صحيفة يديعوت: «في البداية اعتبر قتله أمرًا رائعًا، فحين تم إبطال مفعول قادة خلايا «عز الدين القسام» في منطقة جنين الواحد تلو الآخر خلال أسبوع تقريبًا ظهر على الفور آخرون مكانهم، وقد وصف رئيس الشاباك الصهيوني، (آفي ديختر) الضرر الذي سببه الشهيد صلاح شحادة لإسرائيل، في تقرير قدمه للجنة الأمن والخارجية التابعة للكنيست الصهيوني، فقال:« لقد أشغل شحادة جهاز الأمن مدة طويلة، لأن الضرر الذي سببه لإسرائيل لا يقل عن الضرر الذي سببه أسامة بن لادن للولايات المتحدة في أحداث الحادي عشر من سبتمبر. وعليه فإن تصفيته كانت ناجحة لكن العملية كانت فاشلة».

أما الصحافي (امنون ابراموفيتش) أحد أبرز المعلقين الصهاينة يسخر كثيرا من وصف شارون لعملية اغتيال شحادة بأنها «أكبر إنجاز» للجيش الصهيوني،

ويضيف ابراموفيتش أن مشكلة شارون تكمن في حقيقة رفضه التعلم من تجارب الماضي، ويتساءل ابراموفيتش قائلاً: «ألم يتعلم شارون من زميله بيريس عندما أصدر أوامره بتصفية يحيى عياش، ماذا حدث عندها؟ ألم تتحول إسرائيل كلها إلى ساحة مواجهة؟ ألم يتعلم شارون من نتائج تصفية محمود أبو هنود؟ ماذا حدث بعدها» ؟!! ويجزم ابراموفيتش قائلاً: «إن شارون بقراره تصفية صلاح شحادة قد أصدر في الواقع حكم الإعدام على المئات من الصهاينة».

وصية الشهيد القائد

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله. أما بعد، فهذه وصية شرعية أدعو من يقرأها إلى تنفيذها بكل ما يرد فيها:

أولاً: أوصيكم بتقوى الله والجهاد في سبيله، وأن تجعلوا فلسطين أمانةً في أعناقكم وأعناق أبنائكم إلى أن يصدح الأذان في شواطئ يافا وحيفا وعسقلان.

ثانيًا: أوصي في كل أموالي وديوني التي ستفصل في ملحق خاص بتنفيذ حكم الله فيها، وذلك بعرض تفاصيل ما يتصل بأموالي وديوني على عالم شرعي مختص من أتقياء المسلمين.

ثالثًا: أؤكد بتنفيذ المواريث حسب شرعنا الحنيف.

رابعًا: أوصي أن يتولى غسلي -إن غُسلت- الأخ نزار ريان، فإن لم يكن فالأخ عبد العزيز الكجك، على أن يسترا عورتي ويحفظا سري -حفظهما الله- وأن يتولى لحدي في قبري أَحد الأخوَين المذكورين.

خامسًا: تنتهي التعزية بي عند قبري وإني بريء من كل من يقوم بنصب مأتم لي، وأبرأ إلى الله من كل عمل يخالف شرع الله من النياحة أو اللطم أو شق الجيوب أو نتف الشعور أو تكبير صوري ووضعها على الجدران.

سادسًا: أوصي أهلي وزوجتي وذريتي بالدعاء لي بالمغفرة والستر، وأن يسامحوني من أي عمل يجدونه في خواطرهم علي.

سابعًا: أن يكون قبري بجوار قبور الصالحين ما أمكن، وألا يبنى قبري أو يجصص أو يكتب عليه الشهيد، وإن استشهدت فالله أعلم بعباده.

ولله درّ الإمام الشافعي القائل:

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم في الناس أموات

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم
سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

الدكتور إبراهيم المقادمة

1952م - 2003م



ستظل القدس مركزا للصراع الكونى وليس فى القدس مكان للضعفاء.





نحاول هنا أن نكتب عن شهيد لم تكن لتغريه اللحظة الراهنة، ولم يكن ممن يتوقفون عند أضواء الكاميرات، أو نقطة مجد عابرة، بل كان يبحث دومًا عن لحظة متجذرة في العمق باسقة في ملامح الكون، وفي ضمير الوجود كان يبذر الفعل الصادق والقول الحق؛ لينبت شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

نحن نكتب هنا عمن يعرفون كيف يحفرون حضورهم بإتقان مذهل عبر نقطة دم سخية، تظل تفور في تضاريس الفعل البشري حتى تصبح شلالاً أو ربما طوفانًا غامرًا، نكتب عن الذين تتغير بعدهم الكثير من المعادلات، ويحتار الكثيرون في بصيرتهم ولا تبقى ذاكرة التاريخ بعدهم كما هي!

سرب من الحمام يحلق فوق الجثمان، ويقترب رويدًا رويدًا من جسده الطاهر في ملابسه المنداة بمسك دمه الفواح، تقترب الطيور إلى مستوى رؤوس المشيعين بالقرب من الجثمان، ثم ترتفع، ربما تبشره بما رأت من منزله الجديد. أو كأن الفضول قادها لتشاهد هذا الذي تستقبله السماء بكل هذا الفرح. طوّفت الحمامات في جو معبق برائحة المسك الفوَّاح، هذه الرائحة التي تسابق المشيعون إلى تنسمها من الشهيد علَّها تستنشق بعضًا من ريح الجنة.

لم تُروَ هذه الكرامات في أحد كتب السلف الصالح، ولا هي جزء من التراث الصوفي، وإنما شهدها قرابة 100 ألف فلسطيني في جنازة أحد رجالهم الأفذاذ.



إنه نفس الرجل الذي تعود جيرانه أن يروه في المسجد الملاصق لمستشفاه، ممسكًا بمسّاحة لتنظيف أرضية الحمامات، رافضًا بإصرار شديد أن يقوم واحد من الشباب بتحمل هذا العمل عنه.

لم يكن الشهيد إبراهيم المقادمة مجرد شخصية عسكرية أو سياسية فحسب، وإنما كان له من العلم نصيبُ الذين فتح الله عليهم في العقيدة، كان عالمًا، وفي التفسير كان مجتهدًا، وفي الحديث كان له نظرات، ومع الفقه له وقفات، كما كان شاعرًا، ومفكرًا، وصاحب نظرية في التربية، رغم أنه حاصل على بكالوريوس في طب الأسنان!!

الشهداء دوماً يعلموننا أن لهم منصة الحياة ولا يقبلون بالعتبات! لذا يضحون كثيرًا بما يملكون من أوراق عمرهم لكنهم دوما هم الرابحون! يرسمون خطوات الصعود إلى المقاعد الشاغرة بجانب النبيين. ويبتسمون في ألق الشهادة إذ يبدؤون بتقلد الجزاء قبل العروج!

والشهداء دوما مختلفون، فالشهيد هو إنسان قرر ولادة ثانية واستهل عمره الحقيقي بخطوة منحته تاريخًا جديدا. وحق للشهداء ان يكون لهم وثيقتان:

الوثيقة الأولى يوم كانوا في تعداد الأرقام البشرية أسماء مجهولة. والوثيقة الثانية يوم صاروا شهداء بسعيهم وعملهم الصالح حين أصبحوا من أصحاب المقام في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾. [الواقعة: 14]

وثيقة الميلاد الأولى

وهي تاريخ قدوم هذه الروح المباركة إلى عالم الابتلاء، حيث يمنحه الله (سبحانه) هبة الحياة وقد أتى عليه ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] يهبه الله هذه الهبة العالية ليجعل له بعدها مكانًا عليًا، ففضله في الإيجاد سابق ثم في الإعداد والإمداد، وهو الأمر الذي يراه المرء جليًا في أعمار الشهداء.

تذكر الوثائق أن الدكتور إبراهيم المقادمة ولِد عام 1952م في مستشفى الشفاء بغزة بعد أربع سنوات من تهجير أهله إلى قطاع غزة من قريته «بيت دراس» على يد المغتصبين الصهاينة عام 1948م، فسكن في خانيونس أولاً ثم انتقل إلى غزة، وأقام في مخيم الشوا ثم مخيم جباليا[1]، إلا أن الحقد الصهيوني لاحق والده، فهدم بيته، وأجبر على الرحيل إلى مخيم البريج وسط قطاع غزة، وذلك عام 1970م يوم أن كان أرئيل شاورن حاكمًا عسكريًا لغزة، وكانت سياسته تنتهج تدمير المنازل للقضاء على ثورة الشعب الفلسطيني المقاوم للاحتلال.

وكان الطفل في ذلك الترحال وتلك المشاهد اليومية يختزن المشاعر والأحاسيس الثقيلة في عمق نبضه.

والحقيقة أن التاريخ إذ يسجل الأحداث اليومية لتبدو في عين الرائي اعتيادية مثل حركة فراشة هادئة. نظنها تمر دون أن تحدث أي ضجيج لكنها في الحقيقة تتراكم في عقلنا الداخلي، وتستقر مثل موجات صغيرة تتسع دوائرها يومًا بعد يوم تشتد في عمق بحيرتنا الساكنة وتتعاظم ذات يوم، ثم تنفجر سلوكًا هادرًا.

لم يكن الاحتلال الإسرائيلي يفطن لكل ذلك، ولم يكن يظن أن لمحة القهر التي يراها في عيون الصغار كانت تكبر في الحدقات البريئة، كانت عيون الأطفال

1 – ابو العمرين، اميرة، الشهيد ابراهيم المقادم، جهاده وفكره، رسالة ماجستير، ص 78 بتصرف.

تختزن صور الظلم بكل تفاصيلها وتتنفسها مثل عصفور لا يرى في قضبان القفص الملون إلا مشنقة متحركة!

الصغار يدونون بطريقتهم الأحداث وتوجعهم أشياء تختلف عن مواجع الكبار، وفي النهاية يصبحون سجلاً عامرًا بتجربة لها مذاق لا يحتمل المغفرة!

كيف يفهم الطفل رحلة التهجير إلا من خلال الاستيلاء على مساحة لعبه وأصدقائه وذكرياته الحميمة، ونفيه بعيدًا عن وقت الفرح! الطفل لا يمتلك فلسفة عالية ولكنه يفهم الأشياء مباشرة، وتظل في ضميره كما استقرت أول مرة، ولذا كان الصهاينة مخطئين يوم ظنوا أن الصغار ينسون!

كان إبراهيم المقادمة ذات يوم طفلاً وكان الرهان على الصغار خاسرًا. فلقد كبر بحكاية التهجير والترحيل والفقد المستمر للحظات الثمينة!

وصل إبراهيم المقادمة إلى مخيم جباليا وهي المحطة الأخيرة التي استقرت فيها العائلة، وهناك درس في مدارس وكالة الغوث الدولية وحصل على الثانوية العامة بامتياز، وكان الأول على مدرسته وتلك أولى إشارات السبق!

معالم تشكل العقل النقدي

لا يبدو إبراهيم شابًا عاديًا فقد تركت فيه أسرته والأحداث العامة الكثير من البصمات المهمة وخلقت فيه لسانًا سؤولاً، وقلباً عقولاً، وكان والده -رحمه الله- يحثه على الصلاة، والتحلي بمكارم الأخلاق وأداء شعائر الإسلام في الوقت الذي كان فيه أغلب رواد المساجد من كبار السن والذين ينشغلون بالحديث عن مشاغل الدنيا.

كان النسيج العام حول إبراهيم ينبض بالكثير من التفاعلات التي تصنع في روح وضمير الشاب حوارات تدفعه دفعا نحو البحث عن إجابات مهمة لما يجري

على ساحة وطنه وعلى ساحة العالم العربي فقد كان لتنقل الشهيد، وسكنه في عدد من مخيمات غزة قبل الالتحاق بالجامعة سببًا في إثارة الكثير من الوعي المبكر لدى الشاب وكما كانت معاصرته لحركة الفدائيين في المخيمات سببًا آخر في وعيه وإدراكه لطبيعة الاحتلال وجرائمه.

كان لحملة الاعتقالات التي قام بها جمال عبد الناصر لقيادات الإخوان في غزة الأثر البالغ في زيادة إدراك ووعي هذا الشاب الصغير، وخاصة عند اعتقال جاره في مخيم جباليا الدكتور عبد الرحمن بارود، والذي تميز بالسمعة الطيبة والأخلاق الرفيعة، حيث كان المقادمة يحرص على سماع دروسه ومحاضراته ويسعى من مسجد لآخر لسماعه.

ولنتوقف قليلاً عند هذه المرحلة من عمر الشهيد، وهي مرحلة المراهقة، حيث تعد مراحل المراهقة من أخطر مراحل التشكيل العاطفي للشباب، فإما أن يتقد الشاب بجمرة خبيثة وإما أن يتقد بوقود لا انطفاء له. تتنازع الشاب في هذه المرحلة مشاعر الفيض العاطفي ويظل في صراعاته بين فورة الغرائز وبين البحث عن هوية واضحة لشخصه.

هذه المرحلة هي زمن اقتناص الطاقات والعقول الواعدة والشباب الذين يبحثون عن قالب يرتاحون فيه وتهدأ فيه ضمائرهم ورغباتهم وينشدون من خلاله الصورة التي يكتملون عبرها!

ولعل إبراهيم نجا من ضغط الاضطراب في هذه المرحلة عبر المحاضن الآمنة وهي المساجد، والصحبة التي توجه العقل والروح إلى الأحلام الخالدة والأمنيات العالية، فكانت ملازمته لدروس الدعاة الكبار ومتابعته لهم سببًا في استقرار رؤى الشاب ونضجها وقد استلهم إبراهيم من هذه المتابعة الحثيثة الكثير من المعلومات والكثير من الفهم.

ولعل ما أورده الأستاذ خضر الكردي يشهد بذلك؛ إذ إن إبراهيم عندما كان في الإعدادية، عندما حضرت بعثة صحفية مصرية لزيارة القطاع وكان من ضمن البعثة الأستاذ الصحفي والكاتب المشهور أنيس منصور، وكان من ضمن برنامج هذه البعثة زيارة المدارس وفتح حوارات مع الطلاب، وكان إبراهيم يومها في الصف الثالث الإعدادي (أ) حيث رشح صفه لمقابلة السيد أنيس منصور.

دخلت البعثة إلى الصف وبدأ الأستاذ أنيس منصور يسأل في كل مجال رغبة منه أن يتعرف على مواقف الطلاب في شتى القضايا السياسة، والأمور الاجتماعية، فانبرى له إبراهيم الذي تميز بإدراك أكثر من أقرانه، وبدأ يسأل بدل أن يجيب، وكأنه يقارع الموقف بالموقف، ففوجئ أنيس منصور بموقف هذا الطالب الذي تميَّز بمنطقه ورجاحة عقله، وعندما انتهت الحصة خرج مع بقية أعضاء البعثة وهو يقول: «أنا شعرت نفسي صغيراً جداً وأنا واقف قدام العيّل ده!»، وتلك شهادة تحمل نبوءة في داخلها وإرهاصات مستقبلية وقد جاء اليوم الذي وقفنا فيه جميعًا صغارًا أمام قامة الشهيد البطل.

جعلت هزيمة 1967م، المقادمة يبحث عن ما يشبع فكره وعقله، فسمع للشيخ أحمد ياسين خطيب مسجد العباس، فاقتنع بفكره وبطرحه، ووقوع الكلام منه موقع القلب وتركت هذه الكلمات بالغ الاثر في عقل الفتى، بعدها انتقل إبراهيم بعد الانتهاء من الثانوية العامة إلى مصر لمواصلة دراسته الجامعية حيث التحق بكلية طب الأسنان وتخرج عام 1976م، وعاد إلى قطاع غزة بعد أن تزوج من ابنة عمه المقيمة في مصر، وفور عودته عُيِّن في مديرية الصحة زمن الاحتلال الإسرائيلي، وعمل في قسم الأشعة بمستشفى العريش الذي كان تحت الاحتلال الإسرائيلي قبل أن يعود إلى مصر، ثم انتقل للعمل في مستشفى النصر للأطفال ومستشفى الشفاء بغزة ثم أصبح أخصائيا في الأشعة.

فصلته السلطات الصهيونية من وزارة الصحة بعد اعتقاله، حيث انتقل بعدها إلى العمل في مستشفى الجامعة الإسلامية في غزة.

بعد ذلك عاد الدكتور إبراهيم المقادمة إلى مخيم جباليا وفتح في المخيم عيادة لطب الأسنان حتى يقدم خدمة لأهل مخيمه الذي عاش سنين طفولته وشبابه فيه. (ومن طرائف الحكايات التي يتندر بها أن عجوزاً جاءته تلُف طقم أسنان بخرقة، فقالت: يا دكتور أريد أن أرجع طقم الاسنان لأن الحج مات-وكان قد ابتاعه زوجها من الدكتور قبل أسبوع من موته-فقبله الدكتور وأعاد لها قيمة الطقم كاملة).

ورغم النجاح الذي حققه في عمله، فانه تفرغ فيما بعد لعمله الإسلامي ودعوته التي وهب لها عمره.

انتماء وتميز

وكانت في فترة دراسته الجامعية حيث التقى الشهيد بجماعة الإخوان المسلمين وارتبط بهم فكرًا وتنظيمًا وولاءً وسعيًا مباركًا أتمه الله له بالشهادة في سبيله، ونستعرض في هذه السطور أهم المواطن التي شكلت الإضاءة الحقيقية في عمر الشهيد المبارك.

أولاً: الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين

تعرف الشهيد على جماعة الإخوان المسلمين بشكل مباشر أثناء دراسته بكلية طب الأسنان في مصر، وشارك بأنشطة الجماعة، فكان إلى جانب تحصيله للعلم يقوم بمهام الدعوة مع الإخوان المسلمين، فكان أحد أهم المسؤولين عن النشاط الطلابي الإسلامي الفلسطيني في الجامعات المصرية، ومن الجدير بالذكر هنا أن الشهيد قرأ في تلك الفترة كتب الإخوان التي طبعت في مصر أثناء دراسته الجامعية مما أعطاه عمقًا في الوعي والفهم، فكان ارتباطه بالجماعة على بصيرة ودراية وقناعة مبنية على اطلاع شامل.

يحدث بنفسه -رحمه الله- عن بداية انتماءه للحركة الإسلامية وبيعته فيقول: عند بيعتي للشيخ المجاهد أحمد ياسين قال لي -رحمه الله-: يا إبراهيم إنك تنحو طريقًا صعبًا مليئاً بالأشواك والمتاعب فهل أنت مستعد، وقد انتهيت من كلية الطب، أن تبيع في السوق وتترك مهنة الطب إذا لزم الأمر، بدلاً من هذه المكانة العظيمة والمرموقة ألا وهي الطب، فقال الدكتور إبراهيم المقادمة: نعم أنا مستعد.

ثانياً: المشاركة في تأسيس حركة حماس

عندما عاد المقادمة عام 1976م إلى قطاع غزة التحق بقيادة الإخوان المسلمين، وكان على مقربة من الشيخ أحمد ياسين الذي أحبه حبًّا لا يوصف، وشكّلا معًا القيادة الفاعلة لحركة الإخوان في فلسطين، كما شكّل المقادمة مع الشهيد القائد صلاح شحادة وبعض الكوادر الأخرى النواة الأولى للجهاز العسكري للإخوان المسلمين في قطاع غزة، وعمل على إمداد المقاتلين بالأسلحة. وفي عام 1983م اعتقل مع الشيخ أحمد ياسين بتهمة الحصول على أسلحة، وإنشاء جهاز عسكري للإخوان المسلمين في قطاع غزة، وحكم على الشيخ أحمد ياسين بثلاثة عشر عامًا، وعلى المقادمة بثماني سنوات لعدم اعترافه.

وبعد أن أنهى الشهيد فترة سجنه حكم عليه بستة أشهر إضافية «إداريًا» (بدون محاكمة) بعد أن كتب عن اتفاقية أوسلو ومخاطرها على القضية الفلسطينية، وعندما خرج عام 1992م علقت الصحف العبرية بأنه تم الإفراج عن «نووي حماس في غزة» واصفةً إياه بأنه أخطر المعتقلين على إسرائيل!

نشط الدكتور المقادمة في المجال الدعوي والفكري لحركة حماس، وكان يقوم بإلقاء الدروس الدينية والفكرية والسياسية والحركية بين شباب حماس وخاصة الجامعيين منهم، وكان له حضور كبير بينهم.

وفي أوائل الثمانينات فاز المقادمة بعضوية مجلس إدارة الجمعية الطبية بغزة، وكذلك فاز الشهيد القائد الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والدكتور محمود الزهار، والدكتور إبراهيم اليازوري، وسرعان ما تحولت الجمعية الطبية إلى رائدة للعمل النقابي والنضالي ضد ممارسات الاحتلال فخاضت إضرابًا شاملاً غطى مناطق قطاع غزة واستمر 21 يومًا، وكان المقادمة من أبرز المحرضين والمجتهدين في إنجاح الإضراب، ضد سلطة الاحتلال الصهيوني.

معالم التفرد

أولاً: القراءة والثقافة العميقة

معالم التفرد في شخصية العظماء دومًا هي نتاج صناعة طويلة، وحفر عميق في الصمت، وسعي دؤوب في غفلة الناس، وعتمة الأحداث، لبناء قامة تزهو بها الحياة دوما لا نسمع ضجيجًا لخطوات الكبار في سيرهم، ولكننا نراها مثل الشمس في آثارها ونسمعها جليًا في أبعاد الصدى في حياة الأجيال التي تمر على خطواتهم.

لقد أدرك الدكتور إبراهيم المقادمة أهمية العلم والثقافة العالية في صناعة الرؤية المبصرة في عقل القادة، وكان نهجه هو فتح أبواب المعرفة في عيون بصيرته كي يبلغ بها إلى ناصية الفهم و القرار الصائب. كان الدكتور يفهم قيمة «اقرأ» في بناء إنسان الرسالة الأولى وخطورة هذا المفتاح في بلوغ مرامي الوعي التي هي عتبة التغيير الحقيقية والسبيل الأوحد لبناء جيل لا تحصده مخططات العدو ولا تبعثره متاهات العدو؛ لذا فقد كان الدكتور المقادمة مشهودًا له بسعة اطلاعه على شتى التخصصات ثقافة ووعيًا، بل وصفه كل من عرفه بأنه كان عالمًا في كل شيء، وقد روى من عاصر الشيخ في سجن عسقلان أن الشيخ شُهد له بأنه قرأ مكتبة السجن كاملة بلا استثناء، ومن حرصه وحبه

للكتب كان يقوم بإصلاح وتجليد ما أوشك على التلف منها، ويصف الشهيد هذه الحقبة من السجن وكيف قضاها فيقول: «عشت ثماني سنوات ونصف في السجن كأني في شهر الامتحانات في الجامعة، حياة استنفار في مرحلتها الأولى في سجن عسقلان تثقيف للذات، بعد صلاة الفجر، أجلس وأقرأ خمسين صفحة في تفسير القرآن الكريم يوميًا، ثم أمارس الرياضة مع الشباب، وأعقد بعد ذلك ثلاث جلسات كل واحدة منها 3 ساعات، قرأت في السجن تفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير، وصحيح مسلم، وتاريخ البداية والنهاية، وكل ما يتعلق بفكر الإخوان المسلمين، وما يتعلق بالقضية الفلسطينية، كما كتبت القصائد الشعرية، ولم أندم على يوم واحد قضيته في السجن».

ولعله من المهم جدًا أن تدون هذه الملاحظة في سيرة كل صناع التغيير وقادة الإصلاح في العالم أنهم كانوا على صلة حميمة بالمعرفة وعلاقة مميزة بالكتاب، فالاطلاع على الحكمة الإنسانية والتجارب التاريخية وخلاصة العقول الذكية هو سبب وجيه في رفع القدرة العقلية لدى القيادات المرشحة للإصلاح وتحريك الجماهير، وقد قالها عمر بن الخطاب «تفقهوا قبل أن تسودوا»، والفقه هنا أوسع من العلم إذ هو الفهم العميق لوظيفة المعلومات!

ورحم الله ابن عطاء السكندري إذ أصل قاعدة جليلة في التربية بقوله: «ما نبت مما لم يدفن لم يتم نتاجه»! وقصد بذلك أن سنوات التأسيس العقلية والنفسية هي التي تثمر قمحًا يستحق الحصاد وتصنع أرغفة الفجر القادم!

لقد استحق الدكتور إبراهيم المقادمة بهذه الثقافة العالية التي شهد بها الجميع أن يكون أحد مفكري الإخوان المسلمين، وعلى منابر حركة حماس في فلسطين.

كان المقادمة لا ينام حتى يقرأ ما يشبع نهمه. وكان يقرأ حتى بعد إطفاء ضوء الغرفة ونوم السجناء. يقرأ ولو على بصيص الضوء الخارجي الخافت...

يقرأ فلا ينام حتى يغلبه النوم، وكم نام في سريره على وضع القراءة، أو شبه استلقاء، فتراه قد استسلم للنوم بعد طول إجهاد وهو قابضٌ على كتابه أو مجلده أو هو مفلتٌ منه على صدره!!

وكان إذا وقع بين يديه كتاب لا يدعه حتى يتم قراءته كاملاً، ويجدر بالذكر أن ثقافته واطلاعه لم تقتصر على الكتب العربية بل تعدته للكتب الأجنبية وخاصه إجادته الانجليزية، وقد وصل به الحد أنه إذا أعجب بكتاب ووجده قيمًا طبعه على نفقته ووزعه على الشباب.

هذه القراءة الهائلة أنتجت قلمًا سيالاً ورغبة عارمة في الكتابة وحاجة ملحة في داخل الشهيد إلى تسطير نتاج القراءة الواسعة والحوارات العقلية الداخلية؛ إذ أنه من المعلوم أن الكتابة تولد من رحم القراءة وتخلقها الحياة الممتلئة بالكتب، ولعل مطالعة سريعة للإنتاج الفكري والعلمي للدكتور المقادمة تكشف عن ثراء هائل كان يتمتع به الدكتور نتيجة نهمه الواسع بالقراءة المتنوعة واطلاعه على التخصصات الكثيرة حتى يبدو الدكتور كأنه موسوعة علمية وثقافية متحركة.

ولم يمنع الدكتور من طباعة الدراسات التي أعدها والكتب التي ألفها والمحاضرات التي كان يلقيها سوى ظروف حياته الصعبة وسجنه الطويل.

فقد اضطر المقادمة -لظروف السجن-أن يصدر عدة كتب ودراسات بأسماء مستعارة، ككتابه الشهير «الصراع السكاني في فلسطين» الذي ألّفه في سجن عسقلان في عام 1990 تحت اسم الدكتور «محسن كريم»، حيث يتناول المقادمة في هذا الكتاب بالتفصيل عمليات الهجرة اليهودية إلى فلسطين منذ عام 1881 وحتى عام 1990، ودوافعها وآثارها، ونبه فيه على النمو السكاني الطبيعي عند اليهود والفلسطينيين، ثم انتهى فيه إلى بيان مسؤولية الحركة الإسلامية في إدارة الصراع السكاني.

أضف إلى ذلك «معالم في الطريق إلى تحرير فلسطين»، و«الصراع السكاني في فلسطين»، وما كتبه الدكتور عن أوسلو وعن الجهاد وعن الأمن، وعن أحكام التجويد وغيرها من القضايا. ناهيك عن حرصه على كتابة مقالات أسبوعية في الصحف والنشرات والمواقع الإلكترونية الإسلامية، وللشهيد ديوان شعري اسمه (لا تسرقوا الشمس) يقع في خمس وستين صفحة.

ويعد كتابه الأكثر أهمية «معالم في الطريق إلى تحرير فلسطين» حيث يوجّه الدكتور المقادمة حديثه إلى الشباب المسلم في كل مكان قائلا لهم: «إن عليهم يرتكز الأمل في تفهم أبعاد القضية الفلسطينية، والانطلاق بها في الطريق الصحيح».

ويضيف: «إن واقعنا تعيس إذا ما قيس بقوة أعدائنا وما يدبرونه لنا من مؤامرات، غير أن لي في الله أملاً أن يتولى دينه وينصر جنده ويخذل الباطل وأهله. وبشارات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ لتجعل هذا الأمل يقينًا راسخًا أراه رأي العين».

ويكمل: «ولي أمل في شباب الحركة الإسلامية أن يقوموا وينفضوا عن أنفسهم الغبار، ويواصلوا العمل ليل نهار جهادًا في سبيل الله وتضحية بكل ما يملكون من جهد ونفس ومال ووقت، ويخلصوا توجيه هذا الجهد لله سبحانه، ويوطّدوا العزم على السير على طريق الإسلام، متحدين على طريق الإسلام لتحرير فلسطين وكل الأرض من رجس الطاغوت».



كتب الدكتور عشرات المقالات، ومن مقالاته الأخيرة «الدور الأمريكي وخارطة الطريق»، وعن «المبادئ والمصالح»، و«أين الجماهير العربية؟»، و«استعينوا بالله واصبروا»، و«انفراد حماس بالمقاومة لا يعني العزلة»، و«طلابنا والثقافة»، و«فرصة الذبابة وفلسفة المقاومة». وكان آخر ما كتب المقادمة «الحل الأمريكي الصهيوني أسوأ من الحرب». كما قام الدكتور بإلقاء مئات المحاضرات في مختلف المساجد والمعاهد والجامعات، وأصدر عدة إصدارات صوتية مسجلة تتضمن بعض محاضراته، منها: سلسلة «بناء الشخصية»، و«حسن المعاملة» و«الأخوة الإسلامية»، و«العمليات الاستشهادية والروح الجهادية»، «أساس الدعوة»، و«توبة كعب بن مالك»، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ثانياً: القوة النفسية

«إن ثبات الأركان من ثبات الجنان». حقيقة تشهد لها مواقف العلماء والمجاهدين والشهداء والصالحين فقد سطر التاريخ مقولات يرددها أهل العلو تنم عن قوة نفسية انعكست في سلوك متسامٍ عن الجزع ومتعال عن رهبة السجون وأعواد المشانق.

ولذا كان أول الوعد للنبي ﷺ بشرح الصدر حتى انفسح فرأى من وعد ربه كنوز كسرى ومفاتيح روما تُهدى إليه، ولعل الخيط الفاصل بين الثبات والاهتزاز لا يكمن في القوة الجسدية ولا الحالة البدنية بل يكمن في القوة النفسية للمجاهد والتي تجعله يرى ما فوق التراب تراب!

ويصف محمد بن إبراهيم بن مصعب، _ وهو يومئذ صاحب شرطة المعتصم _ ثبات الإمام أحمد بن حنبل في محنته بقوله: «ما رأيت أحدا لم يداخل السلطان ولا خالط الملوك كان أثبت قلبًا من أحمد يومئذ، ما نحن في عينيه إلا كأمثال الذباب!»[1] وذلك من شدة استعلائه وتمكن الثبات من فؤاده.

1- سير أعلام النبلاء :شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذَهَبي-ج1ص285 المحقق:مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط:مؤسسة الرسالة.

وتشابه هذا الموقف حين اعتقل الدكتور المقادمة في زمن السلطة الفلسطينية لمدة تزيد عن الثلاث سنوات صمد فيها صمود الجبال تحت التعذيب، حيث مكث الدكتور في زنازين دحلان (الأمن الوقائي بغزة) تحديدًا تسعة أشهر حيث كان وزنه عندما دخل السجن تقريبًا 100 كيلو وبعد تسعة أشهر منها 4 شهور قضاها في التحقيق، خرج من الزنازين ووزنه 54 كيلو بالضبط، ووصل الأمر من شدة التعذيب أنه تم تكسير أضلاع قفصه الصدري في سجون السلطة، حيث كانت التهمة المنسوبة إليه هي قيادة الجهاز السري لكتائب القسام في حقبة قدوم السلطة بقيادة ياسر عرفات، وهذا غيض من فيض قريحة الشهيد ابراهيم يصف غلظة السجان، وقسوة التعذيب فى سجون السلطة فيقول:

ويأتي الليل يطرق بابنا المقفل
ويمضي الليل، هيا دونكم جسدي
وهات القيد، مزق معصمي الأجدل
وهات الكيس واكتم زفرتي الحرَّى
وصب الثلج، في كانون في صدري
فإن القلب كالمرجل
وهات الغاز واحرق مقلتي الحرّة
وسد منافذ الأنفاس في رئتي فلن أوجل
وهدد كيفما تهوى وعذب كيفما تهوى
فدونك قلبي المقفل
ويمضي الليل هيا، دونك، اصلبني
على الجدران، واحرم مقلتيَّ النوم
هات الضرب، هات الركل، لا تبخل

وكل وسائل التعذيب جربها، فلا تخجل
عذب صبيتي، هيهات، أن أهن
وقلبي عامر بالذكر، يبتهل
وعزيمتي نار بها الإيمان يشتعل
وروعي بارد كالطل
وكل وسائل التعذيب لن تجدي
فتيلاً في فمي المقفل
سأصبر رغم تعذيبي وآلامي
وأصبر رغم أوجاعي وأسقامي
ولما تصّعد الآهات من قلبي فلا تعجل
فتلك الآه للرحمن أرسلها لتثبيتي
فإن الموت أهون من قبول العار يا أرذل
وإن الآه للرحمن أطلقها
تخفف وطأة الآلام، تطفئ لذعة الحنظل
بلال، يا بلال الخير علمني
دروسًا في تحدي البطش أحفظها ولا أغفل
وأرفع هامتي للشمس أستعلي
ومن ظُلمِ الزنازين سأخرج في يدي المشعل
لأرشد أمتي العزلاء
أصنع للغد الآتي بطولات ومستقبل.

يقول الاستاذ الدكتور عبد الخالق العفّ أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية بغزة: «إن لشعر القائد الشهيد أثرًا انفعاليًا في نفس المتلقي لأن نبض الحياة قد سرى في شرايين الكلمات بعد أن استشهد قائلها في سبيلها».

مكث الشهيد في أقبية التحقيق عند الأمن الوقائي حوالي أربعة أشهر وفي كل مرة كانوا يساومونه على أن يتنازل عن المبدأ حتى يرحم نفسه -كما يقولون- ويرحم الذين كانوا معه من شباب الكتائب، وعندما كانوا يضعون له أوراقًا فارغة على مكتب التحقيق ويطلبون منه أن يكتب عن رؤيته للمرحلة ورؤيته لموقف الحركة الإسلامية، وهل هو ضد أو مع اتفاقية أوسلو؟ فكان الدكتور إبراهيم المقادمة يكتب لهم ما يغيظهم.

والدكتور الشهيد يذكرنا بهذا الموقف بسلف الأمة الصالح وخاصة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الذي روى جلاده (شاباص) التائب قائلا: لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوطًا، لو ضربتها على فيل لهدّته!!

وكان عمر الإمام في ذلك الوقت في منتصف العقد السادس من عمره حيث يظن بمثله الضعف والعجز والانهيار ولكن ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [ابراهيم، 27]، ويكتب الله بهؤلاء معجزات الحياة وأيقونات الثبات وأساطير العزة في التاريخ.

في الحياة المباركة تصبح المحنة منحة والمنع عطاء! وتزهر الآلام آمالاً وكما قيل: «وفي كل جرح لنا حديقة غناء»! فالعظماء فقط هم من يصنعون من السجن مدرسة ومن الوجع سلمًا نحو فردوس الخلود وقد صدق التاريخ يوم كتب عن الإمام أحمد قائلا: «لولا سياط على ظهر ابن حنبل ما كان إمام أهل السنة»!

ولقد وصف الاستاذ إسماعيل هنية تلك الفترات من حياة الشهيد بقوله: «كم كان ذلك الوقت مؤلمًا أن يكون الدكتور المقادمة يضرب بالسياط حتى لا يستطيع الوقوف على قدمه، في حين كان هو من يوقف العدو الصهيوني على قدميه... كم هي مفارقة عجيبة!!».

ربما تبدو مفارقة عجيبة لكنها ضريبة يدفعها من قبلوا البيعة لإحياء أمم تحتاج من يعلمها كيف تعبر من الركوع إلى القيام! وقد قالها أبو يَعقوب يوسف بن يحيى البُوَيْطي وهو في قيوده: «والله لأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتيَ من بَعدي قومٌ يعلمُون أنه قد ماتَ في هذا الشأنِ قومٌ في حَديدِهم، وَلئِنْ أُدْخلتُ عليه لأصدُقنّه»[1] يعني الخليفة الواثق في كلمة الحق!

لقد فهم الدكتور الشهيد هذه المعاني وتشربها قلبه عبر قراءاته الواسعة وشدة صلته بربه؛ لذا حين شاهد أحد الشباب وقد تورم جسمه من شدة التعذيب فقال لمن معه في السجن يا إخواني: «هذه طبيعة الإسلام طبيعة دعوتنا أن فيها شدة وابتلاء وعلينا أن نصبر ونحتسب فما هي إلا أيام قلائل ومدة يسيرة بإذن الله وكل شيء يزول».

بل إن الشهيد المقادمة يقدم تجربته عن الاعتقال في حلة تدل على عميق فهمه للمعاني الإيمانية وعلى قوته النفسية العالية حيث يقول: «السجن محطة من محطات التربية، فهي فترة تمحيصية، فمن كان معدنه قويًا يزداد صلابة، وهي تجربة حية في حياة الدعوة الإسلامية وليس كما يتصور البعض أنها إحباط للعمل، بل هي ثغرة للأمام ونهضة بالمستوى الفكري والأيدلوجي».

لن يستطيع أحد أن يوقف مقاومة شعبنا رغم كل المخططات التي تحاك لإخمادها من قبل أمريكا وأعوانها متسائلاً: ماذا يتوقع العالم من الأمة التي تسلب أرضها ويقتل أطفالها وتدمر بيوتها؟ هل تقف مستسلمة رافعة الراية البيضاء؟ أم التحدي والصبر على مواجهة أعداء الله ودينه في الأرض؟ ولو كانت الضريبة عالية.

ومن مظاهر قوة الدكتور المقادمة النفسية وعلو كعبه في ذلك وشدة يقينه بربه وعظيم صلته بالله ما ذكره أحد الذين اعتقلوا برفقة الدكتور المقادمة

1- مناقب الإمام أحمد: بن الجوزي –ص535 المحقق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي:دار هجر-ط2، 1409 هـ

في سجون الاحتلال الصهيوني يوم بلغهم نبأ استشهاد نجله أحمد غريقًا في البحر حيث بدأ الجميع بإعداد مكان لاستقبال العزاء حتى انتهوا قرب المغرب وتزامن ذلك مع موعد مسبق لدرس ديني في الإسلام والدعوة وعندما شاهدهم الدكتور المقادمة سألهم ماذا تفعلون، قالوا «بيت عزاء بشأن أحمد»، ردَّ وقال: «بعد الدرس إن شاء الله».

يصف الدكتور محمد شهاب هذا الموقف فيقول: «اجتمعنا للعزاء في غرفة السجن وانتظمنا لمواساته، ثم جلسنا في حلقة كبيرة واستحضرت ما شاء الله أن استذكر وبصعوبة بالغة من آيات وأحاديث وأمثال الصبر والمواساة، ولكن هيهات هيهات لقد ضاعت الكلمات واختنقت العبرات فبكيت رغم أنفي وبكى الحاضرون لعظم المصيبة، فإذا به يمسك دفة المجلس وينطلق بالحديث كما يريد معلمًا هاديًا ومربيًا بلا دموع ولا حشرجة ولا اختناق، وكان درسًا عمليًا في الصبر واليقين لا ينسى، وانفض العزاء ولا عزاء!!.. و بالفعل أعطى المقادمة الدرس ثم تقبل العزاء في نجله البكر.

لقد كان الدكتور إبراهيم المقادمة -رحمه الله- مدرسة في الثبات ورباطة الجأش والصبر وسكينة الإيمان حتى كأنه شيخ الإسلام «ابن تيمية» في ذلك والذي قال عنه تلميذه ابن القيم: «علم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط مع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف وهو مع ذلك كان أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وَأَسَرَّهُمْ نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه؛ فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها».

وأخيرًا فإن من أهم علامات قوة المرء النفسية ودلائلها وسمو روحه وعلو قيمة هو طريقة تعامله مع خصومه، وقد ظهر ذلك جليًا في مواقف الدكتور المقادمة فبالرغم مما أصاب المقادمة من عذاب في سجون السلطة الفلسطينية فقد كان حريصًا على الوحدة الوطنية الفلسطينية، وعدم الانجرار إلى الحرب الأهلية، حريصًا على توجيه الرصاص فقط إلى صدور الأعداء الصهاينة، وتحريم توجيهه إلى صدور أبناء الشعب الفلسطيني الصابر المجاهد.

وقدوته في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كان يقول: «أحللت كل من آذاني، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وقال القاضي ابن مخلوف وكان من أعدائه الذين تسببوا في سجنه واضطهاده وعذابه في داخل السجن: ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا»!

ولقد تمكن الدكتور المقادمة من رقاب الكثيرين من جلادي الأمن الوقائي، فما انتقم لنفسه، بل كان قدوته رسول الله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» واحتسب ما أصابه عند ربه.

ثالثاً: الوعي الاستراتيجي

قال الأستاذ الشيخ محمود محمد شاكر -في تقديمه لكتاب (في مهب المعركة): «فإذا نحن نرى أنفسنا في ضوء ما كُتب قديماً، كأننا لم نتقدم خطوة في فهم البلاء الذي ينزل بنا ولا يزال ينزل، وأشد النكبات التي يصاب بها البشر نكبة الغفلة عن الدروس والعبر».

تميز الدكتور الشهيد بوعي استراتيجي عالٍ اتضح جليًا من خلال كتاباته ومحاضراته، وكان الشهيد ينظر للسياسة من خلال الدين فيؤمن بالسياسة المنطلقة من وعي ديني مؤسس على بصيرة شرعية وفهم لمجريات التاريخ.

كما كان الصدق من أبرز ملامح السياسة التي يتبناها المقادمة، وكان يرجع في تحليل أية قضية سياسية إلى الكتاب والسنة ثم يصدر حكمه عليها.



إن الوعي السياسي عند الدكتور المقادمة يمثل جزءًا من وعي تاريخي فنلاحظ أن الدكتور المقادمة يقرأ التاريخ السياسي جيدًا ويقيمه ويتعرف على محاور الخلل ويحاول علاجها في الوقت الحاضر فيقارن بين صلح الحديبية في عهد الرسول ﷺ وصلح الرملة بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي والصليبيين وبين اتفاق واشنطن فيجد أن المسلمين في صلح الحديبية وصلح الرملة كانوا في مركز قوة وتفاوضهم كان من مركز القوة، أما في اتفاق واشنطن فالمسلمون في موضع الخاسر دائمًا، فيرفض هذا الاتفاق جملة وتفصيلاً؛ لذلك نجده يرفض تعريف السياسة بأنها فن الممكن أي أن السياسي يحاول تحصيل المصلحة لشعبه في حدود الإمكانيات المتاحة التي يستطيع الحصول عليها خلال مناوراته السياسية ودبلوماسيته وذلك؛ لأن نفسية السياسي لها مدلول فإن كان السياسي يثق بإمكانيات شعبه ويعرف طاقته الكامنة، فإن سقف هذا الممكن يرتفع ويتخذ السياسي في عمله منحى جهاديًا متصاعدًا يفجر طاقات شعبه أما إذا كان السياسي فاقد الثقة في أمته خائر العزيمة فإن الممكن الوحيد في نظره هو الاستسلام.

هذه الحقائق هي ما اتفق عليها المفكرون الصادقون وسطروا لأجلها الصحائف وهي تجربة التاريخ ونتاج ما بلغته الحركات والتيارات الإصلاحية، لقد كانت هذه المفاهيم كلها جلية في عقل الدكتور المقادمة الذي كان على وعي سياسي واضح فيها خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وما يراد لها من مختلف التوجهات سواء محليًا أم عربيًا أم عالميًا.

ففي كتابه معالم في الطريق إلى تحرير فلسطين يحلل أغلب مشاريع التسوية التي عرضت لحل القضية الفلسطينية ويستنتج أن هذه المشاريع إنما تهدف في النهاية إلى ترويض العرب والمسلمين وجعلهم يقبلون بوجود دولة صهيونية في قلب بلاد الإسلام لأن هذه المبادرات كانت تقدم للشعب الفلسطيني وقتاً يظن أنه يستطيع الحصول على أكثر من ذلك فيفرض المبادرة وبالتالي يظهر في صورة المتعنت، وحتى إذا وافق بعض قادة الشعب الفلسطيني على هذه المشاريع نجد الدول الاستعمارية الكبرى تعمل على سحب هذه المبادرة بحجج واهية.

رابعاً: العمق التربوي

«أنه من السهل إقامة دول ولكن من الصعب إحياء أمم» وقد وصف مالك بن نبي في كتابه «وجهة العالم الإسلامي» في طبعته الفرنسية التي لم تتعرض للمراقبة والحذف دور الشهيد الإمام حسن البنا -رحمه الله- بقوله: «حسن البنا مصلح وعالم مجدد بعث في الناس إسلامًا خلع عنه سدول التاريخ! واستطاع أن يؤثر تأثيرًا عميقًا في سامعيه وما كان ذلك إلا لانه لم يكن يفسر القرآن، بل كان يحييه إلى الضمائر التي يزلزل كيانها، فالقرآن لم يكن على شفتيه وثيقة باردة أو قانون محرر، بل كان يتفجر كلامًا حيًا وضوءًا آخذًا يتنزل من السماء، فيضيء ويبصر السامعين، وكان منبعًا للطاقة يشحذ إرادة الجوع للحق».

إن هذه الكلمات هي تلخيص للمهمة الجليلة التي رابط عليها المصلحون وعكفوا عليها وقاموا لأجلها قيامًا لا قعود بعده! ولقد كان الدكتور إبراهيم المقادمة متيقظًا لهذه المهمة مدركًا للمسؤولية الكبرى فيها وواعيًا فطنًا لمراحلها وعتباتها وآثارها البعيدة على تحقيق أهداف المقاومة المباركة، إذ التربية العميقة المبنية على الفهم والبصيرة هي زاد الجهاد الذي لا ينطفئ، وعدة النصر الذي لا ينهزم بإذن الله.

لذا فقد سخر الدكتور فكره وعمله في تربية جيل جهادي، تتجسد فيه الهوية الفلسطينية الإسلامية، والوعي السياسي، ليسهم هذا الجيل بواجبه في خدمة قضية فلسطين وقضايا الأمة إذ غلب على فكر وثقافة الدكتور ابراهيم المقادمة الفكر الجهادي التربوي، ويتضح ذلك جليًا في مقالاته الأسبوعية في صحيفة الرسالة: ففي مقالة «الجهاد والفقر والجوع» يوضح أن «الصراع الدائم بين ضغط الحاجة للطعام وبين حاجة الإنسان للكرامة وما تقوم به إسرائيل من فرض الحصار وتجويع الشعب الفلسطيني حتى تثنيهم عن طريق الجهاد والمقاومة»..، ويخلص في نهاية المقال إلى أن الشعب الفلسطيني اختار الجوع ورفض الركوع.

والحقيقة أن الدكتور ابراهيم كان سعيدًا بهذه النتيجة وهذا الاختيار لأنه يحبذه ويتوافق مع طريقة تفكيره ومبادئه ودليل ذلك قوله: «إن التربية الإسلامية تأثيرها على الأخلاق الفاضلة والعبادة الصحيحة وهي معبر أساسي للوصول إلى الجهاد الصحيح وأن نؤمن إيمانًا عميقًا أن النصر من عند الله ﷻ وأن النصر يتنزل على الفئة المؤمنة التي تخاف ربها وتتقيه وأن المعاصي دومًا سبب للهزيمة».

وفي مقاله «الجهاد والدعوة» يوضح «أن الجهاد عنوان لدعوة الإسلام وهو عمودها الفقري ولا حياة لها بدونه» وفي ختام المقالة ينصح الحركة الإسلامية أن تختار للجهاد رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ويجب أن تتوفر بهم شروط ومواصفات يوضحها في مقاله «الجهاد وطول الطريق» وهي الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى وإخلاص النية في العمل والارتباط بالله سبحانه وتعالى من خلال العبادة الصادقة والصبر لأنه أساس العمل الجهادي، والصدق والأمانة والطاعة فهي أساس أي عمل عسكري، و الشجاعة المستمدة من قوة العقيدة والتواضع لله سبحانه وتعالى مهما كبر عمله وكذلك السرية والكتمان والخبرة والمعرفة الجيدة بالسلاح فهذه الصفات يجب على كل مجاهد التحلي بها.

إن العاملين في الساحة التربوية ليدركون بعمق قيمة الجهد التربوي في رعاية المشروع المثمر، الذي ينتج إصلاحًا حقيقيًا على صعيد الفئة التي تقود الأمة نحو التغيير، وعلى صعيد المجتمعات التي يراد لها صوابًا في حياتها وكرامة في معاشها.

وكلما تكثف السعي في اتجاه التربية العميقة كلما ضمن المصلحون سيرًا صائبًا في اتجاه المبتغى، وأخطر ما تبتلى به حركات التغيير هو ضياع بوصلة الطريق وضبابية الرؤية والتي تؤدي حتما إلى فشل في النتائج نقطفها ثماراً مرة.

لقد كان الفكر الجهادي عند الدكتور المقادمة نابعاً من إيمان عميق، وعقيدة ثابتة، جعلته يشعر بالفرح وبلذة المعاناة خلال المحن التي يتعرض لها شباب الحركة الإسلامية؛ لأن المحن أول خطوة على طريق الجهاد المضني الذي يسعون من خلاله للوصول إلى الانتصار بإذن الله فيقول: «كنت أنظر إلى شباب الحركة الإسلامية وهم يضربون وهم يتظاهرون ويستشهدون ويجرحون ويسجنون وأنا في تمام الارتياح للمستقبل، لقد بدأت الدعوة تؤتي ثمارها شبابًا مجاهدًا في سبيل الله».

إن فلسفة المقاومة كما يراها الدكتور إبراهيم هي حرب إرادة ينتصر فيها الأكثر عزمًا وتصميمًا وليس الأكثر تسليحًا، وأنه لابد من دفع ضريبة الحرية ولابد من الصبر والمصابرة؛ لنصل إلى ما نصبوا إليه من نصر وتمكين، ولكن من يتخلى عن الجهاد سيلحقه الخسران ولن يضر الله شيئًا وسيأتي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوم يجاهدون في سبيله لأن الجهاد قدر الله الغالب وإننا حين نمارس الجهاد في سبيل الله يجب أن نوطن أنفسنا أن الجهاد لا يعرف التوقف ولا التراجع حتى لو حررنا كل فلسطين فإن العمل الجهادي سيستمر وإن بناء الدولة المؤمنة بعد التحرير لا يقل أهمية عن الجهاد لتحريرها، بل لعله أخطر لأن إقامة دولة العدل والإسلام هو طريق المؤمنين الصادقين.

إن إدراك الشهيد المقادمة لكل هذه المفاهيم تجلت بوضوح في سجن غزة وعسقلان، فقد كان الشباب داخل المعتقلات في أمس الحاجة إلى من يملأ عليهم أوقات الفراغ، وكانت الأغلبية منهم يملؤون هذا الفراغ بالحديث التافه ولعب النرد والورق، مما يسبب لهم الكثير من المشاكل.

ولكن الدكتور المقادمة استطاع أن يعلمهم نموذجًا آخر للحياة، حيث انكب على القراءة بشكل كبير هو وإخوانه، كما وضع لنفسه برنامجًا يوميًا يبدأ بالرياضة، ثم المحاضرات التربوية والتاريخ الفلسطيني، وقدم للشباب نموذجًا فريدًا في بناء الذات للتحرير وبناء الإنسان الذي يليق به مشاهد النصر القادمة، ولقد استطاع بفضل الله أن يحول السجن إلى مدرسة على نهج وخطى ابن تيمية، بعد أن تعلم منه الجميع الرجولة والثبات والصبر والثقافة والعلم.

لقد نجح الدكتور المقادمة في تحقيق معانٍ عالية وبناء المنهج الإصلاحي المستمر فلطالما تعرض الإصلاح إلى نكسات سببها الانقطاع وعدم الديمومة ونقصان الخط المتواصل في التدفق التربوي.

فحين تعرض الجهاز العسكري لحماس في عام 1996م إلى ضربة قوية من الأجهزة «الأمنية الفلسطينية» نجح الدكتور إبراهيم أن ينهض به عقب الضربة، نجح وهو في قلب المحنة مع أبناءه في الجهاز العسكري وهم في السجون نجح في تعبئتهم روحيًا وإيمانيًا على أن هذه مرحلة من مراحل الجهاد.

كان الدكتور الشهيد دائمًا يقول لهم: «أننا في معسكر صيفي تربوي مغلق»، ولذلك كان في بعض الأحيان يقوم بتنظيم قرابة العشر لقاءات تربوية وفكرية وروحية في اليوم الواحد، واستطاع أن ينهض بشباب الجناح العسكري داخل السجن.

وعندما خرج من السجن في بداية عام «2000 م» وكان ذلك في بداية انتفاضة الاقصى ظل هؤلاء الشباب على تواصل مع الدكتور إبراهيم المقادمة فقد رباهم داخل السجن وقام بهم وهيأ لهم أمورهم نفسيًا وروحيًا وفكريًا، وقطف ثمار ذلك العمل الدؤوب في الخفاء شبابًا هزَّ أعطاف التاريخ.

- الإيمان بالعمل المؤسسي جزء من عمق الوعي التربوي:

كان المقادمة يؤمن أن أي عمل سياسي لابد وأن يكون له عمل نقابي مؤسسي يرسخ أقدامه على أرض الواقع، فقام بدعم المؤسسات الإسلامية في قطاع غزة والإشراف عليها.

وكان يرى أنه لابد من زيادة الوعي السياسي لدى شباب الدعوة الإسلامية، لأن الشباب الإسلامي إن لم يكن على قدر كبير من الوعي السياسي والانضباط التنظيمي فلن يستطيع استيعاب بعض المواقف الحركية التي تتطلبها طبيعة المرحلة وبالتالي ستتعرض للتشكيك المستمر والإيقاع بين القاعدة والقيادة.

هذه المفاهيم تبرز خطورة العمل المؤسسي والنقابي وخطورة آلياته و برامجه و أدواته في بناء طليعة قادرة على العمل الجماعي، ومهيئة للتجميع وإدراك أن الفردانية لا تقيم أمة ولا تصنع مستقبلا بل الذي يخدم مشروع التحرر والبناء هو الفريق الذي يشبه بنيان الصف الواحد، ولعل مالك بن نبي لم يغادر مساحة هذه الأفكار حين وجه الجيل إلى ضرورة الالتفات إلى المبدأ الجماعي لا إلى وهم القدرة المنفردة على صياغة الحلول في زمن تتكثف فيها القوى وتشكل اتحادات و تجمعات و تبني المؤسسات على مبدأ الفريق و المجموعة لا على أساس البطل الواحد!

خامساً: الاستعلاء على متاع الدنيا

وصف الدكتور الزهار الشهيد المقادمة بقوله: «كان رجلاً عابداً زاهداً»، ويروي عنه أحد الشهود أنه كان يشاركهم في بناء أحد المساجد وكان يحمل الطوب والاسمنت بيده، وكان من ينظر إليه يظنه عاملاً بهذا الموقع، وحين أصيب أحد الشباب المشاركين بالبناء حمله الدكتور في سيارته إلى المستشفى وعند إحضار صورة الأشعة شخصها المقادمة بكل دقة، فتعجب الطبيب من هذا العامل الذي يجيد التشخيص الطبي، ولم يخطر بباله أن طبيبًا يمكن أن يكون بهذه الحال وهذه البساطة.

كان -رحمه الله- يتولى الإنفاق على إخوته بعد وفاة أبيه وكان يرسل المال لهم من أجل إكمال تعليمهم ومعيشتهم، وكان كمثل أبي بكر في الإنفاق إذ أنفق كل مدخراته في المشاركة في بناء عيادة طبية خيرية لخدمة الناس في المخيم.

الخاتمة المباركة: الشهادة

الأمنيات المستحيلة هي التي تصنع النهايات المستحيلة!

الأمنيات التي تبدو كأنها ولادة من اللامعقول هي التي توقفك على شاهق من الجبال حيث تستقر هناك دومًا القلة!

في فلسطين يعاد رسم الخرائط فمن مكة إلى الأقصى تصبح المسافة للسماء أقرب عند نقطة الصخرة!

في فلسطين فقط يعاد كتابة الأسطر بالمعاني الحقيقية. حيث تصحح فلسطين الكلمات. تضع في أول السطر البطولة. والنقطة هي الشهادة، ويصبح الدم هو المداد والروح هي القلم!

في فلسطين الشهداء موسومة ضلوعهم بالأدلة، أقدامهم مغبرة، وبرائحة تراب الأقصى يبعثون!

إذن هو قدر العاملين في فلسطين أن تنتهي حياتهم بالخواتيم المباركة فقد قدموا الثمن كاملاً وعلى الله الجزاء. وأي جزاء أكرم من أن يكون المجاهد في مصاف الشهداء والنبيين في نهاية المشوار!

وفي حديث ودود تصف زوجة المقادمة يومه الأخير فتقول: عاد إلى المنزل مساء يوم الجمعة 7 مارس بعد أن ودعنا يوم الخميس دون أن يبين لنا أسباب عزوفه عن الاختفاء عن العيون ثم جلس يقرأ ما تيسر له من كتاب الله، وينهي مراجعته لحفظ كتاب الله، ويقرأ ويحضر لدروس المساجد التي اعتاد أن يلقي فيها محاضرات، ونام قليلاً ثم استيقظ قبل الفجر وصلى وعاد يقرأ القرآن وخرج من المنزل منشرح الصدر مسرورًا.

تصمت زوجته لحظة وهي تصف مشهد النهاية ثم تكمل بابتسامة عريضة خرج مسرعًا على غير عادته وكأنه مستعجل للقاء ربه وإخوانه الذين سبقوه إلى الشهادة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى سمعنا صوت انفجار يهز المنزل لينتقل إلى ربه شهيدًا.

اغتالته القوات الإسرائيلية مع ثلاثة من مرافقيه صباح السبت 8 مارس 2003م، حيث قصفت طائرات الأباتشي سيارته بالصواريخ أدت إلى وفاتهم وطفلة كانت في الطريق.

وصل جثمان الشهيد المقادمة إلى المسجد العمري الكبير محمولا فوق رؤوس المشيعين احتفاء بالطبيب المجاهد الذي شيعه حوالي مائتي ألف فلسطيني في شوارع مدينة غزة.

ونقل الشهيد المقادمة في كرامة ثانية ليصلى عليه مرة ثانية في مخيم البريج حيث دعت حركة المقاومة حماس في المنطقة الوسطى جماهير المحافظة

للمشاركة في تشييع جثمان الشهيد الدكتور إبراهيم المقادمة الذي طالته يد الغدر الصهيونية عندما اغتالته طائرات صهيونية من نوع أباتشي بخمسة صواريخ غادرة.

تداعى الناس من كل صوب وحدب وبلغوا ما يزيد عن مائة ألف شخص تجمعوا جميعًا بالقرب من مسجد الفاروق في مخيم النصيرات حيث انتظرت الجماهير جثمان الشهيد الطاهر القادم من مدينة غزة وكأن الجماهير كانت تؤكد كلمات الإمام أحمد بن حنبل يوم قال: (بيننا وبينهم الجنائز)!.

لدى وصول جثمان الشهيد إلى مخيم النصيرات بدأت حناجر الجماهير المحتشدة بالتهليل والتكبير وهي تهتف بضرورة الرد السريع على هذه الجريمة النكراء مطالبة كتائب القسام بالانتقام.

وعند وصول جثمان الشهيد الدكتور إلى دوار النصيرات وإذا بسرب من الحمام يحلق فوق جثمانه الطاهر وكانت بعض الحمامات تهبط إلى مستوى رؤوس الناس المشيعين وبالقرب من جثمان الدكتور الشهيد، ثم ترتفع وبعد ذلك غادرت أفواج الحمام المنطقة وقد كانت المسيرة الحاشدة التي توجهت إلى مسقط رأس الشهيد الدكتور تسير بسرعة كبيرة كما اشتمت الجماهير رائحة المسك التي فاحت من جسده الطاهر وقد هجم العديد من المشيعين على جثمانه ليأخذوا رائحة المسك من وجهه الطاهر وسط صيحات التهليل والتكبير والبكاء من الفرحة على هذه الكرامات التي رأتها الجماهير أثناء عملية التشييع[1].

1 - https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=8243

ومن ضمن كرامات الشهيد افتتاح ثلاث بيوت عزاء في قطاع غزة حيث افتتحت حركة حماس في مدينة غزة قرب بيت الشهيد الذي انتقل إليه نتيجة تقطيع أوصال قطاع غزة وافتتح بيت عزاء في منطقة سكناه الرئيسية في مخيم البريج وافتتحت حماس بيت عزاء في خان يونس.

يقول الدكتور محمد شهاب: ومن اللطائف أنني رأيته في المنام بعد استشهاده بقليل، فيما يرى النائم كأننا على هامش لقاء جامع، وكان بأحسن ما يكون صحة وعافية ونضارة وسروراً، فلما رآني أقبلت قام فعانقني وعانقته بحرارة بالغة، وأنا أعلم أنه شهيد وجاء يحضر معنا، وأنا أربت بكفي على ظهره أثناء العناق وأقول: كيف أنت؟ كيف حالك؟ أين ذهبت وتركتنا لهمّ الدنيا وغمِّها؟ كيف وجدت الآن؟ فيربت على ظهري كذلك بقوة ويقول: كله صحيح. كل شيء وجدناه. كل ما كنا نؤمن به ونقوله وجدناه.

فأخذت بيده ومشينا قليلاً، وتذكرت سؤالاً حيّرني مرةً فوجدتها فرصة أن يخبرني لأنه قادم من العالم الآخر فقلت: صحيح أن كل شيء بإذن الله؛ لكن قل لي كيف يسمح لكم بالحضور؟ ومتى تطلق أرواحكم إلينا؟ ونظرت إليه لأسمع الإجابة فإذا بالذي يمسك بيدي ويجيبني هو الأخ أحمد الجعبري قائلاً بابتسام: والله هذا سؤال يحتاج إلى جواب منك!! وكانت هذه الرؤيا قبل أسبوع فقط من قصف بيت الأخ أحمد الجعبري وإصابته رحمهما الله!

ومن ميدان القصف ومن بين الحطام يلتقط طفل فلسطيني نظارة الشهيد المقادمة، ويسلمها لأبي العبد إسماعيل هنية؛ ليقف يوم التأبين ويقول: «نظارة عمر المختار بالأمس، ونظارة المقادمة اليوم لتميز الأجيال الطريق بفكر ودم وجهاد المقادمة».

يحـيـون ليلهـم بطـاعـــة ربهم   بــتـــلاوة، وتــــضـــرع وســـؤال
وعيونهم تــجــري بفيض دمــوعهم   مــثـل انه مـــال الـــوابـــل الـهـطّـال
في الليل رهبان وعند جـــهـــادهـم   لـعــدوهــم مــن أشجــع الأبــطـال
بـوجوههم أثر السجــــود لربهــم   وبــهـا أشـعـة نـوره المـتــلالــي[1]

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.

1- الرقائق- محمد أحمد الراشد –ص-15 مؤسسة الرسالة 1981م.



سيرة الشهيد القائد

عبد اللّه القواسمي

1960م - 2003م



بدنا نعمل مع حماس 24 ساعة.





يبدو في ليل الأمة ما تجهله البشرية، ففي زوايا دولة الاحتلال قبعت صناديق موروثة من تاريخ خيبر وبني قريظة، صناديق تحمل وثائق بني النضير، وفي طياتها أحاديث اغتيال الحق، ووصية بإعداد الشاة المسمومة لقيادات الحق والجهاد ! ينزف مداد أقلام بني يهود وهم يصيغون مناشير التثبيط ويقتلون همة الأمة، تشوش وسواس أقلامهم على صوت جيش الوعد الرباني الذي بشرت به سورة الإسراء.

تضبط دولة بني صهيون دقات المسيرة مع ساعة صفر يتهيؤون لها، مع ساعة ولادة الهيكل، ومحو المسجد الأقصى، ترى لماذا تغيب عن عقلنا الجمعي حقائق التاريخ، وعنهم لا تغيب!

يظل التاريخ فيهم حاضرا ويشمون رائحة أجدادهم من خيبر. ترى لماذا يموت فينا كل يوم عمر ويكبر فيهم أبو لؤلؤة!

لماذا، سؤال ظل يكبر فينا هزيمة ووجعا وأسمالا وشتاتا، لماذا، سؤال لم يكن له جواب إلا يقظة الأمة على يد فئة بشر بها النبي محمد ﷺ بقوله: (لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي علَى الحقِّ ظاهرينَ لا يضرُّهم من خذلُهم حتَّى يأتيَ أمرُ اللَّهِ) صحيح الترمذي،حتى يبلغوا زمن الفتح المبين، فئة اصطفاها الله لتحقيق آياته في الأرض، وجعلها مفتاح بوابة الانعتاق لأمة



نالتها قيود المؤامرات ورمتها في غياهب الظلم وأقصتها عن موقع القيادة ردحا طويلا.

فئة آلت أن تظل مع العدل وأن تنتصر للحق وأن تحرر المقدسات من عبث العابثين المفسدين، فئة نذر رجالها وشبابها أعمارهم لفكرة أباحت لهم خلود الفردوس الأعلى،

إن الكتابة عن هذه الفئة يوازي الكتابة عن تاريخ مكة وصناعة الأمل في المدينة وحكاية الأحزاب يوم اجتمعت على المستضعفين تبغي اجتثاثهم من خارطة الجزيرة، هنا تتشابه المراحل، وترى في قادة هذه الفئة رائحة عمر وعلي وسعد بن معاذ، ترى غيظ الظلم وتآمر الكيد وسعي الأقدام لإرجاف القلوب وزحزحة المواقف، وترى مقابل ذلك شموخ فئة استعصمت بالحبل المتين فأرى الله العدو والعالم منها ما لم يكن في الحسبان، والقائد الشهيد عبد الله القواسمي في سيرته التالية يكشف لك عن سمات هذه الفئة المباركة، سمات صنعها الله على عينه.



أولاً: عنفوان الابتداء

الاسم: عبد اللّه عبد القادر القواسمي، أبو أيمن، ولد القائد بتاريخ 1960/7/19م لأسرة بسيطة متدينة، وقد عرف بميوله الدينية منذ نعومة أظفاره، وكان عاشقا لبيوت اللّه، حريصا عليها كما تحرص الأم على ولدها، كان رحيما رؤوفا وذا أسلوب دعوي طيب نادر.

عاش القائد في مدينة الخليل والتى ولد ونشأ في حاراتها ودرس في مدارسها حتى نال الشهادة الثانوية العامة، ثم التحق بجامعة الخليل عام 1982م لمدة عامين تخصص لغة عربية، ولظروف اجتماعية واقتصادية لم يتمكن من إكمال دراسته الجامعية، ثم التحق بالعمل كَفَني ألمنيوم[1].

تزوج الشهيد فيما بعد من السيدة فتحية غازي المتياني، والتي كانت تدرس الشريعة الإسلامية في جامعة الخليل، وهي من مدينة نابلس شمال الضفة الغربية، وتعمل الآن مديرة للمدرسة الشرعية، له من الأبناء والبنات ستة، بيان، ودعاء، وأيمن، وحنين، وصلاح الدين، وعبد القادر.

رجل من القلة التي عزمت على ارتقاء طريق مرهوب، رجل لا يخشى في اللّه لومة لائم، اعتقل وعذب فصبر وصمد، وأبعد فاحتسب وثبت، وكان مطاردا فجاهد وترك خلفه الزوجة والأولاد برعاية الرحمن حتى بلغ الشهادة في سبيل اللّه ليلتحق بركب الصادقين الأوفياء ويكمل طريقه مجاهدون صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه.

1- https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%B9%D8%A8%D8%AF

ثانياً: جمال التشكل والالتزام

التدين الحقيقي هو الذي ينعكس في سلوك الإنسان ويشتم الناس عبيره، وإنما جعلت الشعائر كي تعلمنا وظيفتنا في الحياة، وتبني فينا أخلاقا مميزة وقد كان الشهيد القواسمي قد تربع على قمة الأخلاق الراقية فهو كما تصفه أخته أنه لم يكن شقيقها الأكبر في الأسرة فقط، لكنه كان بالنسبة لها أكثر من أب وأخ، لقد كان مرشدها وقائدها، حتى إنه كان يدعوها للالتزام بالزي الشرعي بطريقة مؤثرة ولطيفة، فكانت أول فتاة تلبس الزي الشرعي في مدرستها بفعل أبي أيمن، وتضيف كان ينصحهم بقراءة القرآن والمأثورات، وكان يحرص دائماً على تربيتهم تربية إسلامية خالصة، وكان يصحبهم إلى الصلاة في الأقصى والحرم الإبراهيمي والاحتفالات الإسلامية، ومن أروع ما تحدثت به أن الشهيد كان يحرص باستمرار على نظافة المساجد، وخاصة مسجد الحرس، وكان يعمل على سدانته ونظافته، وكان يصحب شقيقاته لتنظيفه، علماً بأنه قطاع خاص ولا يندرج ضمن المساجد التابعة لمديرية الأوقاف.

وكان الشهيد يذهب كل عام للمسجد الأقصى ويعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان ولا يتخلف عن ذلك، وتقول أخته إيمان: عندما تزوج قال بعض الناس هذا العام لن يعتكف عبد الله، ولكنه اعتكف واصطحبنا معه، وتضيف أيضاً: إن الشهيد كان متواضعا وقد صدق فيه الحديث: «من تواضع لله رفعه»[1]، وهذا ما حصل، حيث كان يكره الشهرة والبروز الإعلامي، ولكن الله سبحانه رفع ذكره بين الشعوب والأمم هذا فضلا عن أهل فلسطين حيث أصبح ذكره حديث الشارع بعد العمليات الموجعة التي وجهها للعدو والتي انطلقت من منطقة الخليل.

1- رواه ابو نعيم في حلية الأولياء

كان دائماً يجمع المهملات الملقاة بساحات المسجد الأقصى بنفسه، وعندما كان يصطحب عائلته إلى المسجد الأقصى، كان يخرج كيسا من جيبه ويقوم بجمع الأوراق من ساحاته ليكسب الأجر، وكان يحب التقرب إلى الله بهذه الأعمال الصغيرة.

وتقول زوجته: «أنه كان دائماً يؤدي واجبه في المناسبات الدينية، ويوزع الأضاحي على المساكين والفقراء ولا يوجد بيت فيه محتاجون إلا ويعرف من هو عبد الله، وحول هذا الموضوع تروي أم ايمن قصة فريدة حدثت معهما في أحد أيام عيد الأضحى المبارك حيث طلبت منه وبإلحاح البقاء ذلك اليوم بين أبنائه وأهله كي نحتفل بالعيد خاصة وأنى من شمال فلسطين ولا يوجد أحدٌ من أهلى حولى، لكنه أصر على الخروج وأصررت أنا على بقائه، وأخيرا اقترحت عليه أن أخرج معه، فوافق على خروجي معه، وقد أمضى ذلك اليوم بين الفقراء والمساكين يوزع عليهم الأضاحي، علماً بأنه لم يكن يحب أن أطلع على أعماله، ولما شاهدت ذلك، قال لي هل تفضلين أن أمضى هذا اليوم بين الفقراء والمساكين بأجر عظيم أم أجلس في البيت بأجر قليل ؟ فقلت له افعل ما تشاء، والله لن أسألك بعد اليوم.

إن الشهداء يبلغون أعلى المراتب بأخلاقهم قبل تضحياتهم، فعَنْ عَائِشَةَ رَضى اللَّهُ عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[1].

1- صححه أبو داود.

ثالثاً: خيركم خيركم لأهله

تقول زوجته السيدة فتحية المتياني: إن عبد الله كان يقتدي برسول ﷺ في كل أمر، كان بارا بوالديه واصلا لرحمة محبا للضعفاء والمساكين.

تقول زوجته في ليلة زفافنا في تاريخ 1986/11/14 كان العهد بيني وبينه سورة العصر، وقرأنا سويا في ظلال القرآن، وتعاهدنا أن نبدأ حياتنا في الله، وأن لا يكون فراقنا إلا لله... والحمد الله بدأنا المسيرة في الله وانتهت في الله، وكان تعامله معنا تعامل الزوج الصالح، فكان نعم الزوج والأخ والأب والصديق والحبيب، ولم يشعرني أنني أعيش في غربة، ولم يؤذني ولو بكلمة، وكان يساعدني في حياتي اليومية، وكان عطوفا على أطفاله وكثيرا ما كان يقوم بإطعامهم بيديه، وكم من المرات كان يساعدني في تحضير وجبات الطعام وفي تربية الأطفال، كان شعلة من النشاط الدؤوب، حتى في ساعات الراحة كان يساعدني في كل شيء، لقد كان مدرسة في العمل والنشاط والتضحية والصبر والجهاد.

وتشير أنه كان ذو همة عالية لا يكاد أحد يكلفه بمهمة إلا ويقضيها دون كلل أو ملل حتى إنه كان يشاركني في أعمال البيت وكان يخفف عني الهم ويبعد عني الضجر والتعب.

تصف أمه بره بها وأخلاقه فتقول: «كان يزورني في اليوم أربع مرات، وكان متديناً من صغره، ويدعو إلى الإسلام بدون ملل، وكان إذا شاهد إحدى أخواته بدون حجاب، يقول لها أنا أشتري لك حجاب، وإذا شعر أن أحداً لا يلتزم بصلاة الجماعة، كان يقول له من الذي أمّ في الناس الصلاة الفلانية حرصا منه على صلاة الجماعة، وكان يقول لشقيقاته إذا لبست الجلباب سوف يتضاعف المصروف، وهكذا حتى يجعل الله في قلوبهم وأن تتعلق قلوبهم بالطاعات».

رابعاً: ضريبة الطريق

اتهمت سلطات الاحتلال عبد الله القواسمي بالوقوف وراء العمليات الاستشهادية، ومنذ شهر آذار 2003م اعتبرت سلطات الاحتلال الشهيد عبدالله القواسمي هو المطلوب رقم واحد، واتهمته بالتخطيط والإعداد للعشرات من العمليات الاستشهادية، وقامت قبل استشهاده بشهرين بحملات تفتيش ومداهمات واسعة لاعتقاله.

تقول زوجته (أم أيمن): «إن جنود الاحتلال كانوا يداهمون منزلها بشكل شبه يومي ويقومون بأعمال تكسير في المنزل وكانوا يحققون معها باستمرار ويسألونها عن أبي أيمن وتقول أنها تركت أثاث المنزل وملابس الأطفال بدون ترتيب وعندما لاحظوا هذا الأمر قالوا لها من الأفضل لك أن تقنعيه بأن يسلم نفسه».

تجربة الاعتقال

«كنت أتصور أن الحزن يمكن أن يكون صديقا لكنني لم أكن أتصور أن الحزن يمكن أن يكون وطنا نسكنه ونتكلم لغته ونحمل جنسيته، إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة توجه إلى كل مظلوم في هذه الدنيا فأينما وجد الظلم فذاك هو وطني، وتلك قضيتي»، نعم ما أقسى أن تصبح أوطاننا سجونا، والأقسى من ذلك أن تصبح سجوننا يديرها أبناء جلدتنا! لقد اعتقل القواسمي في المرة الأولى عام 1988م وأمضى في السجن شهرين وقد وجّهت له تهمة مقاومة الاحتلال، وفي عام 1992م اعتقل أبو أيمن في السجون الصهيونية قبل الإبعاد بشهرين، حيث كانت هذه الفترة فترة تحقيق، وقد حاولوا الضغط عليه حيث داهموا بيته ليلا، وحاولوا اعتقاله، وأبلغوا شقيقه أنه يجب أن يذهب لمقابلتهم،

بفضل الله فقد ثبت وصبر في فترة التحقيق، وبعدها مباشرة أُبعد إلى مرج الزهور، وبعد العودة منها كان دائم التحدث عن هذه الرحلة لدرجة أن زوجته تقول: لم يمر علينا يوم وليلة إلا وكان يتحدث عن هذه الرحلة التي قضاها في سبيل الله، حيث كان متهيئاً لها، فقد كنت أستيقظ في جوف الليل وأجده نائما على الأرض وكان الفصل شتاءً، فأقول له: إن الدنيا برد، فيقول لي لا تدري ما هي الأيام القادمة وكأنه كان يعد نفسه لذلك، وكان في الليل يخرج من البيت ولا أدري أين يذهب، وكثيرا ما كان يتهجد ويقوم الليل والناس نيام.

وللأسف فانه بعد مجيء السلطة الفلسطينية التابعة لحركة فتح اعتقلته عناصر المخابرات العامة في السلطة ونقلوه إلى سجن أريحا المركزي، وكانت عائلته وأطفاله يعانون للوصول من الخليل إلى أريحا أثناء زيارته، وذلك بسبب الحرارة المرتفعة صيفاً والبرد القارس شتاءً حيث كان أطفاله يقيئون أثناء سفرهم للزيارة لبعد المسافة وارتفاع درجات الحرارة.

في سجون السلطة تعرض شهيدنا البطل لأشد صنوف التعذيب والشبح والعذاب النفسي، وقد قامت المخابرات الفلسطينية والأمن الوقائي بعزله في زنزانة انفرادية لمدة 130 يوماً، وقد صادف اعتقاله الأول في سجون السلطة مع الذكرى العاشرة لانطلاق حركة حماس في 1998/1/14م وقد اعتقل معه شقيقه الأكبر الشيخ شفيق القواسمي 55 عاما وأبناؤه باسل وإيهاب وأشقاؤه محمد ومحمود وأحمد وعمر، واعتقل معهم عدد آخر من المستأجرين في البناية التي كان يقطنها القواسمي وقد تم الإفراج عن جميع المعتقلين باستثناء عبدالله الذي اتهمته السلطة الفلسطينية بتقديم مساعدات لمطاردين فلسطينيين منهم الشهيد القائد محمود أبو هنود[1].

1- http://www.omamh.com/site/pages/details.aspx?itemid=10754

وخلال الـ 40 يوم الأولى في التحقيق لم يسمح لأحد من أهله بزيارته على الإطلاق، وبعد عناء شديد وتدخلات من قبل شخصيات فلسطينية وأخرى من جمعيات حقوق الإنسان سمح لأهله بالزيارة تحت الحراسة المشددة.

وكانت الزيارة التي سمحت بها المخابرات الفلسطينية لمدة نصف ساعة وكانت باستمرار تحت الحراسة حيث يقوم رجل أمن فلسطيني بالوقوف بجانبهم حتى تنتهي بعد أن تقطع عائلته وأطفاله مسافة 80 كيلومتر لأجل نصف ساعة، وبقي على هذا الحال في سجون السلطة لعامين. وقد كانت مطالب من تدخلوا لدى السلطة الفلسطينية هي نقله إلى سجن الخليل فقط لرفع المعاناة عن أطفاله وزوجته أثناء الزيارة. وبعد مدة طويلة وضع أبو أيمن تحت الإقامة الجبرية حتى اندلاع انتفاضة الأقصى حيث طورد من قوات الاحتلال الصهيونية استنادا إلى التهم التي وجهت إليه في سجون السلطة وظل على هذا الحال حتى اغتياله.

وقد كتب الشهيد عن تجربته في سجون سلطة فتح حيث وعد رئيس السجن أنه سيخرج ويوثق كل ما جرى معه ومما كتبه «وفور وصولي إلى مكاتب المخابرات في أريحا نزلت من السيارة وأُدخلت إلى إحدى الغرف. هناك وفوراً أحضروا كيساً يوضع في الرأس من قماش ثخين من مخلفات المخابرات الإسرائيلية».

سألت العسكري وهل بقيت هذه الأكياس حتى اليوم فانهال عليّ ضربا وشتماً وكفراً وقادني والكيس على رأسي إلى غرفة مدير التحقيق وكانت هذه الجولة الأولى، تحدثت معه عن الاستقبال الأول وكذلك في غرفة استلام الأمانات حيث ساءت الأحوال وزاد الضرب.

كان الكيس لا يفارق رأسي، ومكثت على هذه الحالة مدة ثلاثة عشر يوما، وكان ذاك الشهر (كانون ثاني والرابع عشر من رمضان) وبقيت كذلك حتى عيد الفطر والغريب أنني حرمت من كل شيء حتى من الفرشة والغطاء طيلة هذه الفترة من البرد القارس حتى الفروة التي كنت ألبسها أخذوها حيث أنني خرجت من بيتي والثلج يغطي الأرض، وحينما كنت اطلب الفراش كانت الشتائم هي الجواب، لدرجة أننا ترحمنا على أيام زمن الاحتلال الإسرائيلي.

أربعة شهور ونصف كان التحقيق فيها عبارة عن جو من الرعب والرهبة حيث إنني خلال هذه المدة لم يسمح لي بالاختلاط بالمساجين أو حتى الكلام مع أي منهم، وتحت الحراسة المشددة.

جولات التحقيق

يتحدث الشهيد عن تجربة الاعتقال فيقول: «كانت هذه الجولات في الشهر الأول، كل يوم ثلاث جولات وأحيانا جولتان، وكانت غالب الجولات في ساعات آخر الليل إلى قبيل الفجر، وكان غالبها في شهر رمضان الفضيل.

كانت المضايقات والتعذيب في غرفة المحقق حيث الضرب والشتائم، ولكن اليوم باللغة العربية الفصحى وليس بالعربية المكسرة كما تعودت في سجون الاحتلال، وأساليب التعذيب كثيرة جُمعت من السجون الإسرائيلية، ومن الذين تعلموا التحقيق في الدول العربية، لكن اليوم ضد أبناء شعبهم وأمتهم، وأيضاً نتف اللحية وهو فن من الفنون الجديدة والتهديد بحلقها مستشهدين بأسماء كثيرين من المشايخ والرموز، ومما لا أصدقه سلوك رجال أمن السلطة حيث كانوا يفطرون في نهار رمضان ويدخنون والأعجب الجرأة بشتم الذات الإلهية وسب الدين.

وبعد أربعة أشهر ونصف من المعاناة والتعذيب، بعث الأهل إلى جميع منظمات حقوق الإنسان مذكرات للتدخل في قضيتي ووضع حد لهذه الاعتداءات، فقال لي المحققون إننا نحن الجهاز الذي نعمل ما نشاء دون مراقبة ولدينا كل الصلاحيات حتى الموت، وحياة الشخص وموته مثل شرب فنجان القهوة وكل حقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية لا اعتبار لها عندنا، فنحن نحقق بلا حدود ولا ضوابط، وفعلا لم يستجيبوا لأحد حتى نهاية المدة رغم المعاناة والآلام، ومالنا إلا الله وهو الشهيد».

سيرة مكتوبة بالعرق ودماء الأعداء

اتهمت سلطات الاحتلال عبد الله القواسمي بالوقوف وراء كافة العمليات الاستشهادية التي نفذها مجاهدون من كوادر كتائب القسام بالخليل ومعظمها نجحت في تكبيد الاحتلال خسائر مادية وبشرية ووصفه الاحتلال بأنه مصنع لإنتاج قنابل موقوتة.

وقد وضعت المخابرات الصهيونية كافة إمكانياتها لإلقاء القبض على الشهيد، وهذه بعض العمليات التي نسبَ للقواسمي التخطيط لها وقد نجح معظمها نجاحا باهرًا:

- 2002/11/21: استشهادي يفجر نفسه داخل حافلة صهيونية في مدينة القدس، ويقتل 11 صهيونيا ويصيب 46 بجروح.
- 2002/12/12: مقتل جندي ومجندة صهيونية في البلدة القديمة في الخليل وكتائب القسام تعلن مسؤوليتها عن العملية، وأن منفذ الهجوم نجح بالانسحاب من المكان.
- 2003/1/17: استشهاديان قساميان ينفذان عملية استشهادية ويقتحمان مغتصبة «خارصينا» ويتمكنان من قتل مغتصب متطرف وإصابة أربعة آخرين قبل أن يستشهدا.

- 2003/1/23: مقتل ثلاثة جنود صهاينة بالقرب من بلدة يطا وكتائب القسام تعلن مسؤوليتها عن العملية ومنفذو الهجوم رجعوا إلى قواعدهم بسلام.
- 2003/3/5: مقتل 16 صهيونيًا في عملية استشهادية تنفذها كتائب القسام في انفجار حافلة في شارع موريا في القدس.
- 2003/3/7: مقتل ثلاثة مغتصبين وإصابة 4 بجروح خلال عملية اقتحام مستوطنة نفذها مجاهدان قساميان.
- 2003/3/7: مجاهدان قساميان يقتحمان مغتصبة «نغهوت» المقامة على أطراف قرية (يطا) جنوب الخليل وقوات الاحتلال تقتلهما قبل الدخول للمغتصبة.
- 2003/3/10: استشهادي قسامي يهاجم عددًا من جنود الاحتلال بالقرب من المسجد الإبراهيمي ويقتل أحدهم ويجرح أربعة آخرين.
- 2003/4/5: مجاهد قسامي يقتحم مغتصبة كريات أربع المقامة على قرية (بني نعيم)، ولكن قوات الاحتلال تمكنت من اكتشافه، واستشهد في اشتباك مسلح داخل المغتصبة.
- 2003/5/17: مجاهد قسامي ينفذ هجوما استشهاديًا ويقتل مغتصب ويصيب أربعة بجروح.
- 2003/5/18: استشهاديان يفجران نفسيهما في مدينة القدس بالقرب من التلة الفرنسية ويقتلان 6 صهاينة ويصيبان العشرات بجروح.
- 2003/6/8: مقتل جندي صهيوني وإصابة آخر بجروح في عملية استشهادية نفذها الاستشهاديان وليد اعبيدو وعلاء الدين الفاخوري.

- 2003/6/11: مقتل 17 جنديًا صهيونيًا وإصابة 100 بجروح في عملية استشهادية نفذتها كتائب القسام، وقد جاءت هذه العملية بعد وقت قصير من محاولة صهيونية فاشلة لاغتيال الدكتور عبد العزيز الرنتيسي.

وقالت مصادر في الأجهزة الأمنية الصهيونية إن القواسمي كان مسؤولاً عن عمليات أوقعت عشرات الصهاينة بين قتلى وجرحى، خلال السنة الأخيرة من استشهاده.

مسك الختام: الشهادة

كانت البداية بضع قطرات من قابيل وهابيل، سفك الظلم فيها أول قربان بشري، ثم تسرب الدم من بعدها على طول الخطوات البشرية، في فلسطين ترى الرجال تسعى بين قرابين الفداء، يطوف بهم الأنين، ثمة عبادة في فلسطين تجاوزت كل تسابيح القديسين وركعات المعتكفين، هناك ترابط الملائكة، تحمل الصحائف المثقلة بالدم المسكوب، لتستقر بها في عليين، وترتفع أسماء من وقفوا في وجه الظلم وقدموا الأرواح لله وقبلوا البيع.

كان القائد الشهيد القواسمي يحب الشهداء كثيرا، إذ كان يلمح فيهم عوالم الجنة، كان شديد التعلق بهم ولكثرة تعلقه بالشهداء لطالما تحدث لأبنائه عنهم وعن قصصهم، بل إنه في كثير من الأحيان كان يصحبهم لزيارة قبور الشهداء ويقول لأطفاله اليوم اشتقنا للشهيد فلان ثم يقوم بأخذهم لزيارة قبره، ولم يمض يوم دون أن يتكلم فيه عن الشهداء، ودائما يتحدث عن الجنة، وعندما رزق بابنته الكبرى قال لها: «الله أعلم، هل ستكبرين وتشاهدين والدك أم لا»؟[1].

1- http://www.omamh.com/site/pages/details.aspx?itemid=10754

كان في عمر الشهيد بقية لذا كانت تُعمى عنه الأبصار إذ يروي أحد الأشخاص ممن يعرفون أبا أيمن أنه كان في إحد الأيام في طريقه إلى مدينة الخليل بتاريخ 2003/6/16م، عبر طريق النصبة حلحول حيث قام جنود الاحتلال بعمل كمين للمجاهد عبد الله القواسمي أثناء انتقاله من مدينة الخليل إلى بلدة سعير ولا أحد يعرف وجهته ويضيف هذا الشخص أنه شاهد الشهيد أبا أيمن يحمل حقيبتين وكان يسير بين كروم العنب ولا تفصله عن أفراد القوة الصهيونية سوى خطوات قليلة جدا ولم يشاهده الجنود الذين انتشروا بكثافة

في المكان وقد اختفى أبو أيمن علما بأنه كان يسير بهدوء وطمأنينة ويضيف في البداية لم أتمكن من التعرف عليه وبعد فترة قصيرة من الزمن شاهدناه على مسافة أقل من مائة متر يمشي مبتعدا ولم تتمكن القوة من مشاهدته وكان الله قد حماه[1].

بعد ذلك وضعت المخابرات الصهيونية كافة إمكانياتها لإلقاء القبض على الشهيد ومنها تحليق الطيران الصهيوني طوال الأسبوع الأخير في سماء مدينة الخليل والقرى والمحافظات التابعة لها.

بتاريخ 2003/6/21م وفى تمام الساعة 9:20 مساءاً بتوقيت فلسطين حضرت قوة صهيونية خاصة تطلق على نفسها اسم (وحدة يمام) كانت متخفية في ثلاث سيارات عربية إلى مسجد الأنصار الذي يقع في شارع وادي التفاح وسط مدينة الخليل وبحسب روايات شهود عيان فإن القوة الخاصة أطلقت النار باتجاه السيارة التي كان يستقلها القواسمي بالقرب من المسجد بعد خروجه من صلاة العشاء، وأفاد الشهود أن القواسمي أصيب بجروح ومن ثم قام أفراد القوة بإطلاق النار عليه بعد التعرف على هويته.

1- http://www.radio-dream.net/vb/archive/index.php/t-3349.html

تضاربت الأنباء في البداية حيث أُعلن أن الشهيد تم اعتقاله ولم يستشهد إلا أن شهود العيان شاهدوا جثة الشهيد وهي ملقاة على قارعة الطريق بعد أن تم سحبها وفحصها بجهاز يتحكم به عن،وبعد عملية التصفية قامت قوات صهيونية كبيرة بالحضور إلى منطقة المسجد وحاصروا العشرات من المصلين بحجة البحث عن المطلوب أحمد بدر الذي ادعت سلطات الاحتلال أنه كان برفقته.

في فلسطين يعبث اليهود بالحياة، يعبثون حتى بخصوصية الشهداء، يبعثرونهم أمواتا، ويسرقون ما تبقى لهم من هدأة الموت.

في فلسطين يعذب الأسرى في سجون الاحتلال واعوانهم، تتجمد أطرافهم ويذبلون، لم تنتفض الشوارع العربية، لم تصرخ الحناجر، بقيت الجماهير ساكنة متماسكة، وهاجت ذات مرة ثم تناست !!!

فما زالت القطرات المسكوبة من دماء الشهداء في فلسطين تتساقط، حيث تصبح القطرات شلالاً تشهد له، وحده كان يحمل المعول في وجه يهود !

يتلفت الشهيد يبحث عنا فيرانا نهرول في اتجاه آخر، ترتفع أرواح الشهداء مثل الرايات النبوية كي تعيدنا إلى قبلتنا، فأرواح الشهداء هي البوصلة!

وحين سمعت والدة الشهيد (أم شفيق) الخبر قالت: «بأن عبد الله كان طول عمره مرضي، وأنا أطلب له الرضا، وعندما سمعت بخبر استشهاده تعاملتُ مع الأمر على أنني أم وكيف يكون شعور الأمهات، لكن والحمد الله لم أفعل إلا ما يرضي الله، لقد كنت أتأمل أن ينجو عبد الله، ولم أتوقع له الشهادة، خاصة أن خالد بن الوليد خاض حروبا كثيرة، ولكنه مات وهو على الفراش، ولكننا نقول إن عبد الله باع الدنيا بالآخرة والخيرة دائما فيما اختاره الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالقرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 111].

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

إسماعيل أبو شنب

1950م - 2003م



كي يكون الداعية مقبولاً في مجتمعه، فإنه يجب أن يكون مقبولاً داخل أسرته أولاً، فإن كان عاقاً لوالديه أو مشاغباً في أسرته، فلا يصلح أن يكون قائداً في المجتمع.





لا ترتسم النقاط الكبرى والتحولات الجذرية في تاريخ الشعوب عبر هنيهة زمنية أو قفزة سريعة، فذلك خارج سنن الكون وقوانين النمو، إذ تستغرق صناعة المنعطفات في الخارطة البشرية زمنا وجهوداً جبارة ونماذج إنسانية تحملت ضريبة التغيير فكان الرجل منهم بأمة كما ذكر القرآن الكريم بشأن ابراهيم -عليه السلام- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]، وحين تجتمع في المسيرة هذه الشروط فمن المحال أن يخلف الله سنته أو يمنع وعده.

وكما قال مالك بن نبي: «إن المعجزات الكبرى في التاريخ مرتبطة دائما بالأفكار الدافعة» التي يحمل لواءها صفوة ممن نذروا حياتهم لكتابة سطور الحقيقة على وجه البسيطة، هؤلاء حقهم أن يظلوا في عناوين التاريخ للمشهد الإنساني في إنجازاته المنحازة للحق، هؤلاء حقهم أن يحفظ وقعُ أقدامهم في سجل الذاكرة وأن تُرصد أفعالهم وتجمع لأن شلال التغيير لم يكن له أن ينبثق دون تلك القطرات المتتالية من الجهود الجبارة التي حُفرت بصمت المخلصين حتى بلغنا لحظة الانتصار المجيدة في كل مشاهدنا التاريخية.

لذا فإن التوثيق لجنود المقاومة ومؤسسي الجهاد في فلسطين هو حق يجب الوفاء به لصالح الأجيال



التي من حقها أن تسمع القصة مكتملة دون تشويه ولا نقصان ولا زيف ولا بهتان.

القائد الشهيد إسماعيل أبو شنب هو أحد الذين تتجاوب مرايا الكون مع صورته وتعكسها في كل وجه يجاهد لإرساء الحق، هو أحد الذين أصبح صوتهم أنشودة تترنم بها الحناجر المشتاقة لنشيد الحرية، إذ كل اللحظات الرهيبة تتشابه في تاريخ البشرية، ففي كل زمن كانت هناك أيد تكسر المشانق، تحمل نظارة عمر المختار وتبصر بها من جديد، تبني النواعير وتغسل عنها دماء المظلومين، تستلهم كرسي أحمد ياسين فتخلق منه خطوات الزمن الآتي، مشاهد تتشابه في كل بقعة يتغول فيها الظلم ولا يُرى إلا قامته السوداء، لذا ستظل الجماهير تستصرخ كلمات الشهداء القادة، وستظل كلماتهم تمتد في سمع الكون وفي ماضينا وحاضرنا وغدنا، سيظل الشهداء أحياء في نضالاتهم يهدونها للسائرين حكاية وقصة و نشيدا يسمعونها لأرواحهم، ولصغارهم، قبل النوم ويقتاتون منها لبقاء لا يعرف الفناء بعد اليوم، لهذا كان حقا علينا كتابة مسيرة هؤلاء الشهداء.

أولاً: تاريخ البدايات

ولد المهندس إسماعيل حسن محمد أبو شنب «أبو حسن» في مخيم النصيرات للاجئين وسط قطاع غزة عام 1950م، وذلك بعد عامين من هجرة عائلته من قرية «الجيّة» من قضاء المجدل عسقلان،

نشأ إسماعيل أبو شنب نشأة السواد الأعظم من أبناء فلسطين الذي هُجّروا من ديارهم في نكبة عام 1948م، فالمخيم هو عالمهم، والفقر هو القاسم المشترك الذي يجمعهم. وكان والده «حسن» أمياً ولكنه كان يستطيع قراءة القرآن الكريم. وكان حريصاً على تعليم أبنائه وخاصة القرآن الكريم، فما إن فتحت بعض مراكز تعليم القرآن الكريم أبوابها حتى سارع بإشراك إسماعيل وهو طفل صغير فيها.

كان والده جاداً مجداً في السعي على عياله، لكن الوالد وافته المنية والأطفال لا يزالون صغاراً أكبرهم كان إسماعيل، والذي كان ما يزال في المدرسة الابتدائية، وتولى رعاية العائلة بعض الأقارب، الذين رأوا أن تنتقل عائلة إسماعيل إلى مخيم الشاطئ للاجئين غرب مدينة غزة، حيث يقطن العديد من أقاربهم هناك.

هذه حكاية تتشابه في تفاصيلها وفصولها ومجرياتها مع حكايات كثيرة مرت بها أسر اللاجئين المنكوبين، ولو كان للأحداث قدرة على ردم الطاقات أو إنهاك القدرات لفعلت تلك الأحداث فعلتها في المجتمع الفلسطيني، ولنالت منه في صميم بنيته الداخلية، ولكن هذا قدر الله في الأرض والشعب الفلسطيني يعد نموذجا جباراً على قدرة الإنسان على تجاوز الألم بالمصابرة والسعي قدماً نحو الفكرة التي يؤمن بها. ولقد آمن هذا الشعب بأن على الأرض ما يستحق الحياة، وعلى الرغم من البقعة السوداء التي كان اسمها مخيم، كان لخيط الأمل في نفوسهم قوة هائلة.

كانوا يحلمون على الرغم من كل ثيابهم المثقلة بالأوجاع وبقع التعب ورائحة التهجير، إذ كان الأمل يغسلها مع كل شروق للشمس، وكانت الشمس تحيلها ثوب فرح أبيض تزينه ملامح فلسطين، ويمتد في كل عوالمها شفافا أنيقا، تلتمع فيه حقائق الصمود، وتزينه قوة اليقين بزمن النصر.

لأجل ذلك ظلت المخيمات مثل وقود، أو مثل حطب يشتعل، ولم تقبل يوما أن تكون انكسارا ولا سطرا في الهامش المنسي!

ثانياً: الفترة التكوينية

كانت فترة مكث الطفل إسماعيل مع أبيه قصيرة لكنها تركت فيه أثرا بالغاً في تكوين شخصيته والتزامه الديني حيث كان والده يشجعه على ارتياد المسجد والمحافظة على الصلاة والالتزام بمراكز تحفيظ القرآن فما أن بلغ الصغير السادسة حتى أتم حفظ نصف القرآن.

قضى إسماعيل أبو شنب معظم دراسته الابتدائية في مدرسة وكالة الغوث في النصيرات، وبعد أن أكمل المرحلة الإعدادية من دراسته في مدرسة غزة الجديدة التابعة لوكالة الغوث في عام 1965م، انتقل إلى مدرسة فلسطين الثانوية، وكان دائماً من الطلاب المتفوّقين في صفه.

تأثّر الشاب بالشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة «حماس» منذ كان صغيراً، حيث كان يسكن في نفس مخيم الشاطئ الذي يقطن فيه الشيخ ياسين آنذاك حيث كان الأخير ورغم إعاقته الجسدية دائب الحركة والنشاط وكان له تأثير واضح وكبير في الحياة الاجتماعية والثقافية للمخيم، وفي نهاية الستينيات تعرّف على العمل الإسلامي من خلال الشيخ ياسين، وتُؤكد زوجته أن علاقته بالشيخ ياسين بدأت في سن الرابعة عشر.

كان أحمد ياسين في تاريخ الشعب الفلسطيني كالقمر، لأنه من يضيء السماء رغم انطفاء النجوم وعتمة الليل، كانت يده المشلولة تكتب آثارا سيمتد صداها بعيدا في مشهد التاريخ، وعلى ضفاف الجنة فقد أقام للجهاد صروحا من الرجال والمؤسسات إذ يندر أن تجد قائداً أو شهيداً لم يتتلمذ على يد الشيخ أحمد ياسين -رحمه الله-.

ثالثاً: مرحلة التهيئة والإعداد

وضعت حرب عام 1967م أوزارها يوم أنهى إسماعيل الصف الثاني الثانوي، وفي أول أعوام الاحتلال تقدّم إسماعيل مع من تقدّم من الطلاب لامتحان الثانوية العامة وذلك في صيف عام 1967م، وحصل على شهادة الثانوية العامة، والتي لم تعترِف بها أيّ من الدول العربية في ذلك الوقت فالتحق بمعهد المعلمين برام الله ليدرس اللغة الإنجليزية ومدة الدراسة في هذا المعهد سنتان، حيث يتخرّج الطالب ويصبح مؤهلاً ليكون معلماً في مدارس الوكالة، لكن في عام 1969م جرت ترتيبات مع الحكومة المصرية، عن طريق منظمة اليونسكو واللجنة الدولية للصليب الأحمر لإجراء امتحانات الثانوية العامة في قطاع غزة بإشراف وزارة التربية والتعليم المصرية حتى يُمكن لطلاب القطاع أن يحصلوا على شهادات مصدقة وموقعة من جهة عربية، كي يتمكّنوا من إكمال دراستهم العليا، حينها تقدّم أبو شنب إلى هذا الامتحان إلى جانب دراسته بمعهد المعلمين ونجح فيه ثم تقدّم بطلب لمكتب تنسيق القبول للجامعات المصرية وتم قبوله فعلاً، مما دفعه إلى ترك الدراسة في المعهد رغم أنه لم يبقَ على تخرجه منه إلا أشهر معدودات، فقد كان طموحاً أكثر مما يمكن أن تقدّمه له الدراسة في المعهد.

في شهر شباط عام 1970م، وصل طلاب القطاع إلى مصر، وفي تلك الفترة كان من الصعب على الكثير منهم الانتظام في الدراسة، وقد مضى ثلثا العام

الدراسي وأمامهم تقف مشكلات في التأقلم مع ظروف الحياة المصرية في المدن والتي يختلف جوّها كثيراً عن أجواء المخيمات الفلسطينية في ذلك الوقت.

قرّر أبو شنب أن يتقدّم لامتحان الثانوية العامة للمرة الثالثة، وأن يستثمر الأشهر القليلة الباقية في الدراسة علّه يحصل فرصة أفضل تمكّنه من دخول كلية الهندسة، وفعلاً تم له ذلك أخيراً، فقد قبل في المعهد العالي الفني، وانتقل في السنة التالية إلى المعهد العالي الفني بالمنصورة والذي تحوّل فيما بعد إلى جامعة المنصورة، وتخرّج من كلية الهندسة بجامعة المنصورة عام 1975م، بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف وكان الأول على دفعته[1].

كان أبو الحسن -رحمه الله- إسلاميًا مخضرماً، عرف حركة الإخوان المسلمين منذ أن كان طالباً في الثانوية العامة بمعسكر الشاطئ بغزة، وقد سمحت له سنوات الدراسة في جمهورية مصر العربية أن يلتقي بقيادات تاريخية وكوادر نضالية من حركة الإخوان المسلمين هناك، تأثّر وهو في المرحلة الإعدادية كثيراً بتوجّهات ورعاية الأستاذ حماد الحسنات أحد الدعاة في منطقة النصيرات وهو من قادة حركة حماس.

رابعاً: الزمن المبارك

عرض أحد الأساتذة في الجامعة على المهندس إسماعيل أبو شنب أن يتم تعيينه «معيداً» في الكلية لكنه فضّل أن يعود إلى قطاع غزة ليعمل هناك، وفعلاً عاد واشتغل مهندساً للمشاريع في بلدية غزة لمدة خمس سنوات، عرفه خلالها زملاؤه، ومن اختلط معه، مهندساً متميزاً سواء في الناحية الأخلاقية أو المهنية ويشهد بذلك الكثير ممن عرفه.

1- https://ar.wikipedia.org/wiki

لقد صدق المفكر الإسلامي مصطفى محمود حين قال: (قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته)، إذ نحن من يضع في وعاء أعمارنا اختياراتنا وسعينا ونحن من يكتب معزوفة حياتنا بلحننا الشخصي ونحن من نجعل النهاية مدهشة رغم كل السياق القاسي، وهذا ما اختاره الشهيد يوم قرر أن يظل في فلسطين وأن يعود إلى فلسطين وأن يلقى الله في فلسطين!

في تلك الفترة اعتزمت جامعة النجاح الوطنية بنابلس أن تفتح فيها كلية الهندسة، فأعلنت عن توفير بعثات دراسية للمهندسين، لاستكمال دراستهم العليا ليعودوا ويعملوا مدرسين في كلية الهندسة، وتقدّم أبو شنب بطلب للابتعاث للدراسة وتم اختياره لهذا الغرض فاستقال من عمله في بلدية غزة وسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث حصل على درجة الماجستير في هندسة الإنشاءات من جامعة كولورادو عام 1982م.

عاد أبو شنب إلى جامعة النجاح ليدرّس فيها، ثم سنحت له فرصة إكمال دراسته مرة أخرى، فرجع إلى الولايات المتحدة الأميركية عام 1983م، حيث بدأ الدراسة للحصول على شهادة الدكتوراه، ولكن جامعة النجاح استدعته لحاجتها الماسة له ولأمثاله للتدريس في الجامعة، فقطع دراسته وعاد إلى الجامعة وعيّن قائماً بأعمال رئيس قسم الهندسة المدنية في عام 1983م – 1984م، وظلّ يدرس في الجامعة حتى أغلقتها سلطات الاحتلال مع اشتعال الانتفاضة أواخر عام 1987م.

طوال تلك السنوات كان المهندس الكبير قابضا على حلمه ومؤمنا بالوعد المخبوء في طيات الغيب، يلمس الأماني بسعيه فتمطر سنابل قمح، ويردد في خطواته، «وإن هويت، اقبض على الروح بين ركبتيك، وقبضتيك، ودَع أحلامك تُصارع النصل، مهزوماً هو النصل، ووحدها الأحلام تنتصر...» !

كان القائد إسماعيل أبو شنب وكل الذين تفانوا للحق ذاك الحلم، أو عتبات صناعة حلم الانتصار!

ملامح القيادة

أولاً: الإخلاص الصادق

كان الشهيد إسماعيل (أبو الحسن) يميل في معظم نشاطاته لتجنب الأضواء، فيما كان أبرز ما يعرفه الناس عنه هو نشاطه في إدارة الجمعية الإسلامية، ونشاطه الدعوي الهادئ في المسجد الشمالي (مسجد أحمد ياسين)، بالإضافة إلى كونه مهندساً ناجحاً يسهل التعامل معه والثقة به، بينما ظلت مهاراته الحركية وقدراته في التخطيط وقيادة العمل الإسلامي بعيدة عن أعين سلطات الاحتلال.

لكأن الشهداء يتقاسمون في ملامحهم وتجمعهم رغبة الخفاء أو حب الخبيئة وذاك أمر لا يطيقه إلا الصادقون الذين يكتمون حسناتهم كما يكتم أحدنا سيئاته، ورحم الله الزاهد الورع بشر بن الحارث الذي قال: (لا يجد حلاوةَ الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس)، وقد قالها الحارث المحاسبي من بعد: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، والصادق هو الذي لا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله».

ثانياً: الأخلاق الراقية

تمتع القائد الشيخ المهندس «إسماعيل أبو شنب» بخصال إنسانية عظيمة وصفات أخلاقية جليلة فعرف عنه سماحته وطيبة قلبه واشتهر بجوده وكرمه فكان غوثا للملهوف وعونا للمحتاج وسندا لمن لا سند له، واتسم طوال حياته بمحبته للناس واقترابه منهم واجتهاده في حل مشاكلهم ومعايشة أفراحهم

وأتراحهم ولم يبخل أبدا بما أنعم الله عليه فكان سباقا في العطاء الجزيل ومبادرا بتقديم العون الوفير حتى أصبحت أصالة طبعه وسخاء جوده تتناقلها الألسن ويدركها القاصي والداني.

وقد صدح الشهيد بتلك المعاني في أقواله حيث ذكر أنه (كي يكون الداعية مقبولاً فى مجتمعه، فإنه يجب أن يكون مقبولاً داخل أسرته، فإن كان عاقاً لوالديه أو مشاغباً، فلا يصلح أن يكون قائداً في المجتمع).

ذكر أحد المراسلين العاملين في طاقم شبكة (CNN)، أن المهندس إسماعيل أبو شنب كان مقصد الصحفيين الأجانب، وكانوا يجدون عنده الراحة والابتسامة وحسن الخطاب، وكان هو الشخص الذي يفضلون الالتقاء به، شهد له كل من عرفه بالحكمة ورجاحة العقل والرأي السديد.

ولقد امتد أثر هذا السلوك الأخلاقي الرفيع على العلاقات في شتى مستوياتها وبرز بوضوح في النشاط السياسي فقد شهد له الدكتور أحمد يوسف بأنه كان صمام أمان على الساحة الفلسطينية، لما يتمتع به من أخلاقيات عالية ومهارات إدارية متميزة، ووعي سياسي ملحوظ، وصداقة للإخوة في مختلف الفصائل الفلسطينية، وكانت له كذلك حظوة ومكانة عالية لدى الشيخ الشهيد أحمد ياسين -رحمه الله- مؤسس حماس والأب الروحي للحركة الإسلامية في فلسطين، وربما كانت مرجعية هذه العلاقة الوطيدة بالشيخ أحمد ياسين تعود إلى سنوات البدايات



الأولى للعمل الإسلامي في قطاع غزة، حيث كان الأخ إسماعيل يقيم في نفس مخيم الشاطئ الشمالي الذي يقيم فيه الشيخ أحمد، وقد عملا معاً لسنوات عديدة هناك، قبل أن ينتقل الشيخ أحمد إلى حي الصبرا في سكن قريب من مركز نشاطه بالمجمع الإسلامي.

كان القائد الشهيد صاحب الأدب الجم والخلق الرفيع الذي كان يأسر بأخلاقه وحسن تعامله كل من تعامل معه أو يلتقي به، متواضع، دمث الأخلاق يتعامل مع أصغرهم كما يتعامل مع أكبرهم.

ثالثاً: مُجَمّعاً لا مفرقاً

كان للشهيد صداقات قوية مع معظم القادة الفاعلين في التنظيمات الفلسطينية وكان الكل يجمع أن وجود القائد أبي الحسن في أي قضية كفيل بأن تجد المشكلة طريقها للحل والتوافق فقد كان يؤمن بالوحدة الوطنية فعلاً لا قولاً وكان على استعداد تام للتنازل لإخوانه في الفصائل الأخرى من أجل الحفاظ على اللحمة والتوحد.

ويسجل له تاريخ النضال الفلسطيني أنه لعب دوراً مهماً خلال الأحداث المؤسفة التي وقعت بين التنظيمات الفلسطينية في عام 1986م في قطاع غزة حيث تداعت المؤسسات والهيئات الأهلية في القطاع لوأد الفتنة وتم اختيار المهندس إسماعيل أبو شنب عضواً في لجنة الإصلاح المنبثقة عن هذا التجمّع وقد أدّت اللجنة برئاسته دوراً طيباً في تصفية الأجواء وتهدئة الخواطر.

يعتبر الشهيد رمزاً من رموز الوحدة الفلسطينية القائمة على المساواة والاحترام والمصداقية والتطلع إلى الهدف الأكبر والمصير المشترك، وكان بمنهجه من القلائل الذين جمعوا بين العمل السياسي والنقابي والأكاديمي، وتفوّق في هذه المجالات بشكلٍ ملفت للنظر.

كما كان له حضوره البارز في المجال الاجتماعي الخيري العائلي إذ كان أقرباؤه وجيرانه يلجؤون إليه عند الخلاف والنزاع فيبذل جهده لنصحهم وحلّ مشكلاتهم والتوفيق بينهم، وكان جيرانه وأهالي الحي الذي كان يسكن فيه «حي الشيخ رضوان بمدينة غزة» يعرفونه شخصاً مؤدّياً للواجب بل مبادراً إليه، وكان أهل الخير في الضفة وغزة يلجؤون إلى مكتبه الهندسي لعمل التصميمات الهندسية وأخذ الاستشارة لبناء المشاريع الخيرية والمساجد وغيرها مجاناً ودون أن يتقاضى عليها أجراً.

لقد كانت حياة الشهيد صدى لمعنى (إن الدين كله خلق. فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين)، ويكأنه يشد سرج خيله ويمتطي الخلق الحسن شوقا لنبيه فيبلغ بندى روحه وطهارة سلوكه مرتبة القرب، فعن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جده، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ , وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، فَسَكَتَ الْقَوْمُ ,«فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا» , فَقَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا!»[1].

رابعاً: الرؤية الثاقبة

كان القائد الشهيد ذا رأي مستقل ونظرة ثاقبة وعمق واضح ومقدرة على استشراف الأوضاع وحنكة في التعاطي السياسي وفهم ودراية بمقتضيات السياسة العربية والدولية. لم يكن نسخة مكررة من غيره من كبار القادة بل كان دائما صاحب رؤية جديدة وبعد خاص في التعاطي مع الحدث وكان ذلك يسبب له أحيانا إساءة في فهم مواقفه إلا أن إبداعه في التفكير كان نابعاً من إخلاصه لحركته وعقليته الفذة.

1- مسند الإمام أحمد بن حنبل-رقم الحديث 6735

ومن المهم سرد بعض الأقوال التي تكشف عن هذا الوعي المتقدم للشهيد ومنها توصيفه للموقف من العملية السياسية الحالية إذ يقول: «موقفنا يجب أن تكون المقاومة مواجهة للاحتلال ولا يمكن أن تسقط، وهي الطريق الوحيد لمواجهة الاحتلال، ولو لم يكن هناك احتلال لما كانت هناك مقاومة، ويجب أن تكون هناك صيغة لإخراج الجميع من تعقيدات الوضع الداخلي، ونحن مستعدون إذا أوقف العدو عملياته ضد المدنيين الفلسطينيين أن نُوقِف العمليات داخل الخط الأخضر، ولكن تبقى المقاومة مستمرة ضد الاحتلال، وهذا موقف نتمسك به إذا وافق العدو الصهيوني على ذلك، وإذا رفضوا فالحرب مفتوحة على كل الخيارات»[1].

خامساً: الفاعلية العالية

شارك الشهيد القائد قادة حماس في أحلك الظروف، واستطاع في تلك الفترة تثبيت اسم حركة حماس في المحافل العربية والدولية كأبرز القوى فاعلية في تحريك انتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى عام 1987م، ولقد عُهد إليه قيادة الحركة في قطاع غزة في الفترة من ابريل 1988م حتى اعتقاله مطلع يونيو عام 1989م، وعلى الرغم من قصر تلك الفترة إلا أنها كانت من أغنى الفترات في حياة حركة حماس وانتفاضة الشعب الفلسطيني الأولى.

كان للشهيد بصمات خلال الانتفاضة الأولى ودوراً مميزاً في قيادتها منذ الشرارة الأولى لاشتعالها وظلت بصماته واضحة عليها، ومنذ اليوم الأول الذي اندلعت فيه الانتفاضة كلّفه الشيخ أحمد ياسين بمسؤولية قطاع غزة في تفعيل أحداث الانتفاضة وكان نائباً للشيخ ياسين، وقد عمل أبو شنب منذ اليوم الأول في الانتفاضة على متابعة كافة الأحداث التي تقوم بها حماس

1- http://hamas.ps/ar/martyr/459/

وعمل على تقوية هذه الثورة من خلال عوامل كثيرة وتطوير أساليبها حتى لا تقتصر على الحجر فحسب، أيضاً عمل على تنظيم الأجهزة المتعددة للحركة وترتيبها وتفرّد كلّ جهاز بعمله الخاص حتى اعتقل في إطار الضربة التي وجهتها المخابرات الصهيونية لحركة حماس وكان ذلك بتاريخ 1989/5/30م.

لقد كانت بحق فتره حاسمة في ابتكار وسائل المحافظة على استمرارية وزخم الانتفاضة الشعبية وتطوير أساليب عملها لتكافئ التحديات والوسائل التي كان يلجأ إليها الأعداء لوأد الانتفاضة، حيث سعى فيها أبو الحسن إلى تطوير هيكليات وأطر عمل حركة حماس لتواكب ضمان استمرار الانتفاضة، وعمل على إضافة أجهزة الإعلام والأحداث إضافة إلى جهازي الأمن والعسكري اللذين سبقا بداية الانتفاضة. لقد آمن أبو الحسن بتوزيع الأعمال واستغلال الطاقات وحرية الحركة والمبادرة مما كان له أكبر الأثر على تطوير العمل وإضافة خبرات جديدة[1].

لقد كان أبو الحسن مدرسة متميزة في العمل الإسلامي وتجربة غنية ومتعددة الأوجه فكما أبدع داخل الوطن بشطريه تميز أيضا خارجها وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أتاحت له الأيام قدرا وافرا من الخبرات والتجارب التي خرج بخلاصتها وعطائها وعبرها وتوجه بالقراءة الواسعة وحب العلم والمعرفة والسعي الدؤوب على الأخذ من معين الكتب التي كانت تحظى باهتمامه وعنايته[2].

يشهد له السيد إسماعيل هنية بالقول: «إن عملية تصفية القائد إسماعيل أبو شنب كانت قراراً استراتيجياً، سعت إسرائيل من خلاله إلى تغيير قواعد اللعبة، والقضاء المبرم على الهدنة، وحتى على تلك التفاهمات التي كانت تنسج خيوطها مع قيادات في السلطة الفلسطينية»[3].

1- http://aldalw.montadalhilal.com/t553-topic
2- https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=664196
3- http://www.alwatanvoice.com/



لقد كان العدو ينتقي مفاصل العمل في اغتيالاته ويُجهز على العقليات التي تمتلك دفة إدارة السفينة ويسعى لإجهاض الطاقات التي غمرت الجهاد بفهمها وسعيها وحكمتها.

وللحقيقة التاريخية نذكر أن الشهيد القائد كان مؤمنا أشد الإيمان بأن لديه قوة مدخرة، تلك التي عبّر عنها مالك بن نبي بالفاعلية وقال عنها: «إنّ قومي اليوم أحوج ما يحتاجون إلى دروس في الفاعلية، الفاعلية التي غابت أو غُيبت عن عقل وجسد المسلم، وصرنا بعدها أحوج ما نكون إلى صناعة الرواحل، إلى نماذج فاعلة، إلى استيلاد قناعات وأفكار تنشر ثقافة الفاعلية المؤثرة، إلى قدوات تخلق في ضمير الجيل فكرة إن لم تكن بئراً فكن دلواً، أو لم تكن دلواً فكن حبلاً، أو لم تكن حبلاً فكن بَكَرة على الأقل، ولا تكن حجراً يطرحه العابثون في البئر ليسمعوا ضجة الماء فيه»!

سادساً: الصبر المؤثر

(إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة)، تلك كلمة خالدة للمفكر الإسلامي مالك بن نبي يكشف فيها عن الهوّة بين التنظير وبين العمل وعن الفارق بين الأفكار في صمتها وبين تفعيلها لتصبح حّية مثمرة، ولقد كان القائد إسماعيل أبو شنب طاقة جبّارة تمور مورا لم تكسره ظروف الاعتقال بل ضرب فيها أعظم الأمثلة على استبسال وجهاد لا

يتوقف، إذ كان منذ اللحظة الأولى لاعتقاله مدركاً أنه انتقل إلى مرحلة جديدة في العمل الجهادي فهيّأ نفسه جيدا لهذه المرحلة وبإدراك واع أن البداية ستكون صعبة جداً وهو الأمر الذي حدث فعلاً فقد أخضع للتحقيق من قبل المخابرات الصهيونية في سجن الرملة وعذّب عذاباً قاسياً لمدة ثلاثة شهور وبعد هذه الفترة من التعذيب تم نقله إلى زنازين العزل في نفس السجن ظلّ فيها مدة 17 شهراً لم يرَ النور.

استطاع الشهيد في عام 1990م، وبعد انتهاء فترة العزل أن يصبح ممثلاً للمعتقلين في الرملة، وقد شكّل داخل المعتقل قيادة حركة حماس وذلك بعد انتقاله من سجن الرملة إلى سجن عسقلان، حيث أمضى بعد ذلك باقي مدة محكوميته البالغة ثماني سنوات قاد خلال هذه الفترة حركته بصورة رائعة، حيث لم تشهد الحركة الأسيرة قائداً مثل أبي شنب حيث خاض وإخوانه المعتقلون إضرابين كان لهما أثر بالغ على تحسين حياتهم داخل السجن وحقّقوا من خلالهما إنجازات عظيمة وذلك في عام 1992م، وعام 1995م.

قضى الشهيد ثمانية سنوات كاملة في سجون الاحتلال بتهمة قيادة التنظيم السياسي لحماس خلال الانتفاضة الأولى عقب اعتقال الشيخ أحمد ياسين، وتعده بعض المصادر الرجل الثاني في الحركة.

ويجدر بالذكر أن القاضي الصهيوني فرض على الشهيد غرامة مالية قدرها 4000 ألف دولار، أو إمضاء فترة إضافية في حال عدم دفعها، ولما أراد الشهيد دفع المبلغ رفض القاضي وقال: «لا نريد من هؤلاء أموالاً، بل نريدهم في السجن»، وكان حكم المحكمة بالسجن 5 سنوات وظل القاضي يمدد له حتى وصلت فترة اعتقاله الى 8 سنوات.

مسيرة في انجازات

قيل «والشرف مراتب، فهناك رجل يصنع نفسه وهناك رجل يصنع أولاده وهناك رجل يصنع المجتمع وهناك رجل يصنع التاريخ وهو أشرف الشرفاء جميعا»، ومسيرة الشهيد القائد إسماعيل أبو شنب تقدم البرهان أنه حاز قصب السبق في مراتب الشرف، فقد ساهم في إنجاز العديد من الأمور المهنية والاجتماعية التي كانت بدورها تخدم القضية الفلسطينية والمواطن الفلسطيني، ومن أهمها:

- كان رئيساً للمركز الإسلامي، وإماماً للمسجد في مدينة «فورت كولينز» في ولاية كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية في بداية الثمانينات أثناء دراسة الماجستير.
- شارك في تأسيس نقابة المهندسين عام 1976م بهدف الارتقاء المهني والتطوير للكادر الهندسي والتحسين من أدائه بالإضافة إلى المحافظة على حقوقهم.
- المشاركة في تأسيس الجمعية الإسلامية بغزة عام 1976م بهدف الحفاظ على الشباب الفلسطيني ثقافياً ورياضياً واجتماعياً من الفساد الصهيوني الذي كان يحاول بثه بين صفوف الشعب الفلسطيني فكان للشهيد في هذه الجمعية دور رئيس في استقطاب الشباب الفلسطيني وإنقاذهم من وحل الاحتلال الذي كان هدفه تدمّير أخلاقهم وهو الأمر الذي اعتبر رافداً هاماً من روافد اندلاع الانتفاضة المباركة حيث كان للجمعية نشاطات اجتماعية وثقافية رياضية.
- المشاركة في تأسيس رابطة الأندية الفلسطينية عام 1977م.
- المشاركة في تأسيس كلية المجتمع بالجامعة الإسلامية بغزة عام 1998م.
- المشاركة في تأسيس مركز أبحاث المستقبل بغزة عام 2000م.

- عضو مجلس شورى الإخوان والهيئة الإدارية في قطاع غزة في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات.
- شارك في العديد من اللقاءات الوطنية في فترة السبعينات والثمانينات.
- شارك في اجتماع مجلس شورى الأخوان مع آخرين ممثلاً عن قطاع غزة في عام 1980م في الأردن لمناقشة المشاركة في الكفاح المسلح في فلسطين.
- قائد الحركة الإسلامية في جامعة النجاح بنابلس ما بين 1983-1987م.
- شارك في تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس وتولى قيادتها في 1988م حتى اعتقل في مايو 1989م[1].

التجربة النقابية

في مجال العمل النقابي يعتبر أبو شنب رائداً في هذا المجال فهو من مؤسسي جمعية المهندسين الفلسطينيين في قطاع غزة عام 1976م، وكان عضواً في مجلس إدارتها من عام 1976م وحتى عام 1980م ثم انتخب رئيساً لمجلس إدارتها ونقيباً للمهندسين في نفس العام، حيث ترك هذا المنصب لسفره للدراسة في أمريكا، وبعد عودته من هناك تم انتخابه عضواً لدورتين متتاليتين وجرى اعتقاله في عام 1989م، وبعد الإفراج عنه في عام 1997م، أعيد انتخابه رئيساً لمجلس إدارة الجمعية ونقيباً للمهندسين.

وأثناء عمله في التدريس في جامعة النجاح كان له دور بارز في توجيه الحركة الطلابية والنقابية في الجامعة لتكون في موقع الريادة للمجتمع الفلسطيني في مواجهة المحتلين، وبعد عام من إغلاق الجامعة مع بداية الانتفاضة استقال منها في أواخر عام 1988م، وعمل مهندساً في وكالة الغوث حيث مارس عمله النقابي هناك حتى اعتقاله في أيار (مايو) لعام 1989م.

1- http://alresalah.ps/ar

لقد كان أبو شنب -رحمه الله- من القلائل الذين استطاعوا التوفيق والجمع بين إبداعهم في مجال تخصّصهم وبروزهم ومشاركتهم الواضحة في الحياة العامة وحمل هموم الأهل والوطن، حيث كان لا يدع فرصة للخير صغيرة كانت أم كبيرة إلا ويحاول أن يكون له نصيب فيها، هذا بالإضافة إلى قدراته الشخصية ومواهبه التي كانت سبباً في أن يكون أحد الشخصيات الاجتماعية المرموقة في القطاع.

توقيت السعادة

زمانك بستان، وعصرك أخضر، وذكراك، عصفور من القلب ينقر.

وكنت، فكانت في الحقول سنابل، وكانت عصافير، وكان صنوبر.

وأنت أبو الثورات، أنت وقودها، وأنت انبعاث الأرض، أنت التغير.

تضيق قبور الميتين بمن فيها، وفي كل يوم أنت في القبر تكبر.

في حوالي الساعة 1:15 من بعد ظهر يوم الحادي والعشرين من أغسطس من العام 2003م، أطلقت طائرات مروحية إسرائيلية خمسة صواريخ باتجاه سيارة مدنية من نوع جولف كان يستقلها القيادي أبو شنب في طريق عودته من الجامعة باتجاه شارع محافظة غزة الرئيس، وأدى قصف السيارة إلى مقتل المهندس وإثنان من مرافقيه، بالإضافة إلى وقوع عدد كبير من الجرحى يصل إلى 18 من الذين كانوا موجودين في المكان لحظة قصف السيارة[1].

رحل أبو شنب لكن ريح المسك منه ظل فواحاً، وبين الله لنا ذلك عبر كرامة أجراها له إذ تقول زوجةُ:«عندما أردنا دفن ابني حسن والذي استشهد في بداية الحرب الصهيونية الأولى على غزة عام 2008م، لم يجدوا مكانا لدفنه بمقبرة

1- http://www.almoslim.net/node/85256

الشيخ رضوان وأرادوا أن يتوجهوا به للشمال لدفنه هناك، فرفضت وقلت لهم ادفنوه مع والده رحمه الله، وحينها فتح الإخوة قبر المهندس أبي حسن، ونزل شاب ليدفن حسن ففوجئ بما رآه وأصابته رعشة حيث إنه وجد جثمان الشهيد أبي حسن كما هو والكفن ما زال ناصع البياض ولم يطرأ عليه أي تغيير من عوامل الزمن فضلاً عن الدماء التي كانت على الكفن وكأنها خرجت في تلك اللحظة».

ولفتت أم حسن الانتباه إلى أن «الراية التي لفت جسد المهندس إسماعيل يوم جنازته مازالت حتى اليوم تعطرها رائحة المسك التي خرجت من الشهيد رحمه الله»[1].



لا ريب يا سيدي أنك كنت تفهم ما هو المغزى من وجودك، من نفخة الروح في روحك، ومما وهبت في خريطتك الوراثية؟! لقد قبض الشهيد بين يديه على رسالة الله فيه، على سبب قدومه للحياة، وعمل بصدق وتفان للحظة سماع الصوت الجليل يقول له، وكان سعيكم مشكورا.

ولقد نقلت وكالة الأنباء الألمانية عن مسؤولة أمنية إسرائيلية أن أبا شنب قاد عمليات حماس في الضفة الغربية وقطاع غزة. وقالت إننا لا نفرق بين القيادة السياسية والعسكرية لحماس، أنها منظمة إرهابية.

كما نقلت وكالة الأنباء الفرنسية عن مسؤول أمني إسرائيلي أن أبا شنب كان يخطط لهجمات على إسرائيل، وبمقتله تنقذ إسرائيل أرواح العديدين من اليهود وتتفادى خسائر كبيرة.

1- المصدر فلسطين الآن

بيان حركة حماس في نعي الشهيد

دماء المهندس ورفاقه لن تذهب هدراً

يا جماهيرنا المجاهدة، ها هم قادة العصابات الصهيونية يقدمون على ارتكاب مجزرة بشعة ذهب ضحيتها رمزٌ من رموز الأمة الإسلامية، وقائدٌ من قادة الشعب الفلسطيني: الشهيد القائد المهندس اسماعيل حسن أبو شنب (أبو حسن) «من بلدة الجية» أحد القادة السياسيين لحركة المقاومة الإسلامية «حماس» ورفيقاه الأخ المجاهد/ مؤمن محمد بارود «من بلدة بيت دراس» والأخ المجاهد/ هاني ماجد أبو العمرين «من بلدة حمامة».

والعشرات من الجرحى وعلى إثر هذه الجريمة النكراء والعمل الإرهابي الجبان فإن حركة المقاومة الإسلامية «حماس» تعلن بأن مبادرتها التي أطلقتها بتعليق العمليات العسكرية قد انتهت، ويتحمل شارون وقادة العصابات الصهيونية المسؤولية التامة عن ذلك. وإن حركة حماس إذ تزف للأمة العربية والإسلامية ولشعبنا الفلسطيني المرابط شهداءها الأبرار فإنها تؤكد أن دماءهم الطاهرة لن تذهب هدراً.

وإن ردنا على هذه الجريمة النكراء سيكون مزلزلاً بإذن الله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: 227]

وانه لجهاد، نصر أو استشهاد
حركة المقاومة الإسلامية
حماس-فلسطين

الخميس، 23 جمادى الآخرة، 1424هـ

الموافق 21 أغسطس، 2003م

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

الدكتور نزار ريان

1959م - 2009م



ستعود المجدل التى نراها
من بعيد باذن اللّه،ما بقيت
بنادقنا فى الطريق الصحيح
والذى أعدنا غزة من خلاله.





قد تمنحك الأقدار ذات يوم طريقا للبطولة، التفرد بعض ملامحها، فتعزف إيقاعك عزفا منفردا، وتبدو حينها كأيقونة، أو رمزا، أو فكرة تسبح بها ضد الطوفان، وقد ينالك الشوك في معاني حياتك، لكنه التفرد الذي لا بد له من ضريبة، دفعها نوح -عليه السلام- في تفرد صبره في الدعوة، و دفعها زكريا -عليه السلام- في خاصة حكاياته، و دفعها محمد -عليه السلام- في علو خلقه وصبره.

وسجيناً أو أسيراً، أو صاحب قلم تقتات الكلمات من حياته ودمه، لكن حبره سيظل نديا حيا فقد سقاه روحه ودم العروق، وتلك هي عتبة التفرد التي بلغها الشهيد الدكتور نزار ريان يوم ارتضى لنفسه أن يكون على خطا الشهيد عبد الله عزام -رحمه الله- وعلى خطا العز بن عبد السلام سلطان العلماء وبائع السلاطين والحُكام، وعلى خطا ابن تيمية الذي كتب التاريخ أنه حين أقبل التتار كان يدور على الأسوار في دمشق وبلاد الشام يحرض الناس على الجهاد، و يقرأ لهم سورة الأنفال.

وكان ابن تيمية يُقسم للناس المفجوعين بأخبار الهزائم أنهم منصورون، فيجيبوه إن شاء الله فيقول: «إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا»، ثم أمر الناس أن تشعل القناديل والسرج في البيوت والمساجد، وتضج



إلى الله بالتوسل والبكاء، وأن تثبت ولا تفتن، وقال لهم: «لو رأيتموني مع التتار وعلى رأسي المصحف فاقتلوني» !!

وثبت الناس على هدير ابن تيمية، وكان ذلك هو موقف العلماء الربانيين المجاهدين الذين خرجوا من فقه الأوراق إلى فقه الواقع وأشعلوا بعلمهم سبل الهداية للناس وخلقوا لهم بصيرة الإصلاح.

لقد كان الشهيد نزار ريان رجلاً بألف رجل، حمل على عاتقه الدعوة إلى الله في كل الميادين، كان عالماً وفقيهاً، مجاهداً ومرابطاً، مربياً ومعلماً، زوجاً وأباً، لم يقابله أحد داخل أو خارج فلسطين إلا وترك في قلبه بصمة رائعة، قدّم ابنه شهيدا للّه تعالى، وانتظر الوقت بفارغ الصبر حتى يلقاه.

والقيادي الشهيد هو أحد علماء فلسطين البارزين كان عالماً في الحديث النبوي، وأحد كبار علماء حركة حماس الذين تعتمد عليهم في فتواهم، رباني يُعرف بورعه وتقواه، ورغم ذلك كان في مقدمة صفوف المقاتلين يحثهم على الجهاد ضد إسرائيل.



أولاً: الهوية التعريفية

الاسم: نزار عبد القادر محمد عبد اللطيف حسن ريان العسقلاني والكنية: أبو بلال.

ولد القائد الشهيد في مخيم جباليا في 1959/3/6م، وتعود أصول أسرته إلى قرية نعليا إحدى قرى عسقلان.

أبصر الطفل نزار الدنيا على غير ما يُبصرها أطفال العالم، فقد أبصرها على اغتصاب الأرض، وقتل الشيوخ والأطفال، وتدنيس المساجد والأمصار على أيدي الصهاينة الأشرار، أبصر الدنيا على استشهاد جده محمد وعمه أحمد، اللذين قُتلا إثر محاولتهم دفن جثة قام اليهود بتشريكها بلغم انفجر بهم وحولهم إلى أشلاءٍ ممزقة، فكان لهذا التفنن في القتل أثرٌ كبيرٌ في نفسية ذاك الطفل النجيب، أثرٌ يحمل الحقد والكراهية لهذا الفساد الكبير، ولهذه الأيدي الخبيثة التي عاثت في الأرض فساداً وإفساداً، لذلك حمل قضية بلاده وشعبه، وتمسك بحقوقهم المسلوبة، فتعلم وعلم، وجاهد واستشهد.

ثانياً: البطاقة العلمية

أنهى الشهيد دراسته الابتدائية والإعدادية بمدارس وكالة الغوث للاجئين بمعسكر جباليا، ثم أنهى الثانوية بمدرسة الفالوجة الحكومية، وحصل على شهادة الثانوية العامة عام 1976م.

ثم تلقى تعليمه الأكاديمي الجامعي في السعودية والأردن والسودان، فقد حصل الدكتور ريان على شهادة البكالوريوس في أصول الدين من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام 1982م، وتلقى العلم الشرعي على أيدي علماء الحجاز ونجد، ومشايخها الشيخ عبد الرحمن البراك، والشيخ



بن جبرين. ثم حصل بعد ذلك على شهادة الماجستير من كلية الشريعة بالجامعة الأردنية بعمّان، عام 1990م بتقدير ممتاز.

وبعد ذلك نال درجة الدكتوراه من جامعة القرآن الكريم بالسودان عام 1994م، وعمل أستاذا للشريعة بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة.

كان الشيخ الدكتور يمتلك مكتبة عامرة بنفائس الكتب، في الحديث والفقه والعربية والتاريخ، وعلوم أخرى، تتجاوز كتبها خمسة آلاف مجلدًا في قاعة مخصصة لها أوقفها على طلاب العلم.

ولقد انكب الشيخ ريان في مكتبته العامرة على علم الحديث اختصاصاً وعلوم الدين عموماً ينهل منها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فكان لذلك نتاج عظيم في حياته العلمية والعملية، أبرزه:

- حصوله على درجة الأستاذية في عام 2004م أي بعد تخرجه من الدكتوراه بعشر سنوات فقط وهو أمر قلما يتيسر لحاملي درجة الدكتوراه.
- تصنيفه العديد من المصنفات العلمية المتعلقة بعلم الحديث الشريف، أبرزها: إمداد المنعم، شرح صحيح الإمام مسلم، وأظلمت المدينة وهو كتاب في وفاة النبي ﷺ ، الصحيحان أسانيدهما ونسخهما ومخطوطاتهما وطبعاتهما، شرح كتاب الورع عن الإمام أحمد بن حنبل رواية أبي بكر المرّوذي.

- إلقاؤه للمحاضرات العلمية المنهجية المنتظمة في مسجد الجامعة الإسلامية بغزة، ومسجد الخلفاء الراشدين بمعسكر جباليا.
- إشرافه على العديد من الرسائل العلميّة لطلبة الماجستير في الجامعة الإسلامية.
- كتابة العديد من الأبحاث العلمية المحكمة، منها:

النقّاد المتشددون، رسم الأسانيد بالرموز، شروح أحاديث، منهج تحليل النصوص في السيرة، بحوث في الصحيحين، أسباب الإيراد، فهرست الحديث الشريف.

- كتابة الأبحاث العلمية التي تخدم الناس في واقعهم المعاصر، منها:

الشهادة والشهيد، مستقبل الإسلام.

- استخدام الحاسوب لخدمة الحديث الشريف في قطاع غزة.
- التزامه بالسنة النبوية في هيئته الشخصية، وحياته الأسرية، وصفاته الأخلاقية، وعلاقاته الاجتماعية، وحياته المهنية، وطريقته الدعوية، ومنهجيته الفكرية، وأعماله التعبدية.
- تميزه الملحوظ في طريقة التدريس لمساقات الحديث الشريف وعلومه بالجامعة الإسلامية بغزة.
- انتفاع الطلبة به فقد تتلمذ على يديه العديد من الطلاب الذين ساروا على طريقته العلمية والعملية، أبرزهم: د. نعيم الصفدي، د. زكريا زين الدين، د. وائل الزرد.

وكان الشهيد قد أوشك على أن ينتهي من شرح لصحيح مسلم من عدة مجلدات، وسلسلة عن أنساب عائلات فلسطين قبل قصف غزة واستشهاده المبارك.

إن هذا الاستعراض العلمي لنشاط الدكتور الشهيد والذي جمع فيه بين العلم والعمل ليؤكد للقارئ دور العلماء الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: (وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ) صححه أبو داود.

إن أمتنا اليوم لديها الكثير من الأكاديميين حملة الشهادات العليا، والذين لا يفهمون واقعهم جيداً ورؤاهم مضطربة وقراراتهم غير عقلانية وهؤلاء لا يقدمون للناس إلا تنظيراً مزوقاً من أبراج عاجية.

وقد قيل: «إن كون العالم جاهلا، وبقاء المثقف عاطلا من الشعور، أو إعطائه العناوين والألقاب البارزة كالدكتور والمهندس والبروفسور وأمثالهما لحالة مؤلمة جدا، فيما إذا كان فاقدا للفهم والنباهة والشعور بالمسؤولية تجاه الزمن، وحركة التاريخ التي تأخذه معها هو والمجتمع، وهو حال بعض حملة الشهادات العليا ولا ينجو من ذلك إلا من كان العلم جسرا له للتمكين لرسالته وخدمة فكرة تستحق الحياة والموت في سبيلها.

ثالثاً: البطاقة الدعوية

عمل الشهيد إماماً وخطيباً متطوعاً لمسجد الخلفاء بمعسكر جباليا منذ 1985-1996م. وأشرف على عشرات المساجد وحلقات القرآن.

وقد اعتقلته سلطات الاحتلال مرارا ليمكث في سجونها نحو أربع سنوات، كما اعتقلته أجهزة الأمن التابعة للسلطة الفلسطينية وأخضع فيها للتنكيل والتعذيب، ولا ضير فتلك ضريبة الإمامة والهدى قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]

لقد كان الشيخ يتجول للخطابة فيما يمكن أن يصل إليه من مساجد القطاع ويشرف مع عدة مجموعات من طلبة العلم على إعداد وتوزيع الكتيبات والأشرطة



والسمعية التي تحوي الخطب والمحاضرات لعلماء وخطباء فلسطين و العالم الإسلامي وخصوصا بلاد الحرمين.

ويكفي أن نذكر أن أحد الذين آثر فيهم الشيخ ريان وكانت هدايه الله على يديه الشيخ المجاهد الشهيد صلاح شحادة قائد كتائب القسام رحمه الله، وكان من وصية القائد صلاح شحادة الموجزة أن يتولى غُسله الشيخ نزار ريان.

لقد كانت روح الشهيد ريان معلقة بمسجد الخلفاء الراشدين، وقد جمع التبرعات لإعادة بناء المسجد، ليصبح قلعة للعلم والدين، وصمم على ذلك، وبالفعل بدأ في المشروع الكبير، وقطع شوطا كبيرا في ذلك قبل أن تقوم الطائرات الصهيونية بقصفه[1].

كان الشهيد يجلس للإفتاء كل يوم بعد العصر، ويدور بعد العشاء على مجموعات الشباب المجاهد يعظهم ويذكرهم بالله، ويجيب على فتاواهم كما يقوم آخرون من أعضاء الهيئة الشرعية بحماس بنفس هذا الدور وذلك في أغلب الليالي، كما يتوقف كل منهم عند آخر مجموعة ليقوم معهم من الليل ويرابط على حدود غزة جزءا ولو يسيرا من الليل.

1- http://www.ikhwanwiki.com/

تمتع الشيخ ريان بشعبية كبيرة في الشارع الفلسطيني، واشتهر بالتصاقه الشديد بالحياة اليومية للمواطنين، وقام بمشاركة الوسط الذي يعيش فيه، وكان أحد رجال الإصلاح بين الناس.

كان للشيخ مساهمات اجتماعية بارزة، خاصة في تمكين عشرات الأكاديميين الفلسطينيين من الحصول على منح لدراسات الماجستير والدكتوراه في الجامعات العربية والإسلامية في شتى التخصصات كما يعدّ أحد رجالات الإصلاح الاجتماعي في قطاع غزة، من خلال ترؤسه «لجنة إصلاح ذات البين ولم الشمل».

قال الغزالي -رحمه الله-: «عندما يكون الطريق كثير الحفر، متموج السطح، فلا صلاح له إلا ردم الحفر وتسويه السطح».

وقد كان هذا هو ديدن العالم الرباني نزار ريان حيث أفرغ وسعه في الجهاد في سبيل الله إصلاحاً وتعليماً وصناعة للرجال وإنشاء للكوادر وردماً لكل الحفر التي تبعثر سير الناس، لقد أدرك الدكتور أن الجهاد منظومة متكاملة تشمل كل مناحي صناعة الإنسان فأعمل علمه وفكره وكلمته وماله في إحياء جيل كادت العولمة ووسائل الاحتلال أن تنال من ربيعه وتشوه حاضره وتاريخه ومستقبل أحلامه.

رابعاً: المدرسة التربوية

كان نزار ريان في غاية التأثّر بشيخه أحمد ياسين، شديد الحبّ له والولع بتراثه، وكان يذكره كثيرًا، وكان يراه إمامه في عصرنا وشيخه المقتدي به، فقد كان الشيخ أحمد ياسين أحد ربانيي هذه الأمة الذين تركوا آثارا تشهد لهم إلى يوم الدين، كان كما قال السلف: «إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا رباني»، كان أحمد ياسين وتلاميذه من الذين اقتدوا بالنبي ﷺ،



وقال ابن قيم الجوزية–رحمه الله: (فإنَّ هذه الأمة أكمل الأمم، وخير أمة أخرجت للناس، ونبيها خاتم النبيين لا نبي بعده، فجعل الله العلماء فيها كُلَّما هَلكَ عالم خَلَفه عالم؛ لئلا تُطمسَ معالم الدين وتَخفى أعلامه)[1]، وتلك كرامة الله للعلماء أن جعلهم في وراثة النبوة.

ولقد تعلق الدكتور ريان بشيخه وقدوته في الإصلاح والجهاد حتى إنه كتب عنه كثيراً وله مقالة شهيرة بعنوان «شيخي أحمد ياسين» ختم بها مشاعره بقوله: «واليوم تعلمنا وأنت حيّ عند ربك بإذن الله، تعلمنا يا حِبّ القلوب والأفئدة، يا زيتونة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، فكيف وقد مسّته النار، فامتد لهيبًا يحرق الغاصبين المحتلين، ليرحلوا، فما في بلادنا مكان للغرباء والغربان، إنها بلادنا، إنها فلسطين».

كان يرافقه في بعض أموره ويلازمه في بعض رحلاته الدعوية منذ باكورة أيامه فقد قال الشيخ نزار ريان: «أرسلني عمّي أبو ماهر–وهو جدّي لأمّي وأحد أخلص أصحاب الياسين ومن القادة المؤسسين للحركة–إلى شيخنا الياسين في بعض أموره، وكنت حينها فتًى في السابعة عشرة».

عمل في الدعوة مع الشيخ ياسين حيث يروي ابنه براء عنه بعض الحكايات التي منها: أنه خرج بشيخنا أحمد ياسين إلى بعض قرى الضفة الغربية أثناء تطوافه في الدعوة إلى الله، ولم يكن للشيخ عَرَبة (كرسي للمقعدين) كما أصبح له لاحقاً، وكان يحمله على يديه حملاً، فبينما هو يمشي في بعض

1- مفتاح دار السعادة: (1/451)

طرق تلك البلدة، والشيخ على يديه، وإذ بأحدهم يضع في يد الشيخ قطعة عملة قليلة القيمة. يظنّ أنهما محتاجان يتسوّلان، فغضب غضباً شديداً، وهمّ بالرّجل يريد أن يردّ لشيخه الكرامة فحال الشيخ بينه وبين اللحاق به، وقال: يا نزار الرّجل أحسن فيما يظنّ، فلا تقابل إحسانه بالإساءة، واحتفظ بما جاد به للدعوة.

خامساً: المحطات المفصلية

يعد الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين هو المحطة المفصلية في حياة الدكتور الشهيد فقد بايع جماعة الإخوان المسلمين عام 1977م، وأعطى البيعة لأستاذه وملهمه ومربيه الشيخ أحمد ياسين.

ثم بعد ذلك كان للشهيد دور فاعل في المشاركة في التأسيس لحركة المقاومة الإسلامية حماس كما أنه شغل عضوية المكتب السياسي في حركة حماس لعدة دورات متتالية حتى استقال من عضوية المكتب السياسي للتفرغ للبحث العلمي.

واعتقله الاحتلال عدّة مرات؛ ليقضي في سجونه نحو أربع سنوات، كما اعتقلته السلطة الفلسطينية مرات عديدة وعُذِّب في سجونها، بتهمة إيوائه للمجاهدين أمثال الشهيد عدنان الغول.

ومن أهم الصفات والمحطات المفصلية في حياة الدكتور الشهيد:

1- العالم المجاهد

قال يوماً: «تركت كل شيء وتفرغت للعلم، فتركت العمل السياسي ولست نادماً عليه! ولو طلب مني إخواني أن أعود لعدت، وتركت التدريس في الجامعة! ولكني أبداً لا أترك البندقية»، وكان -رحمه الله- في الفترة الأخيرة قد كرس حياته لأمرين: البحث العلمي في مكتبته، والجهاد في سبيل الله تعالى[1].

1- الزَّيَّان إسْحَاق، كرامات الشيخ الشهيد أ.د. نزار ريان، ص23

كان العالم الجليل الدكتور ريان يقدم للأجيال نموذج القدوة الهادية التي قال عنها أحد السلف الصالح: (مثل العلماء مثل النجوم التي يُهتدى بها، والأعلام التي يُقتدى بها، إذا تغيَّبتْ عنهم تحيَّروا، وإذا تركوها ضَلُّوا).

يقول أحد المرابطين مع الشيخ: «رابطت معه قبل استشهاده بأسبوع، وقد استأذن أن يذهب حتى يتوضأ ويصلي ركعتين في آخر وقت الرباط، وطلبت منه أن أصلي معه فأذن لي فأردت أن أقف للصلاة واضعاً سلاحي بجواري فأنكر على ذلك» وقال لي: «إن الكرة الأرضية كلها تحاربنا، لا تضع سلاحك وصل وأنت تحمله، فأطعته رحمه الله رحمة واسعة»[1].

وكان يقول: «إن الشهداء ليسوا خسارة، الخسارة أن يدخل عدونا معسكرنا، ولذلك أقسمنا نحن المجاهدين أن نصد عدونا عن المعسكر مهما كلفنا ذلك، لهذا كثرت فينا الجراحات، وتحديثا بنعمة ربي سبحانه، فإن أُسر الشهداء معنوياتهم عالية، وكذلك نفسية أهاليهم، والحمد لله تعالى، لا نرى الدموع، وإنما نرى الصبر والصابرين، الخسارة أن يُقتحم المخيم لا قدر الله، ولن يكون بإذن الله، لأن تفقّدي للمجاهدين أعطاني ثقة كبيرة بأن قدرتنا على صدهم ممكنة بحمد المولى سبحانه، جمعنا الله وإياكم في خنادق العزّ والكرامة»[2].

إن هذه الكلمات المباركة لتشهد للدكتور بعمق الفهم لكتاب ربه وسنة نبيه في زمن وصف فيه الغزالي -رحمه الله- بعض علماء القرآن بأنهم ممن «اتخذوا القرآن مهجورا، حيث نمت أفكارهم معوجة، وطالت حيث يجب أن تقصر، وقصرت حيث يجب أن تطول، وتحمسوا حيث لا مكان للحماس، وبردوا حيث تجب الثورة !»، فمهمة عالم الأمة أن يحيي مفاهيم الشريعة و يستنبط الفتوى التي تحيل حياة الأمة إلى نور في حاضرها ونارا على عدوها، ولا يصنع ذلك

1- المرجع السابق، ص20
2- http://www.alukah.net/culture/0/4676/#ixzz43qwLTDq6

إلا الربانيون من العلماء، وكما قال الغزالي: (إن الغفلة عن مفاهيم القرآن الكريم والقصور في إدراك معانيه القريبة أو الدقيقة عاهة نفسية وعقلية لا يداويها في الأمة شيء)!

ويسجّل له التاريخ في أثناء تلقيه التهاني في استشهاد نجله كلمته المباركة (إنّ اليوم عرس إبراهيم؛ فهو أول المجموعة المجاهدة من أسرتي، وأنا فخور به وبعمله؛ لأن الوطن ما زال يحتاج منا لمزيد، وسنبذل أرواحنا حتى نعود إلى قرانا ومدننا التي هُجّرنا منها، وتابع إن إبراهيم برغم صغر سنه فإنه رجل، وكنت أتوقع من شاب مثله أن يقدم مثل هذا وأكثر للوطن؛ فهو نشأ على حب الجهاد والاستشهاد).

وتروي ابنة أخيه عن عمها الشهيد قوله لأبنائه: «أحب أن استشهد واذهب مباشرة للجنة» فقال له أطفاله: «يا أبانا أنهم يضعون الأطفال الأموات بالثلاجات»، فأجابهم: «لا أريد سأشعر بالبرد، ثم إن ثلاجة الموتى لا تتسع لجسدي الضخم أنا أريد أن أُدفن مباشرة وأذهب للجنة».

قال في آخر أيامه لأطفاله كما تنقل عنه زوجات أبنائه بلال وبراء ومحمد أنه كان يمازح أطفاله قائلا: «من يحبّ أن يستشهد معي» فأجابه جميع أطفاله: «نحن يا بابا إما أن نموت معا أو نعيش معا»، حتى إن ابنه الصغير عبد الرحمن قال: «لا أستطيع أن أتخيل يا والدي أن تستشهد ولا أراك بعدها أريد أن أستشهد معك».

ولقد كان يقول دوما: «منذ يوم استشهاد عبد الله عزام لم يتقدم أي من العلماء الشرعيين للعمل في ميدان الجهاد بشكل مباشر ولم يستشهد أحد من طلبة العلم الشرعي البارزين، أتمنى الاستشهاد كعبد الله عزام في ساحات المعارك»[1].

1- http://alresalah.ps/ar/post

لقد صار الزمان لك وحدك يا ريّان، وصرت أنت أيقونة الفداء، واستجمع التاريخ أوراقه ليكتب البداية من تاريخ عطاءاتك، هنا نصطف جميعا أمام مدرسة العلم الرباني لنتقاسم فضلك ونستلهم دروس العلماء على مائدتك الأبدية، ولنحمل حياة سرمدية من خبزك المعجون بميراث النبوة ! وقد قالها عليّ كرم الله وجهه،

النـاسُ مِن جِهَةِ الآبـــاءِ اَكفـاءُ ... أَبـــوهُــمُ آدَمُ وَالأُمُّ حَـــوّاءُ
نَفسٌ كَنَفسٍ وَأَرواحٌ مُشـاكَلــَةٌ ... وَأَعـظُم خُـلِـقَـت فيها وَأَعضاءُ
وَإِنَّـمــا أُمَّهاتُ الناسِ أَوعِـــيَـــةٌ ... مُستَودِعـــاتٌ وَلِلأَحـــسابِ آباءُ
فَإِن يَكُـن لَهُمُ مِن أَصلِهِم شَـرَفٌ ... يُفـاخِـرونَ بِـــهِ فَـالطينُ وَالماء
مــا الفَضلُ إِلا لأَهلِ العِلمِ أنهـمُ ... عَلى الهُدى لِمَـــنِ استَهدى أَدِلاّءُ
وَقَدرُ كُلِّ اِمرِئٍ ما كـاَنَ يُحسِنُه ... وَلِلرِجـالِ عَلى الأَفعـالِ اسماءُ

2- العالم الرباني

تعرف بصمات الشيخ طائرات الاحتلال، والتي فشلت في قصف عشرات منازل المواطنين والمجاهدين، إذ كانت تجد الشيخ ريان ومعه مئات المواطنين على أسطح تلك البيوت للحيلولة دون تدميرها، فيما هو في النهار عالم يتجول بين مجلدات العلم في مكتبته التي كانت تضم ما يزيد على خمسة آلاف مجلد ومرجع شرعي، وهنا استعراض موجز لبعض المشاركات الفاعلة للشيخ تقبله الله في عليين.

- شارك في إشعال الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام 1987م ضد الاحتلال الصهيوني.
- اعتقل مراتٍ عدة من قبل الاحتلال الصهيوني، بتهمة المشاركة في فعاليات الانتفاضة، وأنشطة الحركة الإسلامية، فتعرض لشتى ألوان التعذيب.

- المشاركة في العديد من الدورات العسكرية استعداداً لمواجهة الاحتلال الصهيوني.
- الرباط على الثغور، كان يحرص على الرباط في الصفوف الأولى، رغم أعبائه الكثيرة، ومرضه في بعض الأحيان.
- شارك في العديد من المعارك التي دارت بين أهالي شمال قطاع غزة واليهود، كمعركة أيام الغضب عام 2004م، فضلاً عن المشاركة في حفر الأنفاق وإطلاق الصواريخ تجاه المستعمرات في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

ويشير أحد رفقاء الشيخ إلى كرمه مع المرابطين خاصة فيقول: «كان الشيخ نزار -رحمه الله- كريماً جداً مع إخوانه فإن الكثير من المجاهدين سلحهم الشيخ بنفسه، وكان كثيراً ما يكرم المرابطين بوجبة عشاء، إضافة إلى أن بيته ومكتبته مكان تجمع للمجاهدين في الأزمات والاحتياجات».

لقد كان الدكتور ريان على خطا سلفه الصالح من العلماء الربانيين أمثال ابن تيمية الذي سجل له التاريخ دوره في نصر المسلمين على المغول وذلك حين اجتمعت جيوش المسلمين من الشام ومصر وبادية العرب في مرج الصفر جنوبي دمشق في شهر رمضان فأفتى يومها ابن تيمية بالإفطار وأنه خير من الصيام وأخذ يلف على الجند يأكل من طعام في يده يشجعهم على الأكل، وكانت تلك المعركة معركة ابن تيمية إذ كان له الفضل في تشجيع الناس والشد على عزيمة الحكام وجمع الأموال من تجار دمشق لتمويل جيش الدفاع عن



دمشق وكان على رأس جيش دمشق الذي حارب وهزم المغول وطاردهم شرقاً في داخل سورية حتى نهر الفرات. أولئك هم العلماء الذين تفتقدهم الأمة اليوم، رجال الملة لا رجال السلطان والدولة!

3- العالم المرابط:

لم يكن العالم الدكتور نزار ريان رهين مكتبته كما يفعل بعض العلماء، لكنه قائد في ميادين الجهاد مرابط في سبيل الله، وقد اعتلى عرش المجد والخلود في العلم والجهاد حتى الشهادة.

وتعرف بصماته ثغور الرباط على حدود قطاع غزة التي دأب على الرباط فيها، ليحيي ليله مرابطاً مجاهداً. وكان الشيخ ريان بارزاً في كل الميادين، فخاض صولات وجولات في معركة أيام الغضب حتى اندحرت دبابات الاحتلال من شمال القطاع عام 2004م، وكان يقود طليعة المجاهدين على الثغور مرابطاً، ويبث فيهم روح العزيمة والثبات، ويقوم الليل معهم في ميدان الرباط. ودأب شيخنا على تقدم صفوف المجاهدين، بل هو في النقطة الأقرب إلى العدو.

وقدم نجله إبراهيم شهيدًا في عملية فدائية في مغتصبة (إيلي سيناي)، عام 2001م قتل فيها ستةً من جنود الاحتلال، بينما استشهد أخوه الأصغر واثنان من أولاد أخيه في محرقة غزة، وأصيب ابنه بلال.

«وكان الشيخ قد قاد أول مبادرة جريئة لحماية بيوت المجاهدين من القصف بالتجمهر مع المواطنين فوق أسطحها، مانعًا الاحتلال من سياسته التي حاول فرضها، بل علّم الناس الاعتصام فوق أسطح البيوت المهددة بالقصف من قبل يهود، واستطاع أن يحدَّ من ذلك الإجرام فلما هُدِّدَ بقصف بيته اعتصم في بيته هو وأبناؤه وزوجاته الأربع وبنوه ورفضوا إخلاء البيت والنجاة بأرواحهم، وقُصف البيت على رؤوسهم، فارتقوا إلى الله شهداء صدقوا الله فصدقهم الله،

فالوفاء بالعهد عنده دينٌ تهون في سبيله كل التضحيات، حق لك يا شيخنا أن تسكن أنت وزوجاتك الطاهرات وبَنوك الكرام القمم السامقة مع السابقين من المجاهدين والعلماء الربانيين والدعاة المخلصين والأنبياء والصدّيقين، فالمفاخر لا يدركها من رضي بالصف الاخِر، قدّمتم فتقدمتم فهنيئًا لكم في عليّين، فصاحب المبدأ الحق لا يتسرب اليأس إليه، ويقدم كل تضحية طيبة بها نفسه كما قال المتنبي:

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولابُدَّ دون الشَّهْدِ من إبر النحْلِ

وقال:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

منْ آثر السلامة وقنع بما هو فيه كان بينه وبين المجد بعد المشرقين وبعد المغربين، وتذكر أن المكارم منوطة بالمكاره»[1].

كما أضفى طابعًا خاصًا على المناورات العسكرية لكتائب القسام، حين يتقدم ركبهم ببدلته العسكرية يحثهم على الجهاد، ويحبب إليهم الشهادة.

يروي أخو الشيخ نزار الأخ عبد اللطيف أن الشيخ «نزار» حدّثه أنّه رأى في المنام عندما كان ولده الشهيد إبراهيم صغيراً أنه يذبح إبراهيم، وبعد استشهاد إبراهيم قال: هذا تأويل رؤياي!

لقد رزق الشيخ إيمانا شجاعاً، وبعض القوم لا يبلغ إيمانه ذلك بل هم أصحاب (إيمان جبان قاعد، قد يفر صاحبه إلى صومعة أو يحيا داخل قوقعة، لكنه لا يجرؤ على الضرب في أرض ولا يستطيع مغالبة الأنواء وصناعة الأحداث، هذا الإيمان تستطيع أن تنسبه إلى أي مصدر إلا كتاب الله الذي قذف بالمسلمين

1- إشراقات الهمّة، أبو القرع، خضر محمد، مكتبة ومطبعة دار الأرقم، غزة فلسطين 2009م.

في كل فجّ، ومن ورائهم هذا النداء: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:56]).

إن «التدين الحقيقي إيمان بالله العظيم، وشعور بالخلافة عنه في الأرض وتطلع إلى السيادة التي اقتضتها هذه الخلافة، أعني السيادة على عناصر الكون وقواه، ولا تتاح هذه السيادة بداهةً إلا لعقلٍ ذكيٍ وهمة جوّابة متطلعة إلى اقتحام المجاهل».

وقد كان ريان بكل هذه المعاني إلى حد التضلع بها، فسبحان من جعل لكل امرئ من اسمه نصيب، إذ الريان هو الممتلئ وهو من ارتَوى من كلّ خير، وهو مَن شَبع من كلّ فَضل، وهو العُود الذي اخْضرّ؛ حتّى صار ناعِماً مِن كَثرة الرَّيِّ ودَلال الفَضل وجَمال السّقيا.

فيا لله، حين جعَل الرّيان كأنه مدخلاً لحناء الفَرح وشلاّلات الأُنس التي تنتظره وتشتاق إليه!

وصدق حوط بن رئاب الأسدي (أبو المهوَّش) حيث قال:

دَبَبْتُ لِلْمَجْدِ والسَّاعونَ قد بـلغوا ... جَهدَ النـُّفوسِ وألقَوا دونه الأُزُرَا
وكابدُوا المجدَ حتى مَلَّ أكثرُهمْ ... وعانق المجدَ مَنْ أوفى ومَنْ صَبرَا
لا تَحْسَبِ المَجْـــدَ تَمْرًا أَنْتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

العالم الشهيد

يروى أخو الشيخ نزار الأخ عبد اللطيف أن الشيخ نزار كان في أيامه الأخيرة ينزل إلينا في المكتبة ويقول: (رأيت الليلة في المنام الشيخ صلاح جاء وأخذني، وكان يقول كأني حَ أستشهد)[1].

لله در الشهداء الحالمين بالمنازل أولئك الذين صدقت فيهم كلمات الرافعي يقول: «المرئي في عين الرائي»، فما ترغب أن تراه فقط اجعله حلما معلقا بين عينيك، وفي سويعة من سويعات العطاء الإلهي ستراه حقيقة تشمها بكل حواسك المشتاقة للعطاء الجميل، لقد اقتبس الرافعي هذا المعنى الرائق من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج 6-7].

وهكذا الشهيد يرى «في القلب بشارة فجر يولد»، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:51]، أي وربي إنه قريب، يشمه الشهيد ويراه مناما ثم لا يلبث القوم أن يلمحوه وقد كان الشهيد يحياه انتظارا!

لقد كان الشهيد رغم التهديد المسبق له بالقصف والاستهداف والاتصال المتكرر رافضا لفكرة مغادرة بيته، وقال لمن نصحوه: كنت أطالب الناس بالبقاء في بيوتهم فكيف تريدون مني أن أترك بيتي؟! ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2] [الصف:3].

ولقد كان موعده مع الشهادة عصر يوم الخميس، الأول من يناير عام 2009م، خلال معركة الفرقان، إذ قرر الصهاينة قصف بيت الدكتور المجاهد نزار ريان، لكنه رفض الخروج، كيف لا وهو الذي كان يقف على أسطح بيوت المجاهدين لحمايتها، ليبقى الشيخ في منزله حتى قصفته طائرات الاحتلال واستشهد مع زوجاته الأربع وأحد عشر من أبنائه.[3]

1- الزَّيَّان، إسْحَاق، كرامات الشيخ الشهيد أ.د. نزار ريان، ص33.
2- http://alresalah.ps/ar/post
3- http://aqsatv.ps/ar/details-5204.html

هكذا ارتقى الشيخ نزار ريان مع زوجاته الطاهرات، وفلذات كبده من بناته وأولاده رحمهم الله تعالى، ومن قبل تلك الكوكبة سبقهم إلى الجنة الشهيد ابراهيم ليستقبل العائلة الكريمة والديه وخالاته وإخوته.

وصدق الشاعر حين قال:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها   والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وصية الشهيد العالم الدكتور نزار ريان

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فمرحباً بالشهادة في سبيل الله التي طال انتظارها، فقد والله تعالى عيل صبرنا في هذه الحياة الطويلة ونحن ننتظر أن نعود إلى جنة الخلد، وأن نصير ممن قيل فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]، ومرحبًا بالصحبة المؤمنة مع العصابة التي بايعت الله تعالى على الموت في سبيل الله، مرحبًا باللقاء بمن سبق، مرحبًا بمن لقي الله تعالى ويده على الزناد حتى الطلقة الأخيرة، مرحبًا بمشايخي وعلمائي، وإخواني المجاهدين، مرحبًا بمن سبق.

اللهم اجعل خير أيامنا يوم لقاك.

فهذه وصية عبد الله تعالى نزار بن عبد القادر بن محمد ريان من أهالي بلدة نعليا المغتصبة منذ خمسين عامًا، أوصي بما هو آت:

- أوصي بحسن الظن بالله تعالى، في كل باب، ومن هذه الأبواب، لقاء الله، ومنها تطهير بلادنا من اليهود، فإن الله تعالى قد وعدنا ووعده الحق (بتتبير ما علو تتبيرا)، والعمل الجهادي المتواصل حتى تحرر بلادنا فلسطين، وبقية بلاد المسلمين المغتصبة من الكفار أو العلمانيين؛ مرتزقة أمريكا؛ أعداء دين أمتنا.

- أوصي مَن يقرأ هذه الكلمات بمواصلة الجهاد في سبيل الله، وعدم الركون إلى الحلول الهزيلة، فبلادنا أمانة في أعناقنا، لا يحل لنا التنازل لحظة واحدة عن خيار الجهاد حتى تعود، وتأكيدا بالعمل على العلم.

- أوصي طلاب العلم الشرعي خاصة، أن يكونوا الأوفياء لهذا الدين، وقضية فلسطين، فمن لها إن لم يكن أهل الشرع الحنيف، وأوصيهم بتلاوة القرآن وتدبر آياته، خاصة سورة الأنفال والتوبة، ونحوها مما يحرض على الجهاد في سبيل الله تعالى، وأوصيهم بعقيدة الإمام الطحاوي خيرا، فانها بشرح ابن أبي العز الحنفي العقيدة الصحيحة بإذن الله تعالى، وأن يبتعدوا عن مهاترات الضالين أياً كانوا.

- أوصي أسرتي وعائلتي وأزواجي الكريمات، وأولادي وبناتي بتقوى الله وبالعمل بكل ما يأمر به ديننا العظيم، وبطلب العلم الشرعي، كتابًا وسنة، وأن يلزموا العقيدة السلفية كالطحاوية بشرح ابن أبي العز الحنفي، وأن يبقوا مع الإسلاميين الجهاديين ما بقوا على الدين محافظين، وأن يتجاوزوا عما تجاوز الله عنه للناس، وأوصي أولادي وبناتي بالزواج المبكر، وكثرة النسل، وتعدد الزوجات الصالحات، فإن نبينا عليه السلام مباهي بكم الأمم يوم القيامة، وإن بلادنا بحاجة إلى العدد الكثير؛ للتحرير والتتبير، كما أوصي ذريتي بالجهاد في سبيل الله تعالى وإن تخلى الناس كل الناس عن الجهاد والمجاهدين، وأوصي أسرتي أن يكونوا بيتا واحدا، وألا يشمتوا بنا زنادقة العلمانية، وجهلة الناس، فكونوا شامة في الناس في دينكم وخلقكم وسائر أمركم.

- أسأل الله تعالى التوفيق والسداد في الجهاد والمقاومة، وأسأل طلابي الذين درستهم المسامحة على ما بدر من سوء خلق أو تقصير أو نحوهما.

- أسأل الله تعالى أن يديم على مساجدنا الخير كله، من إقبال الشباب على العلم والعمل والجهاد، خاصة مسجد الخلفاء الراشدين، السابق في الخيرات الجهادية، فصبرا شباب الخلفاء على جمرة الجهاد، حتى يصير في كل بلد من بلادنا المغتصبة مسجد خلفاء يواصل الطريق.

- أنبه إلى أمر أني لن أسامح في دمي عربيًا قط، لا من السلطة أو غيرهم، وسأطلب بين يدي ربي دمي من قاتلي، وحزبه، وطائفته، وحكومته، ومن حرضه، وعائلته، ودعائي عليهم جميعًا، اللهم لا تبارك لمن ساهم بقتلي ولو بشطر كلمة، لا في ماله ولا أولاده ولا ذراريه، واجعل ذلك وصغاره في الدنيا قبل الآخرة. أما شهادتي على يد يهود، فهي مطلبي، اللهم نولني ما أريد وأبغي.

- أوصي أخي عبد اللطيف بأمي خيراً، وبأسرتي خيراً، تربية على الدين كما ربيته، وعلى الجهاد والعلم الشرعي، وفقه الله وسدد رأيه.

- حسبي الله على من ينشر صوري ما سامحته ولا رضيت عنه، حسبي الله على من يقيم لي ما يسمى عرس الشهيد، حسبي الله على من يرفع صوته في جنازتي، خذوا هذه الجثة، واجعلوها في أي قبر شئتم، ثم انصرفوا مأجورين إلى جهادكم وعملكم.



- البراءة التامة من كل ما يفعله الناس اليوم في الجنائز والمآتم، وأن تبدأ الجنازة من البيت أو المسجد هادئة، صامتة، بلا رايات، أو هتافات، أو إذاعات، أو نعي في الصحف أو المذياع، فإذا واريتموني

الثرى، فالدعاء الدعاء، ولا بأس بموعظة على القبر، والانصراف إلى شؤون الحياة، وعند شفير القبر تنتهي كل المراسم، فلا تقيموا شيئا مما يفعله الناس، كالكراسي والعرش وتوزيع التمور والشراب وغيرها، أو ما تسمونه عرس الشهيد.

- عدم تجصيص القبر أو بنائه أي بناء، والاكتفاء بترابه الذي أخذ منه، وعدم الكتابة على القبر غير الاسم «هذا قبر نزار عبد القادر ريان، توفي بتاريخ كذا الهجري فقط» وأن أدفن في المقبرة الشرقية، قريبًا من قبر ولدي إبراهيم إن أمكن، ولا يقال عني شهيد أن قضيت مقتولا بيد اليهود أو نوابهم.
- ألا يكتب على الجدران شيء مما يفعله الناس عند موت أحد، ولا ترسم صورة، أو تطبع أو تكبر أو تصغر أو تنشر بأي وسيلة كانت، ولو بالحاسوب.
- لا بأس بصناعة طعام يكفي عشرين لأسرتي في الأيام الأولى، دون إسراف.
- تحية إلى الجنود الكرام، ممن تعاملت معهم لنصرة دين الله تعالى في الأرض، وتحرير بلادنا، من رجال ونساء، وشباب وأشبال، وأطلب من الجميع الدعاء والمسامحة. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

نزار بن عبد القادر بن محمد ريان الثلاثاء 21/ ربيع الأول/1425هـ.

تقبل الله الشهداء وجعل سعيهم ودمهم

يقظة لأمة آن آوان قيامتها



سيرة الشهيد القائد

سعيد صيام

1959م - 2009م



إياكم والتنازل، فلن يسجل التاريخ علينا أننا بعنا حقوق شعبنا أو تهاونا في الحفاظ عليها، ستنتهي الحرب وسننتصر.





قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: 31] **تنفرد هذه الكلمات الإلهية في تفسير بعض الحالات البشرية التي نقف أمامها وفي جعبتنا أسئلة تمور مورًا. تمتلكنا الدهشة ونحن نستعرض حياتهم، ونقف على حافة الخروج من عالم المنطق ونحن نتابع سيرتهم، ونكاد نعلن عجزنا عن فهم هذه التركيبة البشرية التي ترتدي ثياب الإنسانية، ولكنها تصطف في سلوكها لتنتمي لعالم آخر، لكون أعلى ولخطوات لا يليق بها إلا تربة الجنة.**

يباركهم الله. فإذا باركهم صار العبد منهم موطن ثبوت الخير الإلهي، ونما فيه حتى فاض وانتفعت به الحياة والأحياء، فهو مبارك أينما حلّ سواء في قعر البئر كالسرخسي الذي ألف موسوعته الفقهية فيها، أو في سجن كابن تيمية حيث كتب علمه على جدران السجن وقطع الصابون، أو في مقعده مشلولاً كأحمد ياسين، يكفيه أن يكون مباركًا ليظل شجرة خضراء لا تحترق. ونجمة لا تسقط، وغيمة ديمة تمطر كل حين، فقلة مع البركة الموعودة خير من الوفرة مع الشقوة! حياتهم هي معنى (رُبَّ عمر قلت آماده واتسعت أماده)... اتسعت حتى استطاعت أن تبدو كل سويعة منها كأنها



دهور فلكية ﴿ امتدادها وجليل آثارها، ذلك أنهم عاشوا لفكرة...عاشوا لغيرهم وكما قال سيد قطب -رحمه الله-: «إننا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة، حينما نعيش للآخرين، وبقدر ما نضاعف إحساسنا بالآخرين نضاعف إحساسنا بحياتنا، ونضاعف هذه الحياة ذاتها ﴿ النهاية». وقد صدق فكل من يتابع حياة الشهيد القائد سعيد صيام يرى ذلك جليًا واضحًا والسطور التالية فيها بعض من قبس الحكاية.



أولاً: البطاقة الشخصية

الاسم: سعيد محمد شعبان صيام، والكنية (أبو مصعب)، ولد في مخيم الشاطئ في غزة في عام 1959/7/22م، متزوج وأب لستة أبناء (ولدان وأربع بنات). سكن واستقر -رحمه الله- في حي الشيخ رضوان، حصل على دبلوم تدريس العلوم والرياضيات من دار المعلمين في رام الله عام 1980م، ولم يتمكن من حضور حفل التخرج لاستلام شهادته من كثرة استدعاءاته لمقابلة المخابرات الإسرائيلية، ثم حصل على بكالوريوس التربية الإسلامية من جامعة القدس المفتوحة(2000م).

ثانياً: مكونات التشكيل الشخصي

في تفاصيل البطاقة الشخصية تتبدى بقية أسرار حياة كانت معنى وافرا لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: 14] قليل هم الذين أضناهم حلم الفردوس وشغلهم عن ذواتهم حتى خلصوا من حظوظ أنفسهم إلى حظوظ الآخرة التي لا غبن فيها ولا نقصان وقد قالها سيد -رحمه الله-: «قليل هم الذين يحملون المبادئ، وقليل من هذا القليل الذين ينفرون من الدنيا من أجل تبليغ هذه المبادئ، وقليل من هذه الصفوة الذين يقدمون أرواحهم ودماءهم من أجل نصرة هذه المبادئ والقيم، فهم قليل من قليل من قليل!». تعود أصول الشهيد لقرية «الجورة» في أراضي 1948م قرب مدينة عسقلان المحتلة، و في مدارس وكالة الغوث وتشغيل اللاجئين أنهى المرحلة الابتدائية في مدرسة ذكور الشاطئ وكان ترتيبه الأول، وأنهى المرحلة الإعدادية في مدرسة غزة الجديدة الإعدادية، والثانوية في مدرسة فلسطين عام 1977م القسم العلمي وكان من المتفوقين.

تميز الطفل سعيد صيام بالهدوء، وبكر في الالتزام بالمسجد والمحافظة على الصلاة حيث كان يتردد على المسجد الأبيض الذي ترك أثرًا في شخصيته



وتكوينها، ولا شك أن المساجد في مرحلة ما بعد النكبة استطاعت بفضل سعي الدعاة التربويين صناعة جيل مهد للكثير من الانتصارات الجبارة التي نهتز لها اليوم طربًا، مثلهم في ذلك مثل شجرة في اليابان تبقى بذورها تحت الأرض أربع سنوات تامة، يتعاهدها أهلها بالرعاية والسقاية حتى أن المار يمرُّ، ولا يعلم أن في تلك البقعة بذرة مخفية...! فإذا أنهت سنواتها الأربع ظهرت دفعة واحدة بما يوازي غيابها، ثم إنها تنمو نمواً مضاعفًا عن بقية الشجيرات من حولها، ولقد غدت في الثقافة اليابانية رمزًا لمعاني الصبر على غرس البذور لساعة القطاف، وتلك فلسفة العمل التربوي ذي الرؤية البعيدة والاستراتيجية الواعية.

وكان سعيد متميزًا أثناء دراسته محبًا للعلم شغوفًا بالمطالعة خاصة الكتب الشرعية واللغة العربية مما جعله يتخصص بها لاحقًا، وهذا الشغف بالدراسات العربية والإسلامية كبر في قلبه رغم تخصصه العلمي، ولقد تخللت مراحل الدراسة فترات من العمل لمساعدة عائلته في فترة غياب والده وخاصة بعد اعتقاله بمصر بسبب مساعدة رجال المقاومة، فكان رجل البيت والقائم بشؤونه، فنشأ على تحمل المسؤولية منذ مرحلة مبكرة، وبعد عودة أبيه من السجون المصرية كان والده يقدر رأيه ويشاوره في أمور العائلة والحياة ومشاكلها، وقد

قال والده عنه: «كنت أشعر أن سعيدًا أخاً وليس ابنًا، أشاوره في كثير من الأمور لأنني أدرك أنه رغم صغر سنه كان عميق الخبرة في شؤون الحياة أكثر ممن هو أكبر منه سناً».

تقدم الشهيد بأوراقه لجامعات مصر من أجل إكمال دراسته الجامعية فقوبلت بالرفض الأمني بسبب والده، هنا لم يكن من مفر إلا التوجه للشطر الآخر من الوطن، فسجل في معهد المعلمين برام الله، وشاء الله أن تكون السنة الأولى بدون أي مضايقات من المحتلين، أما السنة الثانية فكان الشهيد يداوم في مقر المخابرات الإسرائيلية من الصباح وحتى انتهاء دوام جنود الاحتلال واستمر ذلك طيلة شهر رمضان.

ملامح واعدة

أولاً: التخصص الشرعي الواعي

أبحر القائد سعيد صيام في العلوم الإسلامية والدراسات العربية إبحار عاشق محب للغته ودينه وهويته الإسلامية، وكان ذلك سببًا قويًا في صبغ فكر الشهيد بصبغة خاصة، حيث أضفت هذه التخصصات المختلفة وهذه الثقافة الشرعية عليه هيبة العلم ووقار العلماء ونسجت له بردة الرقي ومكنته من صهوة المنابر فغدا محاضرًا وخطيبًا ومعلمًا ذا هيبة وجلال وصاحب حجة وعلم واسع.

ولقد عمل الشهيد خطيبًا وإمامًا متطوعًا وواعظًا في العديد من مساجد قطاع غزة، حيث بدأ مرحلة الخطابة في مسجد منطقته (المسجد الأبيض بمعسكر الشاطئ) ثم انتقل إلى حيث سكنه الجديد في حي الشيخ رضوان وهناك عمل على تأسيس مسجد اليرموك والذي أصبح خطيبه الدائم، وتميز هذا المسجد عن غيره بأنه غدا القاعدة الدعوية التي يشار لها بالبنان، لأنه احتضن بين

ثناياه داعيةً ومربيًا للشباب يتمتع بعلم شرعي واسع وفهم عميق، تتلمذ على يديه العديد من الشباب، وقد لاحظ الشيخ ياسين ذلك النبوغ المبكر والتميز الفريد، فكان يرسله في قوافل الدعاة إلى أراضي 1948م في أم النور والرملة ورهط وغيرها من المدن والقرى.

عاش الشهيد سعيد صيام حياة تنبض بالفكرة التي آمن بها ونشرها على من حوله عبيراً فاح في كل أرض وطأتها قدماه المباركة ولقد صدق سيد قطب -رحمه الله- حين قال: «ولا حياة لفكرة لم تتقمص روح إنسان، ولم تصبح كائنا حيا يدب على وجه الأرض في صورة بشر!».

إن كل فكرة انتصرت وكل عقيدة قامت وكل دين ثبت إنما ثبت (بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح)! حقًا إن الكلمات التي اقتاتت من نجيع دم صاحبها تبقى خالدة على كل لسان، أما الكلمات التي تلوكها الألسن وتقذفها الأفواه، ولا تنهل من ذلك النبع الرباني فإنها تولد كسيحة مشلولة، وتصل إلى آذان الناس ميته والناس لا يتبنون الموتى.

ثانياً: ذكاء في التواصل الاجتماعي

عمل القائد سعيد صيام بعد التخرج مدرسًا في مدارس وكالة الغوث الدولية بغزة من العام 1980م حتى نهاية العام 2003م، ولقد تميز الشهيد في تلك الفترة التي عمل بها معلمًا بحب الطلاب له وذلك لشدة قربه منهم وتحسسه لمشاكلهم و سعيه الصادق في العمل على حلها، يمد يد العون للمحتاج منهم بما يستطيع، ولقد كسب بهذا السلوك حبَّ الجميع واحترام الأقران من المعلمين، بل نال إعجاب مدراء المدارس التي عمل بها وكان محط ثقتهم حتى قال أحد مدرائه في حقه: «طالما أن أبا مصعب بجانبي لا أشعر بصعوبة في حل أي مشكلة مهما كانت صعبة لما يتمتع به من معارف كثيرة وحب الناس له».

كان هو الإنسان الحي في مشاعره وإحساسه في الآخرين في وظيفته وفي حيه وفي كل موضع تجري به الأقدار إليه حيث يذكر جيرانه أنه كانت له المهابة والاحترام الشديد في حيه حيث روي عنه -رحمه الله- أن جيرانًا له اختلفوا ووصل الأمر إلى العراك والاقتتال وما أن تجمهر الناس على صراخهم حتى سمعه أبو مصعب فخرج ليستطلع الأمر، وما أن رآه الجيران حتى انفض العراك وكأن شيئا لم يكن من شدة توقير الناس له واجتماعهم عليه.

ثالثاً: في مضمار السبق

هو الجواد الذي لا يكبو، والسيف الذي لا ينبو، إذا دخل الميدان صهلت كل الخيول، وتنحت جانبًا كل الفرسان للفارس الذي لا يبارى والسهم الذي لا يحيد عن قلب الرمية.

أنتخب القائد سعيد صيام في أكثر من خمس دورات انتخابية متتالية عضوًا في قطاع المعلمين في وكالة الغوث الدولية، ثم رئيسًا لقطاع المعلمين لمدة ثلاث دورات متتالية، ولم يحصل أن تولى هذا المنصب أحد طوال تلك المدة، مما يشير الى تعدد جوانب التميز في شخصيته، فعَّل خلالها التواصل الاجتماعي والدعوي مع المعلمين مما انعكس على توجهات وانتماء الكثير منهم، حتى ضاقت وكالة غوث وتشغيل اللاجئين ذرعًا بسعيد، فوضعته أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يترك عمله في الوكالة، أو أن يتنازل عن حقه في الانتماء السياسي لحركة المقاومة الإسلامية «حماس»، فاختار حريته في الممارسة السياسية، وترك العمل، ولسان حاله يقول: «تتغير المواقع ولا تتغير المبادئ» فكانت تلك مرحلة فارقة في حياة الشهيد لها ما بعدها.. والحق أن العناية الإلهية التي تلحظ هذا الوجود، لن تدع فكرة صالحة تموت، بل إن الله بفضله يهيء الأسباب التي قد تبدو في مظهر المنع ليعطي العبد الصالح عطاء فوق ما كان يأمل ويظن.

(فهو سبحانه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أخرجك إلا لتتأهب للقدوم عليه ولتسلك الطريق الموصلة إليه).

فاز شهيدنا في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني عام 2006م، وحصل يومها على نحو 76 ألف صوت، وهو الرقم الأعلى على الإطلاق، حيث أصبح عضوًا في المجلس التشريعي الفلسطيني عن قائمة التغيير والإصلاح قائمة حركة المقاومة الإسلامية حماس في دائرة غزة.

على مستوى عائلة صيام حصل على أعلى الأصوات ليصبح مختار العائلة رغم حداثة سنه، ووجود الكثير من الرجال الذين يفوقونه سنًا وتجربه، لكن شهيدنا سكن قلوب الجميع الغريب قبل القريب؛ ليكون مختار عائلته، بل المصطفى والمجتبى عند ربه تعالى، فلا تعجب أن اختاره ربه إلى جواره.

رابعًا: أصالة الخير في روحه

ومن مميزات هذا القائد الكبير أن فِعل الخير أصيل في شخصه بحيث لا يحتاج إلى تفكير أو تردد، وقد روى عنه أحد الأصدقاء في العمل أنه وفي أثناء يوم عمل جاءت امرأة فقيرة تطلب مساعدة وكان الشهيد حاضرا للموقف فأخرج كل ما في جيبه بلا تردد وأعطاه للمرأة، وفي نهاية يوم العمل جاء ليقترض أجرة طريق العودة إلى البيت! وذلك حدث يشابه سيرة السلف الصالح في إنفاق كل شيء، وهي مرتبة عالية لا يبلغها إلا القلائل. الذين يدركون أنه (لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذرًا). ومع سخائه في النفقة كان أيضًا شديد التحري عن فعل الخير وشديد التحري عن مواطن الصدقة والتفقد لمستحقيها، فقد ذكر كل من عرفه أنه كان يتحرى عن المتسولين ويساعدهم ما أمكن إن كانوا فعلاً محتاجين، ويُذكَرُ له أنه في إحدى المرات جاء متسول مبتور القدم إلى المسجد الذي يخطب به الشهيد،

فجمع ما تيسر له من صدقات ثم مضى، وفي الأسبوع التالي فعل نفس الشيء هنا تدخل الشيخ صيام حيث أمر أحد الشباب بمراقبته وعند انتهائه من جمع المال وجهه إلى أن يأخذ منه ما جمعه من مال. تعجب بل واستنكر البعض فعل الشيخ، ولكنه أزال هذا التعجب، بل حوله إلى إعجاب وثناء حينما شرح لهم أنه سأل عن هذا المتسول عندما جاء في الجمعة الماضية وعرف أنه يعاقر الخمر بما يجمع من مال، فأمر أحد الشاب أن يذهب إلى بيت هذا المتسول ويعطى المال لعائلته الفقيرة.

خامساً: تضحية في صمود وصبر

لا بد من الصبر ليجتاز العابدون البلاء، ولا بد من قرابين للحق يحتملون في سبيل ربهم وراية معتقدهم ما يبلغهم معراجًا لا هبوط بعده. ولقد كان سعيد صيام أحد القرابين التي ضحت بعمرها واحتملت العذاب؛ لأجل بقاء راية الحق عالية وعودة الحقوق لأصحابها إذ تعرض القائد صيام لتجربة الاعتقال في سجون الاحتلال، فاعتقل أربع مرات إداريًا من قبل الجيش الإسرائيلي خلال فترة الانتفاضة الأولى والتي كانت قد اندلعت في 7 ديسمبر 1987م، وتم بعدها إبعاده إلى مرج الزهور في جنوب لبنان عام 1992م لمدة عام كامل.

ويسجل له على شدة شوقه لأهله، فإنه آثر بعد عام من الإبعاد في مرج الزهور أن يذهب لمسجد المنطقة ويصلي ويسلم على إخوانه وكان ذلك قبل الفجر ثم بعد الصلاة توجه إلى بيته، وكان ذلك تعبيرًا صادقًا عن حبه العميق للمسجد وصحبته الطيبين.

ولم ينج القائد الشهيد أيضًا من تجربة الاعتقال في سجون السلطة حيث اعتقله جهاز المخابرات العسكرية الفلسطيني عام 1995م، واستمر في معتقله أكثر من أربعين يومًا لم يسمح له بالاستحمام، فطلب من سجانيه أن يستحم فقالوا



له في سخرية واستهزاء: «انتظر حتى نبني لك بركة سباحة» واعتقل عند جهاز الأمن الوقائي ضمن اعتقالات شنتها السلطة الفلسطينية ضد كل من حماس والجهاد الإسلامي بعد سلسلة من العمليات الاستشهادية في عمق الكيان الصهيوني، وكانت تلك كلها أوسمة الثبات على جبين القائد وبعضًا من بيعة الطريق.

سادساً: عمق الإحساس بالرسالة

كان أبو مصعب يؤدى دور الداعية بنفسه وفي مكان عمله ومع كل موظفيه على اختلاف درجاتهم. وخير شاهد على ذلك الشهيد توفيق جبر قائد الشرطة الفلسطينية إذ كان يردد كثيرًا: لقد أحببت الإخوان المسلمين وهذه الحركة عن طريق الشيخ سعيد صيام.

ويروي عنه أحد المقربين منه وأثناء عمله إذ بدا عليه الإرهاق والتعب فنصحه أن يرتاح قليلاً فقال له: «إن هذه أمانة ومصالح شعب وحقوق ولا يمكن أن نغفل عنها ساعة وإنها تكليفاً وليست تشريفاً».

ولقد صدق إذ (الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين... الله سبحانه هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع، فهي بيعة مع الله، لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه، ولا في ماله. لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله)؛ لذا كانت حياته -رحمه الله- مليئة بالانشغالات والأعباء ويذكر له أن إحدى الاجتماعات بلغت 14 ساعة متواصلة وهو يشارك فيها بفاعلية تامة.

سابعاً: الوعي بأهمية الجبهة الداخلية

على الرغم من شدة انشغال القائد سعيد صيام بالكثير من المهام الثقيلة فإنه كان يقتطع من وقته سويعات قليلة في الأسبوع لعائلته، فكان يعطي كل فرد حقه، فلم يكن يقصر بتاتا تجاه أسرته، بل كان يؤدي واجباته المنزلية على الرغم من ضغط الوقت وكثرة المهام التي كان يعيشها.

يصفه ابنه الأكبر مصعب قائلاً: «كان والدي صاحب شخصية هادئة ولا يتكلم كثيرًا وكان رحيمًا، وكان يهتم كثيرًا بإيقاظنا على صلاة الفجر كل يوم، فكان كلما ناد علينا إلى الصلاة كنا نؤجل ونقول له اتركنا دقيقتين وهكذا فكان عندما يعود من صلاة الفجر ويجدنا نائمين يقوم ببل يديه ويبدأ في وضع قطرات الماء على جباهنا، وكان -رحمه الله- يحرص على تربيتنا تربية إسلامية».

لقد كان الوزير الهمام صيام مدرسة كبيرة من التربية والعطاء والتضحيات، كان الأب الحنون فأجمل اللحظات هي التي يقضيها الأطفال والأحفاد مع جدهم أبي مصعب -رحمه الله-.

كان سعيد صيام الرجل الذي يقضي وقته في الطاعة والعبادة وينتقل من تلاوة القرآن إلى ذكر الله إلى التسبيح إلى الصلاة والقيام، وكان المؤمن القوي الذي يجتهد في ممارسة قليل من التمارين الرياضية، وكان المسؤول اليقظ الذي يلازمه دومًا دفتر جدول أعماله لا يترك شاردة ولا واردة، لقد كان الشهيد إنسانًا ودودًا في ثوب قائد إذ كان شديد الحرص على صلة الأرحام.

قائد جمع بين حزم ابن الخطاب، وصمت الصديق، وشجاعة علي، وحياء عثمان، وعلم معاذ بالحلال والحرام. فكان رجل الحركة ورجل الحكومة والأمن ورجل المرحلة الحرجة الحساسة.

التجربة السياسية

(الحكمة مع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان) وإن (الجاهلية المنظمة لا يهزمها سوى إسلام منظم). وقد كانت تلك المفاهيم هي شعار الرجل الفذ الذي قاد أخطر جهاز مؤسسي في الدولة ألا وهو وزارة الداخلية وتسنم منصبًا كان يعد في المنطقة العربية من المناصب المكروهة شعبيًا بسبب أساليب القمع والاستبداد التي تمارسها وزارات الداخلية العربية، بخلاف تلفيق التهم للأحرار، وقمع المعارضة الشريفة والزج بها في السجون والمعتقلات، لكنه استطاع بحنكته وحكمته وقوته النفسية والعقلية أن يجعل منه منصبًا لخدمة قضايا الوطن وأن يجعله نموذجا فريدًا في غزة وحكاية نادرة في وطننا العربي المغلوب والمقهورة شعوبه دائمًا.

كان الأمر مختلفا في غزة لأن هذا المنصب وصل إليه الشهيد سعيد صيام بشفافية تامة حيث تمت انتخابات نزيهة وجاءت بسببها حركة حماس إلى



الحكم عبر إرادة الشعب الفلسطيني الحرة، ولقد كان من اللافت للنظر حينها أن سعيد صيام هو الذي حصد أعلى الأصوات في الانتخابات، وهذا ليس مستغربًا على القائد العملاق ابن فلسطين المخلص، وابن المقاومة، والشيخ الداعية خطيب مسجد اليرموك، والمصلح الاجتماعي الذي عرفته العائلات الفلسطينية بإصلاحه ذات البين، وشهد الجميع بمكانه ومكانته.

وشاء الله أن يمكن لهذا الرجل بعد سنوات السجن والإبعاد، بأن يتبوأ أعلى المناصب ويصبح وزيرًا للداخلية في الحكومة الفلسطينية العاشرة.

كان اختيار سعيد صيام وزيراً للداخلية في الحكومة التي شكلتها حركة حماس نقطة ملفتة وبارزة جدًا في عالم وزراء الداخلية العرب؛ فلأول مرة يرشح لمنصب وزير الداخلية رجل جاء بإرادة الشعب، رجل هو مصلح اجتماعي وداعية إسلامي، رجل تربوي تعّلم وتربّى على يديه الآلاف من شباب غزة، وكان ذلك في عالمنا العربي أحد العجائب السبعة!... والحقيقة أن يتولى مصلح للوزارة هو الأصل إذ كما قال سيد -رحمه الله-: «من الصعب علي أن أتصور كيف يمكن أن نصل إلى غاية نبيلة باستخدام وسيلة خسيسة!؟ إن الغاية النبيلة لا تحيا إلا في قلب النبيل». ولا يؤتمن على الحقائب الوزارية إلا الأمناء...!

لقد اندهش وزراء الداخلية العرب من هذا الوزير الذي يخالفهم في أصل توليه للمنصب وطريقة إدارته ورؤيته وغاياته، إذ لم يعين من طرف حاكم لمهارته في القمع، بل جاء بإرادة شعب فرفضوه لأنه ليس من جبلتهم ولم يُدْعَ لاجتماع واحد لوزراء الداخلية العرب إمعانًا من وزراء القمع وجلادي التعذيب باستبعاده عن الصفة الرسمية التي تتيح له حضورًا في عالم السياسة!

تسلّم القائد الشهيد منصب وزارة الداخلية في الحكومة العاشرة وازدادت بذلك همومه وأحماله، وكان الجهد الأكبر ملقى على عاتقه في تلك المرحلة

الفارقة ولعلها كانت الأكثر صعوبةً في حياته، وذلك لانتشار حالة الفلتان الأمني، وتمرد الأجهزة الأمنية بل ووقوفها ضد النظام والأمن، ومشاركتها في الفوضى وتعطيل قرارات الوزير المنتخب، لاسيما بعد أن أضربت هذه الأجهزة الأمنية عن العمل بشكل كامل بأوامر من السلطة، إضافة إلى الصعوبات الإدارية والمالية التي كانت تمر بها الحكومة، في هذه الظروف الحرجة والتي يحتار فيها اللبيب، كان الشهيد كما قال عنه د. عزيز دويك: «إن خير مَنْ يستشرف المستقبل هو أبو مصعب».

فلقد فهم -رحمه الله- المقصود من هذه الفوضى وعرف مآلاتها ببعد نظره، فقام فورًا وبلا تردد بتشكيل قوة داعمة للأجهزة الأمنية، وهي (القوة التنفيذية)، حيث أعلن عن ميلادها من فوق صهوة منبر الجامع العمري بغزة في حضور آلاف من الجمهور والوجهاء، ولم تسلم القوة التنفيذية من شراسة الهجمة النكدة من قِبل الآخرين؛ فأطلقوا ألسنة السوء تبذر الإشاعات المغرضة؛ لإضعافها وإسقاط الحكومة، ومن ثَمّ جاءت مرحلة الحركة التصحيحية (الحسم العسكري)، صيف 2007م فوضعت حدًا للفوضى و الفلتان وأعادت للشارع أمنه وأمانه، لقد كان أبو مصعب رجل المرحلة بامتياز.

ومن القرارات التي تؤكد صواب رأيه وبعد نظره أنه أقر تشكيل دائرة التعبئة والتوجيه، والتي تتكون من حاملي الشهادات في العلوم الشرعية، وأوكل لها مهام البناء الفكري والعقائدي لرجال القوة التنفيذية، وذلك عن طريق التواصل الدعوي معهم والدروس والمواعظ وطباعة النشرات التوعوية.

الشهادة وسام القبول

كان سيد قطب ينظر إلى أفق يتماهى مع تجليات الفيض في عالم الفردوس الأعلى يوم قال: «لو كان الموت يصنع شيئًا لأوقف مد الحياة! ولكنه قوة ضئيلة حسيرة بجانب قوى الحياة الزاخرة الغامرة! فمن قوة الله الحي تنبثق الحياة وتنداح». نعم تنبثق حياة الشهيد من قوة الله الحي، لهذا خائب من يظن أن الشهداء يموتون... الشهداء لا يموتون... الشهداء ينبتون.

وتعشب الصحراء من دمائهم. وتكبر الأجيال في جراحهم...!

إن الشهيد دومًا جرحه شامة والله يرعى مقامه.

وقد صدق أحد العارفين بربه يوم قال: «إن ما أعطاكه الله في الابتلاء لهو الإنعام وهو خير مما أعطاهم من النعم في حال الاستدراج»، وأي نعمة أكبر من نعمة الاصطفاء والشهادة ولو كانت الضريبة العمر والأرواح!

لقد بدأ اسم الشهيد البطل سعيد صيام يظهر في قوائم الاغتيال الإسرائيلية بعد اغتيال الدكتور الرنتيسي والشيخ أحمد ياسين عام 2004م، بل تصدر قوائم الاغتيال بعد توليه منصب وزير الداخلية وتشكيل القوة التنفيذية، ونشرت الصحافة العبرية حينها اسمه ضمن 16 اسما مرشحة للاغتيال قبيل الحرب على غزة.

وكان بدء ذلك السعي المشؤوم في حزيران من عام 2006م حيث قصف سلاح الجو الإسرائيلي مكتب صيام وذلك في أثناء الهجوم على غزة بعد عملية أسر الجندي الإسرائيلي شاليط في عملية نوعية قامت بها كتائب الشهيد عز الدين القسام.

وحين بدأت معركة الفرقان أواخر عام 2008م على غزة في بداية قاسية ومؤلمة تفوق طاقة البشر وتوقعاتهم إذ منذ لحظات القصف الأولى ارتقى مئات



الشهداء من عناصر الأجهزة الأمنية التي يقودها صيام، حيث ظهر في هذا الموقف العصيب شخص سعيد صيام وبدا فيه دور القائد وبان مدى صلابته في موقفه الذي يوضح مدى رابطة الجأش وبعد النظر وذلك عندما وصله الخبر باستشهاد اللواء توفيق جبر المدير العام للشرطة الفلسطينية إثر الضربة الأولى للقصف الهمجي الصهيوني وحينها قال: سامحوني لأنني لم أستطع المشاركة في جنازته، ولكن أعدكم أن التحق به قريبا، ولقد صدق الله فصدقه فكان له ما تمنى.

إن كلمات الشهيد صيام الأخيرة قبيل لحظات استشهاده لا زالت تسطع شاهدة على سيرة عطرة إذ تقدم صفوف الجهاد والمقاومة وهو يوصي أبناء شعبه وقيادة وزارة الداخلية من بعده بـ «تقوى الله فهي مفتاح النصر وسبيلنا في مواجهة العدوان. لن أختبأ في الجحور، لأنني مقاوم قبل كل شيء وسأحمي ظهر المقاومة، ولن أترك أهل غزة لوحدهم، فما سيعانونه سأعانيه معهم».

لقد كان صيام في تلك الفترة العصيبة هدفًا لطائرات الاحتلال مما دفع عائلته أن تطالبه بمغادرة منزله والاحتماء بمكان آمن، إلا أنه رفض ذلك كونه يريد البقاء معهم. إلا أن القائد الشجاع كان يبحث عن الشهادة. وكان دومًا في قلق إذ يروي ابنه مصعب: «أن والدي كان دائم التساؤل، ماذا فعلت حتى يؤخر الله شهادتي لهذه اللحظة؟ فقد كان في آخر حياته تتملكه «ثقافة الاستشهاد».

وفي تاريخ 2009/01/15 قصفت طائرات الاحتلال منزل أخيه إياد فتحول البيت أثرًا بعد عين؛ ليرتقي الشهيد أبو مصعب صائمًا وقابضًا بيده على النصف المتبقي من المصحف الذي أحرق ويده على آية ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ ﴾ [آل عمران: 214] يرتقي أبو مصعب بصحبة كوكبة من آل صيام منهم إبنه محمد وأخوه إياد وزوجته، وآخر من أقاربه وبعض من جيرانه الذين دمر الصاروخ بيوتهم من شدة التفجير.

فرح العدو الغاشم بهذه العملية الجبانة وأعلن أنه باغتياله قضى على نصف حماس، ظنوا أنهم بذلك نالوا من الشجرة الباسقة المباركة وما علموا أن حماس مثلها مثل كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

نعم لقد غادرتنا يا أبا مصعب مسرعًا كالجواد الأصيل وقد عشت فينا خمسين عامًا كما السيف الصقيل، لا تماري ولا تهادن في الحق ولا تخشى في الله لومة لائم.

قديمًا قيل بين أهل الحق وأهل الباطل الجنازات، فقد كان سعيد صيام أول وزير داخلية يشهد جنازته عشرات الآلاف وسط الحرب والتدمير، وتحت القصف غير خائفين، وتحاصرهم النيران والصواريخ والقنابل الفوسفورية الحارقة، ورغم ذلك يخرج عشرات الآلاف من أهل غزة لتوديع وزير داخليتهم الشهيد المحبوب، والدعاء له، ويبكون فراقه، ويهتفون بالثأر له، ويدعون الله أن يجمعهم به في الجنة، بينما الكثير من وزراء الداخلية في المنطقة العربية عندما يموتون لا يعرفهم أحد، وينكرهم الناس، ويدفنون سرًا أو تحت الحراسة، ولا يخرج في جنازتهم إلا عدد محدود معروف، والجماهير تلعنهم، ويدعو كل مظلوم عليهم!!!

فهنيئًا لك يا سعيد صيام، يا أبا مصعب، حبّ الناس واختيار الله لك بالشهادة، وأسعدك الله في الجنة برضوانه يا أعظم وزير داخلية لم تعرفه ولن تعرفه المنطقة العربية.

إلى جنة عرضها السماوات والأرض يا من صدقتم الله.

هتفتَ بهم ريح العلا فأجابوا
وإلى الوغى بعد التجهز ثابوا
ملكوا نفوسهمُ فباعوا واشتروا
في الله ما خافوا العدا أو هابوا
إن أصبحوا فالخصمُ يرهبهم وإن
جنَّ المساء فكلهم أوّابُ
ألقوا إلى الدنيا تحية عابرٍ
ومضوا إلى درب الإباءِ غِضابُ
حملوا مدافعهم وخاضوا، وانبروا
والموتُ يزأرُ والعرينُ خرابُ
هم علموا الأجيال أن صلاحها
بجهادها والباقياتُ سرابُ

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم
سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد

محمود المبحوح

1960م - 2010م



هذا الطريق نعرف ما هو ثمنه وليس لدينا مشكلة، والأعمار بيد اللّه، ورب العالمين يصطفي من يشاء، وإن شاء اللّه ننال الشهادة.





يرتجف القلم مثل أصابع بللها شتاء قارس وتركها في الصقيع، يرتجف وهو يتقدم بحبره الفقير للكتابة عن قامة طالت المجد وقبضت على السحاب ونثرت علينا من عليائها سخاء التضحية وروعة التفاني للحق العظيم، يرتجف القلم إذ يدرك أنه سيتعثر كثيرا، وربما سيتلعثم مرات ومرات قبل أن يجد عبارة تحتمل وصف ما بلغه هؤلاء العظماء، يرتجف القلم وهو يقترب من أنوارهم، من مسك عبيرهم، من لوائح الهمم المرسومة باقتدار على محياهم، ويحتار القلم وتحتار معه اللغة في الوفاء بحقهم.

محمود المبحوح، كان هذا الاسم يكفي صاحبه كي تستظل الأجيال به وكي نقف أمام الاسم مدركين أن ثمة أسطورة حقيقية تختبأ في عباءته، اسم لمع في لحظة الاغتيال وتنادت له أجهزة الإعلام كلها وارتجت الأرض فجأة على الحادثة دون ميعاد، وتسابق الناس لاستلهام حكاية الشهيد الذي كان يسعى في خفاء مقصود، ويصبح ويمسي فينا ونحن لا نراه من شدة حرصه على الحفر الهادئ الصامت، فقد كان المبحوح من مدرسة الأتقياء الأخفياء، وشاء الله أن يعلمنا من هذه المدرسة كيف ينتثر عبير المخلصين روائح تعبق بها الحياة ولو كانوا في عمق الأرض بعيدا عن الأضواء، كان المبحوح



مدرسة في المحيا و في الممات وأسطورة في الحضور وفي الغياب، وكان بعض معنى قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [براهيم: 24].

لقد عاش المبحوح كبيرا ومات عظيما وشاء الله ألا يظل حبيس الخفاء بل أكرم المولى نهايته بأن جعله سببا في الانتصار للفكرة الصالحة وللمقاومة المباركة وتلك سنة الله، ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل، بل تلاشى كالرسوم على رمال الشاطىء تمحوها أمواج البحر.

المبحوح ورفاقه خلصوا من حظوظ نفوسهم وعبروا من أنفسهم الى الله، عبروا على جسر صاغوه بلحن فريد، والبطولة دوما ألحانها استثنائية، وأوتارها مشدودة إلى أرواح الشهداء والعظماء، وكلما ارتقى منهم شهيد أدركنا أن هذا العزف صاغته السماء!



أولاً: انبثاقة الخير

الاسم: محمود عبد الرؤوف المبحوح، اللقب آسر الجنود، وكم بين الاسم واللقب من محيطات تنقطع نياط القلوب قبل أن تبلغها، فكلنا نولد بأسماء يهبنا إياها قانون الحياة والاجتماع البشري ولكن قلة منا من يرحلون بألقاب نزفوا كثيرا في صياغتها وحاكوها بعرق ودماء.

لقد كان محمود المبحوح طفلا مثل باقي أطفال النكبة وقصته تشابه بقية القصص التي تحكي عن هجرة الأقدام الحافية وشعث الشتات ورجفة الخوف من المجهول إذ هاجر والده من قرية بيت طيما القريبة من بلدة عسقلان سنة 1948م حاملاً معه مفتاح العودة ووعد بهجرة لن تطول.

في الشق الثاني من الخارطة الفلسطينية ولد محمود يوم 14فبراير 1960م في مخيم جباليا في خارج حدود الخارطة الحقيقية، ودرس في مدارس المخيم حيث للمنفى مسميات بعضها المخيم، درس تحديداً في مدرسة الأيوبية حتى الصف السادس الابتدائي.

كان لوالد محمود 12 من الذكور، ومن الإناث اثنتان، وكان ترتيب محمود الخامس بين إخوانه، وامتاز محمود بين إخوانه بأنه كان يمارس رياضة كمال الأجسام، وفي إحدى البطولات حاز على المرتبة الأولى في كمال الأجسام على مستوى قطاع غزة.

وفي عام 1982م انتقل محمود مع عائلته للعيش في مخيم تل الزعتر وبعدها حصل على دبلوم الميكانيكا وتفوق في هذا المجال، وكان ناجحاً في عمله فافتتح ورشة في شارع صلاح الدين ومن خلال تعامل الناس معه حاز على محبة الجميع، وقد انتشرت سمعته الطيبة مثل ريح المسك بين الناس فكان الكثير من أهل فلسطين المحتلة من أراضي عام 1948م يأتون إليه في أوقات إجازاتهم

لإصلاح سياراتهم عنده لحسن أخلاقه ولمعاملته الطيبة مع الناس وكان ذلك من شهادة الخلق له، ولقد ظل محمود يعمل ميكانيكياً للسيارات حتى خروجه من غزة سنة 1989م.[1] نعم تلك شهادة طبعتْ لفارسنا فشهد له الخلق بطيب منبته وأصالة معدنه، وتفرده بجميل الخصال، وحسن الفعال، واتقانه لصنعته كل ذلك حملهم على الاعتراف له بالفضل.

تزوج محمود سنة 1983م، ورزق بأربعة من الأبناء، وهم على الترتيب: منى، عبد الرؤوف، مجد، رنيم.

ثانياً: بواكير الخير

كانت بداية الشهيد -رحمه الله- في العام 1978م، عندما التزم في مسجد الاستاذ محمود أبو خوصة «وهو المسجد الشرقي حالياً»، حيث ظهر التزامه بوضوح في شدة غيرته على محارم الله إذ أعلن الحرب الشديدة على محلات القمار والمقاهي التي تفسد شباب المسلمين حرصا منه على هوية الجيل وأحكام الشريعة ألا تهدم بمعاول الفساد، وكانت تلك بواكير وعي مبكر ودلالة تعظيم لحرمات الله وشعائر دينه وإشارات اشتعال لدين الله مثل جمرة تتقد في مبدأها ثم سرعان ما تصبح نارا تضيء ما حولها.

يسجل للشهيد كذلك أنه في عام 1983م، كانت هناك حملات شرسة من جماعات يسارية وعلمانية ضد الجامعة الإسلامية وكانت تلك الجماعات تقوم بمحاربة الجامعة الإسلامية وتسعى للسيطرة عليها لمنع قيام جماعات إسلامية مناهضة لها، وفي ذلك الحين وقف الشهيد محمود المبحوح وقفة جادة وقوية لمناصرة الجامعة.

1- https://ar.wikipedia.org



لم يكن الشهيد محمود المبحوح خلال نشأته الأولى وفي بداياته المباركة بعيداً عن جماعة الإخوان المسلمين، فقد كان يتردد مؤسسوها في مخيم جباليا على منزل والده بشكل دائم، وكانت تربطهم به علاقات طيبة، فيقدمون الدروس الدينية باستمرار، وقد لفت انتباههم قوة وعنفوان الشهيد، والتزامه الشديد، وحرصه على العبادات والطاعات، وحبه للجهاد، وبنيته القوية، وبروزه في رياضة كمال الأجسام، فسعوا إلى تنظيمه في صفوف الجماعة.

ثالثاً: انطلاقة الخير

انضم الشهيد إلى جماعة الإخوان المسلمين قبل انطلاق حركة حماس، حيث كانت جماعة الإخوان المسلمين ذات حضور قوي وواضح في المؤسسات المدنية مثل مؤسسة المجمع الإسلامي وبعض المساجد والجمعيات الإسلامية، فكان الشهيد ملتزما ببعض أنشطة المجمع الإسلامي، فنفعه الله بغيث المكان وعلو القامات التي كان ينتصب الخير على مناكبها.

الجهاد قصة عشق

تستقيم رايات النصر في الأيدي التي قبضت على البيعة بلا تلكؤ ولا توان، تستقيم الدروب وتصهل لهم حقائق الآخرة، تستقيم لهم طرق الفرح الأزلي وتتزين لهم الجنان، فهؤلاء من قبلوا أن يصلوا صلاة لا خيانة فيها للأمة ولا للفكرة الربانية ولا للتاريخ الذي يتشكل على قدر غبار الفاتحين وشدة استبسالهم وثباتهم حتى آخر حبة عرق تنبض فيهم.

لقد كان الشهيد المبحوح منذ صغره يعشق المقاومة والجهاد في سبيل الله، ويعلم أن ضريبة العشق عالية وأن بعض الثمن هو المطاردة والدم المراق على بساط الوصول للفردوس الأعلى ومع ذلك سعى للتدرب على السلاح وإتقان فنون المقاومة، وقد اعتقل بسبب ذلك في العام 1986م لمدة عام في سجن غزة المركزي سجن السرايا بتهمة حيازة سلاح «الكلاشينكوف»، وبتهمة انتمائه لحركة حماس، خرج من السجن عام 1987م لدى اندلاع الانتفاضة الأولى، وعاود نشاطاته المناوئة للاحتلال بسرية وتكتم.

وشاء الله له في هذه المرحلة خيرا إذ بعد خروجه من السجن ومن خلال عمله في ورشته تعرف على الشيخ صلاح شحادة ومن هنا بدأت العلاقة التنظيمية، حيث كانت تجمعهم علاقة مميزة جداً، وفي تلك الفترة أيضا ازدادت علاقة المبحوح بالشيخ المؤسس لحماس «أحمد ياسين» ثم تطورت العلاقة بالشيخ المؤسس لكتائب عز الدين القسام «صلاح شحادة» إلى بدء التدريبات العسكرية على السلاح ثم تلا ذلك تنظيم المبحوح في الجهاز العسكري لحماس وأصبح المبحوح من يومها عضوا في المجموعة العسكرية الأولى التي أسسها القائد «محمد الشراتحة» -رحمه الله-.

آثار محفورة في سجل الخلود

استطاعت جهود المبحوح العسكرية تقديم الكثير للمقاومة المباركة فقد جذر المبحوح لفكرة أسر الجنود ونفذها في مرات عديدة وكانت تلك الفكرة بداية خلق أسلوب استراتيجي جديد في الجهاد والقتال، إذ يسجل لهم تاريخ المقاومة بسطور من العز أنه في عام 1988م تمكن مجاهدون تابعون لكتائب القسام بقيادة الشهيد «محمود المبحوح» من أسر رقيب صهيوني يدعى «آفي سبورتس» من داخل الكيان الصهيوني، بعد أن جردوه من سلاحه وأوراقه الرسمية، وفي وقت لاحق تم تصفيته وإخفاء جثته.

وبعد نجاح المحاولة الأولى قام المجاهدون القساميون بأسر جندي آخر في 1989/5/3م يدعى «إيلان سعدون»، حيث جرى اختطافه بكامل عتاده العسكري، إلا أن المجاهدين اضطروا لقتله وإخفاء جثته؛ نظرا لصعوبة الاحتفاظ به حياً.

من حق تاريخ المقاومة في فلسطين أن يُكتب بكل التفاصيل وأن تدون فيه الخُطوات وسَعْيَ الليل وكل دبيب أحدث دويا فاصلا في معركتنا مع الاحتلال الإسرائيلي الظالم، إن من حق الأجيال أن تكتب لها قصة الفتح كاملة بما سبقها من مشاهد تشابه في جلالها معارك التاريخ الأولى، ذلك حق تاريخي لا يجوز معه السرد المجمل ولا يليق به الكتابة العامة، ولذا كان لا بد من تفصيل في مسألة أسر الجنود ففي هذه البداية يكمن جنين الولادات الكبرى فيما بعد، لقد بدأت عمليات الإعداد لهذا الحدث المهم في عام 1988م، حيث انضمت العناصر المؤهلة وتم تكوين أول المجموعات العسكرية لهذه الغاية.

كانت عمليات الجهاز العسكري هي أول العمليات العسكرية بشكل رسمي وكان يطلق عليها جهاز مجد العسكري، بدأ الجهاز يباشر العمل العسكري بشكل فعلي كعمليات في بداية عام 1988م بأوامر من الشيخ صلاح شحادة والذي كان معتقلاً في السجن على خلفية تنظيم حماس في أحد سجون غزة.

من السجن خرجت الأوامر الأولى بتنفيذ العمليات العسكرية وهي عمليات خطف للجنود فتم تنفيذ عملية خطف الجندي الأول في شهر 2 عام 1989م، ولم يكشف عن جثته إلاّ بعد 80 يوماً من اختطافه، وفي شهر 5 من نفس العام تم اختطاف الجندي الآخر وهو إيلان سعدون حيث كان بين الأول والثاني تقريباً ثلاثة شهور، ويلاحظ أنه في العملية الأولى كانت العملية عملية خطف بهدف القتل وقد نجحت العملية، والجندي الثاني كانت عملية بهدف الأسر والإبقاء عليه حياً، لكن الجندي حين قاموا باختطافه قاوم وحينها اضطروا إلى قتله، وكان السبب الرئيس في كشف هذه العملية أن السيارة لم تحرق كالأولى، وذلك لقلة المال وضيق الإمكانيات إذ تم الاقتراح أن يتم بيعها وشراء سيارة أخرى بثمنها لتقوم المجموعة باختطاف جندي آخر، ومن هنا كشفت العملية من خلال السيارة التي تم التعرف عليهم في التحقيقات.

ومن الجدير بالذكر أنه في قصة الخطف الثانية فشل الاحتلال في الوصول إلى جثة جنديه بكل الطرق، فقرر شن حملة اعتقالات غير مسبوقة طالت المئات من قيادات حركة حماس وأنصارها وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين.

وللتاريخ فإن الاحتلال لم يعثر على جثة الجندي إلا في عام 1996م أي بعد 7 سنوات من البحث، عندما حققت أجهزة أمن السلطة الفلسطينية مع بعض أعضاء الجهاز العسكري لحماس وسلمت خريطة دفن الجندي للاحتلال الإسرائيلي، لتُفشل بذلك صفقة تبادل تم التوصل إليها مع قوات الاحتلال وتقضي بإطلاق سراح 76 أسيراً وأسيرة من ذوي الأحكام العالية مقابل جثة الجندي سعدون.[1]

1- http://hamas.ps/ar/post/4701/

النفي ضريبة المقاومة

مثل خيط ينسل من روح الحياة انسل الشهيد المبحوح من عباءة الوطن، وخرج منها (خائفا يترقب)، يشابه في صدى قدميه وقع خطى فارس تجمهر الظلم له واشتد الباطل في إثره وإتمر القوم عليه، يلتحف المبحوح بيقينه، يتدثر بوعد الله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:21]، ويضمد جراح النفي بسكينة الواثق أن للأقصى رباً يحميه ويدبر له موعدا مع (عباد لنا)، موعدا ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 6-7]

إذ بعد التعرف على السيارة التى خطف فيها الجندي الاخير انكشفت المجموعة وتم تحديد شخص الشهيد، في 1989/5/11م قامت قوات خاصة فجر ذلك اليوم، بتطويق بيت الشهيد وقاموا بعمليات إنزال جوي على شُرف المنزل وسطحه، وقاموا بإلقاء قنابل صوتية وتكسير أبوابه بدون سابق إنذار واعتقلوا كل من في البيت بما فيهم أطفاله الصغار، وكانت هناك قوات خاصة تكمن في ورشة الشهيد تنتظر قدومه لقتله أو اعتقاله، حيث كان الجنود الصهاينة متخفين بزي عمال زراعة، إلا أن أخويه عندما توجها إلى الورشة (الكراج)، قام الصهاينة بإطلاق النار عليهما لحظة دخولهما حيث أصيب أخوه «فايق» وتم اعتقاله من قبل الصهاينة، ورغم الحصار والمطاردة ذهب المبحوح إلى المستشفى ليطمئن على أخيه وغادر المكان دون أن يشعر به أحد من القوات المحاصرة.

لقد قضى المبحوح فترة وهو ملاحق من أجهزة العدو الإسرائيلي واستمرت مطاردة الاحتلال الإسرائيلي له ولأحد رفاقه المسؤولين عن خطف الجنديين لمدة ثلاثة أشهر، لكنه تمكن في النهاية من اجتياز الحدود المصرية[1]، وعندما اكتشف أمرهم من قبل الصهاينة، طالبوا الحكومة المصرية بتسليمهم إلا أنهم

1- http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons

تمكنوا من الاختفاء عن أعين قوات الأمن المصرية لمدة 3 شهور حتى تم الاتفاق على تسليم انفسهم وترحليهم فاعتقلتهم السلطات المصرية مدة أربعين يوما ثم رحلوا إلى ليبيا ومن هناك غادروا إلى سوريا حيث أكمل الشهيد المبحوح مشواره الجهادي هناك.

بعد ذلك وفي عام 1990م تحديداً قررت المحكمة الصهيونية هدم بيت الشهيد ومصادرة الأرض، وكانت التهمة الموجهة إليه خطف جنود صهاينة.

سمة الشهيد الخفاء

كان المبحوح أحد مؤسسي كتائب القسام- الجناح العسكري لحركة حماس، وصاحب أول عملية نوعية تنفذها حركة حماس، وشارك في أسر وقتل أول جنديين إسرائيليين، وهو أول من هدم بيته في الانتفاضة الأولى، وكان ذلك بعض دوره في داخل فلسطين المباركة، أما الدور الذي قام به في الخارج كما صرحت به قيادات حماس، وكشفت عنه البيانات الرسمية التي أصدرتها الكتائب، فقد كان يشير إلى أنه كان ضمن جنود المقاومة، الذين اختاروا العمل لسنوات طويلة في الخفاء، لتنفيذ مهمات كبيرة، لا مجال لإتمامها إلا في صمت، وقد حقق إنجازات، قد لا يزاح عنها النقاب قبل سنوات وسنوات.

كان المبحوح رجلاً من العارفين بالله و (العارفون بالله يحرصون على ألا يعلم بأمرهم أحد، تحرزاً من الوقوع في آفات العجب ورؤية النفس)، وتلك سمة يعلمها كل من تعامل مع هذا الشهيد البطل.

لقد كان يقال: إن في قرى بغداد لأولياء لا يعرفهم الخلق ويحق للمقاومة أن تقول إن في صفوفها أولياء وشهداء لا يعرفهم إلا رب الخلق، لقد سطر السلف الصالح عجبهم من عباد كانوا لا يحبون أن يسروا من العمل شيئا إلا أسروه،

ونحن اليوم نعجب من رجال حملوا جبالا من الهم ولم يسمع بوجعهم وزفرات قلوبهم أحد من الخلق، فلقد كان المبحوح لفترة طويلة هو المطلوب الأول للجيش الإسرائيلي، وحاول الموساد في أكثر من مرة اغتياله فى عدة عواصم عربية لقناعتهم أنه من يقف وراء تهريب الوسائل القتالية والصواريخ إلى قطاع غزة، ولأنه كان عنصراً استراتيجياً بالنسبة لحماس، حيث يعمل على تزويد حماس بالأسلحة، بحراً وبراً، من خلال دول عربية، زاعمه أنه كان يقف خلف قافلة السلاح، التي قصفها الطيران الإسرائيلي في السودان على اعتبار أنها كانت تتجه لغزة.

ظلت حماس ترفض الإعلان عن طبيعة عمل المبحوح، أو الدور الذي قام به في تسليح المقاومة، حيث كان يعيش لفترة طويلة، في العاصمة السورية دمشق وغيرها، واكتفت الحركة بوصفه «شخصية قيادية عسكرية»، إذ لم يكن المبحوح سياسياً أو إعلامياً، بل عمل في أطر خاصة وغير معلنة، وكل علاقاته هي علاقات غير معلنة، لقد كان المبحوح يعمل بصمت وإخلاص حقيقي، ليدعم المقاومة بكل الوسائل والسبل، وله أعمال متعددة، ظل يعمل حتى لحظة موته، وقد استحق الشهادة[1].

تختار إرادة الله للحسنات أصحابها وللمقامات أهلها، ولقد اختارت إرادة الله الشهيد لأعمال تستوجب الصمت وقد كان هو كذلك إذ كان لا يحب الكلام الكثير، وكان صاحب سرية عالية وكتمان وكان ذلك من قوة روحه فقد وصف بأنه صاحب شخصية قوية جدا.

كان دوماً متخفياً ولا يتحدث عمّا يفعل، وقد كان يفعل الكثير لكنها الرغبة في القبول والحرص على جسد المقاومة وفقه أن ما عند الله هو الأبقى، وقد قالها السلف إن الله ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك، ينظر إلى ما وراء الثياب

1- http://www.twtheq.com/flag.aspx?id=44

والجلود والعظام، ينظر إلى خلوتك، لا إلى جلوتك، وقد كان المبحوح في كل خلواته مخلصا لدينه ولأمته وللجهاد في سبيل الله.

قال محمد بن واسع: «لقد أدركت رجالا، كان الرجل يكون رأسه ورأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته»، ولقد أدركنا في المقاومة أبطالا اذاقت إسرائيل العلقم وما علمنا بهم إلا بعد أن فاح طيب عبيرهم وانتشر.

حين اضطر المبحوح للخروج من فلسطين، ظل حديثه دوماً عن عودته لفلسطين، ودعم الجهاد في فلسطين، وعرف عن الشهيد أنه كان مواظباً على قيام الليل، داعياً الله وملحاً عليه بأن يتقبل عمله خالصاً لوجهه الكريم.

الجانب الإنساني في البطل المقاتل

الشهيد إنسان مكتمل في إنسانيته فلا تجد شهيدا إلا وتفرد في اعتلائه قمة الأخلاق الراقية ونال حظاً وافراً في طيب الذكر من أهله وممن حوله، تلوح على كل شهيد ملامح تدل على طهر عميق وطيب مبارك كأنه قطعة من الجنة وهبت للأرض فترة من الزمن، ولربما لو تيسر لعلماء النفس دراسة أحوال الشهداء في فلسطين لاكتشفوا أنهم أمام أرواح معجونة بصفات تقارب الملائكة في علوها، الشهداء يقفون على ناصية الانسانية بثبات راسخ، ويبدو قتالهم هو قتال لصالح الإنسانية ورفع للظلم رضوا بأن يكون دمهم هو الضريبة .

لقد كان مثل المبحوح مثل بقية الشهداء في سماتهم إذ يشهد له أهله بكل خير فقد كان على كثرة أعبائه يشارك أهله وأولاده العمل في البيت ويغدق عليهم من حبه وحنانه، وهم الذين افتقدوه كثيراً بسبب السفر والغياب المتكرر لمتابعة العمل، واحتملوا ذلك لله.

كان الشهيد كما يذكر أهله حريصاً على تربية أولاده على قيم الإسلام الحنيف الذي تربى عليه، فاصطحب زوجه وبناته إلى العمرة في رمضان، آملاً أن يصحبهم إلى الحج في وقت قريب، لكنه كان على موعد مع الشهادة.

إكليل الشهادة

هل من يموت بميدان الجهاد كما ... مـوت البـهـائـم في الأعـطـان تنتحر
كـلا وربـي فـلا تـشـبـيه بيـنهـما ... قـد قـالـهـا خـالـد إذ كـان يحتضر
أهـل الـشـهـادة في الآثـار قد أمنوا ... مـن فـتـنـة وابـتـلاءات إذا قـبروا
ويـوم ينـفـخ صـور لـيس يزعجهم ... والـنـاس قـائـمـة مـن هـولـه ذعـروا
أرواحـهـم في عـلا الجـنـات سارحة ... تـأوي القـناديل تحت العـرش تزدهر

معلقة عيون الشهداء على فضاء النعيم، معلقة على قناديل العرش، معلقة على صوت الخلود، لذا لا يترددون، ولا يتلكؤون، لا تتعثر بهم خيلهم، ويظل صهيل الشوق للجنة في عمقهم يحدوهم للحظة اللقاء.

ولقد كان بنو صهيون على الرغم من مرور سنوات طوال على خطف وقتل الجنديين الصهيونيين يتجرعون المرارة بسبب مضي سنوات طوال دون بلوغهم غايتهم في قتل أسد القسام والانتقام لجنودهم المهزومين.

وللحقيقة فإن الصهاينة لم يستطيعوا مواجهة القائد محمود المبحوح وجها لوجه، لذا أرادوها غدرا وخيانة كما يفعل الجبناء الأنذال، أصحاب الهزيمة والوهن، فهذه شيم المهزومين الصهاينة الذين تربوا على الغدر والخيانة عندما يصعب عليهم المواجهة، كما حدث مع المبحوح.

لقد حاول الصهاينة تنفيذ عدة محاولات اغتيال بحق القائد القسامي محمود المبحوح، كان أولها في دمشق إذ حاول الموساد الصهيوني زرع عبوة ناسفة في

طائرة كان سيستقلها الشهيد وتم كشف الأمر وباءت محاولة الصهاينة بالفشل.

ثم كان ثانيها محاولة اختطاف محمود المبحوح في بيروت وباءت أيضا بالفشل، ثم كان ثالثها محاولة تسميم الشهيد من خلال أحد المطاعم ولكن الله سلم، وآخرها كانت بوضع عبوة ناسفة داخل السيارة التي كان يستقلها، ولكن قدر الله كان حافظا له فأجله لم ينته بعد.

وقد شعر الشهيد بقرب أجله إذ قبل سفره اتصل بأحد الأصدقاء وقال له: أشعر أن جيشاً يطاردني، ولكن في النهاية هذا قدرُ الله.

وفي طريق سفر الشهيد إلى إحدى الدول، وأثناء مروره بدبي ونزوله في أحد الفنادق بتاريخ (2010/1/19) اغتالته يد الغدر الصهيونية على يد فريق مختص فارتقى شهيدا.

كان عدد من شاركوا باغتيال المبحوح 26 شخصاً من ذكور وإناث من أعضاء الموساد الصهيوني وبمختلف الجنسيات وبالجوازات المزورة.

وعند صدور التقرير النهائي للجنة الطبية التي عينتها هيئة التحقيق الخاصة في شرطة دبي التي قالت كلمتها النهائية في كيفية مقتل الشهيد محمود المبحوح، وأماطت اللثام عن الغموض الذي اكتنف حادثة اغتياله، حيث كشفت أنه قتل خنقاً بعد صعقه بالكهرباء، وقد تلقى جسده عدة صعقاتٍ من عصيٍ كهربائية، أدت إلى خروج الدم من أنفه وفمه، وأضعفت قوته الجسدية وشلت حركته، وهو المعروف عنه بأنه شديد القوة، ولا يقوى جمع الرجال على صرعه، ولكن بسبب الصعقات الكهربائية المتوالية التي تعرض لها، فقد قوته، ولم يتمكن من صد مهاجميه، الذين تأكدوا من مقتله ومفارقته للحياة بعد أن خنقوه بالوسادة، قبل أن يغادروا بصمتٍ غرفته في الفندق بعد منتصف الليل،

بعد أن رتبوا كل شيء فيها، وأعادوا الفراش وغيره إلى طبيعته، ولم يخلفوا وراءهم أثراً، وكأن مفارقة المبحوح للحياة كانت نتيجة لجلطةٍ دماغية، وهي النتيجة التي خلص إليها الأطباء في الساعات الأولى لعملية الاغتيال، ومنها اعتبروا أن الوفاة طبيعية وأنها تمت نتيجة لجلطة دماغية.

أمّاهُ لا تحزني إنْ جاءَكِ الخَبَرُ — أو قيلَ طالَ بِهِ يا أُمّهُ السفَرُ
لا تُهرقي دمعَكِ الغالي إذا خَطَرَتْ — يا حبّةَ القلبِ بعد الغيبةِ الفِكَرُ
قرّي ونامي واملأي العينَ فرحتها — إنّي هناك بدارِ الخُلدِ أنتظِر
لمّا سمعْتُ نداءَ الحقّ يدعوَني — تسابقَ القلبُ والإحساسُ والبَصَرُ
فما وجَدْتُ سوى نفسي أقدّمُها للّهِ — لم يُثنِها عن عزمِها الخطَرُ

رحلت يا سيدي وقد أديت الأمانة أداء بلغك مراتب الشهداء في عليين، أديتها على نهج جعفر بن أبي طالب وابن رواحة وكل من سبقوك في بيعة الروح والدم، أديتها خالصة لربك ونصحت من ورائك الأمة بفعلك، وكنت على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك مفتون بعرض الدنيا.

في يوم موتك قال السيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحركة «حماس»، بُعَيد دفنك وأمام قبرك: «هنيئًا لك يا أبا العبد بالشهادة؛ فأنت الآن مُسجّى تحت التراب، وروحك تحلق في السماء في حواصل طير خضر، عشتَ مجاهدًا ولقيت الله شهيدًا إن شاء الله، سعيتَ وراء الشهادة بقدر ما لاحقت عدوّك الصهيوني، واليوم ظفرتَ بالشهادة، أما أنت أيها العدو الصهيوني فلقد قتلتَ الشهيد القائد محمود المبحوح -رحمه الله-، آلمتنا بقتله، ولكنها الحرب سجالٌ بيننا وبينك، وتلك الأيام نداولها بين الناس، لم يكن «سعدون»، و«سبورتوس» آخر من ستقتلهم الأيدي المتوضئة من أحبة الشهيد المبحوح وتلاميذه».

وأرسل لك الدكتور أبو مرزوق شهادة الخلق فيك قائلاً: «المبحوح هو من خط طريق الأسر وتبادل الأسرى ومواجهة العدو، كان في المجموعة الأولى

التي أطلقت السلاح في الانتفاضة حيث كانت الانتفاضة في مجملها انتفاضة حجارة، مجموعة المبحوح هي التي أطلقت الرصاصة الأولى في الحركة، وبيته هو أول بيت هدم في الانتفاضة وهو من المجموعة المطاردة الأولى التي خرجت من قطاع غزة وحتى ملاحقتها وبقي منذ ذلك التاريخ حتى اللحظة وهمه كان منذ خرج حتى اللحظة معلقاً في الجهاد والمجاهدين وكيفية دعمهم والوقوف إلى جوارهم، رحمه الله رحمة واسعة»[1]. ولقد ودعك الدكتور محمود الزهار بقوله: «المبحوح كان يعمل بصمت وإخلاص حقيقي، وقد استحق الشهادة لذلك، فما تغلو داراً بنيتموها بعرق الجبين وكدَّ اليمين، ودعوات المخلصين، ثم صدقتم ذلك بدفع الدماء رخيصة في سبيل الله، فالسلام عليك ياسيدي في الخالدين، فأنت أهلُ للسلام!».

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم
سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.

1- http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title



سيرة الشهيد القائد

أحمد الجعبري

1960م - 2012م



أيها الإخوة أنا جندي في هذه الحركة فضعوني حيث شئتم، أنا ليس لديّ أيّ منصب، بل مناصبنا في ميدان العمل والقتال.





يقف القلم عاجزًا أمام من أسرج أيام عمره خيلاً لوعد يهدر في الزمن القادم... أمام من أسرج القناديل تضاء بزيت العزيمة، وجعل حياته تتقد لأمنيات الأسرى ولوجوه الأمهات المتكئات على حافة الذكريات في انتظار أبواب السجان تفتح...بطل عاش لفكرة كانت بحجم أرض اختارها الله لمنتهى الإسراء وبداية المعراج.

الناس على الأرض تغفو كل ليلة على وسائدها، وتنتظر الليل كي تسلمه أحلامها، لكن الأبطال يستيقظون كل صباح، ليشعلوا أحلامهم تحت الشمس! يظلوا مرابطين على الحلم ولا يعرفون منتصف الأمنيات... تكبر الأمنيات بأعمارهم لأنهم يسقونها سعيهم وسبقهم ولهاث خيلهم. يرتلون الأمنيات سرًا وعلانية وخفاء وجهرًا وليلاً ونهارًا كأنهم يشربون القلب بها حتى تصبح هي نبض الضمير وكلمة الفؤاد.

كان الجعبري مسكونًا بفرح مؤجل يسمع كل ليلة أهازيجه وينتشي بنشيده ويكاد يبسم في صلاة الشكر إذ يتملاه فرح عذب وطيب مملوء بدموع الأمهات والزوجات التي انسل ربيعهن مبكرًا. كان الجعبري مسكونًا ومؤمنا بقضية ارتبط اسمه بها وأصبحت هي وسامه وكان فيها كل غيظ العدو



وغضبه، تلك هي قضية الأسرى في سجون الاحتلال الإسرائيلي، حتى تظن أن الله خلق الجعبري كي يكون صانع فرح باقتدار!، أو تظن أن الله وقت عمره بتلك القضية فلما أدى المهمة غادر إلى ربه وقد وفَى ما عليه!

يحتار القلم أمام خطوات الجعبري إذ بعض الخطوات تسمع ولا تكتب، يرن صداها في مسامع الجنة وعلى خشاش أوراقها. تدب الأقدام على الأرض ويمضي صوت الدبيب على تربة الجنان. كل خطوة تنعكس في مرايا الجنة. أو قل كل خطوة في الأرض تنبعث على مسك الجنة. كيف يكون ذلك؟ قل لي بربك كيف يكون ذلك؟!. هل كانت ثقيلة فارتحلت إلى حيث تطيق تربة الخلود حملها، أم كانت صافية فشفت وتلألأت في نور النعيم، أم أن بعض الخطوات تتحرك وهي بضعة من الجنة أهديت للأرض فترة من الزمن كي تعلمنا كيف تكون مساعي أهل النعيم؟!

هؤلاء هم هبة السماء لنا وتواريخ ميلادهم هي لحظة التوقيت لبدء العطاء في حياتنا، وكل أيامهم غيمات مطر تتدفق فينا أبدًا ما حيينا، ليست لهم نهاية فهم الذين تجاوزوا الموت وبقوا أحياء عند ربهم يرزقون...!

تاريخ ميلاد، أم توقيت عطاء؟



أحمد سعيد خليل الجعبري، من مواليد عام 1960/12/4م، ومن سكان حي الشجاعية شرق مدينة غزة، وتعود أصول عائلة الجعبري إلى مدينة الخليل جنوب الضفة الغربية المحتلة، التي انتقلت إلى قطاع غزة مطلع القرن الماضي، حيث ترعرع نجلها أحمد في حي الشجاعية؛ ليصبح فيما بعد رئيس أركان حركة حماس، وكبير المفاوضين في صفقة شاليط، بطل «الوهم المتبدد»، ونائب القائد العام لكتائب القسام.

عمر يبدو كأن كل خطوة فيه كانت نصرًا وفتحًا مبينًا. كانت حقول عمره أبدية... حقول لا تعرف الشيخوخة... حقول امتدت غرسا يانعًا في غزة، واستطالت حتى أينعت في فلسطين كلها، حقول زرعت بصمت لا يعرفه إلا الأبطال. زرعت في تواصل وصبر ويقين بأن يومًا ما سيقطف الوطن أفراح الفجر ويشعل قناديل الحرية.

وفي السطور التالية حكاية ملهمة لتاريخنا، بل لكل الشرفاء الذين يرابطون على حدود الحق ويحرسونه من أن تغتاله العروش الظالمة.

بذرة في رحم الفكرة

هكذا بدأ تاريخ هذه البذرة المباركة طفلاً ﬞ المرحلة الابتدائية ﬞ مدرسة حطين، كبر الطفل والتحق بعدها بمدرسة الهاشمية الإعدادية، ثم أنهى مرحلة الثانوية ﬞ مدرسة يافا، لينتقل بعدها إلى العمل ﬞ الزراعة بعد انهائه للثانوية العامة حيث عمل الشاب أحمد الجعبري ﬞ أعمال الزراعة والبناء ليعيل أهل بيته، فوالده كان يقيم ﬞ الأردن لمدة تسع سنوات متواصلة تحمّل فيها أحمد مسؤولية البيت ﬞ غياب أبيه.

كانت البذرة المباركة تنمو ﬞ محضن الإيمان والفكر القويم حيث ترعرع ﬞ مسجد الإصلاح، ولقد كان صبيًا يوم جمعته الأقدار بالشيخ أحمد ياسين فاستقى من فكر الشيخ وإيمانه، وكان أحمد شديد الحرص على حضور دروس الشيخ ياسين ﬞ مسجد الإصلاح، وكان يشارك ﬞ الرحلات التي كان يشرف عليها الشيخ أحمد ياسين ﬞ الأرض المحتلة، فكان ذلك مدعاة صياغة خاصة وتشكيل أنشئ به إنشاء ورسمت به معالم روحه وعقله وتبلورت شخصيته حتى كأنه خلقًا آخر، فبوركت جهود المصلحين.

أكمل أحمد الجعبري تعليمه ﬞ الجامعة الإسلامية بغزة، ليحصل على شهادة البكالوريوس ﬞ التاريخ، ولقد سعى من بعدها لمواصلة الدارسة للحصول على درجة الماجستير، لكنه استشهد قبل إتمام كتابة الرسالة لنيل هذه الدرجة.

النضوج الفكري والقرار المصيري

إن القراءة العامة ﬞ سير المصلحين والمفكرين والقادة لتبرز مرحلة مهمة هي أشبه بمنحى جوهري ﬞ خارطتهم الفكرية حيث تنضج الكثير من الأفكار فيها لأسباب تتصل بالتجربة والظروف واكتمال الحلقات وذلك كما يقول المفكر عبد الوهاب المسيري: لأن «عقل الإنسان ليس مجرد مخٍ ماديٍ أي صفحة



بيضاء تتراكم عليها المعطيات المادية، وإنما هو عقل له مقدرة توليدية، كما أنه مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعي»؛ لذا فإن الإنسان (لا ينقل الواقع بحذافيره وكأنه ببغاء أو آلة تصوير صماء، وإنما يُعمِل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل، ويجرد منها أنماطا متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل).

ولعل الظروف التي مّر بها القائد أحمد الجعبري وما تهيأ فيها من أحداث كانت هي النار التي نضج عليها وعيه، ولعلها تحديدًا مرحلة السجن التي عايش فيها نماذج فكرية مؤثرة شكلت له تغييرًا جذريا مهمًا.

فقد تزوج أحمد الجعبري عندما كان عمره 19 عاما، واعتقل حينما كان يبلغ من العمر 22 عامًا بتهمة المشاركة في خلية مسلحة تابعة لحركة «فتح» ومقاومة الاحتلال، إذ كان الجعبري قد استهل حياته النضالية في صفوف حركة «فتح»، واعتقل بسبب نشاطه الثوري فيها مع بداية عقد الثمانينيات على يد قوات الاحتلال بتهمة انخراطه في مجموعات عسكرية تابعة لفتح خططت لعملية فدائية ضد الاحتلال وكان ثمن هذا الانخراط أن أمضى ثلاثة عشر عامًا في سجون الاحتلال ابتداء (من عام 1982م - وحتى عام 1995م).

في تلك الفترة من السجن عايش أحمد الجعبري بشكل مباشر وعن قرب بعض قيادات جماعة الإخوان المسلمين، علما أنه لم تكن حركة حماس قد أسّست

بعد، وكان من أبرز من تأثر بهم فكريا الشيخ صلاح شحادة القائد العام لكتائب القسَّام فيما بعد، كما تأثر بعدد من مؤسسي الحركة الأوائل، أبرزهم الشهيد عبد العزيز الرنتيسي، والمهندس الشهيد إسماعيل أبو شنب، والدكتور الشهيد نزار الرّيان، والدكتور الشهيد إبراهيم المقادمة.

كذلك من أبرز من تأثر بهم الجعبري فكرياً الشهيد الدكتور الداعية عبد اللّه عزام، فقد تأثّر بفكره وأيدولوجيته المتزنة تجاه الجهاد والنضال، وتأثر بقوته وحنكته في تاريخه البطولي.

هذا التعامل اليومي مع قيادات الرعيل الأول والمتابعة الفكرية للكثير من رموز الحركة التاريخيين إضافة إلى الحوارات التي تثار في داخل السجن مع تربية أصيلة في الصغر شكلت بمجموعها سببًا في تحول مهم في مسيرة الجعبري النضالية والفكرية والعملية بعد ذلك، وتشكل معالم الشخصية الإسلامية الجديدة.

فخلال وجوده في السجن، أنهى الجعبري علاقته بحركة «فتح»، وانتمى لـ «حماس»، إذ ساهمت كلّ تلك العوامل في تحول الجعبري إلى فكر الإخوان المسلمين، وقد كان هذا الانتقال إلى صفوف الحركة الإسلامية داخل السجون وكانت تلك مرحلة جديدة في حياة هذا الإنسان العظيم ستشهد لها صولاته وجولاته مع العدو الإسرائيلي.

قاد أحمد الجعبري من سجنه وستة من كوادر حركة فتح تمرّدًا على قيادة الحركة سعيًا منه للانتقال إلى الحركة الإسلامية، وكان محظورًا على الأسرى أي تحويل من تنظيم لآخر، لاسيّما وأنَّ تنظيم الحركة الإسلامية في السجون كان فتيًا، مما جعل قيادة فتح فى الداخل ترفض الأمر رفضًا قاطعًا، بينما أصرّ الجعبري على مطلبه، وقد رُفع الأمر إلى قيادة فتح في الخارج، والتي

وافقت في النهاية أمام إصرار الجعبري ورفاقه على الانتقال، تحوّل الجعبري داخل السجن للالتزام الديني، وانتمى لجماعة الإخوان المسلمين قبل إنطلاق حركة حماس في عام 1987م، وأخذ منه البيعة الشهيد إبراهيم المقادمة رحمه الله.

في السجن كرَّس الجعبري وقته خلال اعتقاله في السجون المركزية في السنوات التسعة الأولى من اعتقاله للاطلاع وخدمة المعتقلين، وقاد معهم عددًا من الإضرابات، والتي انتزعوا فيها الكثير من الإنجازات، وكان في كثير من الأحيان يمثل الأسرى أمام إدارة السجن التي كانت تحترمه كثيرًا وتهابه كذلك؛ لمواقفه القويّة والحازمة.

وعمل الجعبري مع عددٍ من قادة الحركة الذين كانوا في السجن؛ ومن بينهم الدكتور إبراهيم المقادمة على تجهيز عناصر حركة حماس للانضمام إلى الأجهزة المختلفة في الحركة بعد خروجهم من المعتقل، لا سيّما الجهاز العسكري الذي يحمل اسم كتائب الشهيد عز الدين القسَّام، وذلك من خلال دورات أمنية وعسكرية ودينية مكثفة تؤهل ذلك الشاب للانخراط في العمل التنظيمي فور خروجه من المعتقل.

وحسب الذين عايشوا الجعبري في المعتقل، فإنه يتمتع بشخصية قوية وصاحب فكر وثقافة واسعة وشاملة للإسلام وللقضية الفلسطينية، وكان يجيد اللغة العبرية بطلاقة، وصاحب علاقات كبيرة ووثيقة مع كافة التنظيمات الفلسطينية المختلفة بما فيها حركة «فتح» التي انفصل عنها.

بين عتبات التأسيس ومدارج التطوير

يقول أديب العربية الرافعي: (إذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك، ولكن بمقدار القوة التي أنت بها مؤمن!) وهذا ما فعله الإيمان تمامًا بالقائد الكبير أحمد الجعبري، إذ جعل منه طاقة متفجرة تغالب الشر ولا يغلبها بمدد استمده



من ربه العزيز القهار. وكما قال الرافعي: (القلب وحده مكان المستحيل) فإذا أخرجت المعاني اليائسة منه انبعثت القوة في عمق الإنسان وأحالته إلى معجزة يسطرها التاريخ ولا يدري لها منطقًا ولا سببًا! وإن تأملت هادئًا في منجزات القائد الجعبري؛ لتوحي لك بأن ثمة أسطورة تختبأ في ثياب رجل!

فبعد الإفراج عن القائد أحمد الجعبري تدرج في المناصب حتى عمل بمكتب القيادة السياسية لحركة حماس، ولقد توزع جهد سنوات ما بعد السجن على مراحل نوعية مهمة نوردها على النحو التالي:

- بعد خروج الجعبري من المعتقل عام 1995م، بعد عام تقريبًا تعرضت حركته لضربة قوية من قبل السلطة الفلسطينية، التي اعتقلت المئات من عناصرها وأغلقت مؤسساتها وجمعياتها، حيث عمل جاهدًا آنذاك على عودة الحياة للحركة من خلال تأسيسه لأول مكتب إعلامي للحركة في الداخل، والذي

عرف آنذاك باسم «مكتب الميناء» كون موقعه كان بالقرب من ميناء غزة القديم.

- وكذلك تأسيس جمعية النور لرعاية الأسرى ومتابعته لملف الأسرى بالكامل ومشاركته في كافة فعاليات أهالي الأسرى، وبعد عمل دؤوب في خدمة الأسرى والمجال الإعلامي اعتقلت السلطة الفلسطينية الجعبري عام 1998م بتهمة التنسيق ما بين القيادة السياسية والعسكرية لحركة «حماس»، وذلك قبل اندلاع انتفاضة الأقصى في أواخر عام 2000م، حيث تسلم ملف الأسرى في حركة «حماس» خلفاً للشهيد رياض أبو زيد -رحمه الله-(اغتيل في 2003م).

- شغل عضوية لجنة الحوار الوطني عن حركة حماس مع الدكتور عبد العزيز الرنتيسي والمهندس اسماعيل أبو شنب وكان ذلك من العام 1995 حتى عام 1998م، وفي ذات الفترة شغل عضو لجنة المتابعة العليا مع الفصائل الفلسطينية ممثلاً عن حركة حماس.

- شغل عضوية المكتب السياسي لحركة حماس منذ عام 2007م لدورتين متتاليتين حتى تاريخ استشهاده.

- توثقت علاقة الجعبري بالقائد العام لكتائب القسام محمد الضيف، والقائدين البارزين عدنان الغول وسعد العرابيد، وساهم معهم إلى جانب الشيخ صلاح شحادة في بناء كتائب القسام، ما دفع جهاز الأمن الوقائي التابع للسلطة في العام 1998م إلى اعتقاله لمدة عامين بتهمة علاقته بكتائب القسام وأمضى في زنازين التحقيق والتعذيب التابعة لمحمد



دحلان قرابة خمسة وتسعين يوما، وتم الإفراج عنه مع بداية الانتفاضة إثر قصف الاحتلال لمقرات الأجهزة الأمنية في قطاع غزة.

- ظل الجعبري ثالث ثلاثة في المجلس العسكري لكتائب القسام، إلى حين اغتالت (إسرائيل) الشيخ شحادة عام 2002م، وفشلت في محاولة اغتيال الضيف عام 2003م، والتي أصيب خلالها بجروح. ونظرًا لاختفاء القائد أبي خالد الضيف عن الأنظار بسبب الملاحقة الشديدة باعتباره أبرز المطلوبين منذ ما يزيد عن عشرين عامًا، وبسبب المحاولات المتكررة من العدو الصهيوني لاستهدافه، تحول الجعبري إلى القائد الميداني لكتائب القسام إلى جانب «الضيف» القائد العام لكتائب القسام في فلسطين.
- قام بترتيب العمل العسكري وإخوانه في قيادة الجهاز العسكري وفقًا لتخصصات عسكرية أشبه ما تكون بالجيوش النظامية، كما أنشأ مع إخوانه أكاديمية للتعليم العسكري في صفوف كتائب عز الدين القسام، وأنشأ المكتب الإعلامي للكتائب الذي يقض مضجع المحتل بصوت القساميين الهادر، وهكذا أصبح العمل موضع الفخر بجهود أبي محمد وإخوانه المخلصين الذين حددوا الوجهة نحو الله والدار الأخرة؛ لينتقل أبو محمد نحو الخلود ولسان حاله يقول: «ها أنا قد أكملت مهمتي وسأرقب نصركم بجوار ربي».

وسام الشرف

في لحظة الإفراج عنه بعد 13 سنة قال للسجان الصهيوني حين سأله عما سيقوم به بعد الخروج من السجن فأجابه: «سأعمل على خطف جنودكم حتى أُخرج الأسرى من سجونكم وسأفاوضكم على ذلك سنين وإن لم تستجيبوا سأقتلهم».

وفعلا فقد بدأ اسم الجعبري يلوح في الأفق بعد اختطاف الجندي الصهيوني «جلعاد شاليط» في 25 حزيران (يونيو) 2006م، وحمّله الصهاينة المسؤولية

عن ذلك، حيث كان الجعبري من يقود المفاوضات غير المباشرة حول شاليط بالإضافة إلى ثلاثة قادة آخرين، وكان يدرك طبيعة وتنوع القائمة التي وضعها للأسرى التي من المقرّر أن يفرج عنهم، بحيث تشمل الأسرى القدامى وخاصة اصحاب المؤبدات والاحكام العالية، وكذلك قادة الفصائل والنساء والأطفال والمرضى، ولكل اسم في هذه القائمة معنى عند هذا الرجل.

وكان الكيان الصهيوني يدرك مدى صعوبة المفاوضات في قضية شاليط، لعلمهم الجيّد بكبير المفاوضين الفلسطينيين في هذه الصفقة (الجعبري)، كونه أمضى في سجونها 13 عامًا، فقد كان مفاوضًا عنيدًا في انتزاع حقوق الأسرى مع إدارة السجون، حتى على «ملعقة» يطلب دخولها للأسير وهو معتقل، ويرفض التنازل عنها، فما بالك حينما يتفاوض على حرية أسرى أمضوا سنوات في سجون الاحتلال، وبيده جنديٌّ صهيونيّ وهو خارج المعتقل، وتحت إمرته الآلاف من المقاتلين المدربين والمجهزين جيّدًا.

أرسل رسالة وجهها للأسرى في سجون الاحتلال أثناء مفاوضات شاليط قال فيها: «اطمئنوا. قضيتكم في يدٍ أمينةٍ ومفاوض عنيدٍ وصلبٍ لا تؤثر عليه أي ضغوط مهما كانت».

وقال بعد إتمام صفقة شاليط: «إن عمليات أسر الجنود والضباط الإسرائيليين ستتواصل، طالما بقي الأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال. وبين الجعبري أن كتائب القسام وضعت على عاتقها تبييض السجون الإسرائيلية والإفراج عن جميع الأسرى بغضّ النظر عن انتمائهم وفكرهم السياسي».



وأضاف: « إن يوم إنجاز صفقة التبادل هو أجمل وأسعد أيام حياتي، لأن هذا اليوم أدخل الفرحة والبسمة إلى قلب الأم والأب والابن والأحباب في كثير من البيوت والأسر الفلسطينية، فما أجمل تلك الفرحة! إنها فرحة الحرية التي لا يشعر بها إلا من ذاق مرارة السجن».

وكما قال الشاعر اليمنى محمد الزبيري:

خرجنا من السجن شمَّ الأنوف   كما تخرجُ الأسدُ من غابها
نمرُ على شفرات السيوف   ونأتي المنية من بابها
فإن نحن فزنا فيا طالما   تذل الصعاب لطلابها
وإن نلق حتفاً فيا حبذا   المنايا... تجيءُ لخطّابها

لقد كان الجعبري كما قال الرافعي: (الفرح هو شعور الحيّ بأنه حيّ كما يهوى، ورؤيته نفسه على ما يشاء في الحياة الخاصّة به)!

ألق الشهداء

وللشموس توهج وتألق. تفيء الكواكب لها وتطوف بها الأقمار وهي في مستقر تجري إلى العرش حيث الملأ الأعلى وعالم اصطفاه الله، تظل الشموس تتراءى لنا من بُعدٍ نود لو نلحق بها أو نقطف بعض شعاعها فنضعه تيجاناً لنا لا تنطفئ، نود ولكن هيهات هيهات فالشموس قد اختارت لها مكانًا عليًا! الشموس في دنيانا هي (الرجل العظيم في فنه، قالب إنساني لا إنسان؛ فلا يقاس إلا ليقاس عليه غيره). فقد صار مثلاً ومثالاً وشمسًا في سماء العظمة والعلو.

للشهداء روائح يعرفون بها أهلها في الأرض قبل الآخرة وكأن الدنيا جعلت لهم دارًا يثبتون بها أن ريح المسك هي بعض مسكهم الذي فاض صفاتاً وفضائل وأخلاقًا قبل أن يفوح في قطرات الدم الأخيرة.

لقد كان الشهيد أحمد الجعبري ذو ألق مبكر وكانت له لوائح وروائح تدل على أنه ممن كتب الله لهم خاتمة مباركة، واختارهم كي يكونوا قمح الإنسانية!

ومما تميز به الشهيد وعرف بين الناس به:

أولاً: شجاعة في بطولة

حين قررت سلطات الاحتلال الإفراج عن معتقلين فلسطينيين كبادرة حسن نية تجاه منظمة التحرير الفلسطينية بعد توقيع اتفاقية أوسلو، اشترطت أن يوقع المعتقل على تعهد قبل الإفراج عنه بعدم «ممارسة الإرهاب» أي المقاومة والالتزام بالاتفاقيات، إلا أن الجعبري رفض التوقيع مقابل الإفراج عنه، وقال آنذاك: «أمضيت في السجن أحد عشرة عامًا، وسأكمل العامين الباقيين ولا يقال لي يومًا إن اتفاقية أوسلو هي التي أخرجتك من المعتقل، وإنك وقعت على تعهد بعدم ممارسة المقاومة، فلماذا نحن خلقنا واعتقلنا؟!!

موقف لا يطيقه إلا أرواح عجنت بمعاني البطولة عجنًا حتى كأنها هي قمح البطولة وسنابلها. من يطيق بعد أحد عشرة سنة من انتظار لحظة الحرية أن يبقى في قهر الزنازين إلا أنفسًا علت واستعلت حتى احتار المنطق في فهم منطقها!

وصف أحد المجاهدين شجاعته في أحد المواقف التي رافقه بها وقال: تقدمت قوة صهيونية خاصة بتاريخ 2007/12/16م قوامها أربعون جنديا ترافقها طائرات الأباتشي نحو الحدود الشرقية لحي الشجاعية في محاولة لاختطاف القائد القسامي عمّار مصبح «أبو مسلمة»، حيث كان الجعبري يجلس في مكان بمنطقة الزيتون فتم إبلاغه مباشرة بمحاولة الاختطاف وتقدم القوات الصهيونية في تلك المنطقة، فتقدم المجاهدون على الفور للوصول إلى أقرب نقطة آمنة من ميدان المعركة ليتابعوا الحدث عن قرب، وبعد قليل تفاجأ المجاهدون



بوجود أبي محمد بينهم في أقرب نقطة للاشتباكات مع القوات الخاصة، وقد كان إطلاق نار وتحليق للطائرات مكثف، والموقف خطيرٌ جدًا، ومن الخطر وجود شخصية ذات موقع حساس مثل أبي محمد في المكان، ولشجاعته وبسالته وحبه لأن يكون في مقدمة الصفوف رفض الجعبري إخلاء المكان إلا بعد الاطمئنان على انسحاب القوات الخاصة وسلامة المجاهد أبي مسلمة.

ثانياً: احتمال في تفانٍ

يروي أحد المجاهدين موقفًا هو من أكثر المواقف قسوة على النفس الإنسانية وذلك حين طلب منه الجعبري أن يرافقه إلى بيته لأنه يشتاق لأبنائه كثيرًا، وحينما اقتربا من المنزل ظهر طيران صهيوني بشكل كثيف جدًا، حينها قرر الجعبري ألا يدخل البيت خشية أن يتم استهدافه فجلسا في مكان قريب منه على أمل أن يغادر الطيران ويُتاح له أن يرى أبناءه، واستمر الحال قرابة الساعة دون أن يغادر الطيران سماء المنطقة فقال الجعبري حينها لرفيقه المجاهد: «تخيل، نحن على بُعد أمتار قليلة من بيتنا وأبنائنا لكن لا نستطيع أن نراهم، الحمد لله على كل شيء، والله هذا لن يثنينا عن مواصلة طريق الجهاد إن شاء الله»، وغادر المكان دون أن يرى أبناءه وكله شوق لهم وأمل أن يراهم مرة أخرى في وقت أكثر أمانا.

لقد كنت عاليا يا سيدي وكنت تدرك أن الضعف هو النقص كله مع لذات الدنيا، وأن الصبر هو الكمال كله مع آلامها!

وكنت أنت في ضمير الشاعر يوم قال:

وأمس يا أماه.. مررت قرب دارنا.

وكدت أن أُقتلُ قرب دارنا.. ولم أخف.

لأنني عرفت أن الموت قرب دارنا حياة!

ثالثاً: احتساب الأجر عند اللّه

يذكر شقيقه حسن حين اتصل به ليسأله عن أخبار إخوانه في بداية معركة الفرقان فأخبره باستشهاد إسماعيل الجعبري بالإضافة إلى استشهاد مجاهدين اخرين وإصابة فلان وفلان، فقال الجعبري حينها «اللّه يبشرك بالخير، هذا موسم فلاح فماذا نستطيع أن نقدم لله سنجده في حسابنا عنده؟ لقد كان راضيًا بقدر اللّه ومطمئنًا له مسلما لأمره».

كان كثيرًا ما يقول لقيادة العمل: «أنا أيها الإخوة جندي في هذه الحركة فضعوني حيث شئتم».. وفي إحدى المقابلات سئل عن منصبه في الكتائب فأجاب: «أنا ليس لديّ أيّ منصب، أنا مجاهد مقاتل في سبيل اللّه، أعمل أينما يكون هناك ميدان عمل وجهاد في سبيل اللّه، فسأكون فيه مقاتلا مجاهدًا مثلي مثل الآخرين من المجاهدين، نحن في كتائب الشهيد عز الدين القسام ليس لدينا مناصب، أو مسميات شرفية بل مناصبنا في ميدان العمل، والقتال».

وصدق ابن الجوزي حين قال: «إن الدنيا فخ! والجاهل بأول نظرة يقع. فأما العاقل المتقي. فهو يصابر المجاعة، ويدور حول الحَب. والسلامة بعيدة. وكم من صابر اجتهد سنين. ثم في آخر الأمر وقع! فالحذر الحذر!! فقد رأينا من كان على سنن الصواب. ثم زل على شفير القبر».

رابعاً: البصيرة والثقة العالية

لعل أجمل ما نختم به حديثنا عن قيادة هذا المجاهد هو موقف لن ينساه القادة أنفسهم حين زار وفد من جماعة الإخوان المسلمين قطاع غزة وطلبوا أن يزوروا المكان الذي كان يرابط فيه الشهيد القائد نزار ريان، فكان في الوفد الذي اصطحبهم إلى هناك عدد من قادة حركة حماس ومن بينهم الجعبري، ووقفوا هناك في شمال قطاع غزة في منطقة تُرى منها مدينة عسقلان المحتلة فتحدث إليهم الجعبري وقال: نحن الآن عند الساعة الواحدة والنصف منتصف الليل، وأقسم بالله العظيم لو أردنا أن نشرب القهوة في عسقلان عند الساعة السادسة لفعلنا ذلك» وهذا دلالة واضحة على الثقة بنصر الله وبجنده وطمأنهم قائلا: «بإمكانكم أن تراهنوا على كتائب القسام وحماس فنحن بخير ومقاومتنا بخير».

لقد صدق الرافعي يوم قال: «الذي يحيا بالثقة تُحييه الثقة»...! ولقد أحيت الثقة القائد الكبير وأحيت مئات من الناس بعده.



ولقد كان مؤمنًا بنصر الله واثقًا من قدرة الله على تحقيق ذلك من خلال أوليائه وعباده ولطالما ردد قائلا: «إن عيوننا ستبقى دومًا صوب القدس والأقصى، ولن تنحصر داخل حدود غزة، وإن مشروعنا المقاوم سيمتد كما كان دومًا إلى كل أرضنا المغتصبة، إن عاجلاً أم أجلاً، ولم ولن يسقط من حساباتنا أي خيار ممكن من أجل تفعيل المقاومة وتحرير الأسرى وقهر العدو الغاصب المجرم، وما دام الصهاينة يحتلون أرضنا فليس لهم سوى الموت أو الرحيل».

الموعد: الجنة

يا سيدي.. أن الجهاد عبادة..

وأن بساط الدماء امتداد.. لكل صلاة وكل دعاء وكل نداء وكل إرادة!

وفي حضرة الشهداء يظل الكلام لهم.. وكل وقود سوى دمهم لا يضاء..

وكل قصيدة سوى شعرهم مختلق.. ولولا الدماء نكون جميعًا سواء!

صدق الجعبري ربه.. وصدق في خطواته.. وصدق في كل عمره.. وصدق إذ قال: (إننا نحرص على الموت في سبيل الله تعالى، وأقول دومًا هذا وطن غالٍ، وقضيتنا عادلة، والجنة غالية).



وقال -رحمه الله- بعد العودة من الحج الذى سبق شهادته بأيام معدودة (أنا أعيش في الوقت الضائع وقد أعطاني الله عمرًا زائدا عن عمري الافتراضي فالشهادة بالنسبة لي أمنية وتحفة وأمل بعد هذا العمر المديد الذي لم

ينقطع فيه العطاء للحظة).. أمنية جاءته تتهادى مثل عبير الفردوس الأعلى. تشتاق وتشتهي له الخلد رحمة ومستقرا. ولقد سعت إسرائيل بكل طاقتها كي تتخلص من هذا البطل مبكرًا لكن الآجال لها أقدارها وللجنة مواعيد.

فلقد كانت أولى محاولات الاغتيال 2004/8/17م حيث وصف الجعبري المشهد قائلا: «خرجت من دائرة الجلسة وكان الصاروخ خلفي ورميت بنفسي إلى الشارع ونطقت بالشهادتين ثم في اليوم الثاني أبلغوني بأن ولدك البكر محمد استشهد -رحمة الله- وأخوك حسين، فسألتهم عن فتحي أخي الأصغر مني، فقالوا أيضًا استشهد سألت عن صلاح قالوا استشهد، سألت عن علاء قالوا استشهد». وحين سئل عن شعوره بعد هذه المحاولة، وعن قربه الشديد من الاغتيال، وتربّص المحتل الدوائر به، أجاب: «هذا وطن غالٍ وهذه قضية غالية وهذه الجنة».

وشاء الله أن يحيى بعد ذلك سنوات وأعواما حيث كانت له أعمال جليلة لا بد أن تؤدى ومهام كأنما خلق لها وتلك كانت قضية صفقة شاليط.. التي ما إن تمت وتحققت أمنيات الشهيد فيها حتى أكرمه الله بالشهادة بعدها.

استشهد القائد الجعبري ومرافقه البطل محمد الهمص بعد قصف إسرائيلي لسيارتهما وذلك في يوم الاربعاء 14 نوفمبر 2012م، وعلى الرغم من أن مقبرة الشيخ رضوان مغلقة ولا يتم الدفن فيها إلا للأقارب في ذات القبر إلا أنه سمح بدفن الشهيد أحمد الجعبري «أبو محمد» قائد كتائب القسام في قطاع غزة ليلتقي بالشيخ أحمد ياسين والدكتور عبد العزيز الرنتيسي، والشيخ سعيد صيام، والشيخ صلاح شحادة الذين ترقد جثامينهم الطاهرة في ذات المقبرة فسبحان من جمعهم على غير نسب أو قرابة أحياء وشهداء.

استشهد جنرال القسام. (بزغرودة في صدره. لم يشعر في آخر خفقة. هل كانت حوريات جنان تطلقها أم كانت طلقة)!.

إن كل فلسطين لتعلم علم اليقين أن اغتيال الجعبري هو بمثابة تصفية حساب لعملية أسر الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط، والنجاح في الحفاظ عليه لخمس سنوات وإدارة ملف التفاوض بشأنه حتى تنفيذ صفقة تبادل أفرج بموجبها عن ألف أسير فلسطيني بينهم 450 من كبار الأسرى وأصحاب المؤبدات والذين ترفض إسرائيل مجرد الحديث عن الإفراج عنهم في السابق.

وقال متحدث باسم الجيش: «إن رئيس الأركان الصهيوني، بيني غانتس أشرف بنفسه من داخل غرفة العمليات في القيادة العامة على العمليات، وأن رئيس جهاز المخابرات العامة الشاباك يورما كوهن، أشرف بنفسه على الجانب الاستخباري في اغتيال الجعبري».

لكن صحيفة «هآرتس العبرية قالت: «إن إقدام الجيش الإسرائيلي على اغتيال قائد كتائب القسام أحمد الجعبري قد يكون خطأ استراتيجيًا ارتكبه الجيش. وأضافت الصحيفة في افتتاحيتها: «التجربة السابقة علمتنا أن اغتيال القيادات العسكرية والسياسية ليس فعالاً واغتيال الجعبري قد يكون خطأ استراتيجياً»، وقد أدركوا فداحة خطئهم حين درت كتائب القسام على اغتيال الشهيد بقصف عاصمتهم ،حينها أعلنت القناة الإسرائيلية الثانية: نأسف لقد قصفت تل أبيب.

«يا أبا محمد، لم يتعود التاريخ أنْ يقف إلا على أبواب الملوك وفي ساحات الملاحم، لكنه اليوم يقف على بابك وبصمات يديك على جبينه، وآثار قدميك على صفحاته، وأنت تهمس في أذنيه بقول اللواء المجاهد محمود شيت خطاب:

ثمن المجـــدِ دمٌ جُدْنَا به فانظرُن كيفَ دفعنا الثمنَا!!

العلياء ترجوك قائلة: هذا حدي قف عنده، على رسلك، ارفق بنفسك وأمسك، ونمْ قرير العين فما استطاع التاريخ إلا أن يشهد لك بالبطولة والفداء يا سيد

البطولة والفداء، ويا هؤلاء أتعرفون ما حق الشهداء عليكم؟ «إن دماء الشهداء- إذ تسيل: تكتب واجبًا على الأحياء أنْ يسيروا بلا خلاف في إتمام الشوط الذي بدأوه»[1].

يا أبا محمد، ستبقى قلوب محبيك في شوقٍ إليك إلى أن نلقاك في رحاب رب العالمين، يا من ضُوعَتْ فلسطين بعبق عطر شهادتك، فالسلام عليك في الخالدين»[2].

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم
سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.

1- فضائح الفتن -ص5.
2- إشراقات الهمّة، أبو القرع، خضر محمد، مكتبة ومطبعة دار الأرقم ،غزة فلسطين 2009م، ص231.



سيرة الشهيد القائد

رائد العطار

1974م - 2014م



ليلة إتمام الصفقة، لم أذق طعم النوم، لسببين: الأول، الفرحة للقاء أحبابنا الأسرى، والثاني حرصاً من غدر الاحتلال في الدقائق الأخيرة.





إن في فضاءات التاريخ مواسم لا تحتمل التأجيل، وفي دورة الحياة مواعيد لا تقبل التأخير، فشراع سفينة في بدء إبحارها، وحرف يرتسم في سطر حكاية ملهمة، وغيابٌ في كهف من العزلة لصناعة ذات مؤثرة، وزمن من البناء لعتبة مشروع بعيداً عن ضجيج الحياة، كل ذلك يسمى واجب الوقت، وفريضة المرحلة، التي بها تتفاضل الأعمال، وتنال الحياة معنى ثمينا، وفي زمن التقهقر وسوء الفهم ضيق مفهوم الفريضة، واختزل كل ذلك في ركيعات! ونسيت الفرائض الواجبة الملحة، وغيبت فرائض تقوم بها الأمة وترتكز عليها الشريعة، فرائض هي عماد قيامنا وبها يحفظ بقاؤنا، وتلك هي فرائض الذب عن حياض المسلمين، ولقد كان ابن المبارك أكثر فقه من كثير من الناس يوم انتبه لذلك فأرسل إلى الفضيل بن عياض قائلا له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب

لقد فقه ابن المبارك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رجلا قال: يا رسول الله عَلمني عملا أنال به ثواب



المجاهدين في سبيل الله فقال: «هل تستطيع أن تُصَلِّي فلا تَفْتُر وتصومَ فلا تُفْطِر؟ «فقال: يا رسول الله، أنا أضْعَفُ من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فَو الَّذي نَفْسِي بِيَدِه لو طُوقْتَ ذلك ما بلغتَ المجاهدين في سبيل الله أوما عَلمتَ أن الفرس المجاهد ليَسْتَنُّ في طِوَله فيكتب له بذلك الحسنات»[1]؟!

ولقد فقه هذا الأمر من بعده تلك الثلة التي صبرت وصابرت ورابطت على رعاية حقوق الله وحفظها من أن تستباح، وكان الشهيد القائد رائد العطار ممن نصب لنفسه لهذه المهمة في صمت لا يقدر عليه إلا من أراد أجره كاملا غير منقوص!

1- رواه أحمد في المسند (5/ 236).

أولاً: البطاقة التعريفية القصيرة

الاسم: رائد صبحي العطار (أبو أيمن) واللقب فيما بعد كما تصفه إسرائيل «رأس الأفعى الحمساوية» ولد في 21 أغسطس 1974م، وهو متزوج وأب لعدد من الأبناء والبنات.

بتلك النقطة تنتهي بطاقة قصيرة جدا لا يعرف عن التفاصيل الشخصية لصاحبها الكثير، يبدو معها مغمورا بين الناس ولكن بطاقته العملية تكشف عن عملاق جبار يليق به أن تقدر الأقدار أن يكون اسمه رائد العطار، فالشق الأول كان مهمته والشق الثاني كان مسك شهادته، وما بينهما سنرى له نورا يسعى بين يديه في يوم الحشر بإذن الله.

ثانياً: البطاقة العملية الممتدة

في بداية العمل المسلح للمقاومة في حماس لم يكن يمتلك الشبان في القسام من السلاح سوى بنادق صدئة من مخلفات الحروب السابقة، وهي ذات نوعيات رديئة، كبندقية «كارل غوستاف»، التي انقرضت تقريبا من العمل العسكري، كان عدد المسلحين المنتمين لكتائب القسام في كل قطاع غزة لا يزيد عن 20 شخصا، ولم تقتصر معاناة أعضاء كتائب القسام في ذلك الوقت على قلة السلاح والذخيرة، بل عانوا الويلات في توفير «المال والمأوى» وبدأت كتائب القسام عملها عام 1990م، لكنها أعلنت عن نفسها لأول مرة في 1 كانون الثاني/ يناير 1992م، حيث أصدرت بيانها الأول، وتبنت فيه عملية قتل حاخام «مستوطنة كفار داروم».

كان البطل رائد العطار من الرعيل الأول الذين انضموا للقسام، وعملوا في صفوفه إلى جانب العشرات من الأفراد والقادة، الذين نجحت إسرائيل في قتلهم، أو اعتقالهم، إلا أن الله كتب لرائد العطار طول العمر وحسن العمل،



فعمل بجد على تطوير «كتائب القسام» وتحويلها لما يشبه الجيش النظامي، كما واصل ليله بنهاره للعمل على تطوير البنية العسكرية بكل ما يملك من جهد ووقت حتى تم تعيينه قائداَ للواء رفح في كتائب القسام وعضواً في المجلس العسكري.[1]

كانت البداية تتكون من عشرين مجاهداً ثم أصبح عدد عناصر القسام في قطاع غزة لوحدها ما تجاوز العشرة آلاف مقاتل، يكونون جيشا حقيقيا تحت تشكيلات عسكرية تبدأ من الفرد والمجموعة مرورا بالفصيل والسرية، وانتهاءً بالكتيبة واللواء.

ومن بنادق صدئة من مخلفات الحروب إلي«طائرات بدون طيار»، وراجمات صواريخ بعيدة المدى، وتصنيع بنادق قنص، عالية المستوى، وتصنيع صواريخ يصل مداها إلى أكثر من 80 كيلومتراً مثل صاروخ M75 وصاروخ R160، بل أصبح جيشا بوحدات متخصصة، مثل وحدة الهندسة، ووحدة الدفاع الجوي، ووحدة المدفعية، ووحدة الاستشهاديين، ووحدة الإسناد، ووحدة الضفادع البشرية (الكوماندوز البحري).

1- http://arabi21.com/story/770535، بتصرف

ولم يكن هذا كله ليتم لولا إخلاص المخلصين وتفاني المجاهدين وتضحيات الشهداء الذين قدموا كل غالٍ ونفيس في سبيل الله.

لقد قدمت المقاومة نموذجا ملهماً للأمة كلها وأصبحت غزة أيقونة للعزة في غناء الجماهير، كانت المقاومة تحتضن فكرة التحدي الجبار، فكرة السباق الطويل وتدرك أنها ستصل إلى خط النهاية بما تملك من طاقات مكنونة، طاقات جبارة مخزونة في شبابها وعقول أبنائها، وقد أثبتت تجربة المقاومة أن الاستعداد الداخلي في جسد الأمة عال إذا أحسن استثماره وتوظيفه، وفي

حكاية تتماهى مع وعي المقاومة يذكر أنه حين سقط أحد المتسابقين بعد عشرين كيلو متر من الجهد والركض المتواصل في الماراثون عند جبال الألب، عاينه الطبيب ثم قال: ما زال هناك طاقة مخزونة في جسده، طاقة عضوية لم تنته بعد، !! وهي طاقة تمكنه من بلوغ القمة!

ولقد كان قادة المقاومة وشبابها على وعي عميق بقدراتهم فلم يتوانوا ولم يترددوا وظلت أعينهم على القمة، وبذلوا في كل اتجاه إذ يذكر عن القائد الشهيد العطار أنه اشتهر فوق انجازاته العسكرية بخدمته أبناء رفح على الصعيد الاجتماعي والمادي، وحل المشكلات العائلية. إذ يروي لنا العطار أن سيدة أوقفته قبل دخوله إلى موقع تابع للكتائب، واستنجدت به أن يأتي لها بحقها من إخوتها، الذين منعوا عنها حقها في الميراث. يقول: «لم أنتظر طويلا، هاتفت أحد رجال الإصلاح وطلبت منه الذهاب إلى إخوتها والحديث معهم بكل صرامة وأن يضعهم بين خيارين: إما أن يدفعوا لها حقها في الميراث سريعا، أو سيتدخل شخصيا ليأتي بميراثها بمعرفته»، مشيرا إلى أن الموضوع لم يخذ الا ساعات قليلة حتى وصل الميراث للسيدة.

رائد العطار أم الصمت الهادر

لو صح أن يسمى الشهيد بغير اسمه لحق له أن يسمى بالصمت الهادر فقد كان صمته في حقيقته زلزالا يدوي في قلب الدولة المحتلة، كان شابا بلا ضجيج ولكنه صنع ثورة في العمل العسكري وغير موازين القوى وخلق ضجيجا في داخل دولة العدو لن يهدأ إلا على عتبات المسجد الأقصى، فمنذ التأسيس والبدايات شارك في العمليات الجهادية وملاحقة العملاء في الانتفاضة الأولى ثم في تطوير بنية الجهاز العسكري في الانتفاضة الثانية، ثم أصبح بعد ذلك رحمه الله عضو المجلس العسكري الأعلى لكتائب الشهيد عز الدين القسام والقائد العسكري للواء رفح.[1]



ولقد كان العطار البطل ذا شعبية واسعة بين شباب القسام، وخصوصاً كتيبة رفح، وبرغم أنه من أهم المطلوبين للاحتلال، الذي أقر بمحاولة اغتياله أربع مرات خلال 2008م، الا أنه تابع بانتظام تدريبات الشباب وأشرف عليها مباشرة ولا سيما وحدات النخبة، التي جرى التركيز على تطويرها عقب نجاح صفقة شاليط.

كان العطار قد وضع جل طاقته في تدريب «النخبة» على ضرورة أسر الجنود، فكانت تعليماته لهم بتعلم اللغة العبرية، والخطوات

1- http://www.alqassam.ps

اللازمة في حال أسر الجندي، كالدخول في «الصمت اللاسلكي» والتخلص من أي وسيلة تعقب إلكترونية تكون مغروسة حتى في جسد كل جندي إسرائيلي لتحديد مكانه، مع ضرورة «اختيار الجنود من ذوي البشرة البيضاء والملامح الغربية، وتجنب ذوي الملامح العربية والإفريقية.

كما ينسب للشهيد المساهمة في تشكيل وحدة الظل المسؤولة عن الاحتفاظ بالأسرى الصهاينة وهى الوحدة التي كانت تحتفظ بالجندي الصهيوني شاليط طوال 5 سنوات.

ولقد تنبه العدو مبكراً للقيمة الحقيقية للبطل فقد ذكرت صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية في معركة العصف المأكول بأنه «الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف مصير الضابط الإسرائيلي المفقود هدار غولدين»، وجاء فيها: إذا كان هناك شخص يعرف أين الضابط غولدين فسيكون العطار لأنه المسؤول عن جميع الأنشطة العسكرية لحماس في رفح.

وأوردت الصحيفة في حينه «على مر السنين أصبح العطار أحد أقوى رجال حماس فهو مسؤول منطقة رفح بأكملها والتي يوجد بها الأنفاق التي أمدت حماس بالمعدات والمواد اللازمة لبناء القوة العسكرية.

وتتهمه الاوساط العسكرية الإسرائيلية أنه كان من بين المجموعة التي احتفظت بشاليط. وقالت أنه يعتبر أحد مهندسي مشروع الأنفاق الهجومية، ومن مؤسسي وحدة النخبة التابعة لكتائب القسام.[1]

وتقول القناة الاسرائلية الثانية في تقريرها إن رائد العطار وضع لنفسه هدفا يتمثل في خطف جندي صهيوني جديد بأي ثمن، مستندةً في ذلك إلى ما وصفته باعترافات مقاتل من حماس تم أسره مؤخرا على الحدود مع قطاع غزة.

1- http://samanews.com/ar/index.php?act=post&id=210896



وقالت القناة: «في يوم الإفراج عن جلعاد شاليط تتبعت كل دولة الاحتلال الجندي أثناء عودته من اللحظة التي ظهر فيها رجال كتائب عز الدين القسام في معبر رفح وحتى تم تسليم جلعاد إلى الجانب المصري والمقابلة التي أجراها التلفزيون المصري مع جلعاد شاليط واستقبال رئيس الحكومة الصهيونية بنيامين نتنياهو ووزير جيشه لجلعاد شاليط وحتى وصوله إلى منزله في حيفا.

وتضيف القناة: لو أن أحدًا قام بإعادة شريط الفيديو الذي يوثق اللحظات الأولى لتنفيذ صفقة شاليط، بإمكانه ملاحظة شخص حاد الملامح هادئ وفي غاية الاستعداد لأي طارئ، يمتلك عيونا مليئة بالإصرار ويرتدي ملابس عصرية جداً»، وتقول القناة «إن هذا الشخص هو رائد العطار قائد لواء رفح في كتائب القسام، وتمضي القناة إلى القول: «بالتأكيد بناء على مصادر في جهاز الاستخبارات الصهيونية فإن رائد العطار الذي قاد بنفسه عملية أسر الجندي جلعاد شاليط قبل أكثر من خمسة أعوام وبعد ذلك واصل العطار الاحتفاظ بالأسير بعد أن كلفته قيادة القسام بتأمين عملية الاحتفاظ بجلعاد».[1]

1- http://www.mepanorama.net/462302

استراتيجية المقاومة، النفس الطويل

تلك هي استراتيجية المقاومة التي تتضح عبر رموزها وعبر تصريحاتهم، فالثبات لم يكن على رمال متحركة بل على أرضية صلبة تم الإعداد لها كثيرا وفي فترة مبكرة من تاريخ الحركة الإسلامية حماس، فحين سئل العطار عن أمر أسر الجندي الصهيوني شاليط من دبابته قال : «ليس من الممكن بعد هذه التضحيات التي قدمها شعبنا وقدمتها الحركة أن نقبل بإنزال سقف صفقة التبادل، ويبدو أن العدو لا يكفيه خطف جندي للإفراج عن أسرانا والقبول بهذه الصفقة، فإن كان هذا الجندي لا يكفي فسيكون لنا جولات لاختطاف جنود آخرين لمبادلتهم بأسرانا الذين ضحوا بحريتهم من أجل خدمة دينهم وقضيتهم»! لقد وصفه ضابط رفيع في جهاز المخابرات الإسرائيلية «الشاباك» بالقول: «بالنسبة لنا الحساب مع العطار رأس الأفعى مفتوح، وطالما العطار حي سيحاول أسر جنود إسرائيليين»، ثم أكمل قوله بأنه «أكثر من مجرد مُرسل «مخربين» انه دماغ حماس العسكري والأمني، انه رجل يعمل باستقلالية تامة ويتخذ قرارات على عاتقه الشخصي وسيأتي اليوم الذي سنصفي حسابنا الطويل معه».[1]

إن قيادة القسام كانت ترى المستقبل عبر الإعداد المتين والثقة المطلقة بالله، فقد كانت تفهم معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، حيث قدمت لله الإعداد فأعانها الله بالإمداد، وجعل منها قلعة الجهاد الحصينة وقدره المبارك في فلسطين، لقد كانت كتائب القسام تملك حلمها الجليل في روح قادتها وشبابها وتسعى له سعيا فطوى لها الله العوائق طويا وجعل منها أسطورة هذا الزمان، ولعله من المهم أن نذكر أنه حين استلم ألبرت اينشتاين جائزة نوبل في الفيزياء قال: إن تخيُّل المستقبل هو كل شيء، إنه أشبه بعرض مبدئي لحياة

1- https://ar.wikipedia.org

قادمة، إنه الحكاية التي ترتسم مشاهدها في العقل، ثم تمنحك الأقدار فرصة رؤيتها في الحياة!!!، وقد قالتها كتائب القسام مرارا أن لديها ما يدهش العالم إذ كانت دوما تراهن على وعد الله الذي في عين المؤمن حاضرا كأنه حقيقة آتية عما قريب.

وهذا ما قاله العطار في رسائل قصيرة بثها خلال إحدى المقابلات وقال فيها: رسالتي للشعب الفلسطيني نوصيهم بالصبر والثبات واليقين بأن نصر الله قادم وأن بعد العسر يسرا إن شاء الله.

لقد كانت صفقة وفاء الأحرار أشبه بخيال جعلته القسام واقعا ولقد قال الشهيد العطار القائد الذي ساهم في تحقيق هذه الأمنية العظيمة: «ليلة إتمام الصفقة، لم أذق طعم النوم، لسببين: الأول، الفرحة للقاء أحبابنا الأسرى، والثاني حرصا من غدر الاحتلال في الدقائق الأخيرة».

عذابات المجاهدين هي عتبة الشهادة المنتظرة

إنّ أنين القيد في يد الأسير هو خطوة الكرامة عند الله، إذ يستحيل أن تجد شهيدا لم تسوره الأحداث بسوار السلاسل التي تبلغ به مقاعد الفضل عند الله، وكذلك كان الشهيد العطار من أبرز المطلوبين للتصفية لدى جيش الاحتلال الإسرائيلي قبل الانسحاب من غزة، وظل كذلك بعد قدوم السلطة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، إذ حكم عليه في أبريل 1995م في محاكمة سريعة من قبل محكمة تابعة للسلطة الفلسطينية (التابعة لحركة فتح) بسنتين بتهمة التدريب على أسلحة في قطاع غزة، في مطلع فبراير 1999م قُتِل نقيب في السلطة الفلسطينية يدعى «رفعت جودة» برفح برصاصة في الظهر أثناء مطاردته لثلاثة أعضاء من حركة حماس من بينهم العطار وعلى إثر ذلك وتحديدا في 10 مارس 1999م أصدرت محكمة أمن الدولة التابعة للسلطة الفلسطينية حكم



الإعدام على العطار رمياً بالرصاص، فحدثت احتجاجات شعبية على الحكم، وقتل على إثرها شابين برصاص السلطة، وبعد اتساع الاحتجاج والمظاهرات اجتمع ياسر عرفات مع قيادات في المجتمع المدني في رفح وطلب منهم استعادة الهدوء، وطلب إعادة النظر في حكم الإعدام.[1]

استطاع العطار بعد ذلك الخروج من سجون السلطة في ظل استهداف الاحتلال مواقع الأجهزة الأمنية أثناء أحداث انتفاضة الأقصى الثانية.

لقد كانت التجارب المختلفة كفيلة بصقل شخصية العطار حيث أكسبتها خبرات لازمته في المراحل اللاحقة، وخاصة في انتفاضة الأقصى التي شهدت تطوراً كبيراً في نوعية أعمال المقاومة.

وبعد الانسحاب الصهيوني من غزة وخروجه من سجون السلطة حاول الجيش الصهيوني أسره أو قتله، ويقول أحد قادة الشاباك: «إن الجيش حاول تسع مرات أسره أو قتله لكنه لم ينجح بسبب حذره، مشدداً على أن الشاباك كان في عدد من المرات قريباً من الوصول له إلا أن جميع تلك المحاولات تفشل في اللحظات الأخيرة.

وقالت صحيفة «معاريف» العبرية: «كان للعطار تسعة أرواح وكان ينام دائما في أماكن محصنة داخل الانفاق وأماكن أخرى، لعلمه جيدا أنه هدف

1- https://ar.wikipedia.org

للاغتيال منذ عام 2006م، والشاباك كان يسعى لوضعه تحت عينه ويتابعه دائما وينتظر اغتياله». وأشارت الصحيفة إلى أن وحدة الهاكرز في الشاباك وضباط تشغيل العملاء كانوا يعملون ليل نهار لمتابعته وجمع معلومات عنه، لأنه يعتبر قائدا ميدانيا أكثر خطورة من القائد العام محمد الضيف. وأضافت: «طائرات الاستطلاع نفذت جولات غير محدودة للحصول على معلومات عنه في رفح وجباليا، لكنها كانت تعود بخيبة الأمل في كل مرة».

ولفتت الصحيفة إلى أن وحدة المستعربين حاولت عدة مرات اختطافه قبل الإفراج عن الجندي جلعاد شاليط أثناء دخولها قطاع غزة، إلا أنها فشلت، لأنه كان يغير طرق تنقله بشكل دائم. وشددت على أن العطار كان لا يتحرك إلا بعد أخذ سبل الحيطة والحذر، وذلك خوفا من تسليم العملاء معلومات تدل على مكان تواجده.[1]

هذه المحاولات المستميتة في بلوغ هذا الهدف باءت كلها بالفشل لأن أجل العطار قد قضي في صحف جفت ورفعت بعدها الأقلام، باءت كل محاولات الاستخبارات العتيدة بالفشل لأن الشهيد كان في حرز الله وعنايته وكانت له مهام مقدورة لم تبلغ بعد غاياتها، وقد حقق الله له كرامة العمر في حسن العمل، قبل أن يتوج سعيه بشهادة مرضية بإذن الله.

ولقد دفع العطار ثمن هذا الجهاد العظيم من حياته الشخصية، ومن عمره، ومن أسرته فقد سئل عن أسرته خلال الحرب على غزة فقال: لم أرهم من قبل الحرب بعدة أيام واستمر ذلك في فترة الحرب، ورأيتهم بعد الحرب ب 12 يوما، فنحن معتادون على الابتعاد عن بيوتنا لفترات طويلة وذلك يهون في سبيل الله والدفاع عن وطننا وشعبنا. نحن ننطلق في ثباتنا على هذه الأرض من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

1- http://alresalah.ps

ولقد سئل العطار أن: «إسرائيل حاولت في عدة مرات قتل رائد العطار، لكنها فشلت، وكانت آخر محاولة بُعيد اغتيال نائب القائد العام أحمد الجعبري، فماذا تقول؟ رد القائد البطل بعد ابتسامة عريضة رسمها على محياه: «ملناش نصيب، مع أنه كنّا قبلها بأيام راجعين من السعودية، بعد أن أدّينا فريضة الحج، وكان أملنا أن نلقى الله بعدها».

يقين في صمود

في قاموس الكلمات المحرمة في عالم العظماء، كلمة لا أستطيع، وكلمة مستحيل، وكلمة أريد أن أتوقف، في نوع من التدريب العقلي والبرمجة النفسية لصناعة قدرة لا تحدها التحديات، بل تستثيرها الصعوبات، وقد عبر مالك شركة فورد عن هذا المعنى التربوي بقوله: لو أني أحظى برجالٍ ليس في عقلهم من المعلومات إلا كلمة: أنهم يستطيعون لغيرت وجه الاقتصاد العالمي!

لقد كان قادة المقاومة الإسلامية ليس في يقينهم إلا موعود الله بالنصر ولو بعد حين، تسمع ذلك في وقع خطواتهم، وفي ثباتهم، وفي رؤيتهم للقادم، فها هو القائد الشهيد العطار يترجم ذلك كله في رسائله المهداة إلى إخوانه المجاهدين فيقول:



وأما رسالتي إلى إخواني المجاهدين فأقول لهم:

أولاً: إنكم بتم طليعة هذه الأمة، وأن الأمة العربية والإسلامية ينظرون إليكم على أنكم رأس الحرية والجهاد في الدفاع عن

حياضها، فعليكم بمزيد من الثبات والصمود والتوكل على الله تبارك وتعالى لأنه بجهادكم وصمودكم تحيوا فريضة الجهاد في نفوس المسلمين هذا أولا.

وثانيا: نوصي الإخوة المجاهدين العمل على ألا يكون الهدف من جهادهم هو الاستشهاد وحسب واجعلوا غايتكم تكبيد العدو الخسائر من قتل وتنكيل ورعب وأسر وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111].

وأيضا نوصي الإخوة المجاهدين بالسمع والطاعة لقيادتهم، والابتعاد عن مجريات الساحة الداخلية من مشاكل تلهيهم عن رسالتهم الجهادية، كما نوصيهم بشعبهم خيرا لصموده وثباته وتحمله الصعاب وأن يكونوا حماة له من أي ظلم يقع عليه، ولتعلم أخي المجاهد أنك حارس لدينك وممثل لإسلامك فلا يؤتين الإسلام من قبلك.[1]

إلى جنة عرضها السماوات والأرض

يا شهيد، أتسمح لي أن أمر ببابك؟

أتقبلني لحظة في رحابك؟، لألثم حيث هوى السيف أقبس بعض الشعاع

لأقرأ بين يديك اعتذاري، لأحرق في الكلمات الحزينة عاري

لأشعر -لو لحظة – أنني آدمي، وأني بظلك صرت الشجاع!

كأنك طيف عابر أدى مهمة ثم رحل، إلى حيث المنزل الأعلى، إلى حيث المأوى، إلى حيث ينتظرك من سبق!

حين حان أجل العطار تمكن أعداء الله منه لقد شرح أحد مسؤولي «القسام» كيفية آلية الوصول إلى القائد الشهيد بقوله: «إن الخطأ الذي ارتكبه أبو أيمن

1- http://www.ikhwanwiki.com

هو إصراره على الخروج (خلال الهدنة) من مكانه، فذهب ليقبل رؤوس شباب وحدات النخبة القسامية الذين أسروا الجندي الصهيوني غولدن، مضيفاً: في تلك اللحظات استطاع عملاء الاحتلال تتبعه إلى أن وصلوا إلى مكانه».[1]

وفعلا في هذه الأثناء تواصل الشاباك مع الجيش وأبلغه عن المكان ووجود الفرصة الذهبية لاغتيال ثلاثة من كبار قادة القسام، فتحرك الجيش فوراً وخلال دقائق حلقت طائرات f16 فوق المكان وحددت المنزل بمنطقة تل السلطان بمدينة رفح وقصفته بـ 12 صاروخاً. أي ما يعادل قنبلة تزن 2 طن مما أدى إلى تدمير المنزل بالكامل وارتقاء الشهداء الثلاثة العطار وأبو شمالة وبرهوم وكان ذلك في 2014/8/21م.[2]

تلقت والدة الشهيد الخبر بالزغاريد وهي تقول: «حياة ابني كلها جهاد، والشهادة شرف لنا».

أواه يا شهيد، كأنك المعني بكلمات الشاعر

وترعرعت على الجرح، وما قلت لأمي ما الذي يجعلها في الليل خيمة

أنا ما ضيّعت ينبوعي وعنواني واسمي، ولذا أبصرت في أسمالها مليون نجمة!

أما زوجته وأم طفليه فقالت: «بموت العطار لا تنتهي حماس، وشعبنا ولّاد، وسنبقى على درب الشهادة حتى لو استشهدنا كلنا». هذه كلمات تسطر في سفر العظمة لزوجة القائد الشهيد، وليذكر التاريخ أن وراء ثبات المقاومين نساء تقلدن مهاما تشفق منها الجبال في رسوخها، ليذكر جيلنا الآتي مساربه إلى البيت!

1- http://www.al-akhbar.com/node/233512
2- http://www.wattan.tv/news/102518.html

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الأحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت

فلسطينية الصوت فلسطينية الميلاد والموت
حملتك في دفاتري القديمة نار أشعاري

حملتك زاد أسفاري

وباسمك صحت في الوديان خيول الروم! أعرفها وإن يتبدل الميدان!

تقبل الله الشهداء في عليين وجعلنا على خطاهم
سائرين غير مبدلين ولا مغيرين.



سيرة الشهيد القائد
محمد أبو شمالة
1974م - 2014م



لعل هذه الجراح تكون المنجية عند اللّه (تعالى)، وتكون شاهدة على مسيرة الجهاد..





يولد الشهيد ألف ألف مرة ولا يموت.. يربو مثل زكاة، وكلما سكب الدم امتدت أغصانه وتجذر له البقاء.. يغتالونه فلا يبلغون مدى روحه ويصبح بعد الموت غيمة.. الشهيد يظل ينسج من تضحيته ما يحفظ به وعد الله في الأرض.. الشهيد هو من سهر على رعاية الحقيقة، من اغتيال العابثين وأشعل قناديل الليل بدمه..

الشهيد أتقن فن البطولة.. والبطولة هي أن تطوف منفردا حول الغايات الكبرى والناس غرقى في الطوفان حول ذواتهم وشهواتهم.

البطولة أن تصنع مع رفقة يشبهونك روح أمة بأكملها..

البطولة أن تنتصر على الهامش وتصنع المتن والنص من حكايتك!

البطولة أن ينتصر الثبات على التهميش والإلغاء!

البطولة أن لا تأذن لليل أن يطفئ النهار!

وكل شهيد هو بطولة في ثباته على البقاء رغم موته!

وقد قيل .. إذا أردت أن تبني أمتك تخطى توقعاتك.. وتخطى توقعات العدو! .. وهذا ما انتهجته حماس عبر قيادتها وخططها وشهدائها.. لقد ارتكزت المقاومة المباركة دوما على عنصر المفاجأة والمباغتة



وتجاوز المألوف ولذا بقي العدو في ارتباك دائم أمام المقاومة.. وسعى لاغتيال القادة السياسيين والعسكريين رغبة منه في إبطاء عجلة التطور وإشغال الكوادر بفجيعة الفقد وبلبلة التفكير العام وتشويش الخطى.. لكن المقاومة تنفي عن أبنائها الخطى التائهة وتعرف بوصلتها بلا غبش..

هل أنقص فرعون من ركب الإيمان يوم صب دماء الشهداء في جذوع النخل؟

هل اشتعلت النار في الحقيقة وأحالتها رمادا يوم حفر الأخدود وهيج الظالمون النار ذات الوقود؟

هل ضر الحق أبو لهب وامرأته حمالة الحطب؟

إن العدو الصهيوني وهو يسعى إلى اغتيال القادة وسجن المجاهدين وحصار المقاومة وإعاقة حركة التحرر ونفي الشباب ومنع الإمداد المالي فإنه يسلك بذلك سبلا يائسة قد سلكها من قبله كل الظلمة فما كان ليجدي معهم نفعا.. والتاريخ يشهد بذلك وما زمن الظالم في معركة دفن الحق إلا مثل سحابة صيف سرعان ما تنقشع وتعلن السماء حضورها بلا ريب؟

وفي السطور التالية حكاية شهيد صمد حتى القطرة الأخيرة في حماية أسوار الحق والدفاع عن مقدسات الأمة.

خطوة البدء

ولد الشهيد محمد إبراهيم صلاح أبو شمالة «أبو خليل» المعروف بقائد الإمداد والتجهيز في كتائب الشهيد عز الدين القسام، عام 1974م في مخيم (يبنا) للاجئين جنوب مدينة رفح بقطاع غزة، ومثل أي مولود فلسطيني في مخيمات التهجير القسري التي ظن الاحتلال أنها ستحيل مستقبلهم إلى شتات دائم لا ينتهي .. وستصنع منهم كومة من الرماد المحروقة بنار الظروف وقسوة الأحداث .. إلا أن هذا المولود كان في قادم أيامه أحد الذين جعلوا من حتمية البقاء الإسرائيلي رمادا لا جمر له .. وموقدا تنتهي في دخانه أسطورة الحكاية!

شارك الشهيد منذ أولى خطواته ومنذ بداية تشكله النفسي والفكري في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي في الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وكان ذلك من خلال رشق الحجارة، وتنظيم المظاهرات، والمسيرات، وتحريض السكان على المقاومة، وكتابة الشعارات الحماسية على الجدران.

ويُعد الشهيد أبو شماله من الرعيل الأول لكتائب القسام الذين تزينت بهم ساحات العز والجهاد وتشرف بهم الوطن الحبيب، وأذاقوا العدو الويلات وجرّعوا جنوده المرارة ما يزيد على 24 عاماً.

فقد بدأ الشهيد مشواره مع المقاومة بانتمائه لكتائب الشهيد عز الدين القسام -الجناح العسكري لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)- في بداية التسعينيات مع القائد محمد الضيف، وقاد العديد من العمليات «الجهادية» وعمليات ملاحقة وتصفية «العملاء» في الانتفاضة الأولى، وشارك في ترتيب صفوف كتائب القسام في الانتفاضة الثانية، وتولى قيادة عمليات حماس في القطاع الجنوبي، وفي منطقة رفح وخان يونس.



وقد عين فيما بعد نائبا لقائد لواء رفح جنوبي لقطاع غزة، وأصبح عضوا بالمجلس العسكري الأعلى لكتائب القسام، وأوكلت له قيادة دائرة الإمداد والتجهيز.

عظمة التأسيس

كان قادة الكتائب نموذجا حقيقيا لهذه العظمة الهائلة فقد نجح أبو شمالة والعطار وبرهوم وبقية القادة خلال عملهم في كتائب القسام في تحويل الجهاز من مجموعات مقاتلة إلى جيش محترف، وليس بأدل على ذلك من عدم قدرة الجيش «الإسرائيلي» على هزيمة القسام على مدار ثلاث حروب شنها على غزة خلال 5 سنوات. حيث نجحت كتائب القسام في تطوير قدراتها الذاتية، ونظام تسليحها بشكل فائق، رغم أنها كانت قد بدأت عملها بأسلحة بدائية، وانتهى بإعلانها امتلاك «طائرات بدون طيار»، وراجمات صواريخ بعيدة المدى، وتصنيعه بنادق قنص عالية المستوى ويصنّع «القسام» اليوم صواريخ يصل مداها إلى أكثر من 80 كيلو متراً مثل صاروخ M75 وصاروخ R160.

تاريخ التضحية



قلما تجد شهيدا لم يدفع ضريبة البطولة مبكرا .. ولم يقدم قرابينه للّه قبل سفح الدم وبيع الروح لصاحبها .. حتى كأن الشهادة هي التوقيع الأخير على صك البيعة للّه والسطر الأخير في سجل من التضحيات العجيبة .. ولقد كانت خطى «أبو شماله» تتلمس آثار الشهداء في الدنيا وتنحو منحاهم وكان في ذلك يطبع قدميه بطابع الخلود الذي لا يفنى ..

إذ أمضى الشهيد البطل في سجون الاحتلال تسعة أشهر بين التعذيب والتحقيق.. ثم أصبح من أبرز المطلوبين لأجهزة المخابرات الإسرائيلية منذ عام 1991م، وفي سجون السلطة الفلسطينية سجن لثلاث سنوات ونصف السنة.

و في يوم الأربعاء بتاريخ 1999/3/10م حكمت محاكم السلطة على الشهيد «أبو شمالة» بالمؤبد مع الأشغال الشاقة، وعلى زميله رائد العطار بالإعدام لاتهامهم بقتل أحد ضباط السلطة والذي تبين انه قتل برصاصة في الظهر،فخرجت مظاهرات عارمة بمدينه رفح بعد صدور القرار الظالم بحقهم، وأدت الاحتجاجات على الحكم إلى سقوط عدد من الشهداء برصاص أمن السلطة، مما أدى إلى تدخل قيادة السلطة لإلغاء الحكم.

بعدها نجا الشهيد من محاولتي اغتيال؛ كانت الأولى عام 2003م عندما تعرضت سيارته لقصف جوي، وأصيب بجراح بعد أن قفز منها بالقرب من المستشفى الأوروبي بين مدينتي رفح وخان يونس، والثانية عام 2004م عندما



اجتاحت قوات الاحتلال مخيم يبنا، وحاصرت منزله ودمرته بعد أن فشلت في النيل منه.

ولم يسلم منزله الذي يقع في منطقة الشابورة وسط مدينة رفح من القصف والتدمير مرات عدة، كان آخرها أثناء العدوان الإسرائيلي الأخير 2014م.

أوسمة الشرف

عظمة الشخص تكمن في قوة إيمانه بأفكاره... ثم في استخدامه للمواهب الممنوحة له من الله.. ثم في قراره الشخصي أن لا يظل في وسط الزحام وأن لا يتوقف في منتصف الطريق..

ولقد نال «أبوشماله» بسعيه الدؤوب الكثير من أوسمة الشرف رغم كل الظروف التي تحيط بالمقاومة ومنها:

1- قتل ضابط إسرائيلي في رفح عام 1994م.

2- التخطيط لعمليات من خلال حفر أنفاق مفخخة عام 2004م.

3- تخطيط العملية التي وقعت في معبر كرم أبو سالم (جنوب القطاع) عام 2008م، حيث تم تفجير سيارات دفع رباعي وسيارات مفخخة، مما أدى إلى إصابة 13 جندياً.

4- التخطيط لعملية (الوهم المتبدد) في منطقة كرم أبو سالم عام 2006م والتي قتل فيها جنديان، وأسر خلالها الجندي جلعاد شاليط (الذي أطلق سراحه عام 2011م) عبر صفقة وفاء الأحرار.

5- المسؤولية عن تسلل 13 قساميا عن طريق نفق إلى منطقة صوفا جنوب شرق القطاع.

6- أشرف على العديد من العمليات الكبرى مثل عملية براكين الغضب ومحفوظة وحردون وترميد.

7- وتتهمه إسرائيل كذلك ببناء منظومة عسكرية واسعة في رفح، والمسؤولية عن التخطيط المستمر لأسر جنود إسرائيليين لمبادلتهم بأسرى فلسطينيين.

عبير المسك في سيرة الشهيد

يقول طاغور: (نحن ندنو من العظمة بقدر ما ندنو من التواضع).. ولقد دنا أبو شماله منها دنوا عاليا .. إذ تحدثنا زوجة الشهيد «أبو شمالة» عن زوجها حين أصيب في قدمه وفي مفاصله وفي ركبته وفي رأسه وأذنه وظهره وفي كل أنحاء جسده فتقول: «لا يوجد موضع إصبع في جسد أبي خليل إلا كان فيه ضربات وآثار غرز وجراح، لكنه كان يقول: لعل هذه الضربات تكون المنجية عند الله (تعالى)، وتكون شاهدة على مسيرة الجهاد».. هكذا يرى جراحه بكل تواضع بين يدي الله ..

وتتابع أم خليل: «أنا أَعُد «أبو خليل» من منظوري الشخصي، ومن منظور الأصحاب والأحباب والناس الذين شهدوا له؛ بمنزلة خالد بن الوليد لهذا الزمان، فقد كان جسده مليئًا بالضربات والطعنات والجراح، إثر عمله الجهادي الطويل على مر 25 عامًا».

ويحدث من عرفوه عن كرم نفسه وسخاء يده بأنه ذات يوم بعد أداء الصلاة في المسجد وعند باب المسجد تحديدا وجد محمد امرأةً كبيرة في السن تسأل حاجتها، فوقف يسألها عن حالها وأفرغ بعدها كل ما في محفظته في يدها

وطلب منها عنوانها، وقال لها: لا أريد أن أشاهدك تجلسين للتسول بعد اليوم في أي مكان.. ليس غريبًا عليه أن يضحي بمصروف عائلته لأيام وربما أسابيع، وهو الذي ضحى بأوقاته وعمره دفاعًا عن شعبه وأمته، ولم يكن يقبل أن يرى أي شخصٍ من أبناء شعبه مكسورًا أو ذليلًا فهو طالب عزة لدينه ووطنه وشعبه.

ولعل غاندي صدق في قوله: (يصبح الإنسان عظيما بالقدر الذي يعمل فيه لأجل أخيه الإنسان.. ولا يقدر على ذلك إلا القلائل!)

مقام العظمة

انتهت حياة الشهيد «أبوشماله» بالاغتيال فعلى مدار سنوات النضال الفلسطيني اعتمد الاحتلال البريطاني ومن بعده الاحتلال الإسرائيلي اغتيال القادة الفلسطينيين سياسة له، سواء كان هؤلاء القادة مقيمين داخل الأراضي الفلسطينية أو خارجها، وتميزت بعض هذه الاغتيالات بأنها جماعية لبعض القادة ،وقد سجل التاريخ مجموعة من حوادث الاغتيال التي وقف وراءها الاحتلال البريطاني أو الإسرائيلي ونال فيها من ثلاثة قادة فلسطينيين في عملية واحدة.

كانت ثلاثية الدم الفلسطيني تعيد نفسها بعد 85 عاما حين استشهد محمد جمجوم و فؤاد حجازي وعطا الزير عام 1929م، ففي فجر الخميس 2014/8/21، خلال الحرب تحرك أبو شمالة من مخبئه ودخل منزلاً لمقابلة بعض إخوانه المجاهدين وصلت معلومات إلى الشاباك عن تحركات أبو شمالة ورفاقه، فتوصل الشاباك مع الجيش وأبلغه عن المكان فوجدوها الفرصة الذهبية لاغتيال ثلاثة من كبار قادة القسام، فحلقت طائرات f16 فوق المكان وحددت المنزل وألقت عليه ما يوازى 2 طن من القنابل مما أدى لتدمير المنزل بالكامل في

حي تل السلطان غرب مدينة رفح، واستشهد الابطال الثلاثة أبو شمالة وزميلاه رائد العطار ومحمد برهوم، حيث تعانقت أرواحهم بمن سبقوهم من الشهداء الأبرار.

كان الشهداء درع رفح وبهجة نفوس أبنائها وأبناء الوطن وحين الحزن كنا ننتظر صوت صفير صواريخهم أو وقع رصاصاتهم أو صدى ديناميت رجالهم، إن أفراحًا كثيرة صنعها أبوشماله مع رفيق دربه العطار دخلت كل بيتٍ فلسطيني بل وبيوت أحرار العالم، وساهما في تحرير أكثر من ألف أسير فلسطيني من سجون الاحتلال في فرحة قلما عاش الفلسطينيون مثلها.

لم تكن بساطة المظهر والهندام تستطع إخفاء الهيبة والوقار التي تلمسها كل من شاهده، حيث وقف وسط المعركة في وجه اللهيب حين تراجع أصحاب الرتب والنياشين، رفعت شعار النصر أو الشهادة، وكنت تعمل للأولى وتتمنى الثانية.

من داخل صندوق مخصص لحفظ الهدايا الثمينة أخرجت زوجة الشهيد منديلًا عليه بقع حمراء احتفظت به، وبينت أن هذه البقع هي دماء زوجها الشهيد أبو شماله، وقالت: «هذا المنديل مبلل بدماء محمد، بقي مدة أكثر من عام وهو يفوح برائحة المسك، وهذه الدماء ستبقى رسالة حاضرة وحية وشاهدة على عدوان الاحتلال الغاشم وعلى جبنه، وتبقى شاهدة على أننا نرقب الثأر لروحه ودمائه الزكية، ولنبقى دائمًا على استعداد كل لحظة إلى الانطلاق خلف خطوط العدو، ونأخذ بثأره من نقطة صفر».

أصرت (أم خليل) على بناء المنزل الذي هدمه وقصفه العدو الصهيوني عدة مرات كما كان، وتقول: «إن في ذلك لرسالة قوية إلى العدو الصهيوني، أنه مهما حاول أن يغتالنا ويقصف بيوتنا ويهدم فرحتنا ويسرق أزواجنا ويُيَتم أولادنا؛ فإننا صامدون ثابتون ماضون على طريق المقاومة، وتكمل قائلة: «هو رباني وأبنائي وأسسنا، كيف نذكره إذ إننا لا ننساه؟!»

أبو خليل لم ينس، ولن يُنسى إلى أن نرتقي بإذن الله شهداء، نلتقيه في جنات الفردوس الأعلى».. ثم تقول: «إن ذكرى فراقه مؤلمة، لكن ألمها ليس بالشهادة أو التضحيات أو التاريخ الجهادي الطويل، وإنما ألمها في فراق أناس نعدهم من زمن الصحابة».

يَا مــنْ ضَـرَبَت لَنَـا المِثَـال مضحياً   وَأرَيْـتَـنَـا صَـورَ الجِـهَـادالأُولى
يَــا مُؤمــنًا كَــانَتْ حَياتُـكَ قُدْوَة   سَتَظَلُّ رُوحُـكَ فِي الطَّريقِ دَلِيلاً
نَــمْ يَــا زَكي الدِّين إنَـكَ خَـالِدٌ   مَــا كَانَ ذِكْــرُكَ يَا أَخِي لِيَزُولا
نَــمْ يَــا شَهِيـد الحَق مَسْرُورًا فَقَدْ   كَــانَ المَنَــامُ عَلَيكَ قَبـلُ ثَقِيـلاً
وَانْعَــم يَلقَــاكَ الرَّسُــولُ مُحَمَّدًا   وَبِوَجْـهِ رَبِّــك رَاضِـياً مَــقْـبُولا

تقبل الله الشهيد في عليين وهنيئا له أفراحه
في صحبة الصديقين والنبيين.

الخاتمة

لقد كان قلمي فقيرًا، فأزهر مداده يوم انسكب حروفًا عن الشهداء، لطالما ظننت أنا ارتقينا بذاتنا وأننا عرفنا رسالتنا في هذه الحياة، ولكن أخبار هؤلاء الشهداء جعلتنا ندرك كم هو البون واسع بين قولٍ يصدقه فعل، وبين ان تملأ الدنيا صراخاً بلا حراك، نعم الفارق كبير بين وصف الجنة ومذاق الجنة !

لقد أوقفنا الشهداء على منصة الحقيقة، وكشفوا عن بصائرنا وجعلونا ندرك أن الحبو هو خطوتنا الحقيقية في هذه الدنيا!

لقد جالسناهم واحدًا واحدًا وعشنا تفاصيل جهادهم، وتألمنا مع كل قذيفة، أو رصاصة أصابت أبدانهم. غضبنا لأجلهم وتمنينا لو كنا لبنة تصد عنهم الموت؛ حتى تظل هذه الأرواح الكبيرة شموسًا لأمتنا.

ومع نهاية كل سيرة - عفوًا - فإن سير الشهداء ممتدة في عمق الزمان، ومتجذرة في ذاكرة كل إنسان حر، وفي خاتمة كل سيرة كنا نسأل الشهيد هل هو راضٍ عما قدمنا عنه؟ وهل كانت الحروف تليق بمقامه؟ لست أظن، بل أشك أن ثمة لغة لبشر تقدر أن تفي الشهداء حقهمّ!!!

نعتذر من الشهداء الأكارم عن التقصير في حق سيرتهم وكم تمنينا لو رسمنا لكل شهيد لوحة خالدة، تمنينا لو كان الدهر لنا وقتا وجعلناه في وصف من اعتلوا إلى الفردوس الأعلى.

شكراً لكم شهداءنا إذ رحلتم بنا إلى زمن الجنة.. إلى الشهداء الأحياء.. إلى من نرجو أن يذكرونا بالشفاعة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون الا من رحم الله.

فرأيته وعليه من حلـل... الدِّمى أبهى وشـــاح
وجبينه المشجوج يحكـي... للدنى قصص الكفــاح
وجراحه عطراً يفـــوح... كأنه ورد الأقاحـــــي
وهَمَتْ على خدي الدموع... فقلت يـا روحي وراحي
هلا رحمت قلوبنـــا... فعدلت عن هـذا الــرواح
فأجابني البطل المسَجَّـى... هـازئـاً بـي باقتـراح
كفكف دموعك ليـس... في عبراتك الحرى ارتياحي
هذا سبيلي إن صدقـت... محبتي فاحمل سلاحـي

نسعد بسماع رأيكم ونقدكم البناء على العنوان التالي :

elraya1tr@gmail.com

هذا الكتاب

كتاب تربوي أدبي يروي سير القادة الشهداء على أرض فلسطين، وهو ليس كتاباً تاريخياً لسرد حياة الشهداء بكل تفاصيلها ودقائقها، وإنما هو انتقاء لمراحل ومواقف من حياتهم، وتسليط الضوء عليها بناءً على قيم الدين الاسلامي العظيم التى تحققت فى حياتهم، وكانوا نماذج لها تسير على الأرض وبين الناس. وقد تم انتقاء بعض القادة الشهداء وكل الشهداء خير منا وأكرم عند اللّه لما قدموه من تضحيات فى سبيل اللّه.

سنجالسهم في هذا الكتاب واحدًا واحدًا لنعيش تفاصيل ومواقف في حياتهم وجهادهم وسيرتهم العطرة، لعلنا نوفق إلى الاقتداء بهم والسير على خطاهم.

لقد أوقفنا الشهداءُ على منصة الحقيقة، وكشفوا عن بصائرنا وجعلونا ندرك أن الحبو هو خطوتنا الحقيقية فى هذه الدنيا!

شكرا لكم شهداءنا إذ رحلتم بنا إلى زمن الجنة.. إلى الشهداء الأحياء.. إلى من نرجو أن يذكرونا بالشفاعة يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون الا من رحم اللّه.

مركز الاعلام العربي

للبحوث والدراسات